شفيق مقار

المسيحية والتوراة

بحث في الجذور الدينية لصراع الشرق الأوسط



شفيق مقار

كاتب وباحث وصحافي وإذاعي نشرت كتاباته في مختلف العواصم العربية، واذيعت برامجه الإذاعية من القاهرة ولندن.

صدر له حتى الآن:

(١) دراسات وأبحاث منشورة:

- «تتار القرن العشرين» بداية لنظرية في الإبادة: القاهرة، بغداد.
- «باليه السلام الاميركي على مسرح الشرق الاوسط»: بغداد.
- «الذئب الآتي من عند الإله» هرتسل والصهيونية: بيروت.
- «قضية الانشقاق في الاتحاد السوفياتي ـ سولجنتسين»: بيروت.
- «الحلف الأسود: اميركا واسرائيل»: لندن.
- «الارهاب والإبادة في ظل الإله»: لندن.
- «غباء المرء محسوب عليه» ـ دراسة في مفاهيم العنصرية الجديدة: لندن.
- «مقالات في الحرية»: لندن.
- «مشكلة الكاتب والسلطة»: لندن.
- «قراءة سياسية للتوراة»: رياض الريّس للكتب والنشر، لندن.
- «قتل مصر من عبدالناصر إلى السادات»: رياض الريّس للكتب والنشر، لندن.
- «السحر في التوراة والعهد القديم»: رياض الريّس للكتب والنشر، لندن.

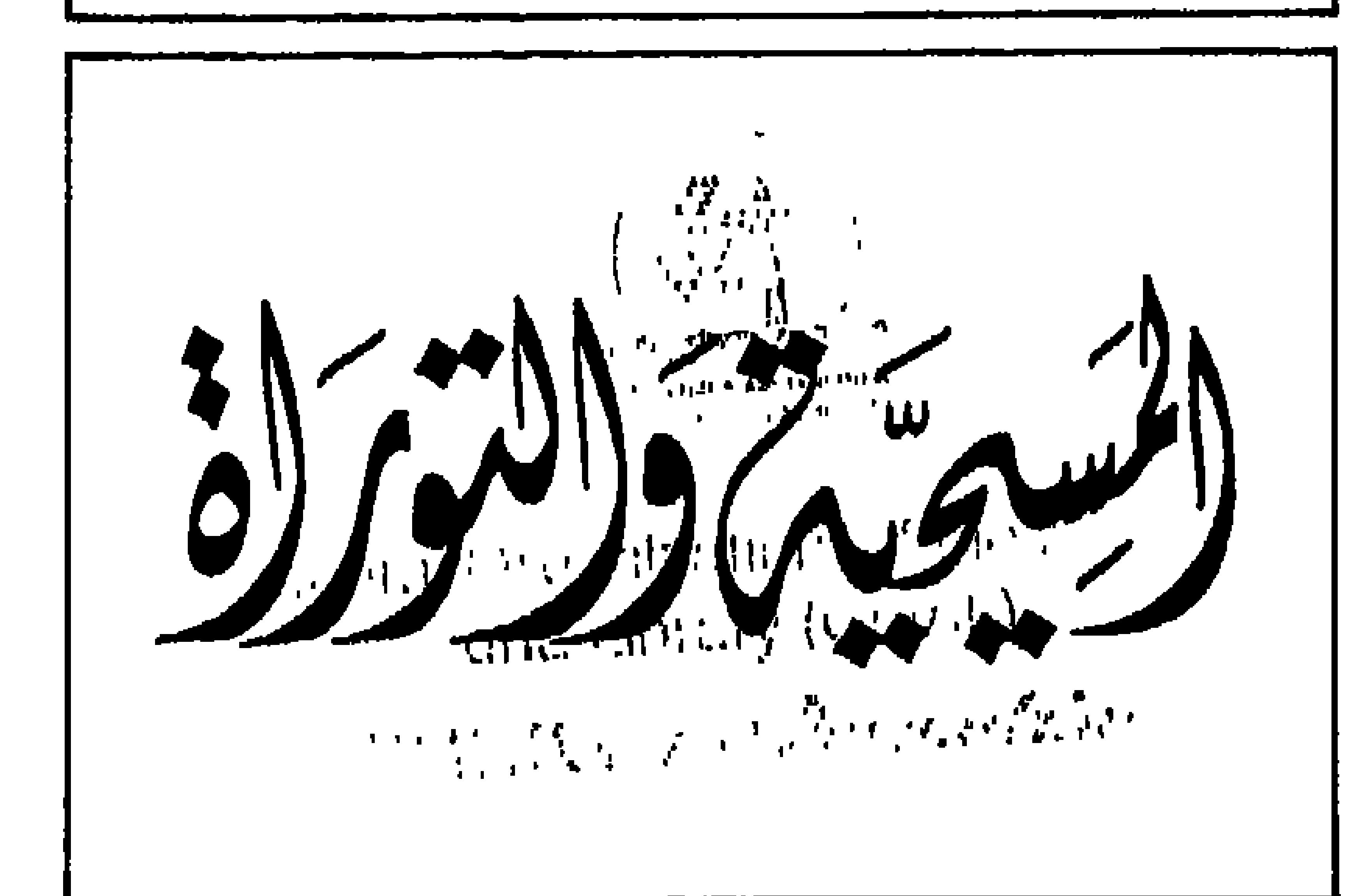
(٢) اعمال معدة للنشر:

- «الجنس في التوراة والعهد القديم».
- «التوجُّه الإمبريالي في اسس اليهودية».
- حافّة الغد ـ دراسة في الاساطير.

المسيحية والتوراة

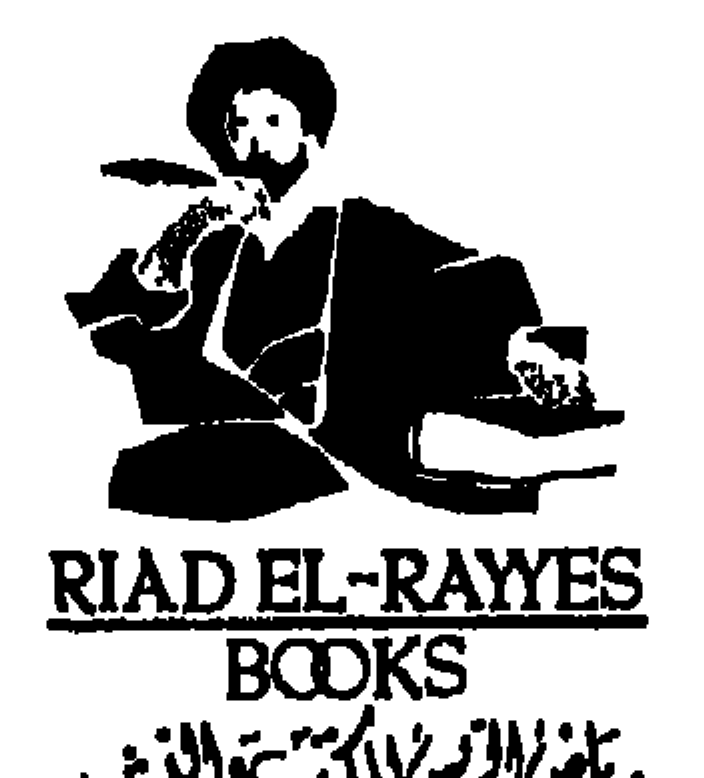
بحث في الجذور الدينية لصراع الشرق الأوسط .

شفيق مقار



المسيحية والتوراة

بحث في الجذور الدينية لصراع الشرق الأوسط



RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

CHRISTIANITY AND THE OLD TESTAMENT

by

SHAFIQ MAGAR

First Published in the United Kingdom in 1992

56 Knighstbridge London SW1X 7NJ

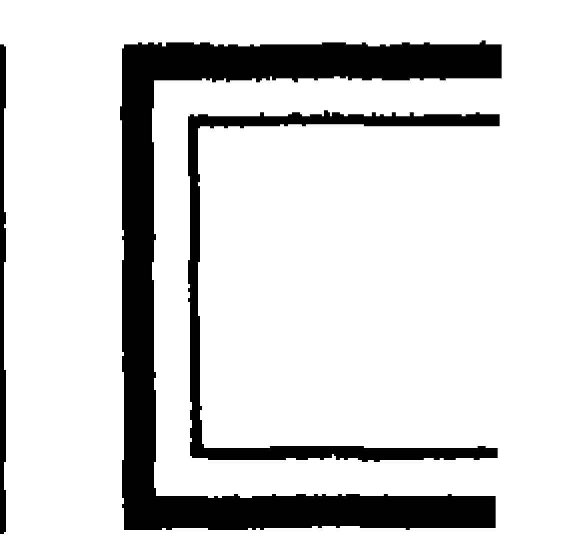
U.K.

CYPRUS: P.O. Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Magar, Shafiq
Christianity and the Old Testament
I - Title
230

ISBN 1855131269

الطبعة الأولى: آب / اغسطس ١٩٩٢



محتويات الكتاب

الباب الثالث
المسيحية تخلي المكان للمسيحانية الصهيونية

«لقد كانت مشيئتُه أن يكون إنعـامه عـلى العالم بـالدين من خلال اليهود وحـدهم دون سائـر البشر. فهم أبناؤه الأثـيرون إلى قلبه، ومـا نحن إلا الضيوف الغـرباء عـلى مـائدتهم، وقَـدَرُنا هـو أن نقنع بـأن نظل الكـلاب التي تلتقط الفتات المتساقط من مائدة أبيهم».

(مارتن لوثر في
«المسيح ولد يهودياً» ١٥٢٣)

«منذا الذي يمنـع اليهود من أن يعـودوا إلى أرضـهم في يهوذا؟ لا أحد. بل واننا عـلى أتم استعداد لأن نـزودهم بكـل ما قـد يحتاجـونـه في رحلتهم، لمجـرد أن نتخلص منهم. فهم عبء ثقيل علينا ومصيبة حلّت بنا».

(مارتن لوثر في
«عن اليهود واكاذيبهم» ١٥٤٤)

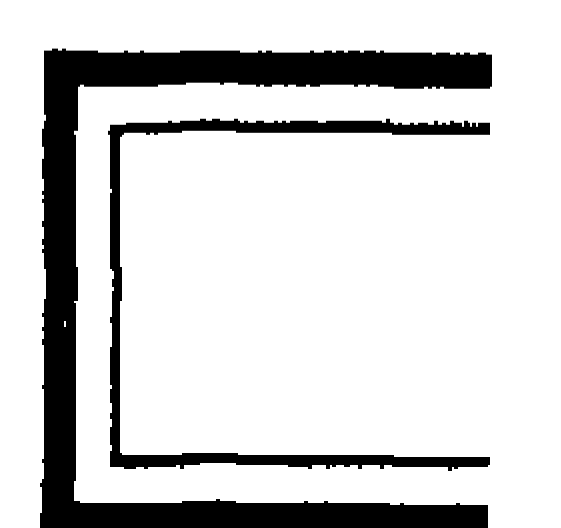
«إن العـالم مـا خُلِق إلا من أجـل اسرائيـل. وواجـب اسرائيل ومصدر جدارتها أن تعمـل بالتـوراة وتنفذّهـا. والمكان الذي قضى اللـه بأن تعيش فيـه اسرائيل وتحقق التـوراة هو أرض اسرائيـل. وهذا يعني أن مبـرر وجود العالم واستمرار بقـائه هـو إقامـة النظام التـوراتي على أرض اسرائيل».

(مجلس حكماء التوراة)

(Agudah declaration quoted by Paul Johnson in his **«History of the Jews»**, *Harper & Row, New York, 1988, p. 549)*

«إن الـزعم بـأنـه من غـير الأخـلاقيّ دوليـاً أن تؤخـذ فلسطين من العرب وتعطى لليهود زعمٌ عارٍ من الصحّـة، اللهم إلا إذا صحّ الزعمُ بأن المستوطنـينَ الأوروبيين لم يكـن مـن حقـهـم أخـذ الأرض مـن الـهنـود الحمـر ليستوطنوها ويجعلوا منها القارة الأميركية العظيمة».

(Professor Reinhold Niebuhr, one of the founders of the «Christian Council on Palestine», quoted by M. Wakefield in **«Palestine, The Human Side»** *in the September 1946 issue of* **Advance**, *p. 26).*



هذا الكتاب

ما علاقة «سفر الرؤيا» بأخذ فلسطين
ومخطط بناء الهيكل الثالث مكان المسجد الأقصى؟

كل كتاب، ككل مولود، له «بزرة». له ابتداء في الروح. له بويضة يخصبها شيء ما، أو حدثٌ ما، أو حلمٌ، أو نبأ، أو فكرة، أو حتى كلمة أو جملة عابرة تلتقطها الأذن في الطريق.

كُتُب التوراة، مثلاً، التي اكتمل منها حتى الآن مجلّدا «القراءة»، و «السحر»، أخصبَ بزرة البحث الطويل الذي أثمرها إدماني في مرحلة من مراحل العمر على قراءة «سفر الرؤيا» الذي ذُيِّل به «العهد الجديد». فتلك الرؤيا تسلّطت عليّ، ركبت رأسي، ونغّصت عيشي. وكانت النتيجة الأولى لكل ذلك كتابتي لها بعنوان «رؤيا مهنّا الطاغوطي». وعندما نشر ما كتبت، في اكتوبر ١٩٦٩، قاطعني البعض لأنهم رأوا فيه «اجتراء على الكتاب المقدّس».

وآلمني ذلك كثيراً، لأني لم أكتب ما كتبت اجتراء، بسوء نيّة وخُبث طويّة، بل كتبته انصياعاً لذلك الإلحاح الداخلي الذي يعرفه جيداً كل من استُدرِج إلى كتابة ما هو جدير بأن يُكتب: ذلك الإلحاح القاعد الصفيق الذي، متى بدأ، لا يهمد، فيواظب على السؤال ويلحف: ما الذي يجعل هذا الشيء أو هذا الشخص ما هو؟ وما الذي يجعله يفعل هذا ولا يفعل ذاك؟ ولِمَ؟ وكيف؟ ومتى؟ ولأية غاية؟ أسئلة بلا نهاية. وكل سؤال تتولد عنه، بتلقيح ذاتيّ، أشكالُ جوع لا يعرِف الشبع. وهكذا فإني - عندما استُدرِجت، فانصعت، وكتبت «رؤيا مهنا الطاغوطي»، لم أكتبها اجتراءً على

«رؤيا يوحنا اللاهوتي»، بل استجلاءً لسرِّها. كنت فقط أريد ان أعرف. وذلك فضولٌ مشروع، لولاه لظلّ اجدادنـا قردة مُشعِـرة قبيحة تهمهم في كهـوفها. كنت أريد بضع إجابات شافية لكل تلك الأسراب من الأسئلـة التي انطلقت كـانما من عش زنـابير، وظلّت تطنّ في راسي. وكـانت محاولتي، في تلك المرة، اني وضعت قدميّ في حذاء اللاهوتي، كما يقولـون، اني تقمصته من خـلال إعادة كتابة رؤياه.

ووقتهـا بدا لي اني كنت قـد نفضت يدي من تلـك الحكايـة وارتحت من إلحـاحها. لكني كنت مخطئـاً، كمـا اتّضـح لي قبـل انقضـاء وقت طـويـل. فالمحاولة التي قمت بها اعتمـدت على الحـدس وركبت حصان المخيلـة، فلم تكشف سر اللاهوتي، بل أوقعتني في حبائله.

ورويـداً رويداً، بـدا الإلحاح يعـاودني، صفيقاً اكثـر من اي وقت مضى، لحوحاً باكثر مما بدا. ودون ان أدري، وجدتني متورطاً في محاولة جديـدة، لم يخطر لي عندما افقت فوجدتني غارقاً في متاهاتها انها سوف تطـول لأكثر من عشر سنـين، وانها ستتسـع وتتشعب فتجرّني إلى دهـاليز السيـاسة في التوراة، وغوامض السحر، وخبايا الجنس، ودموية العنف في العهد القديم الذي أُلصق به عهدٌ «جديد» ذُيِّل بحاشية كابوسيـة عنوانهـا «رؤيا يـوحنا اللاهوتي».

وفي رحلة ذلك البحث التي طالت وافرخت رحلات، وجدتُني ـ كلما بدّدت المعطياتُ ضباباً، ومزّقت الحقائق نسيجَ عناكب، وازاحت المقارنـات استاراً كثيفة مخملية مشربة بمصل القداسة مسدلة بفعـل ايدٍ قـادرة، ستاراً فـوق ستار فوق ستار، بعضها بلون الليل، وبعضها بلون الدم، وبعضها قـرمزي بلـون العشق والشهوة، وبعضهـا مرصّـع بـالنجمـة كـارديـة السحـرة ـ مُستـدرجاً إلى أركـان قصيّة من المخـاوف والشهوات والخـرافات القـديمة، وكهـوف ومغارات خبيئـة، فيها عظـام نخرة وجمـاجم، وفيها كنـوز كثـيرة منهوبة.

وكما حدث لي قبلًا عندما اعدتُ كتابة رؤيا اللاهوتي، فخوصمت وقُرِّعت، خاصمني آخرون عندما نُشر أول اكتشاف قادتني إليه تلك الـرحلة المخيفـة والممتعة، «قراءة سياسية للتوراة»، لأن أولئك الآخرين راوا فيه «تشكيكاً في أسس الكتاب المقدس». ولا يخالجني شك في ان اكتشافي الثاني، «السحـر في التوراة والعهد القديم»، سوف يحدث آلاماً فظيعة للبعض، ويجعل عيـوناً

تقية مسبلة مطمئنة إلى ايمانياتها عديمة التساؤل تحملق إليّ، محمّرةً غضباً، قاذفةً شواظاً من نيران عقيدة أو اخرى، لان بحثي قادني إلى اكتشاف السحر كامناً تحت الجلد، فاعلاً فعله في الروح والعقل والضمير. أما الكتاب الرابع الوشيك، «الجنس في التوراة والعهد القديم»، فلا أريد ان افكر فيما سوف يحدثه لدى اي قابع في كهفه. لكني لا حيلة لي في كل تلك الخبايا التي تظل تكشف عن نفسها ولا تكف عن الهمهمة في السمع طالبة الخروج إلى ضوء النهار.

وهو ما يقودنا إلى هذا الكتاب. فهو ايضاً، وبشكل اساسي، بحث في خبايا التوراة وسائر اسفار العهد القديم وكتابات اليهود، وبخاصة ما تعلق من كل ذلك بعقيدة المسيح المنتظر، وما باشرته اليهودية من تأثير في معتقدات مسيحية نجدها ـ فيما يقودنا إليه العقل ومنهج البحث ـ كامنة في جذور ما يعانيه العالم اليوم، وسوف يعانيه غداً بشكل افظع، من اهوال صراعات مدمرة تتركز ـ مرحلياً ـ في منطقة الشرق الأوسط التي بدأت فيها الحكاية اصلاً.

ولقد كانت لهذا الكتاب ـ كغيره ـ بزرة هي الوعي المتعاظم في سياق البحث بالعلاقة الوثيقة بين الرسم الهندسي (Blueprint) للحركة الصهيونية واساسيات الديانة اليهودية، ومشكلة التصميم اليهودي على بناء الهيكل الثالث. وفي حالة هذا الكتاب، اسهمت في إخصاب تلك البزرة مخصّبات عديدة، اوّلها العلاقة الحميمة بين «رؤيا يوحنا اللاهوتي» وبين نكبة فلسطين ومخطط بناء الهيكل الثالث مكان المسجد الأقصى، وظاهرة تخليق ما بات يعرف باسم «اليهو ـ مسيحية» ليكون مرحلياً حلفاً يهودياً/ مسيحياً ضد الديانة التوحيدية المنافسة، الإسلام، وهو دين السواد الأعظم من سكان المنطقة الهدف الأول للحركة الصهيونية، الشرق الأوسط، وظاهرة الانتماء المسيحي من خلال ايمانيات البروتستانتية إلى اليهودية، وظاهرة احياء حركة الزيلوتية[1]، ممثلة في شيع المؤمنين اليهود وبخاصة «مؤمني الهيكل»، وتعاظم تيار الانتماء العبراني لدى المسيحيين في الغرب إلى حد الانضواء الكامل وعبادة اسرائيل، وظاهرة استشراء الأصولية الدينية لدى الغرب المسيحي، وفي الولايات المتحدة بالذات، والدور كبير الفعالية الذي يقوم به ذلك التيار الأصولي في تنفيذ وتطوير المشروع الصهيوني.

بدأت بزرة هذا الكتاب عملية الإنبات التي اخرجَت بها جنينها من

الحياة التي أوجدها إخصاب كل تلك الضروب من الوعي، بلقاء على غير موعد مع تحقيق قصير نشرته مجلة «تايم» الأميركية بعددها الصادر في ١٦ اكتوبر ١٩٨٩، اي بعد عشرين سنة من نشر كتابتي لرؤيا يوحنا اللاهوتي تحت اسم مهنا الطاغوطي.

وكان طبيعياً ان يشدّني تحقيق المجلة الأمريكية الذي نشر بعنوان «هل آن أوان بناء هيكل جديد؟» وتحته، بلغة «الكلام المزدوج» التي تجيدها الصحافة «العالمية»، عنوان فرعي يقول «اليهود التقليديون المتمسكون بالتراث يأملون في تشييد بنائهم المقدّس، لكن مسجداً وقروناً من العداء تقف في طريقهم»!

ولعل الغيظ من لؤم العنوان هو ما حرّك النفس. ولعله ايضاً ما كنت قد كتبته قبل ذلك بثلاث سنين عن فرقة الحشاشين اليهود ومخططات نسف المسجد الأقصى لبناء الهيكل الثالث مكانه[٢]. ولعله، بجانب هذا وذاك، الرغبة في الوقوف على ما يجعل الأميركيين وصحافتهم بكل ذلك القدر من الانتماء لليهود. لكن الذي حدث، على اية حال، أن بزرة الكتاب كانت قد تلقت الشحنة التي حرّكتها وجعلتها تبدأ عملية اخراج الجنين. وهي عملية طويلة ومضنية. وعملية تصطدم نتائجها دائماً بما يبدو كحائط مصمّت من الفهم المغلوط، الذي يصل إلى حد غيبة الفهم، على كل الأصعدة، للصلة الحميمة بين الحركة الصهيونية والتوراة وسائر اسفار العهد القديم، وللخطر المميت الذي تمثله الصهيونية المنبجسة من رحم التوراة والعهد القديم، ومحطتها الأولى، اسرائيل.

وذلك فهم مغلوط، او فهم غائب، ليس قاصراً على من وضعتهم «قوة الأشياء» موضع التعرّض المباشر للهجمة الصهيونية الأولى، اي العرب، شعوباً وقادة وحكومات (باستثناءات محدودة يتكاكا القوم عليها تكاكاهم على ذي جنّة، إن لم يكن بدافع الإيمان بالغيبيات فبدافع الايمان بالأصدقاء الغربيين)، بل هو فهم خاطىء أو غائب (او بالحقيقة مغيَّب) لدى السواد الأعظم من المعاصرين، مسلمين، ومسيحيين، وبوذيين، وملحدين.

وهو ما قد يفسّر ظاهرة النقمة المرورة والغيظ الكظيم تجاه اي محاولة جادة تتجاوز مدار الحذلقة الخطابية والكتابة السطحية المتعالمة المتلفّعة بعباءة التقوى والورع والشبيهة دائماً بموضوعات الإنشاء في كرّاسات

تـلاميـذ المـدارس، لتعمُّق أغـوار ذلـك الخطـر المميت والنبش في أرضيتـه الملغَّمة[3].

بطبيعة الحال، يظـل هناك عـامل الرغبة في التهـرُّب من مواجهـة واقع معاكس قبيح مهـدِّد. فممارسـة دفن الرأس في الـرمال، كـالنعامـة المشهورة مضرب الأمثال، خصوصاً متى كان الدفن في رمال الـورع والتقوى، ممـارسة يمكن اعتبـارها مبـرِّراً متصفاً بمشروعيـة ملتـاثـة مـا وطفـوليـة لـدى من ينكصـون عن مواجهـة ذلك الـواقع في تصدِّيهم بالنقمـة المسرورة والغيظ الكظيم لكـل من يُقدم على النبش في تلك الأرضيـة الملغَّمة والتسبّب بـذلك النبش غير المطلوب في إحداث زلزلة للرمال المدفونة فيها الرؤوس.

غير أنه، مع التسليم بعامل الرغبة في التهرُّب من مواجهة الـواقع، تظـلّ هنـاك وحشية ذلـك الواقـع وعدوانيتـه في وطء الرؤوس وهي مـدفونـة في الرمال. وهو ما يدفع العقل إلى التساؤل: هل الأمر أفدح من مجرد الرغبة في دفن الرؤوس في الرمـال؟ هل هـو تصميم على ممـارسة ضرب معـوجٍّ ما من الانتحار الجماعي أشبه بانتحار كل أفراد تلك الجماعة الدينية في غيانا منذ بضع سنين، ولكن على نطاق أوسع وأشد فظاعة؟ وهـل يمكن حقاً أن تنـوِّم شعوب بأكملها أو تكسر ظهورها بفعل عمدٍ من جانب من يحكمونها لحساب مخدوميهم الخـارجيـين، فتتنازل تلـك الشعوب، لا عن آدميتهـا فحسب، بل وعن رغبة البقاء نفسها، وتبيت مشتهية الموت؟

أم تُـرى المسألـة مسألـة جهل، أو مسـألة شرود ذهن مميت؟ وهـل ترى أولئـك الناس جميعـاً أقنعوا أنفسهم أو تـركوا أحـداً يقنعهم بأن حكـاية اسرائيل هذه كلها، أولاً عن آخر، مسـألة منتهيـة بفلسطين وسيسـدل ستار الختام المريح عليها بالانتهاء من الفلسطينيين؟ هل تـراهم لا يرون الصلـة الحية النابضة نبضاً كأنه دقات قنبلة زمنية كونيـة مفرطـة الفتك دفنت في أرض العالم، بين العمق الديني والدمار الآتي؟

ولكن كيف؟ ألم يتوقف أحد ليتساءل، مثلاً، عن تحدّث الرئيس الأمـيركي ريغان، بشكل غير منقطع، عن شيء اسمه «معركـة هرمجـدّون»؟ ألم يتوقف أحد ليفكر قليلاً مثلاً في الطبيعة العبرانية الصرف لشيعة الرئيس الأميركي كـارتر؟ ألم يستـوقف الانضواء الـديني اليهودي لـلأصوليـين المسيحيـين انتباه أحد أو يثير فضول أحد؟ ألم يخطر ببـال أحد أن يعـود إلى التاريـخ الطـويل من التبعيـة الروحيـة الذي جعـل الصهيونيـة المسيحيـة تسبق

صهيونية اليهود بثلاثة قرون؟ الم يتساءل احد عن مدى صحة ما يقال، «تهدئة للخواطر»، في شان ما يوصف خطأ بانه «انحيان» لاسرائيل، لا انضواء تحت جناح اسرائيل، من أن ذلك ناجم عن ضرورة ديموقراطية لا حيلة لأحد فيها تمليها طبيعة العملية السياسية ودور اصوات اليهود وتغذيها «مشاعر الذنب» تجاه اليهود نتيجة لما تعرضوا له فيما مضى من عداء واضطهاد؟ الم يخطر لأحد ان يتعمق ولو قليلاً مدى معقولية ذلك الادعاء الآخر الذي يفسِّر به «الانحيان» لاسرائيل، وهو كون اسرائيل أصلاً استراتيجياً وحيداً ولا غنى عنه في منطقة حساسة من العالم مفتقرة إلى الاستقرار ومليئة بثروات طبيعية لا غنى للعالم الحر، العالم المتمدن، عنها، نظراً لتعرضها للخطر الأحمر الفظيع؟ الم يخطر لاحد ان يتعب راسه قليلاً ويفكر في حكاية كون اسرائيل (كما أكد للمرء صحفي عربي مستنير يراسل صحيفته من واشنطن منذ سنوات) هي «حاملة الطائرات غير العائمة في الشرق الأوسط»؟

بطبيعة الحال، قد يكون بعض ذلك صحيحاً أو لا يكون، تماماً كما انه قد يكون صحيحاً أو لا يكون ذلك الاستنتاج الذي تقود العقل إليه الأحداث المتكررة الكاشفة في مختلف مناطق العالم، وداخل دول العالم الحر والذي كان غير حر وبات الآن حراً في اوروبا الشرقية، وهو ان المسالة لا هي مسالة حاملة طائرات عائمة أو غير عائمة، ولا هي مسالة اصوات ناخبين يهود، ولا هي مسالة مشاعر ذنب تجاه اليهود، بل مسالة سطوة غريبة للحركة الصهيونية على ضمائر وعقول ومواقف وتصرفات الساسة والحكام والمشرعين وصانعي القرار وصناع الراي في بلدان الغرب بعامة والولايات المتحدة بخاصة، نتيجة لحيازة الحركة الصهيونية واستخدامها عديم التورع لثلاثة اسلحة بالغة المضاء مسددة إلى صدور ورؤوس اولئك الساسة والحكام والمشرعين وصانعي القرار والراي، هي:

(١) سلاح التشهير والابتزاز الذي تستخدمه الحركة في التهديد بالاغتيال المعنوي او في التحقيق الفعلي لذلك الاغتيال لاي حاكم او سياسي أو مشرِّع بفضل ما هو مجمَّع لدى المنظمات اليهودية من ملفات كاملة عن كل شخصية عامة فاعلة على الساحة السياسية.

(٢) سلاح المال الذي تستخدمه الحركة منحاً ومنعاً والذي يصعب النجاح انتخابياً أو البقاء ديموقراطياً بدونه صعوبة تقرب من الاستحالة.

(٣) سلاح غسل المخ الجماهيري الذي يستخدم بفعالية قصوى نتيجة لتملّك المال اليهودي تملّكاً شبه كامل لوسائط الاعلام وادوات صنع الرأي والمواقف وتملّكه لضمائر وعقول وجيوب السواد الأعظم من المشتغلين بتلك الأنشطة وتحكّم الحركة الصهيونية، بالتالي، في صنع الآراء والمواقف وسوق الجماهير العريضة مثلما تساق القطعان. وهذا سلاح يمكّن الحركة الصهيونية من الاستخدام الأمثل لسلاح التشهير والابتزاز والاغتيال المعنوي، ويدعم بقوة في الوقت عينه استخدامها لسلاح المال في «بناء» و «بيع» الحكام والساسة والمشرعين او هدمهم والقضاء على المستقبل السياسي لمن يحرن منهم.

هذه جميعاً اسلحة شديدة المضاء في مجتمع «ديموقراطي مفتوح»، خصوصاً وهي تستخدم بذكاء وفي خفاء وراء واجهة محكمة من الاندماج في المجتمع الهدف (او، بالحقيقة، المجتمع المستعمَر من داخله)، والتظاهر بالإيمان بقيمه، والحرص على مصالحه، والرغبة في الذود عنه.

ولكن، هل هذه الأسلحة على مضائها هي كل عتاد ترسانة الحركة الصهيونية التي اتاحت لها تحويل القوة العظمى، الولايات المتحدة الأميركية، إلى شبه مستعمرة وبلدٍ تابع، ومكّنتها من جعل حكّام تلك القوة العظمى، وساستها، ومشرعيها، بتواطؤ شبه كامل من صناع الراي فيها، يعلون كل وأي مصلحة للحركة الصهيونية ومحطتها الأولى اسرائيل على كل وأي مصلحة قومية لبلدهم، بل وعلى سلام العالم وبقاء البشرية؟

يبدو من غير المقبول عقلاً ومنطقاً، واستقراء للاتجاهات والمواقف والأحداث، أن تكون تلك الأسلحة، على مضائها، هي ما مكّن الحركة الصهيونية من إحكام قبضتها، بالشكل الذي يشهد العالم نتائجه، على عمليات صنع القرار وصنع الراي في الولايات المتحدة او غيرها من بلدان «صديقة» لاسرائيل. لأنه ـ مهما كان سلاح غسل المخ فعالاً، ومهما كانت تبعية الحكام والساسة والمشرعين كاملة ـ يظل هناك الاعتبار الذي لا ينبغي اغفاله في اي تقييم واقعي للوضع، وهو كون المجتمع الأميركي، وغيره من مجتمعات مثيلة، مجتمعاً «ديموقراطياً مفتوحاً»، مهما كانت نواقصه وعيوبه. فمجتمع كهذا يصعب فيما يخصه كثيراً ـ واياً كانت فعالية وسائط الإعلام، تشهد بذلك المعارضة شديدة التصميم لحرب فيتنام، مثلاً ـ إخضاعه قسراً للسطوة الصهيونية على مقدّراته ومواقف

قادته وزعمائه وإبقائه تحت وطاة ذلك القسر كما لو كـان ذلك المجتمـع كماً سلبيـاً يتلقى المثيرات ويستجيب لهـا بطريقـة نمطية دون أدنى تـدخل من عقول ومواقف وخلفيات أفراده.

لا بد ان هناك إذن، في العمق، وفي الخلفية الثقافية، ما يجعل الأميركيـين أو غيرهم يخضعون كاًمم، فيقبلون ويستجيبون للمثيرات المنصبّـة عليهم. بمعنى انـه كيما تمـارس الحركـة الصهيـونيـة فعلهـا في تلـك المجتمعـات وتستخدم أسلحتها، لا بد أن يكون مـا يمكنها من ذلـك الفعل والاستخـدام مكوِّناً اساسياً من مكوِّنات الخلفية الثقافية للشعب الهدف.

والسؤال الـذي ينبغي ان يتوقف عنـده العقل في هـذا الخصوص هـو: «هل يمكن للحركة الصهيونية أن تمارس ذلك الفعل وتستخدم تلك الأسلحة بشكل ايجابي فعال ومحدث للنتائج المطلوبة في مجتمع كالمجتمع اليابـاني، مثلاً؟».

فـي محـاولة ايجـاد اجابـة على هـذا التسـاؤل عن مثـل هـذا الـوضـع الافتراضي، يرجّح ان يجد العقل ان ممارسـة الفعل الصهيـوني واستخدام الأسلحة المستخدمة في استعمار المجتمع الأميركي من داخله يغلب ان يكون متعذراً في مجتمع كالمجتمع الياباني. بل وربما وجد العقل، من واقـع الحال فيما يخص المجتمع الياباني، ان عنصراً من عناصر النجاح اليابـاني الذي يبـدو مذهـلاً لكثيرين تمثـل من مبدأ الأمـر في كون المجتمـع اليابـاني ظـل بمنجـاة من ممارسـة الفعل الصهيـوني واستخدام الأسلحـة الصهيـونيـة المستخدمة في غـيره من المجتمعات، وانـه ظل بمنجـاة من ذلك لأن خلفيتـه الثقافية مختلفة عن الخلفية الثقافية المشتركة لتلك المجتمعات الأخرى.

فـإذا ما تقـدم العقل خطـوة صوب استظهـار الفوارق الأسـاسيـة بـين الخلفية الثقافية للمجتمع الياباني والخلفية الثقافية المشتركـة للمجتمعات الأخرى التي تمارس الحركة الصهيونية فعلها فيها بنشـاط ونجاح، قـادته تلك الخطوة إلى الدين، وهو بغير شك من المكـونات الأسـاسية لأيـة خلفية ثقافية لأي شعب او مجموعة من الشعوب.

فهـل للدين دور في صنـع وتكييف وتـوجيـه الـدور الأمـيركي بخـاصـة والغربي بعامة فيما يخص مسيرة المشروع الصهيوني؟

هـذا، تحديـداً، هو مـا ينصبّ عليـه البحث في هـذا الكتـاب سعيـاً إلى استظهار:

(١) ما إذا كان للدين فعل في صنع وتكييف وتوجيه ذلك الدور.

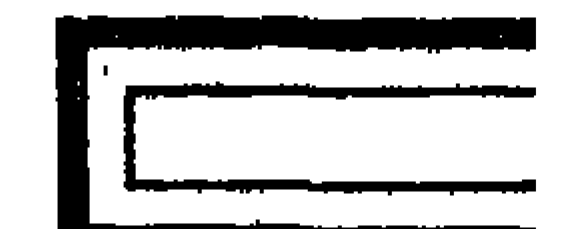
(٢) استظهار نوعية ذلك الفعل ومحاولة القاء ضوء على بعض خباياه.

(٣) استظهار بعض ما يمكن ان يفضي إليه ذلك الفعل الديني، إن وجـد، لا بـالنسبة للبشر في منطقـة الشرق الأوسط فحسب، بل وبـالنسبـة لهم في عالمنا المعاصر، فيما وراء الحدود الجغرافية لتلك المنطقة.

تحفّظ واحد ينبغي ـ للأسف ـ ان يساق، هو ان هذا ليس كتاباً في الدين لكنه بحث موضوعي في دور الدين في السيـاسة، وفعـل السياسـة في الدين فيما يتعلق بقضية انسانية وجيوبوليطيقية قد يتبين في خاتمة المطاف أنها أخطر ما واجهه نوعنا البشري في تاريخه.

حزيران/ يونيو ١٩٩٠

شفيق مقار



الهوامش

(١) أوردنا اسم الحركة هكذا منقحرا (Transliterated) أي كما هو بنطقه الأجنبي ولكن بحروف عربية، لأنه كـ «البلشفية»، و «النازية»، و «الفاشية» وغير ذلك من ألفاظ، مسمّى لحركة. وقد اشتُق ذلك المسمّى من لفظة من ألفاظ اللغة (Zealot بالانكليزية، و Zélé بالفرنسية) بمعنى «الشديد التحمس، المنتمي انتماء إلى حد التعصب والهوس لفكرة أو عقيدة». وسنتناول «الزيلوتية» بتفصيل أكبر في الباب الثالث من الكتاب.

(٢) ارجع إلى: **الإرهاب والإبادة في ظل الإله**، الدراسة التي نشرت مسلسلة بمجلة **الدستور**، لندن، الأعداد ٤٢٣ ـ ٤٢٨، ٤ نيسان/ ابريل ١٩٨٦ إلى ٨ أيار/ مايو ١٩٨٦، وقد تناولنا فيها سلسلة من المحاولات لنسف المسجد.

(٣) إثر نشر كتابنا، **قراءة سياسية للتوراة**، مُنع الكتاب من دخول عدة بلدان عربية لم يعرف عنها أنها تدين باليهودية التي لم يتعرض لها الكتاب بالتجريح، بل استخدم مناهج البحث العلمي في محاولة استظهار الخلفية السياسية والدوافع الاقليمية في كتاباتها الدينية. ولم يقتصر المنع على تلك البلدان، بل اتسع فشمل سوقاً دولية للكتاب بواشنطن لا ولاية لأية حكومة عربية عليها. وقد قام بتلك الخدمة للفكر وحرية البحث «مثقفون» عرب في بلد تخرج مطابعه عشرات المباحث من هذا النوع دون أن يتعرض لها أحد إلا بالمناقشة والفكر. (انظر مجلة «**الناقد**»، العدد ١٩، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٠، عبد الغني مروة، «**رقابة عربية في واشنطن**»، ص ٥٨، وجريدة «**الأهرام**»، القاهرة، عدد ٣، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٠، غالي شكري، «**رؤية نقدية**»، ص ٨).

الباب الأول

الصّهيونية المسيحيّة سبقت صهيونية اليهود بثلاثة قرون

١

صهيون

ألفاظ اللغة، أيّ لغـة، يحدث لهـا ما يحـدث لقطع العملـة: تمّحي معـالمها، فتبيت «ممسـوحـة»، وتطمس قيمهـا (معـانيهـا) من كثـرة التـداول. والنقود يمكن أن يصهـر معدنهـا فتسكّ من جـديـد، أمـا الألفاظ فيصعب كثيراً أن يعاد سكّها.

من الألفاظ التي ـ من كثرة لوكها والتشـدّق بها ـ بـاتت كالعملـة الممسوحة، لفظة «صهيون».

فأي شيء هي «صهيون»، ومن أين جاءت؟

ابتداء، لا «صهيون»، ولا «يـروشلايم»، «يـروشاليم»، «أورشليم»، أي القـدس، ألفاظ أو مسمّيـات يمكن الإدّعاء من أيـة سبيل، بـأنها عبرانية أو يهودية، إذ هي كنعانية.

فالمدينة نفسها، أي القدس، بناهـا اليبوسيـون الكنعانيـون الذين يرجع تـاريخهم إلى مطلع الألف الثـالثة قبـل الميلاد، أي إلى خمسـة آلاف عـام. وطبقاً لمـا يقرره «العهـد الجديـد»، دعيت المدينـة بـاسم «يـروشاليم» أو «يـروساليم» (الـذي تحول إلى «يـروشلايم» ثم بـات «أورشليم»)، نسبة إلى منشئها و «ملكهـا» ملكي صادق، الـذي دعي بملـك ساليم أي ملـك السلام» (رسـالـة إلى العبـرانيـين ٧: ١ و٢)، و (يوحنا ٣: ٢٣) المذكـور في التوراة باسم «ملك شاليم» (تكوين ١٤: ٨). وبذا تكون المدينة، من واقـع «التاريخ المقدّس» نفسه، قد سبقت،

وجوداً وإسماً، بعدّة قرون، ظهور من وصفتهم التوراة في مبدأ الأمر بـ «الآراميين التائهين»، ثم عادت فغيّرتهم في سفر الخروج إلى «العبرانيين» الذين أسموا، في خاتمة المطاف، باسم «اليهود».

وكذلك «صهيون». فاليبوسيون، وهم من الشعوب التي لم يكفّ يهوه عن وعد «الشعب» بأن يمكّنه من إبادتها وأخذ أراضيها، أنشأوا قلعة حصينة لحماية مدينتهم على هضبة في الجزء الجنوبي الشرقي من تلك المدينة، كانوا يعرفونها باسم «صهيون» وذُكرت بتلك الصفة وذلك الإسم، ولكن مع تغيير «هضبة» أو «رابية»، إلى «جبل»، في «العهد الجديد» (رسالة إلى العبرانيين ١٢: ٢٢).

فـ «صهيون»، هي الأخرى، كيروشلايم سواء بسواء، سبقت، وجوداً وإسماً، بقرون عديدة، ظهور «الآراميين التائهين» و «العبرانيين»، وظلت هي والمدينة في حوزة أصحابهما اليبوسيين، منذ بداية الغزو حتى ١٠١٠ ق.م.، رغم الهجمات الشرسة المتكررة، بقيادة السفاح أولاً (يشوع ١٠: ١ ـ ٢٧)، ثم في عهد القضاة (قضاة ١: ٨)، فلم تسقط في يد «الشعب» إلا في عهد داود، وحتى إذ ذاك لم يتحقق وعد يهوه بإبادة أصحابها اليبوسيين، إذ وجد داود من الحكمة التعايش معهم.

وانتهاء، يوقفنا التاريخ على أن «صهيون»، القلعة اليبوسية، والرابية التي أقيمت عليها تلك القلعة، لم يكن لهما أي محتوى ديني أو ترابط غيبي. فالموقع، رابية وحصناً، كان موقعاً عسكرياً لا دينياً، ولم تكن له علاقة بـ «الشعب» ولا بمعبوده، ولا بكهنة ذلك المعبود، إلى أن التفت إليه داود وفطن إلى فوائده السياسية والعسكرية.

فداود، محظيّ شاول الذي انقلب عليه طموحاً إلى «الملك»، مُسِحَ «ملكاً»، بعد مصرع شاول وابنه يوناثان، على «المملكة» الجنوبية، يهوذا، (التي استُمدّ من اسمها اسم «اليهود» فأُحلّ محل المسميات المتعاقبة «الآراميين التائهين»، و «العبرانيين» و «بني اسرائيل»)،

واتخذ بلدة حبرون (الخليل) عاصمة لـ «مُلكِه» بناءً على أمر يهوه (صموئيل الثاني ٢: ١ ـ ٤) وحكم منها سبع سنين[1] (صموئيل الثاني ٣: ١) و (الملوك الأول ٢: ١١). وبعد حرب طويلة ضروس بين «بيت داود وبيت شاول» (صموئيل الثاني ٣)، انتهت باغتيال ابن شاول، ايشبوشت، الذي حكم «المملكة» الشمالية، اسرائيل، بعد موت أبيه وأخيه يوناثان، وتصفية قاتليه (صموئيل الثاني ٤: ٥ ـ ١٢) (بطريقة يبدو أنها كانت النمط التوراتي الذي احتُذِي بحرفيته بعد تلك الأحداث الجليلة بقرون في عملية اغتيال الرئيس الأميركي جون كندي، وتصفية قاتله وقاتل قاتله) خلُص مُلك «المملكة» الشمالية أيضاً، أي اسرائيل[2]، لداود، إذ:

> «جاء جميع أسباط اسرائيل إلى داود في حبرون وتكلموا معه قائلين هو ذا عظمك ولحمك نحن. ومنذ أمس وما قبله حين كان شاول ملكاً علينا كنت أنت تدخل اسرائيل وتخرج منها (ولا نتعرض لك نحن بِشَرٍّ). وقد قال لك يهوه أنت ترعى شعبي اسرائيل وأنت تكون رئيساً على اسرائيل. وجاء جميع شيوخ اسرائيل إلى الملك (داود) في حبرون فقطع الملك داود معهم عهداً في حبرون أمام يهوه ومسحوا داود ملكاً على اسرائيل».
>
> **(صموئيل الثاني ٥: ١ ـ ٣)**

وإذا مُسِح داود ملكاً على «المملكة» الأخرى، تنبّه للمهاوي والمخاطر التي أحاطت به نتيجة للتنافسات والحزازات بين الأسباط، وبالتالي بين «المملكتين»، ووجد أنه من الحكمة السياسية ألا يحكم اسرائيل من حبرون يهوذا. فالهدف الأهم الذي تعين عليه السعي إليه بعد اتساع مُلكه بمسحه ملكاً على اسرائيل أيضاً تمثل في محاولة توحيد «الشعب» والتخلص من فُرقة الأسباط وانغلاقاتها القبلية.

تحت تأثير تلك الدوافع العملية السياسية المتعلقة بالحكم والأرض، لا بالآلهة والعبادة، اتجهت أنظار داود إلى مدينة اليبوسيين يروشاليم، وقلعتهم الحصينة صهيون.

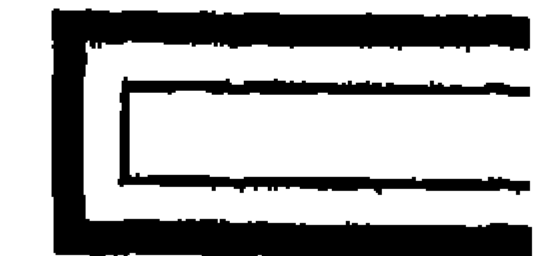
وكـان بنو اسرائيل قد عجزوا (حتى زمن داود) عن الاستيلاء على «أورشليم»، رغم أنهم ظلوا يحاولون الإستيلاء عليهـا لأكثر من ٢٠٠ سنة[٣]، نظراً لكونهم فطنوا إلى أنهـا أهمّ مدن الـداخل استـراتيجياً، فهي تتحكم في الطريق الرئيسي بين شمال الأرض وجنـوبها، وتُشكّـل الوصلة بين الشمال والجنـوب. وقد كـان الفشل في الاستيـلاء عليها سببـاً من أهم الأسباب التي أدّت إلى ظهـور تجمّعـين منفصلـين من الأسباط وبالتـالي إلى قيام مملكتـين منفصلتين: اسرائيـل في الشمال، ويهـوذا في الجنوب. ولهـذا بدا لـداود أنـه كـان مستطيعـاً، إذا مـا استولى على «أورشليم»، أن يتخطى ذلك الانقسام ويتوصّل إلى توحيد الشطرين في كلٍّ واحدٍ. ولهذا، حاصر «أورشليم». **ومن الواضـح أن حصاره إياها كان عملاً سياسياً عسكرياً محضاً.**

ويؤكد سلوك داود بعد استيلائه على المـدينة **أن قيمتهـا الكبرى بالنسبة إليه كانت سياسية.** فهو لم يقم (كدأب بني اسرائيل) بذبح السكـان أصحاب المـدينة الأصليـين، بل ولم يقم حتى بطـردهم، بل أبقى عليهم وبذل جهداً خاصاً في كسبهم إلى جانبه. وفي الـوقت عينه **عُني، عـلى صعيد عسكـري، بترميم أسـوار المدينـة، وباحتـلال القلعة، أو «صهيون»، كما كان اليبوسيون يدعونها،** وأقام ثكنـات لرجاله، وبنى قصراً لنفسه، ثم أتى بتابوت العهد[٤]، الـذي كان أثمن أثر ديني لدى بني اسرائيل ورمزاً لوحدتهم، فـوضعه في المـدينة التي غيّر اسمها من يروشاليم إلى «مدينة داود»، وجعلـه في حمايـة عرشـه وجيشـه، رامياً من وراء ذلـك إلى دمج هـويته كملـك بهويـة الشعب وديانته تأميناً للعرش حتى يظل لسلالته[٥] .

فـلا «أورشليم»، كما بـاتت تـدعى، ولا «صهيـون»، كـانتـا إرثـاً لـ «الشعب» ورثه عن آباء لـه أو كانت لهمـا أدنى صلة بيهـوه الإلّه المستعار من المديانيين العـرب ومعبودهم القضيبي «بعـل فغور»، بـل كانتا موقعاً وجد الجندي المرتزق داود الذي صار «ملكاً» أنه كان مما يوطّد دعائم مُلكِه أن يستولي عليه ليحكم منه «المملكتين» ويوحّدهمـا،

ووجد أنه مما يساعده على ذلك أن يأتي بتابوت يهوه إلى الموقع ليجعل التابوت تحت حمايته، وليستغل حمايته للتابوت في اضفاء صفة الكاهن الأعلى على نفسه فيجمع في شخصه السلطتين الزمنية والروحية.

* * *



٢ دهن المسحة والـ«مسيح»

استُخدمت لفظة «مسيح» في العهد القديم ٣٩ مرة بمعنى «الممسوح بدهن المَسْحَة»، كما هو وارد في قوله «وممسوح مَلِكاً» (صموئيل الثاني ٣: ٢٩).

وتقليد التقديس أو التكريس عن طريق سكب الزيت أو المسح بالدِهن على قمّة الشيء أو رأس الشخص تقليد شعائريّ مصريّ ضارب في القدم انتشر، ككل شيء غيره، من مصر، في العهد القديم، ابتداء من التوراة، وتسرّب إلى العهد الجديد.

فنحن نجده، ممارَساً، في التوراة، بمنتهى الخطورة والجدّية، مع قطعة من الحجارة، في سلسلة حكايات يعقوب. فهذا «الأب القوي» من «آباء الشعب»، نام ـ وهو مرتحل من بئر سبع إلى حاران ـ في مكان بالقفر، ووسّد رأسه حجراً من أحجار المكان، فرأى «الله» نازلاً من السماء على سلّم، وباغته ذلك الإله، الذي لم يكن قد رآه قبلاً، بوعد إعطائه الأرض غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً[1]. فاستيقظ يعقوب فَزِعاً من تلك الرؤية «وأخذ الحجر الذي (كان قد) وضعه تحت رأسه وأَقامه (نصبه) عموداً **وصبّ زيتاً على راسه**»، وإذ فعل ذلك، قَدّس الحجر وجعله صالحاً لسكنى الإله، رغم أن ذلك الإله كان له بيت في السماء، يشهد بذلك نزوله منها على السلّم. وكما تعاقد الإله، بغير مقدمات، مع يعقوب، على إعطاء الأرض في كل الاتجاهات، تعاقد يعقوب مع الإله تعاقداً رسمياً: «وهذا الحجر الذي أقمته عموداً (ومسحته) يكون بيتاً لك أيها الإله وكل ما تعطيني (من كسب) أعشّره لك (أعطيك ١٠٪ منه)» (تكوين ٢٨: ١٠ ـ ٢٢).

والمرجّح أن ممارسة المسح بالزيت هذه تسربت إلى سلسلة حكايات يعقوب أثناء التحرير، من سلسلة حكايات موسى. فليس هناك تاريخياً ما يشير إلى أن «الشعب» مارس ذلك المسح الشعائري إلا

بعد الخروج من مصر، مما يشير إلى أنــه تقليد من التقـاليد الـدينية المصرية التي لا تحصى والتي أخذها موسى من الديانة المصرية ليؤلف بها ديانة حول يهوه. ففي سفر الخروج نجد مؤلف ذلـك السفر وقـد حوّل يهوه، من فرط اهتمام بمسألة دهن المسحة، إلى عطّار:

> «وكلّم يهوه موسى قائلاً: وأنت تأخذ لـك أفخر الأطيـاب. مرّاً قاطراً (زنة) خمسمائة شـاقل، وقـرفة عطـرة نصف ذلك مائتين وخمسين، وقصب الذريرة مائتين وخمسـين، وسليخة خمسمائة بشاقل القدس (الذي لم يكن قد ظهر بعـد في زمن موسى). ومن زيت الـزيتون هيّنـاً. وتصنعه دهناً مقدّساً للمسحة. عطر عطارة صنعـه العطّار. دهنـاً مقدّساً للمسحة يكون».
>
> (خروج ٣٠: ٢٢ ـ ٢٥)

ذلك «الدهن المقدّس» اتُّخذ، كما هو واضح من التأكيـد المضاف: «وتصنعه دهناً مقدّساً للمسحة.. دهناً مقدّساً للمسحة يكون»، أهمية حيوية قصوى في الجذور الشعائرية والطقسيّة للديانـة. فمنه بـاتت تُستَمد المشروعية الغيبية للأشياء والأشخاص سواء بسواء:

> «وتمسح به خيمة الاجتماع، وتـابوت الشهـادة (تابـوت العهـد)، والمـائـدة، وكـلّ آنيتهـا، والمنـارة (المينـورا ـ الشمعدان الشعائري) وآنيتها، ومذبح البخـور، ومذبـح المحرقة (الذي تحرق عليـه الأضحية الحيـوانية تقـديماً لطعام يهوه واحداثاً لرائحة سرور في منخريه) وكلّ آنيته، والمِرحَضة (مِرحَضة الاغتسال) وقاعدتها».
>
> (خروج ٣٠: ٢٦ ـ ٢٨)

وبمســح كل تلـك الجمادات بـ «الـدهن المقـدّس»، «تتقـدّس» الجمادات فتصبح:

> «قدس أقداس، كل ما مسّها يكون مقدّساً».
>
> (خروج ٣٠: ٢٩)

وكذلك كل بشر يُمسح بالدهن المقدّس، يكتسب قداسـة عظمى

وخـواصاً سحـرية، اي يكتسب مشروعيـة غيبية تجعلـه فـوق البشر العاديين وتقرّبه من القوى العليا الخفيّة، أي من يهوه:

«وتمسح هرون وبنيه وتقدّسهم (بمسحك إيّاهم) ليكهّنوا لي».

(خروج ٣٠: ٣٠)

ومن فرط قداسة ذلك الدهن السحريّ، أمر يهوه موسى قائلاً:

«وتكلّم بني اسرائيـل قائـلاً: يكـون هـذا لي (أنـا يهـوه وحـدي) دهناً مقـدساً للمَسْحـة في أجيالكم. عـلى جسد إنسـان (عاديّ غـير الكهنة الـذين أحددهم) لا يُسكَب. وعـلى مقاديـره (أي على أسـاس وصفـة العطـارة التي أعطيتهـا لموسى) لا تصنعـوا مثله. مقـدّس هـو ويكـون مقـدّساً عنـدكم. كل من ركّب مثلـه ومن جعل منـه على أجنبيّ يقطع من شعبه (يقتل)».

(خروج ٣٠: ٣١ ـ ٣٣)

وقد كان إسباغ تلك القداسة السحرية على ذلك الـدهن المصنوع من بعض نبـاتات عطـرية والمعجـون بزيت الـزيتون ضروريـاً لفصل وإعلاء عدّة العبادة وأدواتها وكبار كهنتها عما هو دارج ويومي، ولذا فإن الدهن غُطّي بتحريمٍ عقوبته الموت منعـاً لـ «الشعب» من صنعه وتجريبه ربمـا على سبيـل الفضول أو رغبـة في ممارسـة بعض سحر ذلك الرجـل موسى وأولئـك الكهنة الـلاويين الـذين لصق بهم موسى، أي هرون وبنيه.

وبالفعل، كان استهلال النشاط الكهنوتي المنظّم للديانـة الجديـدة ذا أسـاس شعـائـريّ/ سحـريّ استُخـدم فيه «الـدهن المقـدّس» استخداماً فعالاً:

«أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن (بـاعتبار يهـوه سـاكناً داخـل خيمة الاجتمـاع) وكل مـا فيه وقـدّسـه. ونضـح منه عـلى المذبـح سبـع مـرات (المـرات السبـع

> السحرية) ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها. وصبّ من دهن المسحة على رأس هرون ومسحه لتقديسه. ثم قدّم موسى بني هرون وألبسهم أقمصة ونطّقهم بمناطق وشدّ لهم قلانس كما أمر يهوه».
>
> (لاويين ٨: ١٠ ـ ١٣)

وغير مذكور في هذا النص ما إذا كان موسى قد قدّس بني هرون أم لا بصب الدهن المقدس عليهم هم أيضاً كما أمر يهوه في آخر سفر الخروج «وتقدّم بني هرون وتلبسهم أقمصة وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكهّنوا لي. ويكون ذلك لتصير لهم مسحتهم كهنوتاً أبدياً في أجيالهم (أي ليمتد أثر المسحة إلى كل أجيال سلالتهم)» (خروج ٤٠: ١٤ و١٥)، لكن الثابت من سفر اللاويين أن موسى «أخذ من دهن المسحة ومن الدم الذي على المذبح ونضح على هرون وعلى ثيابه وعلى بنيه وثياب بنيه معه فقدّس هرون وثيابه وبنيه وثياب بنيه معه» (لاويين ٨: ٣٠). ولما كان الدم في شعائر الديانة أفعل وأعظم أثراً من أية مادة أخرى مستخدمة في تلك الشعائر، فالظاهر أن عملية التقديس لم تقتصر على هرون وحده بل شملت «بنيه معه».

ويوقفنا الإنشاد الكهنوتي في المزامير على مدى تلذذ الكهنة بمسألة المسح هذه التي أتى بها موسى من تقاليد الديانة المصرية:

> «هوذا ما أجمل سكنى الأخوة معاً. مثل الدهن الطيّب على الرأس النازل على اللحية، لحية هرون، النازل إلى طرف ثيابه. مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون».
> (المزمور ١٣٣: ١ ـ ٣)

غير أن تلك المتعة الغامرة لم تطل كثيراً، إذ ظهر «الملوك» ليأخذوا من الكهنة اللاويين أعنّة السلطة الزمنية التي ظلت في أيدي الكهنة منذ زمن موسى إلى انتهاء عصر «القضاة» في زمن صموئيل، آخر الكهنة/ القضاة الذي كان من سخريات القدر أن وجد نفسه مرغماً،

تحت ضغط متعاظم من «الشعب»، على «مسح» الملوك، بدءاً بشاول:

> «ويهوه كشف أذن صموئيل قبل مجيء شاول بيوم قائلاً: غداً في مثل الآن (في مثل هذه الساعة) أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين فامسحه رئيساً لشعبي اسرائيل فيخلّص شعبي من يد الفلسطينيين».
>
> (صموئيل الاول ٩. ١٥ و١٦)

ولم يكن صموئيل مسروراً لهذا، أولاً لأن «مسح» رئيس على الشعب من غير الصفوة الكهنوتية اللاويّة كان أمراً استاء له صموئيل كثيراً (صموئيل الأول ٨: ٦)، وحاول إثناء «الشعب» عنه معدداً للقوم مثالب «الملوك»، «فأبى الشعب أن يسمعوا لصوته وقالوا لا، بل يكون علينا ملك» (صموئيل الأول ٨: ١٩) فوق أن يهوه قال لصموئيل «اسمع لصوتهم وملّك عليهم ملكاً» (صموئيل الأول ٨: ٢٢)؛ وثانياً، لأن شاول ذاك كان، تماماً كما قال لصموئيل «مجرد بنياميني من أصغر أسباط اسرائيل (بل) ومن عشيرة من أصغر كل عشائر سبط بنيامين» (صموئيل الأول ٩: ٢١)، لكن صموئيل، رغم عدم ابتهاجه للأمر كله، «أخذ قنينة الدهن وصبّ على رأس شاول» وتبرأ من المسؤولية قائلاً إنه ما مسح شاول ملكاً إلا لأن «يهوه قد مسحك رئيساً على ميراثه» (صموئيل الأول ١٠: ١).

غير أن الأمر لم يطل بيهوه قبل أن يفيق إلى غلطته ويعرف أن صموئيل كان على حق من مبدأ الأمر، «فكان كلام يهوه إلى صموئيل قائلاً: ندمت على أني قد جعلت شاول ملكاً»، ففاض بالرجل الطيب، و «اغتاظ وظل يصرخ إلى يهوه الليل كله» من فرط غيظه (صموئيل الأول ١٥: ١١)، لكن يهوه لم يلقِ بالاً إلى غيظ صموئيل وقال له «**املأ قرنك دهناً** وتعال أرسلك إلى بيت يسّى البيتلحمي (الذي من بيت لحم) لأني قد رأيت لي في بنيه ملكاً (فاذهب) **وامسح لي الذي أقول لك عنه**» (صموئيل الأول ١٦: ١ و٤)، وعندما أقبل داود، الابن الأصغر ليسّى البيتلحمي «وكان أشقر مع حلاوة في العينين

وحسن المنظر، قال يهوه لصموئيل **قم امسحه لأن هذا هو. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسح داود في وسط أخوته»** (صموئيل الأول ١٦: ١٢ و١٣)، وكان مسح صموئيل له حاسماً، لأن «**روح يهوه حلّ على داود من ذلك اليوم فصاعداً**» (صموئيل الأول ١٦: ١٣).

فالمسح بالدهن المقدّس كان طقس تنصيب للكاهن الأعلى أولاً، ثم لـ «الملك». وكان من يُمسَح بالدهن لينصّب كاهناً أو «ملكاً» يدعى «مسيحاً» أي ممسوحاً بدهن المسحة المقدسة ومكتسباً لما تنفثه فيه المسحة من خواص سحرية تجعله أعلى من البشر العاديين لأن «روح يهوه تحل عليه»، أي يصبح متصلاً بالقوى العليا وما وراء الطبيعة.

وفيما بعد، تنبّه الماسحون إلى ما يمكن أن يجنوه من فوائد ذلك «المسح بالدهن» لأنفسهم، فوسّعوه ليشملهم. فايليا المتنبيء العراف الساحر القادر[7]، تلقى هذه التعليمات من يهوه:

> «قال له يهوه اذهب راجعاً في طريقك إلى بريّة دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكاً على آرام، وامسح ياهو بن نمشي ملكاً على اسرائيل، **وامسح اليشع بن شافاط**[8] **نبياً عوضاً عنك**».
>
> **(الملوك الأول ١٩: ١٦)**

ولم يكن هذا المسح بالجملة اعتباطاً. فيهوه كان يعد لمذبحة كبرى مثلثة الأركان كاشف ايليا بها قائلاً:

> «فالذي ينجو من سيف حزائيل يقتله ياهو، والذي ينجو من سيف ياهو يقتله اليشع».
>
> **(الملوك الأول ١٩: ١٧)**

وإذ قرر يهوه رفع ايليا إلى السماء حيّاً مكافأة له على ما اضطلع به من مذابح جماعية في خدمة يهوه وكهنوته، فإنه أمر بـ «مسح اليشع بن شافاط نبياً» ليحل محل إيليا التشبّي. وبذا وسعت ممارسة المسح لتشمل المتنبئين العرّافين السحرة أنفسهم بدلاً من أن يظلوا مجرد ماسحين للغير.

ولم يكن ذلك لمجرد اكتساب المزيد من القوة والمساندة، من قوى ما وراء الطبيعة، لسحر العرّاف وحسب، بل كان أيضاً اكتساباً لحماية «إلّهية» كانت مطلوبة بقوة في زمن كانت السلطة الزمنية والمشاعر القبلية تهدّد فيه حياة المتنبيء العرّاف، كما نرى في حالة ايليا ومطاردة ايزابل زوجة آخاب له بعد مذبحة كهنة بعل بجبل الكرمل (الملوك الأول ١٨). فممارسة المسح بالدهن المقدس كانت تجعل متلقي ذلك «السر» مقدساً يعاقب بالموت من يشرع في إيذائه أو حتى التعرّض له بالسباب، كما نجد في صموئيل الثاني:

«ألا يُقتل شمعي لأجل هذا لأنه سبّ مسيح الرب؟».
(الملوك الاول ١٩: ٢٢)

وطلباً لهذه الحصانة الإلّهية، وسّع الكهنة اللاويون استخدامات المسح لتشمل تلك الفئة التي اشتغلت بالعرافة منهم ودعيت بالنبييم أي «الأنبياء» لتشملهم المظلّة اليهيويّة التي ترنمت بها المزامير:

«الآن عرفت أن يهوه مخلّص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه **بجبروت خلاص يمينه**».

(المزمور ٢٠: ٦)

«**يهوه حصن خلاص مسيحه**».

(المزمور ٢٨: ٨)

وكما هو واضح، انصبّت المسألة لا على الصلاح أو التقوى بل على القوة والخلاص بالقوة. فالتركيز هنا على «جبروت يمين يهوه»، وعلى كونه «حصن الخلاص». وقبل أن يترنم المزمور بروعة ذلك الحصن، قال إن يهوه «**الترس** الذي يُتّكل عليه ويحقق **الانتصار** لمن يحتمي به» (المزمور ٢٨: ٧).

فالتصور حربي عسكري تماماً، وهو متناغم تناغماً كاملاً مع «صهيون» الحصن، ويروشلايم التي تحولت من مدينة السلام إلى مدينة المسيح المحارب داود ورب الجنود رجل الحرب يهوه، وهو ما يجسده هذا النص من نشيد داود إلى يهوه:

«لأني بك (يايهوه) اقتحمت جيشاً، بك يا إلّهي تسوّرت اسواراً... (أنت) الذي يعلّم يدي القتال فتُحنَى بذراعيّ قوسٌ من نحاس. وتجعل لي ترس خلاص. الحق اعدائي فاهلكهم ولا ارجع حتى افنيهم. افنيهم واسحقهم فلا يقومون بل يسقطون تحت قدميّ. تنطِّقُني قوة للقتال وتصرع القائمين عليّ فتجعلهم تحتي. وتعطيني أقفية أعدائي ومبغضيّ فأفنيهم.. اسحقهم كغبار الأرض. مثل طين الأسواق أدقّهم وادوسهم.. وتجعلني رأساً للأمم. الشعوب التي لم اعرفها تتعبّد لي. بنو الغرباء (الجوييم، الأغيار) يتذللون إليّ. بنو الغرباء يبلون ويزحفون من حصونهم.. أنت المنتقم لي والمخضع الشعوب تحتي.. برج خلاص انت (لمن جعلته ملكاً) والصانع رحمة لمسيحك، لداود ونسله إلى الأبد».

(صموئيل الثاني ٢٢: ٣١ ـ ٥١)

و (المزمور ١٨: ٢٩ ـ ٥٠)

وفي هذا النشيد الذي تكرر في العهد القديم مرتين بحرفيته، مرة في صموئيل الثاني ومرة في المزامير، نجد بداية التحوّل، في القرن العاشر ق.م. في مفهوم «الخلاص». فمن افتداء «الشعب» و «خلاصه» مما أحاط به دائماً من عداء وكراهية ورفض ومقاومة، تحول «الفداء» و «الخلاص» إلى التطلع لأن يصبح «الشعب»، الذي اختاره يهوه واصطفاه فجعله ابنه البكر و «ميراثه»، قوياً بيهوه قوة تمكنه من أن يهلك أعداءه بني الغرباء، أي الأغيار الذين ليسوا منه، ويفنيهم، ويسحقهم تراباً وطيناً تحت أقدامه، وبذا يبيت «الشعب المقدس» رأساً للأمم تتعبد الأمم وتتذلل له وتزحف إليه.

***

٣ «مسيح» لم يأت بعد لكنه آت

«وبينما ألسنة النيران تلتهم الهيكل، صعد ثلاثة من شباب الكهنة إلى سطحه وقذفوا مفاتيح بيت يهوه صوب السماء، فامتدت يد من السماء وأمسكت بالمفاتيح. وعندئذ صاح الكهنة الثلاثة «حتى متى، أيها السيد، حتى متى؟»، فأجابهم صوت سماوي قائلاً «ليس لأكثر من يومين اثنين، يا أبنائي». وإذ ذاك أدركوا أن نفي الشكينة وشتات اسرائيل سيطولان لألفي عام، لأنه مكتوب في المزامير «ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعد ماعبر وكهزيع من الليل». وقالوا أمام يهوه «يا سيد العالم. كيف سيمكن لإسرائيل أن تحتمل العذاب لألفيّ عام؟» فقال لهم «انظروا. ها أني أعطي اسرائيل بصيص أمل يخترم ظلام ليل المنفى. ها أني أعطيهم من سوف لا يرونه لكنهم سيشعرون طيلة الوقت بأنه موجود، أعطيهم من لن يأتي لكنه سيظل دائماً آت، من سيبحثون عنه بين البُرْص على أبواب روما ويبحثون عنه في القبّة الذهبية للعشّ السماوي لكنهم لن يعثروا عليه إلا في داخل قلوبهم. ها أني أعطيهم من لن يكون، لكنه سوف يصلب عودهم ويقيم أودهم. ها أني أعطيهم المسيح»[٩].

فالواقع أن عقيدة المسيح المحارب المنتظر إحدى أهم دعائم اليهودية وأشد أساطيرها ترسخاً وأقواها أثراً:

«فالإيمان بالمسيح المنتظر يعتبر أحد الأسس الجوهرية لليهودية، وهو إيمان بمخلّص سوف يأتي فيفدي شعب اسرائيل وينقذه من عذاب المنفى ويقوده عائداً إلى أورشليم **ليفرض منها حكم «السلم» على كل أمم الأرض**. ولقد أدى التنامي العضوي لأسطورة المسيح المنتظر، ابتداء من إرهاصاتها التوراتية الأولى، عبر قرون عديدة، إلى ازدهار واسع لكثير من ضروب التزيّد والتنميق والاضافة للعديد من الموتيفات الجديدة. إلا أنه في حين ظلت تفاصيل الأحداث المسيحانية المرتقبة والعصر المسيحاني المنتظر تتغير من زمن إلى زمن، ظل الإيمان بذلك الذي يتحتم أن

يأتي لا محالة إيماناً راسخاً لم يتزعزع أقام أود اليهود لألفيّ عام»[10].

والتطلع إلى بطل قومي أسطوري محارب يأتي في نقطة ما من زمن مقبل فيتحقق على يديه خلاص الجماعة البشرية المبدعة لأسطوريته، وانتصارها على أعدائها، ويحل بفضله عصر ذهبيّ من العلو والرخاء والسلم، تطلّعٌ إنسانيٌ قديم قِدَم الجبال نجده شائعاً في ثقافات العديد من شعوب العالم القديم التي أقام أودها وصلب عودها دائماً ما ظلت تبدعه من أساطير.

يصف كامبل[11] الأسطورة بـ «الحلم العام»، ويدعو الحلم بـ «الأسطورة الخاصة». ونحن نعرف من الخبرة المعاشة دور الحلم في عملية التداوي من المخاوف والتحقيق للرغبات التي تمارسها الذات الفردية في معرض سعيها إلى صون توازنها في مواجهة اجتياحات العالم الواقع. نفس ذلك الدور، تؤدّيه الأسطورة بشكل أوسع وأعمق في معرض سعي الذات الجمعية إلى التوازن في غمار تعاملها مع العالم. ومن نتاجات ذلك التداوي الجمعي بما يدعوه كامبل بـ «الحلم العام»، نجد حشداً من الأبطال المنقذين المنتظرين، الذين يعتبر كلكامش بغير شك السلف الأسطوري لهم. **غير أن شعوب الشرق الأدنى القديم التي أبدعت أحلاماً عامة عن أبطال منقذين كانت شعوباً مستقرة في أوطانها، ولم تكن قبائل من بدو رحّل باحثة عن أرض تغزوها وتستوطنها مستجلبة باستمرار قدراً غير مألوف من الكراهية والعداء بفضل ما اتصفت به من جشع وشراسة دموية وما امتلأت به من مشاعر الخصوصية.**

ولذلك نجد أن «الحلم العام»، في حالة «الشعب»، اتصف بخصوصية فريدة. ففي حين حارب كلكامش ضد البغي السماوي وذهب إلى حد تحدي الموت ذاته، وتمرد بروميثيوس على الاحتكار السماوي للنار فسرقها ليضع أقدام البشر على درب الحضارة ودفع ثمناً مخيفاً لتمرده، نجد أن البطل، المسيح المنتظر الذي تمخض عنه

شعور «الشعب» بمخاطر ما أحاطته دمويته به من كراهية وعداء حيثما حل، بطل يقول له يهوه (مخاطباً إياه في شخص داود):

> «إجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. يرسل الرب قضيب عزّك من صهيون. تسلّط في وسط أعدائك. شعبك منتدب في يوم قوتك في زينة مقدّسة.. أقسم الرب ولن يندم. أنت كاهن إلى الأبد.. الرب يهوه عن يمينك يحطم في يوم رجزه ملوكاً. يدين بين الأمم. ملأ جثثاً أرضاً واسعة. سحق رؤوسها».
>
> (المزمور ١١٠: ١ - ٦)

فكما هي الحال في كل ما له علاقة باليهودية، تركز الحلم العام الذي تمخض عن المسيح المنتظر على مهمة محددة بالغة الوضوح لا لبس فيها هي ملء الأرض بالجثث، وسحق الرؤوس، وجعل كل من عدا «الشعب» موطئاً لأقدامه، و«انتداب» اليهود بقيادة كاهنهم/ ملكهم المسيح المنتظر لحكم الأرض، كل الأرض، نيابة عن يهوه، أي باختصار «إقامة ملكوت يهوه على الأرض»:

> «لقد حددت منذ البداية بوضوح بالغ مهمة المسيح المنتظر وهي إقامة مملكة الرب (يهوه) على الأرض، وليس في السماء كما يعتقد المسيحيون، وبالتالي بدء السبت الأبدي لاسرائيل وفي الواقع لكل النوع البشري أيضاً الذي سيتمتع بالأخوة والسلام والعدل شريطة أن يؤمن ذلك النوع البشري بيهوه وبتوراته»[١٢].

وذلك ما صوره بشاعرية تمس شغاف القلوب المتنبيء أشعياء الأول:

> «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب («جبل الهيكل») يكون ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كلّ الأمم. وتسير إليه شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل يهوه إلى بيت إله يعقوب فيعلّمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون

تخرج الشريعة ومن اورشليم كلمة الرب. فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع امة على امة سيفاً ولا يتعلمون الحرب بعد».

(اشعياء ٢: ٢ ـ ٤)

فالمهمة العالمية التي سيضطلع بها المسيح المنتظر لن تقتصر على إنقاذ «الشعب» من أعدائه وتحقيق «خلاصه»، **بل ستشمل، وبشكل أساسي، نظراً لأنها منطوية على إقامة ملك يهوه على الأرض، أي الكرة الأرضية، فرض القانون من صهيون على كل الأمم، وفرض السلام الاسرائيلي على كل أركان المعمورة، وإذ ذاك يبدأ العصر الذهبي بحق، وينام الحمل مع الأسد، ويرقد الانسان مع الحية، ويتحقق غرض يهوه من خلق العالم.**

ومؤقتاً، مرحلياً، تقوم المنظمة الدولية، الأمم المتحدة، من نيويورك العاصمة الحقيقية للحركة المتجهة بنشاط وذكاء وتصميم إلى إقامة ذلك المُلك اليهيوي على كل الأرض، بمهمة «فرض القانون»، و«إنصاف الشعوب»، وصون السلم، وجعل الشعوب تلقي أسلحتها وتنصرف إلى الأنشطة السلمية التي يفضل أن تكون زراعية، حتى لا ترفع أمة سيفاً ولا تتعلم الحرب تاركة بقاءها ذاته أمانة في عنق «القانون» الذي لن يلبث أن يخرج رأساً، وبغير وساطة، من صهيون باعتباره كلمة الرب.

لكن هذا الرقيّ الذي بلغته البشرية، هذا السمو، لم يأت بغير جهد وبغير عذاب ومعاناة طويلة تحملها «الشعب» صابراً مؤمناً بيهوه وبما هو مكتوب في الأسفار المقدسة عن «آخر الأيام». وفي غمار ذلك العذاب الطويل والمعاناة التي لم تنقطع، ظل هناك بصيص نور الأمل الذي أعطاه يهوه لشعبه المختار ليخترم ظلمة ليل النفي والشتات، ممثلاً في الإيمان بالمسيح الآتي.

يخبرنا أوزوبل[١٣] أن المسيح، طبقاً لتصوير الحاخامات له، سيكون

كنور ساطع يتسبب في كسوف كل قادة البشرية وأبطالها وقديسيها، ونظراً لأنه سوف تحركه في أدائه لمهمته (الكونية) روح النبوة، فإنه سيكون، كما يخبرنا ميمونيدس، نبياً عظيماً جداً أعظم من كل الأنبياء ما عدا موسى. ومن الغريب أن المسيح المنتظر صُوِّر على صورتين مختلفتين اختلافاً واسعاً في الكتابات الدينية اليهودية. وفي بعض الأحيان يبدو كما لو كانت الصورتان تتلاحمان وتندمجان وتستعير كل منهما بعض خواص الأخرى حتى ليستحيل التمييز بينهما.

أما الصورة الأولى والأقدم - والأشد نقاء أخلاقياً من الصورة اللاحقة لكنها أكثر طوباوية وأقل واقعية منها - (فصورة) متعلقة بأمل تجدّد عصر داود الذهبي. فالمسيح المنتظر، بوصفه «مسيح يهوه» **سوف يعيد مجد اسرائيل الغابر الذي لم يطل كثيراً، ويعيده في شكل أعظم روعة وكمالاً إذ يعيد إقامة مُلْك يهوه على الأرض مكرّساً لذلك المُلْك كل طاقات اسرائيل الفكرية، والروحية، والأخلاقية عملاً على بناء مجتمع الصلاح**. تلك هي الصورة الأولى التي صُوِّر بها المسيح المنتظر، صورة بطل عظيم التصميم، لكنه متصف بالرفق، والحكمة، والعدل، ونقاء القلب، وفي الوقت ذاته لا يُقهَر نظراً لما يتمتع به من قوة روحية، ولا يصدر في كل ما يفعل إلا عن حب النوع البشري كله، **كل** النوع البشري، وعن الرغبة في إقامة سلام وعدل دائمين على الأرض.

فالصورة إذن صورة بطل عالمي لكل البشر، سيأتي لفداء «الشعب» حقاً، وتحقيق خلاصه، لكنه سيأتي أيضاً ليمنح كل البشر نعمة العصر الذهبي الذي يدوم، نتيجة لاقامته مُلْك يهوه على الأرض.

هذه صورة جعل بوسع الباحث اليهودي الذي أشرنا إلى كلامه، وبوسع كثرة من أمثاله، بل ومن «الأغيار، الجوييم»، كما سنرى، القول بها والتعلق بأهدابها، ما نجده في العهد القديم من إنشاد رومانسيّ لإشعياء الأول مأخوذ أخذاً صريحاً من رؤيا ديلمون

السومرية. ففي العهد القديم، **أخذت تلك الرؤية السومرية كما أخذ ما لا يحصى من رؤى المصريين والسومريين والبابليين والكنعانيين، وأسقطت على زمن ما غير محدد قيل أنه آت وهو لا ياتي، في مستقبل الأيام، سوف يُنعِم المسيح المنتظر فيه على كل البشر بعصر ذهبي وضيء.**

ولقد كان البطل في الحلم العام للسومريين الإله إنكي الذي أنعم على البشر بالعصر الذهبي في ديلمون، الجنة الأرضية التي يحتمل، طبقاً لكريمر، أنها تسمية لمنطقة على الساحل الشرقي للخليج[١٤]. وفي تصوير الأسطورة السومرية لذلك العصر الذهبي، نجد الأصل الذي اغترف إشعياء منه ليصور «النعيم» الذي سوف يكون عندما يأتي المسيح المنتظر ويفرض حكم صهيون على كل أمم الأرض. ففي حلم السومريين:

«دیلمون لا ينعب فيها الغراب
ولا تطلق الحدأة صرختها الثاقبة،
ولا يفترس الأسد،
ولا يخطف الذئب الحمل،
ولا يقتل الكلب البرّيّ صغار الماعز،
ولا يلتهم الخنزير البرّيّ الغلال،
ولا يُعرَف الشر والمرض والشيخوخة..»[١٥].

وفي صياغة إشعياء لذلك الحلم السومري:

«يسكن الذئب مع الحمل، ويربض النمر مع الجدي والعجل، والشبل والمسمَّن معاً وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبة ترعيان معاً وتربض صغارهما معاً. والأسد كالبقرة يأكل تبناً. ويلعب الرضيع على سَرَب الصلّ ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان.»
(اشعياء: ١١: ٦ - ٨)

فإشعياء، بتؤدة المتمرس بالاغتراف من أساطير الشعوب، يأخذ

الرؤيا السومرية غير عابىء ليصنع منها «عصراً ذهبياً» يؤكد أن البشر، حتى الأغيار منهم، سيستمتعون فيه بملذات ونِعم لا توصف في ظل حكم صهيون والبطل المنقذ، المسيح المنتظر الذي سوف:

> «يحل عليه روح يهوه، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الله. فلذّته ستكون في مخافة يهوه، فلا يقضي بحسب نظر عينيه (بحسب الظاهر)، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه (بحسب ما يترامى أو ينقل إليه من كلام)، بل يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالانصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه (يؤدّبها بكلمته التي تنزل كقضيب) ويكون البرّ مِنطَقة لمتنيه والأمانة مِنطَقة لحقويه».
>
> (إشعياء ١١: ١ ـ ٥)

وأيّ بَشَر ذلك الذي لا يتهلل لرؤيا كهذه؟ أليس هذا هو البطل البار والحاكم العادل الذي ظل كل البشر يحلمون بمجيئه، وها هو ـ بفضل محبة يهوه لابنه البكر، شعبه المختار ـ سيأتي، وفي ظله «من صهيون أكمة أورشليم»، كما يبشّرنا إشعياء، «ستمتلىء الأرض من معرفة يهوه كما تغطّي المياه البحر». ولكن مهلاً، فكل تلك النعم والبركات لن تنهمر هكذا اعتباطاً على رؤوس البشر، حتى الأغيار منهم، بل ستترتب على الحدث الأهم الذي يبدو ـ طبقاً لما يقوله العهد القديم ـ أن يهوه ما خلق العالم إلا من أجله، وهو أن يتسيد شعبه ذلك العالم ويحكمه، وهو ما سوف يحدث بعد أن يمد يهوه يده، وعن طريق مسيحه:

> «يقتني بقية شعبه التي بقيت (يعيدها من الشتات) من مصر ومن أشور ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم، ويجمع منفيي اسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض. (ويضع حداً لما بين الأسباط من عداوة وحزازات) فيزول حسد افرايم وينقرض المضايقون من

يهوذا. (فلا يعود) افرايم يحسد يهوذا، (ولا يعود) يهوذا يضايق افرايم، (بل يتحدان) **فينقضان معاً على أكتاف الفلسطينيين غرباً، وينهبان بني المشرق شرقاً**. و(تقع يدهما الثقيلة) على آدوم ومؤاب ويصبح بنو عمون في طاعتهما. **ويبيد الرب يهوه لسان بحر مصر ويهز يده على النهر (النيل) بقوة ريحه ويضربه إلى سبع سواق ويجيز فيها الأحذية (توطا وجوه المصريين بالنعال). وتصبح هناك سكّة لبقية شعب يهوه الباقية لتخرج من أشور كما خرج اسرائيل يوم صعوده من أرض مصر».**

(إشعياء ١١: ١١ ـ ١٦)

وإلى هنا والصورة معتدلة مكبوحة الجناح، ومنصبّة بالقدر الأكبر (رغم الزمجرة الوحشية تحت السطح كلما خطرت مصر بالبال) على لمّ شمل «الشعب» من الشتات والقضاء على التناحر بين أسباطه وتوحيد كلمتها **في مواجهة الشعوب الأخرى المحيطة، وكلها عدو، وكلها فريسة مشتهاة.**

غير أن تلك الصورة ما تلبث أن تغيب (Fade out) كما تغيب الصورة السينمائية في عصرنا، وتسقط بدلاً منها على شاشة الذهن **صورة مغايرة لـ «مسيح» جديد محارب ضارٍ لا يرحم سيأتي في «آخر الأيام» ليقود جيش «أبناء النور» ضد جيش «أبناء الظلام».**

ومرة أخرى، نجد أن الصورة ومحتواها أُخذا من «حلم عام»، أي من أسطورة أبدعها شعب آخر. فأوزوبل[١٦] يخبرنا أنه بالوسع أن نرى في تصوير المسيح المحارب البطل القاضي الذي سيمحق الخطاة ويدمر الأشرار، ويستأصل الشر من الخليقة، كيف اقتبست صورته من المتضادّات التي نجدها في الديانة الزرادشتية والتي تبلغ ذروتها **في المعركة الكونية الكبرى الفاصلة بين أورموزد (الذي يمثل الحياة والنور) وأهريمان (الذي يمثل الموت والظلام)**، وهي

المعركة التي تنتهي بانتصار الحياة والنور. وفي الصورة اليهودية، المفروض أن تقود تلك الشخصية الأسطورية، المسيح المنتظر المحارب، جيشا عرمرم من اليهود فيها ضد مضطهديهم، ملوك جوج وماجوج الأشرار (وجوج وماجوج هنا كناية مقنّعة بقناع شفاف للغاية عن روما).. **في معركة كبرى سوف تكون آخر صدام مسلح على ظهر الأرض، وهو صدام سوف ينتصر فيه جيش اليهود، ويكون انتصارهم استهلالاً للعصر الألفي الذهبي السعيد.**

فالأسطورة الفارسية، باعتراف هذا الباحث اليهودي، أخذت واستخدمت في صنع أسطورة المسيح المحارب، بعد أن أخذت الأسطورة السومرية واستخدمت في صنع الصورة الأولى لذلك المسيح المنتظر ككاهن وحاكم خيّر.

وقد بلغ الإيمان بحتمية مجيء ذلك المسيح المحارب الذي سيقود أعظم وآخر معركة رهيبة على ظهر الأرض يخرج منها اليهود منتصرين على العالم بأسره، حداً من القوة جعل إعلان الإيمان الثاني عشر، الذي يردده اليهود كل يوم في صلواتهم، يقرر ما يلي:

«إني مؤمن إيماناً كاملاً أن المسيح سوف يأتي. وحتى ان تأخر مجيؤه، سأظل أنتظر مقدمه كل يوم من أيام حياتي»(*).

(*) وهو ما يلقي ضوءاً كاشفاً على أن اليهود ـ كبشر ـ ضحايا، كغيرهم، لهذا الضرب من التسييس للأسطورية الدينية. فكل البشر لهم ذلك الحق، الذي مارسته ثقافات كثيرة، في التطلع إلى مخلّص وصانع للعصر الذهبي. لكن اليهود كبشر فرضت عليهم احلام كهنتهم صانعي أساطير الديانة أن يظل إيمانهم معلقاً بمجيء بطل دموي محارب سيقودهم ـ حسبما تقول الأسطورة ـ إلى معركة كبرى تكون ـ لفظاعتها ـ آخر صدام مسلّح على ظهر الأرض، ويعاني اليهود في غمارها ـ كما يعاني غيرهم ـ أهوالاً لا توصف.

٤ المسيح الذي لم يأت لكنه سيأتي ثانية

تقـول المؤرخة الصهيـونية اليهـودية بـربارا تـوخمـان، مستنـدة بظهرها إلى بروفسور اسمه تيرنر، أن «التاريخ نشأ كأسطورة»[١٧].

وبعد ذلك بقليل، تقول أن التراث المتناقـل من حكايـات وأساطـير «قـد لا يكون حقيقـة علمية، إلا أن الحقـائق العلمية ليست متـوافرة دائماً. وهكذا فإنه في غيبة الحقيقة العلمية القابلـة للتحقق، يتعين أن يمـلأ الفـراغ فيحـل محلهـا التـراث المتنـاقـل من الحكـايـات والأساطير»[١٨].

وإسباغاً للمشروعيـة العلمية عـلى هذا المبـدأ الفريـد (الذي يلغي بجرّة قلم كل اجتهادات العلوم الإنسانية في التعلّق بأهداب تجـريبيّة العلـوم الطبيعية)، تستمـد السيدة تـوخمان العـون مـن قـول أحـد المؤرخين، وهو السير جون موريس ـ جونز، تعريفاً للتراث المتناقل من الحكايات والأساطير، بأنه تسجيل بالحكي الشعبي لما حدث في زمن مـا، وأنه ـ بـذلك ـ يصبـح من المعطيات التي يتحتم الـوقـوف عـلى أسبابها ويتحتم تفسيرها. وتخلص من هذا الاستشهاد إلى القول بأن الحكي، بـوصفه ذاك، يـصبـح ذا تأثـير على سلـوك الأمم يفوق مـا يباشره على ذلك السلوك تـأثير الحقـائق العلمية المتيقن منهـا. ونحن نعرف أن تاريخ الأمّة من الأمم يحكم أفعال تلك الأمّـة في حاضرهـا. غـير أننا لا يجب أن ننسى أن ذلـك يظل يحـدث في سياق مـا يعتقـد أفـراد الأمّة أن مـاضيهم كان عليـه. لماذا؟ لأن التـاريخ، كمـا قـال نابوليون بونابرت، حكاية مختلقة متّفق عليها[١٩].

هذا، بغير شك، نظر فريد إلى التاريخ يجعله اختلاقاً متواطـأً عليه لا سجلاً لأحداث وقعت. وهو نظر فريد قـد لا يكون مفيـداً في كتابـة

التاريخ أو دراسته كعلم من العلوم الانسانية، لكنه ـ بغير شك ـ يفيدنا كثيراً ويساعدنا على أن نفهم:

(١) كيف أمكن إسباغ صفة «التاريخ» على العهد القديم أصلاً.

(٢) كيف أمكن للعقلية التي مثلتها السيدة توخمان بلمعان برّاق أن تظل تتعامل مع الواقع الحرون المعاكس اللاطيّع بمنهج التفكير بالتمنّي، فتختلق «تاريخياً» (ما دام التاريخ «حكاية مختلقة متّفق عليها») مسيحاً وراء مسيح، بصرف النظر عما قد يجد العقل أن مقتضيات المصداقية تتطلبه وتمليه، وكيف أمكن أن تذهب تلك العقلية في ذلك المسار إلى حد جعل قورش، الملك الفارسي، مسيحاً، وجعل السيدة استير مسيحاً هي الأخرى، وضم الاثنين إلى قائمة طويلة فريدة بحق من مسيحي يهوه. يخبرنا العالم اليهودي رافائيل پاتاي[٢٠] أن التراث اليهوديّ يحفل بذكر أناس أوشك كلّ منهم في زمانه أن يصبح المسيح المنتظر، أو اعتبر فعلاً، لأمد لم يطل، محققاً لدور المسيح المخلّص. **ومن وجه بعينه، يمكن القول بأن أولئك الأبطال الأسطوريين شكّلوا استمراراً للخطّ الملكي الذي دعي نجومه بـ «مسيح يهوه»**». فشاول وداود كان كل منهما «مسيح يهوه»، بذلك المعنى القديم الأكثر واقعية، كما كان كذلك ملوك يهوذا الآخرون الذين ملكوا بعدهما، **وكان كذلك أيضاً الملك الفارسي قورش الذي مكّن اليهود من العودة إلى أورشليم وخلّصهم من السبي البابلي**. إلا أن هناك تنويعاً يستوقف النظر على تلك الثيمة تمثل في اعتبار استير مسيحاً هي الأخرى، وهي الوحيدة من النساء التي دعيت بهذا الاسم في التراث اليهودي، بل وان المدراش عقد مقارنة حاذى فيها بين استير وابراهام بل وشبهها بإسرائيل الأمّة من حيث أن كلتيهما كانت يتيمة.

ويستعرض هذا العالم قائمة ضافية من مسيحي يهوه، تبدأ بـ «المخطوف»، أخنوخ، الذي ولد متوشالح وسار بعدها مع الإله

(الذي لم يكن قد أصبح اسمه يهوه بعد)، وبعد ٣٠٠ سنة من المشي مع الإلَه، اختفى ولم يكن اختفاؤه بالموت، بل لأن الإلَه أخذه:

«وعاش أخنوخ خمساً وستين سنة وولد متوشالح. وسار أخنوخ مع الله بعدما ولد متوشالح ثلثمائة سنة.. فكانت كل أيام أخنوخ ثلثمائة وخمساً وستين سنة. وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد (لم يعثر له على أثر) لأن الله أخذه».

(تكوين ٥: ٢١ ـ ٢٤)

وكما يقول پاتاي[٢١]، كان هذا النص الموجز الملغّز كافياً لتحويل أخنوخ إلى شخصية فوق إنسانية (سوبرمان). وبعد رفعه (إلى السماء) أصبح المتراتون، أي رئيس كل الملائكة، وطبقاً لسفر أخنوخ، أصبح المسيح المنتظر ذاته.

وسفر أخنوخ من الأسفار التي استبعدت من العهد القديم عند التحرير[٢٢]، وقد بقي منه نصه الحبشي، ومنه النص التالي:

«ثم جاءني هو («رأس الأيام») وحيّاني بصوته، وقال لي: أنت ابن الانسان (أي أنت المسيح) الذي ولد للصلاح، والصلاح يكون معك أبداً ولا يفارقك صلاح رأس الأيام إلى الأبد».

«ثم قال لي الملاك الذي قادني: انه (رأس الأيام) ينعم عليك بالسلام باسم العالم الذي سوف يكون..

«وهكذا فإنه سيكون هناك زمان من الأيام مع ابن الانسان، وسوف ينعَم الصالحون بالسلام والطريق المستقيم باسم سيّد النفوس إلى ابد الآبدين».

(اخنوخ الاول ٧١: ١٤ ـ ١٧)

وكما هو واضح، يتلفّع النص جيداً بارتباكه وما يولّده ذلك الارتباك (أو الإرباك؟) من غموض. فالذي يأتي إلى أخنوخ في الفقرة الأولى من النص و«يحييه بصوته» هو «رأس الأيام». فمن هو رأس

الأيام ذاك؟ يخبرنا پاتاي[٢٣] أن تسمية «رأس الأيام» تلمّح إلى الوجود المسبّق للمسيح المنتظر أو إلى بزوغ اسمه أمام الإلّه قبل خلق العالم. **وبذلك يكون «رأس الأيام» الذي ظهر لأخنوخ وحياه بصوته هو المسيح المنتظر ذاته وقد جاءه كمبعوث من «سيّد النفوس»** (أي السيد، أدوناي، الاسم الذي عرف به المعبود كنعانياً قبل أن يكتشف موسى «يهوه»). **ولكن كيف يستقيم المعنى و«رأس الأيام» ذاك يخبر أخنوخ بأنه (أي أخنوخ) هو «المسيح الذي ولد للصلاح»؟ هل يعني ذلك أن المسيح، رأس الأيام، تنازل عن هويته للمسيح أخنوخ؟**

ثم يزداد النص ارتباكاً (أو إرباكاً؟) وغموضاً، عندما نكتشف أن الذي كان يتحدث إلى أخنوخ ويقوده لم يكن «رأس الأيام» (بالمناقضة للفقرة السابقة من النص) بل كان ملاكاً حمل رسالة من «رأس الأيام» إلى أخنوخ أنعم بموجبها على أخنوخ بالسلام باسم العالم الذي سوف يكون.

وقد عني الأستاذ پاتاي بمعالجة المسألة بهامش قال فيه «أن «رأس الأيام»، مصطلح يشير إلى المسيح المنتظر، وأنه، في نص أخنوخ، **وسيط بين سيد النفوس (الله) وابن الانسان (المسيح أخنوخ)**، أي أنه «يقوم هنا بالدور الذي تقوم به الشكينة في المدراش»[٢٤].

وعلى نفس النسق، نجد أن موسى اعتُبر المسيح الأول، استناداً إلى نص في نشيد الأنشاد يقول أن حبيب المُنشِد «هو شبيه بالظبي أو بغُفْر الأيائل» (٢: ٩)، فإذا بهذا النص يتكشّف، في تفسير الحاخام اسحق له، عن كون موسى أول مسيح منتظر:

> «تماماً كما أن هذا الظبي يُرى ثم لا يُرى لأنه يخبّىء نفسه، تجلّى المسيح الأول (أي موسى) لبني اسرائيل، ثم اختبأ منهم»، وكم طال اختباؤه؟ يقول يهودا بن رابّاي: «طال لثلاثة أشهر»[٢٥]..

وفي التراث اليهوديّ، غير أخنوخ وموسى، شروع في جعل حزقيا ملك يهوذا المسيح المنتظر. وطبقاً «للحكي المتواطأ عليه» الذي هو التاريخ كما تعلّم المؤرخة توخمان، كان الذي شرع في ذلك المسح لحزقيا الملك يهوه نفسه. فالأستاذ پاتاي يخبرنا[٣٦] أن يهوه **الواحد القدّوس أراد، أن يجعل حزقيا (ملك يهوذا) المسيح ويجعل سنحاريب (ملك آشور) جوج وماجوج**. إلا أن خاصية العدل وقفت أمام القدّوس تبارك، وقالت له: يا سيد العالم! حتى داود الذي أنشد الكثير من المزامير ومجّد اسمك لم تجعله مسيحاً، والآن تريد أن تجعل حزقيا مسيحاً رغم أنك أنت الذي فعلت له كل تلك المعجزات ورغم أنه لم ينشد مزموراً واحداً يمجّد به اسمك؟ وتبعاً لذلك ظل الأمر معلقاً فلم يتقرر فيه شيء. لكن الأرض فتحت فمها وقالت أمام القدّوس تبارك: يا سيد الأرض! سأنشد أنا مزموراً بدلاً من ذلك الرجل القديس (حزقيا)، فاجعله المسيح. وفتحت الأرض فاها وأنشدت. وإذ ذاك قال أمير العالم أمامه: يا سيد الأرض! حقق رغبة هذا الرجل القديس (حزقيا). لكن صوتاً سماوياً ارتفع مردداً «ياتلفي! ياتلفي!» (اشعياء ٢٤: ١٦). والذي عناه النبي (إشعياء) بهذا كان «ياتلفي، ياتلفي، حتى متى، حتى متى (ننتظر الخلاص)؟.

فما حكاية حزقيا الملك، ولماذا تحكي «الحكاية المختلقة المتفق عليها» التي هي «التاريخ» أن يهوه شرع في جعله المسيح المنتظر لولا أن اعترضت خاصية العدل والصوت السماوي الذي ردد، تبعاً لقول اشعياء «من أطراف الأرض سمعنا ترنيمة مجد للبار (ترنيمة الأرض بدل حزقيا)، فقلت ياتلفي ياتلفي، ويل لي. الناهبون نهبوا، الناهبون نهبوا نهباً» (إشعياء: ٢٤: ١٦)؟

الحكاية أن يهوه، الشخصية المحورية التي تكلّف بالفعل وتُجرَى أسطر الحوار على لسانها في صنع «الحكاية المختلقة المتفق عليها»، أوشك أن يكلّف من قِبل الكهنة بمكافأة حزقيا بجعله المسيح المنتظر. ولم لا، وقورش الفارسيّ الذي قال يهوه نفسه أنه لم يعرف يهوه ولم

يعبده، قد جُعِل المسيح المنتظر؟ وقد أُنعم على قورش بذلك الشرف الإلّهي (الشبيه بأنعام الملوك في زماننا بلقب اللوردية على من يؤدّون خدمة جليلة للشعب المختار) لأنه مكّن «الشعب» وكهنة يهوه من العودة إلى فلسطين وخلصهم من السبي البابلي. أما حزقيا، فماذا فعل؟ فعل أنه «فتح أبواب بيت يهوه» في أورشليم ورممها «وأدخل الكهنة واللاويين وجمعهم إلى الساحة الشرقية. وقال لهم اسمعوا أيها اللاويون. تقدّسوا الآن وقدّسوا بيت يهوه إلّه آبائكم واخرجوا النجاسة من قدس أقداسه» (أخبار الأيام الثاني ٢٩: ٣ و٤).

ولقد يبدو من كل هذا الكلام عن القداسة والتقدّس كما لو كان الإنجاز الحقيقي لحزقيا فيما يخص بيت يهوه وكهنته إنجازاً تمثل في الصلاح والتقوى. لكن أخبار الأيام الثاني، ذلك السفر التاريخي، يقول غير ذلك:

> «وقال حزقيا الآن ملأتم أيديكم ليهوه. تقدموا وأتوا بذبائح وقرابين شكر لبيت الرب. فأتت الجماعة بذبائح وقرابين شكر وكل سموح القلب أتى بمحرقات. وكان عدد المحرقات التي أتى بها الجماعة سبعين ثوراً ومائة كبش ومائتي خروف. كل هذه محرقة ليهوه. والأقداس ستمائة من البقر وثلاثة آلاف من الضأن. إلا أن الكهنة كانوا قليلين فلم يقدروا أن يسلخوا كل المحرقات فساعدهم اخوتهم اللاويون حتى كمل العمل فتقدس به الكهنة. لأن اللاويين كانوا أكثر استقامة قلب من الكهنة في التقدّس. وأيضاً كانت المحرقات كثيرة بشحم ذبائح السلامة وسكائب المحرقات. فاستقامت خدمة بيت يهوه. وفرح حزقيا وكل الشعب من أجل أن يهوه أعدّ الشعب (مكنه من ذلك الإنجاز في ذلك الوقت القصير) لأن الأمر كان بغتة».

(أخبار الأيام الثاني ٢٩: ٣١ ـ ٣٦)

فـالإنجاز تعلّق بهـذا التقدّس وهـذه الأقداس. وتعلّق بـالقدر الأكبر بعشور الكهنة:

«وقـال حزقيـا للشعب سكان أورشليم أن يعطـوا حصة الكهنة واللاويين لكي يتمسكوا بشريعـة يهوه، فكثُـر بنو اسرائيـل من أوائل الحنطـة والمسطار والـزيت والعسل ومن كل غلّة الأرض وأتوا (للكهنة) بعُشْر كل ذلك بكثرة. وبنو اسرائيل ويهوذا الساكنـون في مدن يهـوذا أتوا هم أيضاً بالأعشـار من البقر والضـأن والأقداس المقـدسة للرب إلههم.. وسأل حزقيا الكهنة واللاويين فكلمه عزريا الكـاهن الرأس لبيت صـادوق وقـال منـذ ابتـدأ بجلب التقدمة إلى بيت الـرب أكلنا وشبعنـا وفضل عنـا بكثرة لأن الرب يهوه بارك شعبه والذي فضل هو هذه الكثرة».

(اخبار الأيام الثاني ٣١: ٤ ـ ١٠)

وكـان طبيعياً، عـلى ضوء ذلـك الشبع الكهنـوتي والوفـرة في التقـدمات والعشـور إلى الهيكل، أن تجعـل «الحكايـة المتفق على كونها التاريخ» الشخصية الرئيسية فيها، «الشعب»، يتلقى بركة يهوه لأنه ملأ بطون الكهنة، وتجعل الشخصية المحورية، يهوه، تشرع في جعل حزقيا الملك مسيحاً مكافأة له على إعادة الأمور إلى نصابها في الهيكل وتوجيهه «الشعب» إلى ملء بطون الكهنة وكـل سبط اللاويين.

فالانعام بلقب «مسيـح الرب» عـلى أي بطل أسطـوري أو تاريخي من أبطال «الحكاية المتفق عليها»، ظل مرتبطـاً بالاعتبـار الأساسي في الديانة، وبالغـرض الذي نشـأت من أجله أصـلاً، وهو إقـامة الملـك ودوامه وتأمـين أوضاع الكهنـة ومصالحهم في ذلـك الملك. ولعـل أي تفصيل من تفاصيل الحكاية لا يفصح عن ذلـك قدر مـا تفصح عنـه الجزئية الخاصة بقورش الفارسي الذي بات لـوقت «المسيح المنتظـر» رغم عدم عبادته ليهوه، بل وعدم كونه من شعب يهوه المختار أصـلاً، فالمتنبىء إشعياء، لا أقل، يؤكد أن يهوه قال له عن قورش الفارسي:

«انــه راعيّ (الذي يـرعى لي شعبي)، فكـل مسرّتي يتمم (فهـو سيقـوم بكـل مـا يبهـج قلبي) (لأنـه) يقـول عن أورشليم إنها ستبنى (ويقول) للهيكل سوف تؤسّس».

(إشعياء ٤٤: ٢٨)

وبذلك الوعد من قورش بإعادة بناء أورشليم والهيكل الثاني بـات قورش المسيح المنتظر وقد جاء ليحقق النبوءة:

«هكذا يقول يهـوه لمسيحه قـورش (أنت) الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامـه أمماً وأحقـاء ملوك (والـذي) أحلّ لأفتح أمامه المصراعين، و(أجعـل) الأبواب لا تغلق. أنـا أسـير قدامـك والهضـاب أمهّـد. أكسر (لـك) مصراعيّ النحاس ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء لكي تعرف أني أنا الـربّ أني أنا يهـوه إلّه اسرائيل الذي يدعـوك باسمـك. لأجل عبـدي يعقوب واسرائيـل مختاري (شعبي المختـار اسرائيـل) دعـوتـك باسمك ولقبتك (بالمسيح) وأنت لست تعرفني.. ونطقّتـك (شددت أزرك وعاونتك) وأنت لم تعرفني».

(إشعياء ٤٥: ١ ـ ٥)

غير أن ذلك الرضا اليهيوي كله كما صوره إشعيـاء كان في غمـار فورة الفرح بانتصار الفـرس على بـابل التي من عنف وحشيـة الكره اليهـودي لها تغنى منشـد المزامـير قائـلاً أنه مبـارك كل من يمسـك بأطفالها ويهشم رؤوسـهم على الصخر.

أما بعد أن فترت الفورة وخمـدت النار، فـإننا نفـاجأ في التلمـود بيهوه وهو يشكو لمسيحه قائلاً:

«إني أشكـو لك من قـورش! فقد كنت أظن أنـه سيعيد بنـاء بيتي (الهيكل) ويجمـع شعبي من المنفى! (لكنه لم يفعل أكثر من أنه قال) من منكم من كـل شعبه (يـرغب في العودة) ليكن إلّهه معه ويصعد إلى أورشليم»[٣٧].

(كما هو وارد في سفر عزرا ١: ٣)

وفي النهاية، على أية حال، نجد أن المسيح الموعود لم يأت لليهود، وأنهم ظلوا يأتون به في شخص هذا أو ذاك من «أبطال» حكايتهم المتفق عليها، وظلوا يكتشفون أن من أتوا به ليس هو.

وعندما ظهر يسوع، عيسى بن مريم، وقال إنه لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله، وظل يتحدث عن الأب الذي في السموات بدلاً من رب الجنود المحارب المنتقم، وألقى موعظة قال فيها «طوبى لصانعي السلام» لم يكن من الممكن ـ بطبيعة الحال ـ أن يعترف به أحد بوصفه المسيح المحارب المنتظر، بل وصف بالمجنون وبالمشعوذ وبالدجال وبالمضلل وبمفسد اسرائيل وهادمها.

وظل اليهود ينتظرون مجيء مسيحهم المحارب المنتظر الذي سيبسط حكم صهيون على كل الأرض بعد معركة هرمَجدّون الرهيبة التي سيُذبح فيها ملايين البشر، في حين ظل المسيحيون ينتظرون المجيء الثاني للمسيح، وهو ما يعلّق عليه ميمونيدس (موسى بن ميمون) باعتدال بالغ في الواقع، قائلاً:

> «لو كان قد أعاد بناء الهيكل او كان نجح في لمّ شمل كل أسباط اسرائيل من الشتات لكان قد أصبح من الممكن اعتباره المسيح المنتظر. لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، بل أعدم. إذن فهو ليس المسيح الذي علّمتنا الشريعة أن ننتظر مجيئه.. لقد علمنا كل النبيين أن المسيح الذي ننتظره سوف يكون على يديه فداء اسرائيل وخلاصها وإنقاذ شعبها من النفي، وترسيخ شريعتها، لكن هذا كان المتسبب في دمار اسرائيل، وكان المتسبب في استسلامها للذل والشتات، وكان المتسبب في إفساد الناموس وفي تضليل العالم بعبادة إله غير إله اسرائيل.. لكنه عندما يأتي المسيح الحق المنتظر ويعلو ويسود سوف يتغير كل هذا ويظهر زيفه وعقمه».

ينبني الإيمـان اليهـودي[٢٨] عـلى أن «المسيـح بن داود»، أي ابن آدم (ابن الإنسان)، المسيح المنتظر، عندما يجيء، سيصبح في العالم دين واحد، هو دين يهوه، وستتعاظم المعـرفة، وسيكـون الرب وحـده واسمـه «يهوه إلـه اسرائيل»؛ وعـلى أن، ذلك المسيـح المنتظر عنـدما يتسيد العالم، «سيمحق البعض، ويـرفع البعض»؛ وعـلى أنه عنـدما يجيء، سوف يسود السلام، ويصبح السلام أبديـاً، وحتى الوحـوش الكـاسرة لن تؤذي أحداً، وبمجيئـه يتحقق خلاص اسرائيـل أبـديـاً، ويكـون خلاص أورشليم بـاستيطـان «الشعب» لهـا دون شريـك من الجوييم.

وبمجيء المسيـح المنتظر «سيشفى» الهـواء ذاته وتقـوى الطبيعة وتطول أعمار البشر.

وسيكون الخلاص الذي يأتي به المسيح المنتظر مصحوباً بانبعاث الموتى.

وعندما يجيء المسيح المنتظر سوف يلتئم شمل اسرائيل بشكل لم يسبق له مثيل منذ أيام رحبعام بن سليمان.

وبعـد مجيء المسيح المنتظـر بوقت قصـير للغايـة ستنشب حرب جوج وماجوج (معركة هرمجدّون).

وفي تلك الحرب سيكون النصر لاسرائيل وستنتقم اسرائيـل من كل أعدائها، من كل «الأمم».

وستعلى توراة موسى وستنتشر في كل أركان الأرض الأنباء السـارة عن اتّباع التوراة وعن صدق وصاياها.

وسـوف تتبع وصيـة الختان التي أمـر بهـا يهـوه في كـل أجيـال اسرائيل. لأن يهوه لن يتخلّى عن اسرائيل ولن يستبدلها أبداً بأمّة غيرها.

لأن أورشليم والهيكل يدعيان مستراح قدميّ يهوه.

وحيثما وردت في الأسفار المقدسة لفظة «عبراني» فهي تعني اسرائيل.

هذه هي أنباء الفرح في أيام المسيح الآتية.

هذه هي أنباء الفرح وبشارة خلاص اسرائيل الأبدي.

وكما هو موعود في النبوءات، سوف ينقذ يهوه الإلّه الرحيم شعبه من عذاب جهنم.

إعلانات الإيمان هذه، وهي كثيرة، تشكّل أسساً جوهرية في اليهودية، وتصوّر وجهاً بالغ الصعوبة من مأزق الديانة المسيحية في مواجهة تلك الديانة الأولى الأقدم التي شكّل كتابها، «العهد القديم»، الجزء الأكبر والأهم من كتاب المسيحية.

ويتمثل ذلك المأزق في إيمان المسيحيين بأن يسوع الناصري الذي تضمنت الأناجيل تاريخه وتعاليمه في «العهد الجديد»، هو المسيح الذي بشرت بمجيئه نبوءات «العهد القديم»، في حين يرفض اليهود ذلك ويتمسكون بأن المسيح الموعود لم يأت بعد. والذي لا سبيل إلى المراوغة في شأنه أن ذلك الانتظار لمجيء المسيح المنتظر يظل حجر الزاوية في الإيمان اليهودي. ولقد كان من أسباب طرد اليهود من إسبانيا سنة ١٤٩٢ (وهو ما اعتبره مؤرخوهم أكبر كارثة حلّت بهم بعد تدمير الهيكل الثاني سنة ٧٠ م. وهزيمة بار كوخبا سنة ١٣٥ م.) كتاب «المحكّ» الذي جمّع فيه الحاخام شام توف بن اسحاق ابن شبروط البراهين من العهد القديم على كذب الادعاء المسيحي بمجيء المسيح في شخص يسوع الناصري أو «ذلك الذي لا يسمّى والذي يمحى ذكره واسمه»، «ذلك الشخص»، «ذلك المشنوق».

في ذلك الكتاب الذي يدحض كون ابن مريم مسيحاً، والذي توجد نسختان مخطوطتان منه في المكتبة اللاهوتية اليهودية الأميركية

بنيويورك ومخطوطة أخرى بالمكتبة الوطنية بباريس، يورد الحاخام «الآيات» الواردة بالعهد القديم والمثبتة لأن المسيح المنتظر لم يأت بعد، فيقول:

(١) انه مكتوب بالأنبياء:

«(سوف) أجمعهم إلى أرضهم ولا أترك بعد واحداً منهم بأراضي الأمم أعدائهم».

(حزقيال ٣٩: ٢٨).

وهو ما لم يحدث بعد.

(٢) ومكتوب أيضاً:

«(سوف) يؤتى إليك (يا اسرائيل) بثروات الأمم وتقاد ملوكهم. لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك (يا اسرائيل) سوف تبيد وخراباً تخرب الأمم»...

(اشعياء ٦٠: ١١ و١٢)

وهو ما لم يحدث بعد.

(٣) ومكتوب أيضاً عن جوج وماجوج (التسمية الأسطورية المطاطة «للأمم» أعداء اسرائيل):

«وتاتي من موضعك من اقاصي الشمال انت وشعوب كثيرون معك كلهم راكبون خيلاً جماعة عظيمة وجيش كثير. وتصعد على شعبي اسرائيل كسحابة تغشى الأرض. في الأيام الأخيرة يكون هكذا. وآتي بك على ارضي لكي تعرفني الأمم حين أتقدّس فيك امام اعينهم يا جوج.. ويكون في ذلك اليوم، يوم مجيء جوج على أرض اسرائيل، يقول السيد الرب يهوه إن غضبي يصعد في انفي. وفي غيرتي في نار سخطي تكلمت انه في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في ارض اسرائيل. فترعش امامي اسماك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدواب التي تدب على الأرض وكل

الناس الذين على وجه الأرض وتندك الجبال وتسقط المعاقل وتسقط كل الاسوار إلى الأرض. واستدعي السيف عليه في كل جبالي يقول السيد الرب يهوه. فيكون سيف كل واحد على اخيه. واعاقبه بالوباء وبالدم وامطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الكثيرة الذين معه مطراً جارفاً وحجارة برد عظيمة وناراً وكبريتاً فاتعظم واتقدس واعرف في عيون امم كثيرة فيعلمون اني انا الرب».

(حزقيال ٣٨: ١٥ و١٦ و١٨ ـ ٢٣)

وهي المعركة التي لم تقع بعد[٢٩].

(٤) ومكتوب أيضاً:

«ويبيد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر (النيل) بقوة ريحه ويضربه إلى سبع سواق ويجيز فيها بالأحذية وتكون سكة لبقية شعبه التي بقيت من اشور كما كان لاسرائيل يوم صعوده من أرض مصر».

(إشعياء ١١: ١٥ و١٦)

وهو ما لم يتحقق بعد.

(٥) ومكتوب أيضاً:

«فيخرج الرب ويحارب كل الامم كما في يوم حربه يوم القتال. وتقف قدماه في ذلك اليوم على جبل الزيتون الذي قدام اورشليم من الشرق فينشق جبل الزيتون من وسطه نحو الشرق ونحو الغرب وادياً عظيماً جداً وينتقل نصف الجبل نحو الشمال ونصفه نحو الجنوب.. ويكون في ذلك اليوم أن مياهاً حية تخرج من اورشليم نصفها إلى البحر الشرقي ونصفها إلى البحر الغربي».

(زكريا ١٤: ٣ و٤ و٨)

وهو ما لم يتحقق بعد.

(٦) ومكتوب أيضاً:

«فيطرقون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب بعد».

(إشعياء ٢. ٤)

وهو ما لم يتحقق بعد.

(٧) ومكتوب أيضاً:

«ويكون الرب ملكاً على كل الأرض. في ذلك اليوم يكون الرب يهوه وحده ويكون اسمه يهوه وحده».

(زكريا ١٤: ٩)

وذلك ما لم يحدث حتى الآن لأن «معظم أمم الأرض ما زالت تعبد الأصنام»[٣٠].

ولما لم تكن أي نبوءة من تلك النبوءات قد تحققت حتى عصر الهيكل الثاني، وحتى زمان الحاخام شام توف بن اسحق في الربع الأخير من القرن الرابع عشر (وما بعده)، وكلها نبوءات مقضيّ بتحقّقها على يديّ المسيح المنتظر، فإنه **يتبع من ذلك يهودياً أن المسيح المنتظر لم يأتِ بعد ويتعين انتظار مقدمه في زمان آت يقود فيه جيش «أبناء النور» ضد جيش «أبناء الظلام»، أي ضد جيش جوج والشعوب الكثيرة الشريرة المعادية لـ «شعب الله المختار»، ويُمحَق فيه أبناء الظلام وتتحقق النبوءات ويبدأ العصر الألفي السعيد الذي تحكم فيه صهيون كل الأمم وتنبذ كل الأمم الحرب فتحول سيوفها إلى محاريث ورماحها إلى مناجل في ظل سلام صهيوني شامل تخرج فيه الشريعة من صهيون، وتختفي كل الأديان، فلا يبقى إلا يهوه وحده ولا تبقى إلا عبادته. والنتيجة التي لا مهرب منها لكل هذه الحقائق أن الناصري ادّعى باطلاً أنه «مسيح الرب»**.

وكما هو واضح، هذا مأزق حقيقي للديانة المسيحية التي أخذت

منطلقاتها التاريخية (خَلْق العالم، و«الآباء» وكل ذلك) من اليهودية، فهو منطو على إنكار قاطع لنبوّة الناصري الذي يصبح ـ تبعاً لذلك وفي أخفّ تعبير ـ مجرد «حالم آخر من عديد الحالمين الذين ادّعوا أنهم المسيح المنتظر» كما يقول رافائيل باتاي[٣١]، وفي أقسى تعبير يصبح مضللاً ومفسداً وكذاباً كما يقول التلمود.

وقد حاول آباء الكنيسة الإفلات من ذلك المأزق الخطر بالتشبث بحيلة «الكناية» و«الرمزية»، ففسروا الآيات الواردة في العهد القديم باستخدام تلك الحيلة التي استخدمها اليهود قبلهم فيما يتعلق بنشيد الأنشاد مثلاً عندما وصفوه بأنه «كناية» عن عشق يهوه لاسرائيل. وفي الوقت نفسه، ركّزوا، سيراً على خط أوغسطين، على حكاية العصر الألفي السعيد، فقالوا انها لا يجب أن تؤخذ مأخذاً حرفياً نظراً لأنها مسألة روحانية لا مادية وأنها كناية عن العصر الذهبي الذي دخلته الكنيسة بعد صلب المسيح (يسوع الناصري) وقيامه وصعوده، وبذلك ـ كما علّم أوغسطين في كتابة العمدة، «مدينة الله» ـ تكون الكنيسة الكاثوليكية نهاية للتاريخ (آخر الأيام) والتجسد الماثل في العالم لملكة الله على الأرض.

كان ذلك المخرج الأوغسطيني بداية مسار استمر من القرن الخامس إلى القرن السادس عشر. وفي عنفوان انتصار الكنيسة الكاثوليكية الذي تمثل في تأسيس العرش البابوي في روما، في ظل غريغوري الأكبر، سنة ٥٩٠، اتخذ ذلك المسار شكل العقيدة الثابتة الخالصة التي اعتُبِر كل ما عداها هرطقة، والتي انبنى منهجها على تجنب التفسيرات الحرفية لنصوص العهد القديم. إلا أن هذا التجنب للحرفية لم يكن شاملاً. ففيما تعلّق باليهود وفلسطين، لجأ الفكر الكاثوليكي إلى أسلوب «وشهد شاهد من أهلها»، فتمسك بحرفية الادانات التي لم يكف النبييم عن توجيهها إلى «الشعب»، واستخدم تلك الإدانات في القول بأن اليهود وقعوا في الخطيئة، أي «فعلوا الشر في عيني يهوه» كما قال النبييم، وأن الله (أي يهوه)

عاقبهم على ذلك بدمار الملك والهيكل والسبي من فلسطين إلى بابل. وباستخدام ثيمة «الخطيئة» هذه، قالت الكنيسة الكاثوليكية إن اليهود عادوا فأغضبوا الله بإنكارهم للمسيح يسوع الناصري، فكان عقابه لهم ما فعله بهم الرومان وما ترتب عليه من دمار للهيكل الثاني ومن شتات.

تبعاً لهذا المنطق الكاثوليكي، لم يعد هناك مجال للتمسك بحلم مجيء مسيح آت يخلّص اليهود ويقيم مملكة الله (مملكة يهوه) على الأرض. فالمسيح الذي بشّرت بمجيئه النبوءات الواردة في أسفار النبييم بالعهد القديم قد جاء بالفعل، و«الفداء» الذي تحدثت عنه تلك النبوءات قد حدث بالفعل، ولكن لكل البشر الذين افتداهم الناصري، و«الخلاص» قد بات في متناول كل البشر بما علمهم به، ومملكة الله على الأرض قد قامت ممثلة في الكنيسة الكاثوليكية. وفي الوقت نفسه، لم يعد لليهود ـ بعدما أغضبوا الله عليهم وبعد حكمه عليهم بالشتات ـ أمل أو حق في التشبث بدعوى كونهم أمّة تنتظر الفداء والخلاص من الشتات، إذ وضع الله حداً لوجودهم كأمّة، ولم يعد أمامهم من سبيل إلى خلاص إلا الخلاص الفردي، باعتناق المسيحية، إذ لم تعد هناك اسرائيل يتحقق خلاصهم بالعودة إليها إلا **اسرائيل الجديدة والحقّة، الكنيسة الكاثوليكية**.

فالكنيسة الكاثوليكية، وقد رأت أن مسيرة التاريخ اكتملت بقيامها مملكة لله على الأرض، رأت أن اليهود تحققت فيما يخصّهم نبوءات الفداء والخلاص والعودة عندما مُكِّنوا، في ظل قورش الذي أخطأوا فاعتبروه مسيح الرب، من العودة إلى أورشليم وبناء الهيكل الثاني إثر هزيمة الامبراطورية البابلية على أيدي أعدائها الفرس، لكنهم ضيّعوا فرصتهم بإنكارهم نبوّة المسيح يسوع الناصري، ولن يمكّنوا ثانية من خلاص أو عودة أو من إعادة بناء الهيكل.

وبإقامة العرش البابوي في روما، بدأ مركز الثقل الديني ينتقل من أورشليم إلى روما. ورويداً، رويداً، أخذت المدينة تفقد بريقها القديم

ووضعها كـ «عاصمة مملكة الله»، إذ حلت روما محلها، وان ظلت ـ مع ذلك ـ هي وكل فلسطين تباشر جاذبية خاصة أضفتها واقعة ظهور المسيح وقيامه برسالته فيها، وبذا تحولت إلى مزار مقدس يحج إليه المؤمنون. وتخبرنا توخمان[٣٢] أنه وإن أخذت أورشليم تسلم المقاليد إلى روما، إلى أن انتقل مركز السلطة الدينية إلى أوروبا بتأسيس العرش البابوي سنة ٥٩٠ م. فانها ظلّت الوطن الروحي، أي ظلّت «أمّنا جميعاً» كما قال القس لبطل السير والتر سكوت في روايته المشهورة «أيڤانهو» (!) حتى وان تضاءلت مكانتها الزمنية.

وبانتقال مركز الثقل الديني إلى روما والعرش البابوي، سادت النظرة الكاثوليكية إلى اليهود وإلى القدس وفلسطين، وهي نظرة لم يكن فيها مجال لادعاء أي أساس ديني أو غيبي لحق يهودي في القدس أو في فلسطين. وحتى عندما شنت أوروبا حروبها الصليبية، وبعثت بجحافلها الظامئة إلى الدم الممعنة في الوحشية والجشع، لم يكن هناك مكان في دعاواها الدينية لليهود أو الهيكل أو مملكة يهوه، وهو ما تؤكده المؤرخة اليهودية توخمان بقولها[٣٣] أن هيكل يهوه أو أي أمر تعلق به كان أبعد شيء عن أفكار الصليبيين بل وان صيحتهم «أورشليم ضُيِّعت» التي ظلت من زمانهم إلى عهد هتلر إشارة مذابح اليهود كانت صيحة متفقة تماماً مع كونهم، رغم ادعاء قادتهم بأنهم ذهبوا إلى الحرب مسلحين بـ «سيف يهوذا المطرقة» أو «سيف المكابيين»، على حد قول البابا أوربان، بدأوا حملتهم بتوجيه الضربة الأولى إلى شعب المكابيين (اليهود) على الأرض الأوروبية نفسها قبل أن يبارحوها ذاهبين إلى فلسطين. فكل اليهود الذين وجدهم المحاربون المسيحيون في طريقهم أبادهم أولئك المحاربون بحد السيف وكأنهم لم يطيقوا أن ينتظروا حتى يبلغوا مقصدهم (فلسطين) ليرووا ظمأهم إلى الدماء. ومن وجه بعينه يمكن القول إن تلك المذابح الجماعية لليهود في أوروبا على أيدي الصليبيين وهم في طريقهم إلى أورشليم كانت طعنة تمهيدية سُدّدت إلى صدور «الكفار»

في أشخاص اليهود الذين كانوا أول ضحايا متاحة في متناول اليد، خصوصاً وأنه أشيع أنهم كانوا «قد توصلوا بخبثهم الشيطاني» إلى استعداء الترك[٣٤] على المسيحيين في الأراضي المقدسة، فوق أن تلك المذابح كانت فرصة للنهب الذي ظل من الدوافع القوية لدى الصليبيين. وتؤكد توخمان أن الكراهية الشعبية لليهود في أوروبا لم تكن قوية بشكل خاص إلى أن أشعلتها الحروب الصليبية.

وبطبيعة الحال، لا تذكر المؤرخة شيئاً عن أسباب تلك الكراهية لليهود، مكتفية بإعطاء انطباع تعلم أنه يجد منفذاً سهلاً إلى عقول قرائها المعاصرين بأنها الكراهية الناجمة عن التعصب وضيق الأفق و ـ كما تقول في موضع لاحق من كتابها ـ عن ثراء اليهود واقراضهم أموالهم بالربا. غير أنه مما له مغزى لم تحاول السيدة توخمان التوقف عنده أنه في السنة نفسها، ١٢٩١، التي سقطت فيها عكا وانزاح كابوس الصليبيين عن أرض فلسطين، طرد اليهود من بريطانيا، مكتفية بالقول[٣٥] بأن آخر الصليبيين الانكليز، ادوارد الأول فضّل أن يأخذ كل أموال اليهود بضربة واحدة بدلاً من أن يظل يعتصر نبعها الذي كان قد بدأ يجف، فطردهم من انكلترا واستولى للتاج على كل ما اضطروا إلى تركه وراءهم من أموال وممتلكات.

****

٦ عصر الاصلاح الديني والانقلاب البروتستانتي

لكن دوام الحال من المحال، كما يقولون. خصوصاً متى كانت وراء الحال أيد قادرة متصفة بالتصميم عاقدة العزم على تغييره. وفي حالة المسيحية، تحقق ذلك في مبدأ الأمر على يديّ شاول الذي أصبح بولس وامتلأ بروح القدس. إلا أن بولس لم يكْفِ، على الرغم من كل ما قام به من أعمال جليلة، فتعيّن أن يكون هناك ورثة له يقومون باتمام ما بدأ.

ويوقفنا تاريخ العملية الطويلة التي ما من سبيل إلى تسميتها إلا باسم تهويد المسيحية وإفراغها من كل ما كان يجعل منها ديانة جديدة مستقلة، على أن أهم أولئك الخلفاء الذين أتموا عمل بولس/شاول كان مارتن لوثر الذي أقام دعواه على أن الديانة كانت قد فسدت على يديّ الكنيسة وأنه أخذ على عاتقه إصلاحها، سيراً على خطى بولس.

وفي الوقت الذي كان مارتن لوثر يأخذ فيه تلك المهمة الجليلة على عاتقه في ألمانيا، كان الملك الانكليزي المزواج هنري الثامن مشتبكاً في صراع لا علاقة له بالدين أو بأسس العقيدة مع كنيسة روما.

فشتان ما بين دوافع مارتن لوثر ودوافع هنري البدين قاتل زوجاته. إلا أن كل دارس للتاريخ يدرك أن ذلك التاريخ ليس، من بعض أوجهه، إلا سجلاً لدواعي السخرية ونتائج الحماقة الانسانية وعواقب الصغار الانساني، ويدرك ـ في الوقت نفسه ـ أن تلك النتائج والعواقب شكّلت في حالات عديدة عوامل تحول وانقلاب في مسارات قد لا يجد العقل، لأول وهلة، علاقة بينها وبين ضروب الحماقة وأشكال الصغار التي أفضت إليها. فالخلاف الذي نشب بين هنري الثامن وبين كنيسة روما، مثلاً، كان حول طلبه الموافقة على طلاقه من

زوجة لم يستطع التخلص منها كما تخلص من غيرها على نطع الجلاد في برج لندن. غير أن ذلك الخلاف الشخصي العائلي شكّل في النهاية بداية مسار لم يخطر ببال أحد ممن انخرطوا فيه عظم ما أدى إليه من نتائج.

كما انه لم يخطر ببال أحد أن هنري الثامن، عندما أصدر أمره الملكي سنة ١٥٣٨، إلى كل كنائس انكلترا بإنهاء الوصاية الكهنوتية على «الكتاب المقدس» وتفسيره وتمكين كل فرد من المؤمنين من الاطّلاع على نصوص الأسفار المقدسة وتفسيرها لنفسه التفسير الذي يمليه عليه عقله وضميره، عملاً على إنهاء سلطة الكنيسة، كان أمره الملكي ذاك بداية لإصابة الشعب الانكليزي بما أسماه الكاتب الويلزي جون بوويز بـ «هَوَس العهد القديم»، **وهو هَوَس قال ذلك الكاتب إنه جعل الانكليز غير قادرين على «ممارسة الدين إلا من خلال كل ما هو مشرب بالمشاعر اليهودية وكل ما هو نتاج للمخيلة اليهودية».**

وليس هناك ما يبرر القول، على الرغم من كل هذا، أن هنري الثامن كان المتسبب بمشاكله الزوجية في بزوغ عصر الإصلاح الديني. إلا أنه ما من شك في أن غضبته الملكية على كنيسة روما لحرونتها معه، وتصميمه على إخراج كنيسة بلاده من سلطة روما وإخضاعها للسلطة الزمنية الانكليزية ممثلة في شخصه، واستصداره ـ تحقيقاً لتلك الغاية ـ تشريعاً من البرلمان سنة ١٥٣٥ جعله الرئيس الأعلى لكنيسة انكلترا، ما من شك في أن هذه كلها كانت عوامل مساعدة قوية بالغة الفعالية دفعت قدماً وعززت تيار ما أسمي بالإصلاح الديني.

غير أن هنري الثامن لم يكن وحده على تلك الساحة. فقد كانت هناك ـ بجانب دوافع هنري السياسية وخلافاته الشخصية ـ طموحات الطبقة الرأسمالية التي كانت ناشئة صاعدة آنذاك. فالتجار الأثرياء الذين تشكلت منهم نواة تلك الطبقة كانوا كارهين أشد الكره

لسطوة كنيسة روما وقيودهـا على حـرية التجـارة والمعامـلات الماليـة وبخاصة فيما تعلق بمسألة الفوائد على رؤوس الأموال (أي الربـا)، ضـائقـين أشـد الضيق بمـا رأوه تـدخـلاً غـير مشروع من جـانب بيروقراطية كهنوتية أجنبية في أنشطتهم التجارية ومعـاملاتهم المـالية ومتضررين ممـا كـانت تفـرضـه من ضرائب عـلى تلـك الأنشطـة والمعاملات. وباختصار، كانت هناك ـ بجـانب دوافع هنـري الثامن ـ دوافع المركانتيلية إلى رغبة التحرر من سلطان روما.

والـواقع أن هنـري الثامن، عنـدما أصـدر أمره إلى كنـائس بلده بجعل «الكتاب المقـدس» متاحـاً لكل وأي فـرد من الشعب الانكليزي كيما يقرؤه ويرجع إليـه ويستمد منـه ـ تبعاً لفهمـه الخاص ـ أسس معتقداته ومعظم معلوماته «التاريخية»، بعد ثلاث سنوات من حلـوله محل بابا روما رئيساً أعلى لكنيسة انكلترا، كان مستفيداً من مبـادأة أولئك الرأسماليين الناشئين الذين لم يكتفوا بالتململ من سطوة روما والتطلـع إلى التخلص من قبضة كنيستهـا على الأرواح والعقـول، بل قرنوا التململ والتطلع بالفعل والتمويل. وكـانت مبادأتهم هـذه أشبه بمؤامرة دينية/ مـالية تمثلت في تشجيـع وتمويـل عملية ظلت إلى أن فصل هنري كنيسـة انكلترا عن كنيسـة روما جـريمة عقـابها المـوت حرقاً بتهمة الكفر وإفساد الدين، هي عمليـة الترجمـة غير المشروعـة وغير المصرح بها من الكنيسة لـ «الكتاب المقدس»، إلى الانكليزية.

وفي الصميم، كانت تلك مسألة سياسية متعلقة برغبة كنيسة روما في الإبقاء على سلطتها الروحية وامتدادات تلك السلطة الروحية زمنياً من خلال احتكار وضع المرجع الأساسي صاحب القول الفصـل في كل ما له علاقة بالدين وبنصوص الكتاب وبتفسيرها. وكما قلنا، كان آباء الكنيسة قد لجـأوا في شأن نصـوص العهد القـديم ونبوءاتـه إلى ما وجدوه حلاً أمثل في شـأن تلـك النصوص والنبـوءات المكوِّنـة لأسس ديانة منكِـرَة لنبوّة يســوع الناصري متمسكـة بانتظـار مجيء مسيح مـوعود، وكـان ذلك الحـل الأمثل التفسـير الرمـزي لا الحرفي لتلـك

النصوص والتنبؤات. وفي الصميم أيضاً، كانت مسألة إخراج الكتاب المقدس من حكر ترجمة القديس جيروم اللاتينية وحكر تفسيرات الكنيسة الكاثوليكية له، مسألة سياسة تعلقت برغبة حركة «الاحتجاج» الديني التي عرفت باسم البروتستانتية في استخدام نصوص الكتاب ونبوءاته أسلحة في حرب العصابات الدينية التي شنت على كنيسة روما وعلى الكاثوليكية تحت اسم «الاصلاح الديني».

وقد كان شنّ حرب العصابات هذه من جانب البروتستانتية البازغة تحت شعار «العودة إلى الأصول» أي العودة إلى حرفية «الأسفار المقدسة». ولم يكن القصد الحقيقي من ذلك، رغم الورع البالغ، إلا سياسياً، تمثل في العمل على هدم مفهوم «الكنيسة الكاثوليكية المعصومة من الخطأ» وبالتالي هدم السلطة التي رآها «المحتجّون»، البروتستانت، طغياناً غير مبرر لا على العقول والأرواح فحسب بل وعلى الخزائن والجيوب ومؤسسات الحكم وإدارة المجتمعات أيضاً، و**إحلال سلطة «الكتاب» باعتباره المعصوم من الخطأ حقيقة لكونه «كلام الله» محل سلطة البابوية الغاشمة، وهو إحلال أفرخ ما يصفه بقدر كبير من السرور الكاتب اليهودي المعاصر مائير فيريتي بأنه كان دعوة صائبة ومخلصة «للمؤمنين للعودة إلى الكتاب المقدس نفسه بوصفه الأصل والنبع الحقيقي للدين وبالتالي إلى فهم كل نص من نصوص الكتاب بمعناه البسيط الواضح (أي الحرفي)»**[٣٦].

فالضرورة السياسية اتخذت هنا شكل «العودة إلى الأصول البسيطة الواضحة» والحرفية التي يتعامل معها المؤمن تعاملاً فردياً مباشراً بغير وساطة من كهنوت كنسي وبغير أية قيود على فهمه الفردي وأحكامه الخاصة على ما يقرؤه من **نصوص هي في حقيقتها صياغات ملغّزة أكد أحبار اليهود باستمرار أنها تحتمل التفسير بأي معنى من ستمائة ألف معنى.**

وذلك اتجاه لم تكن الحركة البروتستانتية، وبخاصة اللوثرية، بغافلة عن مخاطره، إلا أنها ـ ببراغماتية السياسة ـ قبلت بتلك المخاطر مرحلياً، وظلت راضية بها إلى أن رسخت أقدامها وبلغت وضع التكافؤ مع الخصم (الكاثوليكية)، فاستدارت وبدأت عملية لم تقل ضراوة عن أنشطة محاكم التفتيش للقضاء على ما أفرخه ذلك الاتجاه البراغماتي من هرطقات وجدت البروتستانتية اللوثرية والكالفينية بمكنتها ـ بعد أن ترسّخت أقدامها وباتت لها كنيستها النِدّ للكنيسة الكاثوليكية ـ أن تصم مروّجيها من المعمدانيين وأشباههم بـ «التهويد» وإنكار الثالوث المسيحي والترويج لمعتقدات المسيح المنتظر والعصر الألفي!

غير أن ذلك الضرب من اليقظة البروتستانتية التي جاءت بعد فوات الأوان كان في القارة، في ألمانيا، وهولندا وغيرهما من البلدان التي اجتاحها الاصلاح البروتستانتي. أما في انكلترا فاختلف الأمر تماماً إذ كان التحوّل قد بدأ في ذلك البلد الأنكلو ساكسوني بداية تجارية (مركانتيلية)(*) أكثر منها سياسية أو اعتقادية. فتجار لندن الأثرياء كانوا، كما أشرنا، قد سبقوا تمرد هنري الثامن على كنيسة روما لدواعيه السياسية والشخصية، بتآمر كانت مسبباته متعلقة أساساً برغبتهم في تحرير الأنشطة التجارية والمعاملات المالية من قيود ومعوقات رأوا أن التبعية لكنيسة روما كانت تكبل تلك الأنشطة والمعاملات بها. وكان تآمرهم ذاك عملياً أوحى به الاتجاه البروتستانتي في ألمانيا إلى ترجمة الكتاب المقدس وجعله في متناول المؤمنين بلغاتهم الوطنية، فعمدوا إلى تمويل ترجمة الكتاب إلى

(*) المركنتيلية (Mercantilism) مصطلح يعبّر عن مفاهيم وممارسات التجار الأوروبيين خلال القرون من السادس عشر إلى التاسع عشر، وهي مفاهيم وممارسات ما زالت رائجة في عصرنا تحت اسم «الحمائيّة». فتجار تلك الأزمنة أقاموا حساباتهم على أن الكسب لا يتحقق إلّا على حساب خسارة الآخرين، اي الأمم الاخرى المنافسة وأن النصر الأكبر هو تدفق الذهب والفضة على خزائنهم، والهزيمة هي العكس. وفي هذا السياق كان انخراط اولئك التجار في عملية «الاصلاح الديني».

«العامية» (أي الانكليزية) باعتبار اللاتينية اللغـة «الفصحى» في ذلك الخصوص، على يدي ماثيو تيندال ومايلز كـافرديـل، خارج انكلتـرا، ابتداء من سنة ١٥٢٠.

وكما قلنا، كـانت تلك مخـاطرة كبـرى من جانب من أخـذوا نقود التجار الانكليز وانخرطوا فيها. فصراع هنري الثامن مع كنيسة روما لم يكن، عندما فعلوا ذلك، قـد بدأ بعـد، وكان إقـدامهم على تـرجمة الكتاب المقدس بغير تصريح من السلطات الدينية جريمة عقابها الموت حـرقاً. ولقـد كان ذلـك هو المصـير الذي لحق بتينـدال سنة ١٥٣٦، عندما أُحرِق بأمر الامبراطور شارل الخامس. ويقال إن الذي وشى به وأوقعه في يديّ شارل الخامس كـان سير تـوماس مـور الذي أعـدمه هنري الثامن فيما بعد، لاعتراضه على مشروع من مشروعات طـلاقه، في برج لندن.

غير أنه لا إحراق تيندال على أيدي الكاثوليك، أو إحراق ميخـائيل سيرفيتوس وفرانسس كِتّ، على أيدي البروتستـانت بعد أن أصبحت للبروتستانتية كنيسة ذات مصالح، غيّر أو انتقص شيئاً من نتائج مـا كان قد تحقق من «**تحوّل بعيد المدى عميق الأثر في المسـار الديني للمسيحية الانكليزية ترتب عليـه أن بات يهـوه إلّه اليهـود إلّهاً لانكلتـرا، وحـلّ أبطـال العهـد القـديم وأنبيـاؤه محـل قـدّيسي المسيحية**»، كما تقول بربارا توخمان بقدر كبير من الاستمتاع[٣٧].

وللمؤرخـة اليهـوديـة كـل الحق في أن تستمتـع، متى أخـذنـا في اعتبـارنا امتـداد ألوهـة يهوه إلى أمـيركا، وحلـول مفهـوم إسرائيـل التوراتية (مجسداً في اسرائيل المعاصرة) لا محلّ «قـديسي المسيحية» كمـا قالت تلـك السيدة، بـل محل الإلّـه عينـه، كمـوضـوع لعبـادة المسيحيين الأميركيين، مع كل ما ترتب على ذلك سياسيـاً، وعسكريـاً، وجيوبوليطيقياً.

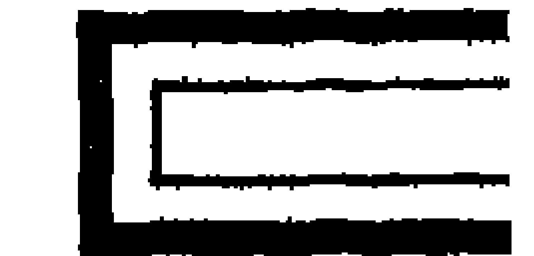
بكلمـة، يمكن القول إن التحـوّل الذي تمخّض عنـه ذلـك الحلـول

اليهيوي كان انقلاباً بالمعنى المأخوذ به في زماننا. فالبروتستانتية كانت ـ في التاريخ الأوروبي وما تفرع عنه في «العالم الجديد» ـ حركة انقلاب سياسيّة/ لاهوتيّة/ فكريّة/ اجتماعيّة ما زال العالم يشهد مسار ما تمخضت عنه صوب جائحة عالمية لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما قد تتسبب فيه من دمار ومعاناة ومذابح.

وحتى لا نظل ندير ظهورنا بغير اكتراث لـ «هذه الحكايات القديمة» أو نتوجع من «النبش في أسس الكتاب المقدس»، نتوقف لحظة فنتدبر مثالاً واحداً مبكراً على ما نشير إليه، في كلام تلك المؤرخة عن اللورد بالفور، صاحب الوعد الذي كان ـ من أي زاوية نظرنا إليه ـ ابتداء عملياً لعملية التدخل الانساني تنفيذاً للوعد الإلّهي الذي يقول العهد القديم، وتؤمن البروتستانتية حرفياً، بأنه صدر لـ «الشعب المختار»، في قولها إن **صهيونية بالفور نتجت عن انكبابه في أيام صباه على دراسة العهد القديم تحت دفع حثيث من والدته المتدينة تديناً عميقاً**[٣٨].

وقد يفيد أيضاً أن نتدبر قول ديفيد بن غوريون، الذي أعلن صراحة أنه لا يؤمن بوجود شيء اسمه الله، أن «**كتاب المسيحيين المقدّس شكّل أقوى وثيقة لملكية اليهود لفلسطين بأرومة تعود إلى ٣٥٠٠ سنة مضت**»[٣٩].

****



٧ هَوَس العهد القديم وتهويد المسيحية في الغرب

أي انقلاب كان ذلك الذي نتحدث عنه والذي يواجه المعاصرون في زماننا مسيرة نتائجه صوب الاكتمال؟

منذ البداية، بدا كما لو كانت المسيحية وليدة لليهودية أو ـ بالأقل ـ امتداداً لها. وقد أوجد ذلك الانطباع وقوّاه تراوح آباء الكنيسة في موقفهم من تخريبية شاول الذي امتلأ من الروح القدس بغتة بعد اضطهاد طويل للديانة الجديدة فغيّر اسمه إلى بول وشمّر عن ساعد الجد، وبحجة الترويج للمسيحية عمل على تخريبها بردّها إلى اليهودية وإفراغ تعاليم المسيح من مضامينها المسيحية. ولم يكن من قبيل المصادفة أو العبث أن بولا ذاك أو بولس أفرخت تحريفيته الانقلاب البروتستانتي في القرن السادس عشر.

كما قوى انطباع الامتداد اليهودي في المسيحية وأضفى عليه تصديقاً رسمياً قبول آباء الكنيسة بالجمع بين كتابات اليهود الدينية التي ادّعيت للكتب الخمسة الأولى منها، باطلاً (كما يعترف اليهود الآن)، صفة «الوحي» بمقولة أنها «كلام الله إلى موسى»، وبين «الأناجيل» التي تعتبر تأريخاً بشرياً لحياة المسيح وترديداً لتعاليمه، بالاضافة إلى سجل أنشطة بولس ورسائله و«رؤيا» يوحنا اللاهوتي الأخروية، واعتماد أولئك الآباء الأول لهذا التجميع بين «العهد القديم» (كتابات اليهود) و«العهد الجديد» بأسفاره السبعة والعشرين، باعتبار التجميع «الكتاب المقدّس».

ولما لم يكن في «العهد الجديد» ما ادّعى أحد أنه «كلام الله إلى المسيح»، بعكس ما هو مدّعى للتوراة (الأسفار الخمسة الأولى من «العهد القديم») من قدسية القول الإلّهي، فإن ذلك الجمع بين «العهدين» جعل بالوسع (وهو ما فعله البروتستانت عند قيامهم

• بانقلابهم) الادعاء بأن الخليط الأسطوري/ الفولكلوري الذي استُنسِخ من أساطير وفولكلور الشرق الأدنى القديم وأضفيت عليه صبغة إلّهية من خلال اقتباسات موسى من لاهوتيات الديانة المصرية[٤٠] هو «كلام الله»، وبالتالي الأساس «المقدّس» لمشروعية الديانة الجديدة (المسيحية) و«قدسية» الكتاب.

وقد كان الناصري على وعي بذلك، لكنه ـ فيما بدا ـ وجد استحالة في الجهر به، فقال:

> «لا تظنّوا اني جئت لأنقض الناموس (ناموس موسى) أو الأنبياء (نبييم العهد القديم). ما جئت لأنقض بل لأكمّل».
>
> (متى ٥: ١٧)

لكنه، قبل أن يعلن أنه ما جاء لينقض بل ليكمّل (ولا «يُكمَّل» إلاّ ما هو ناقص)، كان قد ناقض الجوهريات الأساسية لليهودية بقوله (فيما عرف باسم «موعظة الجبل»):

> «طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى. لأنهم يتعزّون. طوبى للودعاء. لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ. لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء. لأنهم يرحمون. طوبى للأنقياء القلب. لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام. لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البرّ. لأن لهم ملكوت السموات».
>
> (متى ٥: ٣ ـ ١٠)

وليس هذا، كما نظن أنه لا حاجة بنا إلى القول، مجال مفاضلات. فالمجال مجال استظهار التناقض الجوهري الأساسي الجذري الذي يعرّي من المصداقية حل آباء الكنيسة الأعرج ومحاولتهم التوفيق تركيبياً بين ما لم يكن هناك سبيل إلى التوفيق بينه من مواقف أساسية فكرية أخلاقية ودينية متناقضة.

والواضح أن الناصري، في تلك الموعظة التي ابتدأ بها نشاطه، وجد مما لا مهرب منه التكلم بما ندعوه الآن «ديبلوماسية»، أي تجنب المواجهة، والدوران حول المعنى «اكمالاً» للناموس، وفي حقيقة الأمر مناقضته من جذوره.

ومفتاح المسألة هنا كامن في قوله «طوبى لصانعي السلام، لانهم أبناء الله يدعون». فالمسيح الذي وعد يهوه «شعبه، ابنه البكر، اسرائيل»، بأن يبعثه إليه ، مسيح محارب صنديد أشبه بالسفاح يشوع. والناصري يقول هنا أنه عكس ذلك، وإنه جاء ليكون صانع سلام وليعظ البشر بأن يكونوا صانعي سلام وينبههم إلى أنهم يصبحون «أبناء الله» فقط عندما يكونون صانعي سلام. ومتى أمسكنا بذلك المفتاح، أفصح النص أمام أعيننا بالمناقضة الكاملة للموقف التوراتي من أساسه. فالديانة التي بنت دعواها على التوراة ديانة جعلت الإلّه «رجل حرب، ورب الجنود»، والناصري يناقض ذلك بإلّه رحيم وإلّه سلام، ويقول للبشر إنه «أبوهم الذي في السموات». واليهودية، من أول لحظة في صنع موسى لها، علمت «الشعب» أنه لا يحوز رضاء ذلك الإلّه المحارب، رب الجنود، إلّا إذا ظل شعباً محارباً دموياً كمعبوده، وفي العهد القديم نصوص لا تحصى تبين ان ذلك الإلّه المحارب أوشك أن ينقلب على «شعبه» فيفترسه في كل مرة قصّر «الشعب» فيها، لسبب أو لآخر، عن القيام بمذبحة جماعية امر بها. وعندما استجلب «الشعب» على نفسه بتلك الشراسة الدموية عداء وكراهية كل من احتك به أو عايشه من شعوب وتعرض للتدمير والسبي والمذلة والتشتيت، كان وعد معبوده له بالخلاص والفداء على يدي مسيح محارب دموي ينفذ «سخط الرب على كل الأمم وغضب الرب على جيوشهم ويحرّمهم ويدفعهم إلى الذبح حتى تطرح قتلاهم ويصعد نتن جيفهم وتسيل الجبال بدمائهم» (إشعياء ٣٤: ٢ و ٣)، إذ يقود جيش «الشعب» في يوم الهول هذا الذي يعد يهوه «شعبه»

بـأن «يضرب فيه كـل خيل الشعـوب (المعـاديـة لاسرائيـل) بـالعمى وراكبيهـا بالجنـون ويجعل أمـراء يهوذا كمشعـل نار فيـأكلـون كـل الشعوب عن اليمين وعن اليسار ويلتمس هلاك كـل الأمم الآتين عـلى أورشليم» (زكـريـا ١٢: ٤ و ٦)، وإذ ذاك ـ عـلى كـل تلـك الأشـلاء وبحار الدم والجيف المنتنة ـ تقوم «مملكة يهوه عـلى الأرض» بسيف المسيح المحارب. لكن مسيـح المسيحية، الـذي اعتبره اليهـود كاذبـاً ومفسداً ومضللاً ودعياً، يناقض ذلك كله، ويقول إنه هو المسيح، «ابن الانسـان»، ويعلّم بـأنّ «مملكـة اللـه» (ملكـوت السمـوات) ليست للمحـاربين شـاربي الدمـاء بل «للمسـاكين بـالروح» و «للمطـرودين (المرفوضين مثله) من أجل البرّ (من أجل الصلاح)» ويتمـادى فيقول أن اليهود، ما لم يكونوا رحماءَ وأنقياء قلب وصانعي سلام لن يكونوا أبناء لله ولن يكـون لهم ملكـوت سموات. وهـذا، بحكم كل كلمـة في التوراة والعهد القديم، كفر، هرطقة، ومخالَفة لـ «كلام الله إلى مـوسى وإلى النبيين»، وادعـاء قائلـه بأنـه «المسيح» ادعـاء باطـل ومكـذوب استحق أن «يشنق» بسببـه كـاللصـوص والقتلـة فيمـوت مصلـوبـاً و«يمحى اسمه وذكره»، كما يعلّم التلمود.

يقول المثل الانكليزي الفصيح إنك لا تستطيع أن تحتفظ بكعكتـك وتأكلها في آن معاً، فإما أن تمتنع عن التهامها فتحتفظ بهـا، وإما أن تلتهمها فلا تعود لديك كعكة. وهـذا هو مـا يتحتم أن يقولـه العقل في شـأن مواءمـات الكنيسة المسيحيـة وآبـائهـا الأتقيـاء. وحقيقـة أن النـاصري قال إنـه لم يأت لينقض بـل ليكمـل، لكن النـاصري كـان مضطراً إلى مثل هذه الديبلوماسية حتى لا يُفتَرس قبـل أن يقول مـا أراد قوله. أما آباء الكنيسة فلم يكونوا مواجهين بذلك الخيار، وفيمـا يخصهم كانت ـ وما زالت ـ المسألة واضحة وضوحاً متعباً. فـإما أن النـاصري كان المسيـح فعلاً، وإمـا أنه ـ كمـا يتمسـك اليهـود حتى اليوم ـ كان دعيـاً ونصابـاً. وإما أن تعـاليمه عن أب سمـاوي رحيم ودعوته إلى الصلاح والرحمة والسلام صواب، وإما أنها ـ كما يقطـع

العهد القديم ـ مناقَضة صريحة وتناطُح بالرأس مع تعاليم التوراة والعهد القديم، وكما يؤكد التلمود، وثنية وكفر. فإما هذا وإما ذاك. لكن هذا لا يمكن ـ بأي قدر من التوفيقية ـ أن يكون ذاك أبداً، وإلاّ بات العقل مواجهاً بأن المسألة كلها اختلاق ما أسهل أن يلينّ ويعجن ويخلط على أي شكل أريد له.

في العصور الوسطى، التي لم تكن الكلبية قد استشرت فيها كمنهج للعقل، واجهت الكنيسة هذا المأزق، كما قلنا، بمحاولة لعل أبرز من جسّدها «القديس» أوغسطين، تمثلت في القول بأن نصوص التوراة والعهد القديم الكاشفة عن ذلك التناقض الجذري الجوهري الأساسي يمكن الدوران حولها بادعاء أنها رمزية ومن قبيل الكناية، وليست تقريرية أو حرفية. وبهذا المنهج التلفيقي أمكن الانغماس في محاولات توفيقية ظلت مكشوفة العوار.

والواقع أن إصرار الكنيسة الكاثوليكية على أن تظل الوصية على كتاب الديانة (بعهديه القديم والجديد) وتظل المرجع الوحيد لتفسيره، وتمسكها في سياق ذلك بنصه اللاتيني، كان على سبيل توفير الحماية لموقف كانت الكنيسة مدركة من مبدأ الأمر أنه تلفيقي وأنه لا سبيل إلى التمويه عن عواره إلاّ من خلال تلك الوصاية وباستخدام دعاوى «الرمزية» و «الكناية» في تفسير، أي في تنعيم، تناقضات ظلت جذرية جوهرية مع نصوص العهد القديم ونبؤاته ولم يكن أهونها شأناً بطبيعة الحال التناقض الخاص بـ : «هل جاء المسيح أم لم يأت بعد»، ولم يكن أكثرها طواعية التناقض الخاص بصورة الإلّه نفسه، وهل هو شيطان بركاني منتقم دموي أم أب سماوي رحيم.

غير أن الصراعات السياسية ضارة بالكنائس كما هي ضارة بغيرها. فالصراع السياسي الذي نشب بين المركنتيلية البازغة في القرن السادس عشر، وبين «النظام القديم»، وما تولّد من رحم المركنتيلية الخصب من بدايات طبقات رأسمالية صاعدة طمحت إلى تسيّد مجتمعاتها الأوروبية والحلول محل ائتلاف النظام القديم بين

الاقطاع والكنيسة في ادارة تلك المجتمعات (وهـو ما تحقق في خـاتمة المطاف بالانقلاب الصناعي الذي كانت حركة الاصلاح الديني بداية الطـريق اليه)، ذلـك الصراع السياسي ومتـرتباتـه كان الـرحم الذي انبجست منـه حركـة «الاحتجاج» الاجتمـاعي والسياسي والتجـاري التي عرفت باسم البروتستانتية.

وكـان طبيعيـاً أن يكـون الاشتبـاك الأشـد ضراوة للمـركنتيليـة والرأسمالية البازغة بالنظام القديم صـداماً بـين الحركـة الانقلابيـة الدينية النـاشئة عنهمـا وبين القلعـة الأساسيـة للنظام القـديم، أي الكنيسة الكاثوليكية. وكما رأينا، تمثل التحرك الأساسي لتلك الحـركة الانقلابية (البروتستانتية) ضد قلعة الكاثوليكية في العمل على استلال سلاح الكنيسة الكاثوليكية الرئيسي (وصايتها عـلى «الكتاب المقـدس» نصاً وتفسيراً) من يدها بترجمة الكتاب إلى لغات غير اللاتينيـة حتى يصبح في متناول عامة النـاس الذين أكـدت لهم البروتستـانتية أنهم يجب أن يكونوا هم الأوصياء على عقولهم وأرواحهم لا أية كنيسـة أو أي كهنة، وقالت لهم إنـه من المشروع دينياً وأخـلاقياً أن يفسروا هم لأنفسهم النصـوص التي يضمها الكتـاب بعهديـه القديم والجـديـد التفسير الذي يريدونه، باعتبـار أن كل انسـان منهم مسؤول عن أمر نفسه وعن خلاصه الشخصي دينياً. وهو ما طـوره النظام الـرأسمالي بعد انتصاره وتسيُّد الطبقة الرأسمالية للمجتمعات إلى مقولة أن كـل امـرىء مسؤول عن أمر نفسـه اقتصاديـاً ومسؤول عن «خـلاصـه» الاقتصادي من عدمـه، أي مسؤول عن فقره أو ثـرائه، تلـك المقولـة التي عُزِّزت في فورة انتصـار البورجـوازية الصـاعدة في كتـابات آدم سميث وجـيريمي بنتـام وغـيرهمـا من «النفعيـين» ومفلسفي العصر الصناعي بالقول بأن الخلاص الديني مقترن بالخـلاص الاقتصادي، وبالتالي فإن فقر الفـرد من الناس أو ثـراءه إنما هـو عقاب من اللـه لذلك الفرد على حطته وخطاياه أو مكافأة له على علوه وصلاحه.

وذلـك، كما يعـرف كل دارس لـ «العهـد القديم» مفهـوم يهـودي

محض، ومفهوم أساسي في «أخلاقيات» الديانة اليهودية. فنصوص التوراة والعهد القديم قرنت باستمرار وبالحاح لافت للنظر بين الثراء والوفرة المادية لدى الفرد ولدى الجماعة وبين «السير على هدي وصايا يهوه»، باعتبار الثراء والوفرة نعمة ينعم بها يهوه على من يطيع أوامره ويلتزم بنواهيه، وباعتبار الفقر والجوع والشقاء الدنيوي عقاباً يعاقب به يهوه من يعصى أوامره ولا يلتزم بنواهيه. وهو ما يوضحه بجلاء بالغ هذا النص، الذي نورده على سبيل المثال لا الحصر:

> «فإذا سمعتم لوصاياي أعطي مطركم في حينه المبكر والمتأخر. فتجمع حنطتك وخمرك وزيتك.. فتأكل وتشبع. فاحترزوا (لئلا) يحمى غضب يهوه عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطي الأرض غلتها. فتبيدون سريعاً.. أنظر. أنا واضع أمامكم اليوم بركة ولعنة. البركة إذا سمعتم لوصايا يهوه إلهكم.. واللعنة إذا لم تسمعوا لوصايا الرب يهوه».
>
> (تثنية ١١: ١٣ ـ ١٥ و ٢٦ ـ ٢٨)

ولقد اتجه كثيرون من الدارسين الغربيين الذين تناولوا انكفاء أوروبا في ظل البروتستانتية وراء وانتكاسها أخلاقياً ودينياً إلى العهد القديم اتجاهات عاطفية وفكرية مختلفة في تفسيرهم لذلك الانتكاس الروحي، إلّا أن هناك عاملاً لم يحظ بقدر كاف من تسليط الضوء عليه في هذا الخصوص هو العامل الدنيوي، المادي، المتعلق بالثروة. فالثواب والعقاب في اليهودية، وهي ديانة مجردة من البُعْد الأخروي لم تعد أتباعها في كتاباتها «المقدسة» ببعث أو نشور[٤١]، انحصر في المكافأة المادية على الأرض والعقاب الدنيوي على النحو الذي يوضحه مؤلف سفر التثنية ومحرره بجلاء بالغ:

> «إن سمعت سمعاً لصوت يهوه إلهك وحرصت على أن تعمل بجميع وصاياه يجعلك يهوه إلهك مستعلياً على جميع قبائل الأرض. وتأتي عليك (تحل عليك) جميع

هذه البركات: مباركاً تكون في المدينة ومباركاً تكون في الحقل. ومباركة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك وثمرة بهائمك نتاج بقرك واناث غنمك. مباركة تكون سلّتك ومعجنك. مباركاً تكون في دخولك وفي خروجك. يجعل الرب أعداءك القائمين عليك منهزمين أمامك. **يامر لك الرب يهوه بالبركة في خزائنك وفي كل ما تمتد اليه يدك** ويباركك في الأرض التي يعطيك..

ولكن إن لم تسمع لصوت يهوه إلهك ولم تحرص على أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه تأتي عليك (تحلّ بك) جميع هذه اللعنات وتدركك: ملعوناً تكون في المدينة وملعوناً تكون في الحقل. ملعونة تكون سلّتك ومعجنك. ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك. ملعوناً تكون في دخولك وملعوناً تكون في خروجك. يرسل الرب يهوه عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله فتهلك وتفنى سريعاً.. تبني البيت ولا تسكنه. تغرس الكرم ولا تشرب خمره..».

(تثنية ٢٨: ١ ـ ٨ و ١٥ ـ ٢١ و ٣٠)

وعندما أخذت البروتستانتية ذلك الكلام من عجزه، فقالت إن كل من لم يتصف بـ «المبادأة» ولم يجد لديه القدرة على «أن يقوم بأمر نفسه» اقتصادياً مثلما تعين عليه أن يقوم بأمر نفسه دينياً، فابتلي بالفقر والجهل والمرض وداسته الأقدام، لا حق له في أن يلوم أحداً إلّا نفسه لأنه ولا شك شرير وسيىء وخاطيء ورديء وإلّا لما كان قد جلب على نفسه فراغ خزانته والخيبة في كل ما يفعل وما تمتد إليه يده، كانت البروتستانتية بذلك مستندة بظهرها الورع بقوة وتمكّن إلى «أخلاقيات» العهد القديم الذي زودها بما افتقدته من سند «إلهي» في التعاليم الرخوة المتهافتة للناصري الذي لم يكتف بأن دعا إلى الرحمة والتراحم وصنع السلام، بل تمادى في نقضه للناموس الذي ادعى أنه جاء ليكمله وقال:

«ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله، لأن

دخـول جمل من ثقب إبـرة أيسر من أن يدخـل غنيّ إلى ملكوت الله».

(لوقا ١٨: ٢٤)

وإن كـان اليهود قـالوا «هـذا به شيطـان، وهـو يهـذي، فلمـاذا تسمعون له؟» (يـوحنا ١٠: ٢٠)، فـإن تجار عصر الاصـلاح الديني الأثرياء المتطلعين إلى المزيد من الثراء اعتبروا يسوع الناصري، بغير شـك، الشيطان عينـه إذ قال للثـري الـذي سـألـه عن السبيـل إلى «الحيوة الأبدية»: «أنت تعرف الوصايا: لا تزن. لا تقتل. لا تسرق. لا تشهد بالزور. اكرم أباك وأمك. (لكنك) يعوزك شيء واحد هو أن تبيـع كل ما تملك وتوزع مـالك عـلى الفقراء فتجعـل لك كنـزاً في السماء»! (لوقا ١٨: ١٨ و ٢٠ ـ ٢٢).

ففوق وقبل أي اعتبار آخر، وجـدت الطبقة الصـاعدة من التجـار الأثرياء أن عليها أن تختار، كما خيّر يهوه «الشعب» في سفر التثنيـة وسفر اللاويين، بين البركة واللعنة، بين التقديس اليهودي المجسّد في التـوراة وكل العهـد القديم للثـراء والقـوة عـلى الأرض، والتفضيـل المسيحي الـذي علم بـه النـاصري «للثـراء في السمـاء» عن طـريق الصلاح والبِرّ والرحمة وصنع السلام، والأسوأ من كل ذلـك، توزيـع المرء ماله على كل أولئك الفقراء الذين ما من شك في أنهم لم يصبحوا كذلك إلّا لحطّتهم وعدم صلاحيتهم للبقاء واستحقاقهم لغضب السماء عليهم.

فـإذا ما أضفنـا إلى ذلك الخيـار الذي كـان من المحتم أن يكـون للثراء والقوة على الأرض لا الثراء المشكوك فيه في السماء، تضرر تلك الطبقة الرأسمالية الصاعدة من موقف الكنيسة الكاثوليكيـة المتشدد من مسألة تشغيل رؤوس الأموال وجني فـوائدهـا (الربـا)، وتململها ممـا كانت الكنيسـة تفرضـه من قيود ومكـوس على الأنشطـة المدرّة للثروة، وزدنا على ذلك معاداة تلك الطبقة لائتلاف الكنيسـة والاقطاع الـذي وقف حجـر عثـرة في طـريق التغيـير وتسلم مقـاليـد ادارة

المجتمعات، وقفنا على ما جعل من المحتم أن يكون الانقلاب البروتستانتي ـ الذي موّلته وحفّزته ثم جنت ثماره تلك المصالح الاقتصادية البازغة والقوى السياسية التي أفرزتها ـ انقلاباً قاد المجتمعات التي لحقها «الاصلاح» الديني ممثلاً في البروتستانتية إلى حيث أصيبت بما دعاه الكاتب الويلزي «هَوَس العهد القديم»، ذلك **الهَوَس الذي تزهو المؤرخة الصهيونية توخمان بأنه وصل إلى** حد اقناع ضحاياه في انكلترا بأن «الانكليز هم النسل الحقيقي لأسباط اسرائيل العشرة الضائعة[٤٢] **أي انهم من اصل بدويّ ساميّ**! بل وقد وصل الهوس إلى حد أن **وِيليم الثالث، الذي سمح بعودة اليهود، خوطب باسم «قورش العظيم» تشبيهاً له بالملك الفارسي الذي اعتبر مسيحاً لأنه سمح بعودة المسبيين إلى أورشليم،** ووصف بأنه «**أداة الله الذي ستنهض بفضله العنقاء الحقيقية، أي الهيكل الثالث، من رماد حريق الهيكل الثاني**»[٤٣].

ولم يكن ذلك الهَوَس قاصراً على انكلترا، وإن اتّخذ فيما يخصّها أبعاداً أوسع وأعمق، فقد أصيبت به بدرجة أو بأخرى البلدان الأوروبية التي اجتاحها الانقلاب البروتستانتي. فهولندا، مثلاً، التي كانت ـ عندما بدأ الانقلاب البروتستانتي في المانيا ـ من ممتلكات التاج الاسباني، وبالتالي خاضعة لسلطان الكاثوليكية، ثارت ـ اذ انتقلت اليها العدوى من جارتها الكبيرة ـ ثورة تحررية سياسية ودينية كبرى سنة ١٥٦٥، انتهت بقيام الجمهورية الهولندية المستقلة التي ما لبثت أن اكتسبت في ظل الكالفينية شهرة ومكانة بين يهود القارة بوصفها «أورشليم الجديدة»، فسبقت بذلك الولايات المتحدة الأميركية إلى ذلك الشرف بوقت طويل، لكنها وجدت منافساً قوياً لها في أقاليم ألمانيا الشمالية وبخاصة مدينة هامبورج. ومن الغريب حقاً الذي قد يكون من قبيل المصادفة أن كلاً من هولندا وهامبورج باتتا الآن من أكثر الأماكن في أوروبا تردياً، اجتماعياً وانسانياً وأخلاقياً. إلّا أن تلك الحال الأسيفة ملحوظة الآن في زماننا، أما في ذلك الوقت

من القرنين السادس والسابع عشر، فقد وجدت الأراضي الواطئة وهامبورج مدعاة كبيرة للفخر بكونهما باتتا من المراكز البروتستانتية المزدهرة التي فتحت أبوابها على مصاريعها، بقدر كبير من الخيرية والتقوى، لأفواج وراء أفواج من اليهود الهاربين من نيران محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال.

وكما انتقلت عدوى البروتستانتية إلى هولندا من المانيا، انتقلت تلك العدوى الى بلدان اسكندناوه، وبخاصة السويد والدانمرك. وفي كل تلك البلدان، واكب الانتصار البروتستانتي وانتشار ترجمة «الكتاب» إلى اللغات الوطنية وجعله في متناول شعوبها على أوسع نطاق وفتح الأبواب على مصاريعها أمام هجرة اليهود من البلدان الكاثوليكية، تحوّل واضح وصريح ومتصف بقدر كبير من الزهو عن الجزء المسيحي الأقل حجماً وشأناً من ذلك الكتاب «المقدس» وانكباب على جزئه الأكبر والأهم، أي العهد القديم. وكانت لذلك آثار بعيدة المدى بالغة العمق، إذ:

> «فتحت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الوطنية وجعله في متناول عامة الناس الباب أمام العهد القديم كيما يصبح مكوِّناً هاماً من مكونات العقلية الغربية ويشيع بين الشعوب معرفة لم تكن ميسرة من قبل بتاريخ «العبرانيين» ومعتقداتهم وشرائعهم وبأرض فلسطين الذين لم تطل صلتهم بها إلّا لبضعة قرون من تاريخها الطويل. فحكايات العهد القديم باتت زاداً يومياً للعقل البروتستانتي، وبات المؤمنون من تكرار قراءتهم لها يحفظونها عن ظهر قلب. وحتى المسيح (يسوع الناصري)، لم يعد المسيح بن مريم ورأس الديانة التي انتمى إليها أولئك المؤمنون، بل مجرد نبي آخر من عديد الأنبياء اليهود.
>
> والحقيقة أن العهد القديم لم يصبح فحسب أحبّ كتاب إلى قلوب البروتستانت، بل واصبح مرجعهم الرئيسي ومصدرهم الموثوق به الذي استمدوا منه معرفتهم بالله ومعرفتهم بالتاريخ. فحكايات ذلك الجزء من الكتاب المقدس ورواياته التاريخية

وأساطيره لم ينظر إليها بوصفها كذلك بل بوصفها التاريخ الحقيقي (لله والعالم)»[٤٤].

وعلى عباب ذلك الضرب من الانجراف الفكري والروحي، حققت البروتستانتية مشروع بولس الرسول بتهويد المسيحية وإفراغها من محتواها الذي انبنت عليه من تعاليم الناصري، إذ ردّت المسيحية إلى حضن اليهودية. ولم يكن غريباً في سياق ذلك أن تلقى البروتستانتية، ومارتن لوثر بالذات، ترحيباً حاراً وقلبياً من زعامات اليهود المدنية والدينية، **وهو ترحيب وصل الى حد اعتبار حاخامات اليهود ظهور لوثر وانتشار دعوته علامة مؤكدة على قرب مجيء المسيح المنتظر**، في حين هاجمته الكنيسة الكاثوليكية باعتباره مخرّباً «يهودياً أو بالأقل شبه يهودي» للمسيحية، حتى بعد أن أفاق وكتب يقول إن «اليهود عبء ثقيل علينا ومصيبة حلّت بنا»!

وفي عصرنا، من خلال المراجعة المستمرة لنصوص الكتاب المقدس عبر أكثر من خمسين طبعة جديدة خلال أقل من ثلث قرن بحجة جعله «أكثر جاذبية وشعبية لدى جمهور بات قليل الاكتراث للدين»[٤٥] وبفضل التعاون المستمر والمتعاظم بين قادة اليهود في العالم وقادة الكنيسة المسيحية، أثمر التيار الذي بدأه بولس، وأوصله إلى مرحلة تهويد المسيحية مارتن لوثر وكالفن وسائر قادة الانقلاب البروتستانتي، الثمرة المسمومة التي باتت تعرف باسم «اليهو ـ مسيحية» والتي من خلالها يكثر ذكر شيء غريب اسمه «الحضارة اليهو ـ مسيحية».

٨ المتطهرون والصهيونيون الأول

بصرف النظر عن كل التناقضات الجوهرية بين الديانتين إذن، فتحت البروتستانتية الأبواب على مصاريعها أمام تيار متعاظم من التهويد، لا للمسيحية كديانة فحسب، بل وللعقل والروح والضمير الانساني في البلدان التي اجتاحها الانقلاب البروتستانتي. فالحياة اليومية للناس العاديين شبِّعت بمفاهيم اليهودية ومعتقداتها من خلال التركيز البروتستانتي على ضروب النهب الثقافي والديني والاستنساخ الأسطوري والفولكلوري التي صيغ منها العهد القديم وبَثّ الإيمان بأنها «كلام الله». والفن، والأدب، والثقافة بعامة شبِّعت بشكل متعاظم بالأسطورية الدينية لليهودية. وحتى في مجال اللغة، أدى تيار التهويد إلى إعلاء اللغة العبرية على كل اللغات الوطنية الحية، انقياداً وراء الادعاء الكهنوتي بأن تلك اللغة هي «اللسان المقدس» الذي تكلم الله به مع آدم ونوح وابراهام وكل أولئك الأسلاف «اليهود» واللغة التي أوحى الله إلى موسى بها فأنزل عليه التوراة والناموس.

وقد كان ذلك الإعلاء للعبرية في سلّم أفضليات البروتستانية وترويجها لتتخذ مكانة موازية لما تمتعت به اللاتينية كلغة العلم والمعرفة والدين، إعلاءً منطقياً متفقاً وتمسّك قادة ذلك الانقلاب الديني/ الاجتماعي/ السياسي/ التجاري بما أسموه بـ «حرفية كلمة الله»، أي بحرفية «الكتاب المقدس»، وبالذات التوراة والعهد القديم، كسلاح أساسي في معركتهم مع الكنيسة الكاثوليكية والنظام القديم برمته. وبطبيعة الحال، لم يؤدّ ذلك الترويج للعبرية إلى رواج التوراة والعهد القديم فحسب، بل وبالتبعية إلى رواج الكتابات اليهودية الأخرى، الديني منها والسحري سواء بسواء. وقد ادُّعي لذلك الانقلاب اللغوي الذي اضطلعت به البروتستانتية كإجراء ضرورة سياسية أن أثره لم يقتصر على «إنقاذ المسيحيين من الاطلاع على

مترجمات غير دقيقة وغير صائبة وفي الغالب مغلوطة وغير مفهومة للمحتوى المقدس للعهد القديم، فحسب، بل وأدّى ـ من خلال التركيز على التعامل مع النصوص من خلال إجادة العبرية ـ إلى توفير المعرفة الصائبة والسليمة بتلك الأسفار المقدسة وإلى توسيع مجال المعرفة بما لم يكن قد استُكشِف حتى ذلك الوقت من آفاق الفكر اليهودي»[٤٦].

ولم يكن منظمو ذلك التحول البروتستانت من السذاجة أو الغباء بقدر جعلهم يغفلون عن المخاطر التي كمنت في ذلك «التوسيع لآفاق المعرفة بآفاق الفكر اليهودي التي لم تكن معروفة قبلاً» وهي مخاطر لم يكن أهونها شأناً أو أقلها خطراً على نشاطهم التهويدي احتمال اطلاع المؤمنين من أتباعهم على نظرة اليهود إليهم والوقوف مثلاً على وصف الحاخام أكيبا لهم بأنهم «نجسون كالمرأة النجسة بدم حيضها، ينجسون كل ما يلمسون وكل من يتصلون به أو يتصل بهم، لذا يجب القاء كل واحد منهم بعيداً كما تلقى خرقة الحيض النجسة ويقال لها امض من هنا»، أو على وصف ميمونيدس (موسى بن ميمون) لهم بأنهم «عبدة أصنام». ولذلك، وبقدر من البراغماتية والتمكّن السابق لزمانه من التحكم في العقول، وُجِّه المؤمنون البروتستانت في عصر الاصلاح الديني وعصر النهضة إلى الاهتمام من ذلك التراث اليهودي، الذي لم يكن متاحاً من قبل، بكتب القبّالة اليهودية، أي كتب السحر التي وصفت بأنها «تصوّف يهودي». وكان ذلك التوجيه من خلال تركيز الناقلين من كنوز التراث اليهودي على «الزهار» (كتاب السناء) وغيره من مؤلفات القبّاليين اليهود[٤٧]، بمقولة أن تلك الكتابات كانت «من كنوز الحكمة القديمة». ويقول تاريخ تلك الفترة الزاهرة من تاريخ أوروبا أن تلك الحكمة خلبت ألباب الناس، سواء من العوام أو المثقفين.

ومع القبّالة يداً بيد، بدأ اجتياح رؤى المسيحانية (المسيح المنتظر) والعصر الألفي السعيد الذي سيعقب مجيئه.

وبطبيعة الحال، رُدِمت خلال كل ذلك تحت أكوام من رمال التقوى والورع (أي إبطال عمل العقل) تناقضات جوهرية كان ينبغي أن تبرز فتنخس العقل كنصال مسنونة، لم يكن أهونها شأناً أن أولئك المسيحيين الذين خلبت ألبابهم الرؤى المسيحانية كانوا أصحاب ديانة انبنت على أن المجيء المنتظر حدث بالفعل. غير أن ذلك التناقض نُحِّي جانباً بخفة يد لاهوتية باعتبار أن المجيء المنتظر سيكون المجيء الثاني، بصرف النظر عن أن ذلك الادعاء ـ طبقاً للعهد القديم وكنوز الحكمة اليهودية ـ كاذب من أساسه لأن «ذلك الذي يمحى ذكره واسمه، الذي لقي ميتة حقيرة مشنوقاً على وثن (أي الصليب) جزاء وفاقاً له على جرائمه وتضليله» ليس بالوسع الادعاء بأنه البطل المخلّص الذي وعد يهوه به شعبه المختار.

أما التناقض الآخر الأخطر والأدهى فتمثل في أن ذلك المنتظر عندما يأتي، طبقاً للديانة اليهودية، سيأتي ليخوض حتى الركبتين في دماء الأغيار أعداء «الشعب المختار» ويهزمهم ليقيم الهيكل الثالث وملك صهيون العالمي الذي يخرج منه الناموس (الشريعة اليهودية) إلى كل الأمم التي يأتي ملوكها ورؤساؤها على ركابهم ليقدموا فروض الولاء والطاعة. لكن هذا التناقض أيضاً نُحِّي بخفّة اليد اللاهوتية نفسها بالقول بأن المسيح الذي سيأتي هو الناصري الذي جاء قبلاً والذي سيكون مجيؤه الثاني لاقامة ملكوت الإله الأب الرحيم سماوياً لكل البشر، وأن اليهود سوف يؤمنون بأنه المسيح أخيراً فيدخلهم الملكوت لينعموا بالعصر الألفي السعيد في نسخته المسيحية لا اليهودية.

ووراء هذا التناقض الثاني وحلّه اللاهوتي، يكمن تناقض بالغ العمق متعلق بالأخرويات. فديانة موسى، كما أسسها وصاغها ذلك الكاهن المصري، أسقط منها تماماً البعد الأخروي (المتعلق بالعالم الآخر والحياة بعد الموت وأمل البعث والنشور) حتى لا تفصح عن أصولها الأوزيريسية، ولم يُرقَّع فيلصق بأذيالها بعدٌ أخرويٌّ إلّا في

عصور لاحقة بأقلام كهنة تحدثوا عن «جهنّا» (جهنم) وعن حياة أخرى من نوع ما حديثاً ظل خارج التقنين الأصلي للاهوتية الديانة كما هي واردة في التوراة وسائر أسفار العهد القديم، على النحو الذي يحدده پاتاي[48] بقوله أنه في العهد القديم، ابتداء من كتابات النبيين في القرن الثامن قبل العصر المشترك[49]، توجد شواهد قوية على أن الايمان بـ «يوم الرب» إيمان شعبي قديم. فعامة اليهود توقعوا، آملين، أن يأتي يوم ينفذ يهوه فيه وعده وينتقم لاسرائيل من أمم العالم... وقرب نهاية الفترة الكتابية (فترة تأليف وتحرير العهد القديم)، اتخذ «يوم الرب» بشكل متعاظم طابعاً فوق طبيعي وبات مدخولاً بعنصر أخروي. وهو ما يتضح بجلاء في سفر أخنوخ (غير الوارد بالعهد القديم) الذي كتب في القرن الثاني قبل العصر المسيحي، إذ نجد المفهوم وقد طوّر واتخذ صيغة كاملة موجزها أن يهوه سوف يسلم كل ملوك الأمم وأقوياءها (قادتها) إلى الملائكة لمعاقبتهم. وفي الأسفار السيبيلية[50]، التي كتبت بعد تأليف سفر أخنوخ ببضعة عقود، نجد أن «يوم الرب» بات متعلقاً بظهور «ملك» ذي ملامح مسيحانية لا تخطؤها العين.

ويوضح سفر أخنوخ طبيعة التطلع المسيحاني في اليهودية:

> «في ذلك اليوم، سوف يضيّق يهوه، رب النفوس، عليهم (على ملوك الأمم وأقويائها) فيخرجون مهرولين من حضرته وقد نطقت وجوههم بعارهم واسودّت، ويسلمهم يهوه لملائكته لمعاقبتهم وتنفيذ انتقامه فيهم لأنهم اضطهدوا شعبه اسرائيل ومختاره، ولسوف يبهج مرآهم قلوب الصالحين والمختارين من يهوه وهم يشهدون غضب يهوه رب النفوس منصباً على الأمم ويرون سيفه وقد ارتوى من دمائهم. في ذلك اليوم سيكون خلاص الصالحين المختارين لأنهم لن يعودوا يعانون ثانية أبداً من الخطاة والأشرار».
>
> (٦٢. ١٠ ـ ١٣).

فطبيعة التطلع، كما هي واضحة من الاستشهاد، دموية بما فيه الكفاية وناطقة بشهوة الانتقام من «أبناء الظلام»، أي غير اليهود من «الأمم»، أي «الجوييم»، وملوكهم ورؤسائهم. و«الخلاص» هنا خلاص حصري لـ «الصالحين المختارين أبناء يهوه»، أي شعبه المختار، أما ذبائح ذلك الخلاص فكل الأمم، لأنها بمعاداتها للشعب المختار استحقت ما سوف يلحق بها من دمار وهلاك في «يوم الرب».

ويوضح الاستشهاد التالي من أسفار العرافة سيبيل(٥١) الطبيعة الدنيوية البحتة للتوقع المسيحاني في اليهودية:

«وإذ ذاك سوف يبعث الرب من وقت شروق الشمس ملكاً سوف يخلص كل أرض من بلاء الحرب (كما هو مكتوب في اشعياء: «فلا يتعلمون الحرب بعد») وسوف يذبح البعض، ويكرّس البعض الآخر بعهد وميثاق. ولن يكون فعله لكل هذا بارادته هو بل انصياعاً لمشيئة الرب القوي.

وإذ ذاك سوف تمتلىء قاعة الرب ثانية بثروات عظيمة، بالذهب والفضة والأرجوان، وسوف تعطي الأرض ثمارها وفيرة، ويطرح البحر خيراته، إذ يقع حكم الرب وعقابه على الحمقى وفارغي العقل من الأمم فتكون نهايتهم على يد الباقي أبداً».

(٣: ٦٥٢ ـ ٦٧٢)

وفي الاستشهاد التالي، من «بركة المسيح»، نقف على ما سوف يحدث في «يوم الرب»:

«ومن الهيكل (الثالث، عندما يعاد بناؤه) سوف تنفتح أبواب جنة عدن.. وأبواب جهنّم أيضاً، تنفتح من هناك، وهناك سوف ينزل القدّوس تبارك (يهوه) عرشه، ويقيمه في وادي يهوشافاط، وهناك سوف يجعل كل أمة من أمم الأرض تمر أمامه حاملة أوثانها (وبطبيعة الرؤية اليهودية ستمر الأمم المسيحية حاملة وثنها «الصليب»).

> وعندما تمر أمم الأرض هناك، سوف تبتلعها جهنّم. وما الذي سيجلب ذلك عليهم؟ كونهم مدوا يداً إلى الهيكل».
>
> (المدراش ٣: ٧٤ و ٧٥)

ومن هذا الاستشهاد، المأخوذ من كلام الحاخام شمعون بن يوهاي نقف على ما يحدث يوم تبتلع جهنّم أمم الأرض:

> «وفي ذلك اليوم سوف تقول أمم الأرض وهي في جهنّم «لنرى ان كان سيحاكم اسرائيل، شعبه، مثلما حاكمنا». وللفور، سينزل القدّوس تبارك فيمر وسط جهنم ومعه شعبه اسرائيل فتصبح جهنم أمام اسرائيل كالماء البارد.. لكن خطاة اسرائيل وعصاتها سوف يتركون في جهنم يومذاك لاثني عشر شهراً يخرجهم القدوس تبارك في نهايتها فيدخلهم جنة عدن لينعموا بثمارها».
>
> (المدراش. ٣: ٨٠ ـ ٨١)

وهكذا، فإنه ـ في وجه ما هو ثابت من أن الأخرويات اصطنعت اصطناعاً لليهودية في سياق المعتقدات المسيحانية، وألصقت بذيلها، ولكن خارج المتن الحقيقي للديانة، وفي الحقيقة بالمناقضة التامة للرؤية اليهودية لمصير الروح بعد الموت وهي رؤية استمدت أساساً من معتقدات الرافدين وتسربت إليها في عصور لاحقة نبرة هيلينية ـ يظل الاجتهاد البروتستانتي في التعمية عن التناقض المسيحاني بين الديانتين اجتهاداً مجانياً لا مؤدّى له في الواقع إلّا تسليط الضوء بقوة أكبر على التناقض بالغ العمق بين المنطلقات الأرضية الدنيوية لليهودية، وهي جوهرية وأساسية فيها، وبين المفاهيم الأخروية «السماوية» للمسيحية.

غير أن شيئاً من كل ذلك لم يثن أحداً من منظّري البروتستانتية، إذ ظلوا ـ وإن حاذر أمثال لوثر وكالفن من مخاطر الانسياق الكامل وراء التطلعات الألفية بل وحاربوها لائذين بمفاهيم الكاثوليكية في ذلك الشأن ـ سادرين في شحن

لاهوتيّتهم بالمسيحانية اليهودية مفتعلين لها في الوقت نفسه مخرجاً مسيحياً. غير أنهم وهم يفتعلون ذلك المخرج أقاموا توقعهم للمجيء الثاني على شرط تحقق «خلاص» اليهود كأمّة بعودتهم من الشتات إلى «الأرض الموعودة» والتئام شملهم فيها. جميعاً، ولكن كمسيحيين قد آمنوا أخيراً بأن الناصري الذي جاء وصلبوه ثم جاء ثانية هو هو المسيح الذي وعدوا بمجيئه.

من هذه البزرة الغريبة بكل تناقضاتها الدفينة ومواءماتها التلفيقية المغتصبة، نبتت الصهيونية المسيحية التي سبقت صهيونية اليهود بثلاثة قرون، وكان بزوغها من تربة الانقلاب البروتستانتي انجازاً يرجع الفضل الأكبر فيه للمحمومين بحمى «الكتاب»، الأصوليين الأول، المتطهرين.

والغريب في تلك البزرة الغريبة بتناقضاتها وتلفيقاتها وحميّاها الدينية، أن هناك تحت سطح مواءماتها التلفيقية جرثومة الكراهية لليهود، تلك الكراهية التي نضحت وأسفرت عن وجهها، في خاتمة المطاف، في قول مارتن لوثر ـ بعد عقدين من قوله إن قدر غير اليهود أن يقبعوا ككلاب تحت المائدة التي كوّمت فوقها طيبات العشق الالهي للشعب المختار ـ إنه تبين أن اليهود «عبء ثقيل ومصيبة» حلّت بالمؤمنين.

ومن الأهمية بمكان، ونحن نحاول استظهار **الدور الذي لعبته صهيونية البروتستانت والأصوليين المسيحيين في تمكين الصهيونية من بدء تنفيذ مشروعها الكوكبي الكبير باقامة محطتها الأولى ومنصة قفزها، اسرائيل، وفي رفع مظلة حماية بالغة الشراسة والتصميم ممعنة في العنف الدموي فوق تلك المحطة الأولى، اسرائيل، درءاً لأي خطر أو شبهة خطر يمكن أن يتهددها أو ينتقص من وضعها كقوة عظمى اقليمية في المنطقة الأولى لنشاط الصهيونية**، من الأهمية بمكان ونحن نحاول ذلك أن نظل على وعي بوضع تكافؤ الضدين في منطلقات ومواقف الصهيونية

المسيحية. والضدان هنا هما ما لا سبيل إلى تسميته إلّا بـ **«عبادة اسرائيل»، أي عبادة المفهوم المثالي المعلّى إلى مرتبة التقديس لمحتوى الاسم وايحاءاته وبالتالي عبادة تجسّده الفعلي، اسرائيل الدولة، بكل ما ينطوي عليه ذلك من أبعاد عاطفية لا عقلانية، وبكل ما يناقض ذلك الهوس من كراهية لليهود.**

وفي محاولة لتفسير تكافؤ الضدين هذا، تقول بربارا توخمان(٥٢) أنه يتعين على المرء كيما يفهم الوضع والدوافع إليه أن يعي التحول الذي أحدثه «الكتاب» إذ فعل فعله من خلال الحركة التطهرية. فكأنما ذلك الكتاب قد مارس على العقول والنفوس كل ما يمارسه في عصرنا الإعلام الجماهيري بكل وسائطه من صحافة وراديو وأفلام ومجلات، **لكون ذلك الكتاب الواحد تكلم في مسامع الناس بصوت الإلّه وباتت له سلطة زمنية على حياتهم، وبخاصة «عهده القديم». فذلك العهد القديم، بحكيه عن شعب آمن ايماناً لا يطاوله شك بأنه اختير من الإلّه ليقوم بعمل الإلّه على الأرض، تسلّط على عقول المتطهرين.** فهم قد طبقوا حكيه على أنفسهم. ورأوا أنهم الورثة المختارون (وان كانوا هم الذين اختاروا أنفسهم ولم يخترهم الإلّه) لعهد ابراهام مع الله، واعتبروا أنهم التجسّد الحيّ لأنبياء اسرائيل، أو بلطة حرب الرب، كما أسماهم إرميا، واستمدوا من أولئك الأنبياء هديهم ومن المزامير متعتهم وراحة نفوسهم. **وبذا فإن تقواهم، وطاعتهم لم تعد للإلّه «الأب الذي في السموات» الذي تحدث عنه يسوع الناصري، بل ليهوه، رب الجنود، ولما كان يهوه قد بات مصدر الهامهم فإن أسفاره المقدّسة، أي كلمته لشعبه المختار باتت أوامر الإله إليهم، سواء في بيوتهم، أو في ميدان القتال، أو في محفلهم السياسي، البرلمان، أو في كنائسهم.**

والثابت أنه، فيما سبق من عصور، وحتى القرن السابع عشر، لم تكن لفظة «فلسطين» تستحضر في الذهن الانكليزي إلّا تداعيات

مسيحية حتى وإن كانت فلسطين قد ضاعت من العالم المسيحي نتيجة للغزو الاسلامي. لكن فلسطين، بعد الانقلاب البروتستانتي وظهور التيار التطهّري باتت تُتذكّر **بوصفها وطن اليهود والأرض التي تتضمن الأسفار المقدسة وعدا بعودة اليهود إليها**. ونتيجة لذلك، بدأ الاهتمام يزداد وينصب على **وجوب تحقيق الوعد** الوارد في «الكتاب». ومنذ بدأ المتطهرون يحققون صعودهم وترتفع مكانتهم، بدأت بين الانكليز الحركة الرامية إلى اعادة اليهود إلى فلسطين.

وتقول توخمان أن الحركة لم تكن لأجل خاطر اليهود، بل من أجل الوعد الذي وعدوا به. فطبقاً للعهد القديم لن يكون قيام مملكة اسرائيل التي لكل البشر إلّا متى أعيد كل بني اسرائيل إلى صهيون. وإذ ذاك فقط سيشهد العالم مجيء المسيح، أي سيشهد، فيما يتمسك به المسيحيون، المجيء الثاني. وفيما اعتقد المسيحيون، ستكون تلك العودة عودة لأمة يهودية قد تخلت عن يهوديتها واعتنقت المسيحية، لأن ذلك، حسب الاعتقاد المسيحي، سيكون العلامة على تحقق الوعد.

في سياق هذا التيار الذي تدعوه المؤرخة الصهيونية بـ «غزو عبراني» من خلال ما تصفه بأنه «لوثة العهد القديم»[٥٣]، كان ارتفاع أول صوت مسيحي في انكلترا مطالباً ـ قبل هرتزل ودعوته بثلاثة قرون ـ بإعادة «الشعب المختار» إلى «أرض الميعاد»، وكان ذلك صوت عالم اللاهوت الانكليزي توماس برايتمان الذي كتب يقول إن اعادة اليهود إلى «أرض آبائهم» أمر مقضي بوجوبه، لكن ذلك لن يكون من أجل الدين لأن الله يمكن أن يعبد في أي مكان ولكن عملاً على إنهاء صراع اليهود مع الأمم التي يقيمون بين ظهرانيها كغرباء.

ولم تقع دعوة برايتمان في كتابه أخرويّ العنوان ('Apocalypsis Apocalypseos') على آذان صماء أو أرض حجرية، فسرعان ما التقطها كثيرون من الأتقياء كان منهم السير هنري فينش عضو

البرلمان البريطاني الذي نشر بعد سنوات قلائل من صدور كتاب برايتمان مبحثاً عن وجوب إعادة اليهود الى «أرض آبائهم» تحقيقاً لـ «صالح الديانة المسيحية» أكد فيه لمواطنيه أنه حيثما وردت أسماء اسرائيل، ويهوذا، وصهيون، وأورشليم في الكتاب المقدّس، تعين الوعي بأن الروح القدس لم يقصد، حيثما استخدم تلك الأسماء في أسفاره المقدسة، «اسرائيل» المعنى الروحي (الذي تتشبث به كنيسة روما) ولم يقصد أيضاً كنيسة الله التي تضم الأغيار (المسيحيين) أو حتى الأغيار واليهود معاً، بل قصد اسرائيل حرفياً، اسرائيل المنحدرة من صلب يعقوب. والإدراك نفسه يجب أن ينسحب على مسألة عودتهم إلى أرضهم وأملاكهم القديمة وتمكينهم من دحر أعدائهم. فهذه كلها ليست مسألة كناية أو رموز (كما تدّعي كنيسة روما) أو مسألة «خلاص» يحصل عليه اليهود من خلال المسيح (يسوع الناصري) بل هي مسائل حرفية مقصودة واقعياً وحرفياً.. فالله قصد اعادة اليهود كلهم كأمّة إلى وطنهم، ولم يقصد اعادة قلّة منهم تنتقى هنا أو هناك، بل اعادة الأمة برمتها. فهم سيتوجهون صوب وطنهم، وسوف يسكنون كل جزء من ارض ذلك الوطن وسوف يعيشون فيه آمنين، ويعيشون فيه إلى الأبد.

كتب فينش هذا الكلام ونشره سنة ١٦٢١[٥٤]، مجازفاً بعنقه في الواقع، إذ أثارت دعاواه ثائرة الملك جيمس الأول، مما اضطر فينش إلى سحب ما قال بعد أن تعرض لحملة في البرلمان أُوحي بها من التاج حذّر عدد من الأعضاء خلالها من «موجة التهويد».

غير أن النبتة لم تذبل ولم تقتلع. ففي سنة ١٦٤٩ وحكم المتطهرين ببريطانيا في ذروته، تقدم اثنان من المتطهرين الانكليز كانا يقيمان بأمستردام في هولندا بملتمس إلى حكومة انكلترا قالا فيه: إن أمة انكلترا هذه يجب أن تكون الأسبق والأعظم استعداداً، مع سكان الأراضي الواطئة (هولندا) لنقل أبناء وبنات اسرائيل في سفن البلدين إلى الأرض التي وعد آباؤهم، ابراهام واسحق ويعقوب، بها

ميراثاً أبدياً لهم.. كما ينبغي أن يسمح لليهود بالعودة للاقامة بين ظهرانيكم في انكلترا والمتاجرة معكم.

البزرة إذن كانت قد بزرت، والنبتة نبتت في التربة الخصبة وتعهدها البروتستانت الأول ثم احتضنها المتطهرون. ثم جاء أوليفر كرُموِيل.

وكان كرُموِيل، الذي دعا نفسه باسم «اللورد حامي الكومونولث التطهري» متهوساً دينياً من الطراز الأول، فكان من الطبيعي، وقد ظلت الدعوة إلى إعادة اليهود إلى بريطانيا والغاء قرار ادوارد الأول نداء وقع على آذان صماء في الدوائر الحاكمة الانكليزية، أن تكون الاستجابة الأولى لها في ظل ذلك الحاكم الذي كتب، إبان احدى المعارك، إلى قائد من قواده مؤكداً له «ان الله نفسه خصم لمن تقاتلهم. فأذكر دائماً أننا نقاتل في معركة الرب»!

غير أن الحميا الدينية لم تكن كل دافع كرُموِيل إلى تبنّي دعوة إعادة اليهود إلى انكلترا. فقد كان ذلك الديكتاتور المشتعل بنار الإيمان التطهري (أي بنار هذيان العهد القديم) قد فطن إلى أن نظامه مقضيّ عليه بالافلاس والزوال، حميّا أو لا حميّا، ما لم يلقِ بالا إلى المسائل الدنيوية الملحّة التي من قبيل ملء خزائن المال، وهو ما لم يكن من سبيل إليه إلّا باستعادة سيادة انكلترا على بحار العالم واستئناف ما كان قد انقطع من صلات تجارية مع المستعمرات خلال الجيشان الذي صاحب اطاحته بالنظام الملكي. وكان منافسو انكلترا القدامى، وبخاصة الأراضي الواطئة واسبانيا والبرتغال، قد اغتنموا فرصة التخلخل في أوضاع انكلترا إبان الصراع الطويل المرير الذي عرف بالحرب الأهلية، وملأوا الفراغ التجاري الذي أحدثه انحسار القوة البحرية الانكليزية. وعندما شرع كرُموِيل في اصلاح بعض ما كان قد فسد، كان من الطبيعي أن يتصدى له أولئك المنافسون الأقوياء ويشتبكوا معه في سلسلة من الحروب التجارية الساخنة، بدأت بالاشتباك مع البرتغال.

وبينما انكلترا تخوض ذلك الصراع، نشط المتطهرون الانكليز دعاة السماح باعادة اليهود في حملة اقناع مكثّفة انبنت على أن القدر الأكبر من النجاح الذي حققه منافسو انكلترا من التجار الهولنديين نجم عن تآخي الهولنديين مع اليهود ومكافأة التجار اليهود للهولنديين على ذلك التآخي بالكثير من الصفقات والارتباطات التجارية بفضل ما تمتع به أولئك التجار اليهود من روابط وثيقة، نتيجة للصلات العائلية، بشرق المتوسط وأميركا الجنوبية.

وكان المنفذ الأول، ذو الاتجاهين، في مسار فتح أبواب انكلترا أمام اليهود في ظل كرمويل، عدد من عائلات يهودية ظلت مقيمة في انكلترا تحت ساتر اعتناق المسيحية. وقد عرف أولئك اليهود باسم «المارّانو». وتقول باربارا توخمان(**) إن «المارانو»، أو اليهود المتسترين، كانوا أساساً من اللاجئين الذين هربوا من بغي محاكم التفتيش الكاثوليكية، واستوطنوا بلداناً أخرى ظلوا فيها يهوداً متسترين من خلال ممارساتهم العلنية للكاثوليكية في حين ظلوا يمارسون اليهودية سراً في بيوتهم. وكان عدد من عائلات المارّانو قد استقر في لندن إثر طرد اليهود من اسبانيا في ١٤٩٢. وفي زمن كرُمويل، كان بعض يهود «المارّانو» نشطين في حي السيتي (حي المال والأعمال في لندن)، وكان من أبرزهم أنطونيو دي كارفاخال وهو تاجر غلال ظل من أكبر الموردين إلى جيش كرُمويل إبان الحرب الأهلية، «وكانت له أساليبه الخاصة في استيراد سبائك الذهب من مصادر اسبانية». ولذا فإن سفنه استثنيت من أوامر الاستيلاء إبان حرب انكلترا والبرتغال، وسمح له بالاستمرار في تجارته. وبجانب التجارة الخارجية، كان كرُمويل يعاني من الافتقار إلى رأس المال، فاتجه أمله إلى الحصول عليه من اليهود، فوق أنه رغب في استخدامهم كمخابرات له من خلال شبكات اتصالهم التي كانت تغطي كل اوروبا.

باستخدام تلك الجزرة، المال، والتجارة، والتجسس، وبالاستفادة من سوط الايمان، عملت أسر «اليهود المتسترين»، المارّانو، في

انكلترا، كموصّل ذي اتجاهين فيما تعلق بكرُمويل، فانصبّت عليه من خلالهم كل أنواع المؤثرات التي أريد صبّها عليه، واستخدمهم هو في إبلاغ رغباته واحتياجاته إلى قادة اليهود في امستردام.

وكانت نتيجة كل تلك الاتصالات «مؤتمر وايتهول» الذي عقده كرُمويل سنة ١٦٥٥ لـ «بحث مدى قانونية إعادة اليهود إلى انكلترا وتدارس الأوضاع التي يمكن أن يتحقق ذلك في ظلها»، وعني كرُمويل بأن يحضر المؤتمر شخصياً، بصحبة منسى بن اسرائيل، الحاخام الأكبر لامستردام الذي كان قد نشر كتاباً بعنوان «أمل اسرائيل» ترجم إلى الانكليزية ولاقى رواجاً كبيراً بين عامة المتطهرين، ربط الحاخام فيه «ببراعة بين مسيحانية المتطهرين الانكليز والمسيحانية اليهودية الأصيلة، كما ربط بين التنظير اللاهوتي والسياسية»[٥٦].

وكما يحدث دائماً كلما تزاوج اللاهوت والسياسة، بزرت بزور كارثة. فالسياسة، وهي كلبية أبداً، تصبح ضارية بحق عندما تتسربل برداء الايمان، خصوصاً متى كان نسيج الرداء مدخولاً بخيوط التجارة والربح. وهكذا، فإن مؤتمر وايتهول عندما انتهى إلى أن إعادة اليهود إلى انكلترا لم تكن «قانونية فحسب، بل وإجراء ضرورة» وفتح الباب بذلك أمام كرُمويل ليفتح بيده أبواب العودة، ويرسي أسس الاندماج، أسهم اسهاماً ضخماً في بدء المسيرة المفضية إلى «أبواب جهنّا» (جهنم) التي أكد الحاخام شمعون بن يوهاي في المدراش أن كل أمم الأغيار صائرة اليها، رغم أن كرمُويل، عندما فتح ذلك الباب، تحت تأثير عوامل السياسة والربح، لم يكن منشغلاً ـ على الصعيد الديني ـ برؤى صهيون:

«دينياً، لم يبدِ كرُمويل اهتماماً خاصاً بمسألة التئام شمل اليهود في صهيون، فقد كان مهتماً بالقدر الأكبر باعادتهم إلى انكلترا. إلّا أن انكلترا، في ذلك الوقت، لم تكن قد أصبحت امبراطورية بعد، ولم تكن مصالح كرُمويل، تبعاً لذلك، امبريالية، بل كانت تجارية ومركنتيلية. ولقد كان التيار الغالب لدى المتطهرين

الصهاينة خلال القرن السابع عشر متوجهاً صوب تحقق عودة اليهود إلى فلسطين، ولكن في زمان مقبل ما. ولم يكن في ذلك التوجّه مكان لدور فوري تقوم به انكلترا اكتفاء، في تلك المرحلة، بالسماح لليهود بالعودة إليها، باعتبار ذلك خطوة أولى صوب عودتهم المستقبلة إلى «أرض الميعاد». إلّا أن تلك العودة إلى فلسطين ـ حتى وإن لم يتطلع المتطهرون إلى تحققها فورياً في زمانهم ـ كانت بالنسبة للبروتستانت جميعاً، وظلت، حتمية لا مهرب منها لأنها المقدمة التي لا محيص عنها للمجيء الثاني للمسيح. وفيما بعد، استخدمت فكرة اعادة اليهود إلى فلسطين وارتباطها الحتمي بالمجيء الثاني كغطاء للمصالح الامبريالية في فلسطين. وحتى بعد تضاؤل أهمية العبرانية في الحياة الانكليزية اثر وفاة كرُمويل سنة ١٦٥٨، ظلت تلك الأفكار المسيحانية باقية ولم تفقد جاذبيتها لدى كثيرين من المسيحيين المتعاطفين. بل وأن تدهور مكانة التطهرية اثر عودة النظام الملكي إلى انكلترا سنة ١٦٦٠ لم يقض على ما كان قد ترسخ وضرب بجذوره من تراث الفيّ (متعلق بالعصر الألفي السعيد) مواتٍ للصهيونية، إذ ازدهر ذلك التيار وازداد قوة في مواجهة المناخ المعادي في عصر العقل، بالقرن الثامن عشر.

ولم تكن التطهرية ولا وليدتها العبرانية المسيحية قاصرتين على انكلترا، إذ شاعتا في كل بلد من بلدان أوروبا وجدت البروتستانتية لها فيه موطىء قدم. وفي هولندا الكالفينية تمكنت الأفكار الصهيونية تمكنا بالغاً على صعيد شعبي حيث كان اليهود الاسبان الذين لجأوا إلى الأراضي الواطئة هاربين من محاكم التفتيش قد استقبلوا بترحاب بوصفهم حلفاء في وجه العدو المشترك، التاج الاسباني والكنيسة الكاثوليكية»[٥٧].

في هذه المخاضة الدينية التي اختلطت فيها المعتقدات وشاع فيها التعصب والهوس، استشرى الفصام الذي جعل المسيحية في زماننا ديانة مستنفدة غارقة في بحر من المادية وعدم الاكتراث لتراث روحي واعتقادي ردمته البروتستانتية باصرار وبقدر كبير من التألّه لمآربها السياسية/ الاجتماعية. وفي وجه ما استجلبته البروتستانتية على نفسها من عداء واضطهاد، بل ومذابح، كما في حالة الهوجونوت

بفرنسا، وما استجلبته صيغتها التطهرية في انكلترا من عداء ونفور اثر زوال عهد كرمويل وعودة الملكية وانتقال أعنة السلطة السياسية والمكانة الاجتماعية للطبقات التي كانت قد حوربت وكبتت في ظل الحكم التطهري، ازدادت الهوة اتساعاً والتخندق شراسة، وبالتالي ازداد ميل اتباع البروتستانتية إلى اسباغ هوية اليهود على أنفسهم، وبتطرفهم المعهود وميلهم إلى الارتعاش بحمى ما ملأ رؤوسهم من اعتقادات، ذهبوا في ذلك الاسباغ للهوية إلى حد اقناع أنفسهم بأنهم «العبرانيون» الحقيقيون و «شعب الله المختار» فعلاً، وفي اقتناعهم بذلك ذهبوا إلى حد التخلي عن مبادىء الرحمة والتراحم والاعتدال والمغفرة في صوغهم لطريقة حياة «عبرانية تقية جديدة» لأنفسهم، وهو ما تعتذر لهم عنه بربارا توخمان بحرارة[٥٨] قائلة أن لوثة المتطهرين بالعهد القديم نبعت بشكل مباشر من خبرتهم باضطهاد كنيسة المؤسسة لهم. فالكنيسة اضطهدتهم وطاردتهم حتى الموت بسبب رفضهم الاعتراف بأي سلطة غير سلطة «الكتاب» وسلطة معتقداتهم. ولذا فإنهم كرهوا الكنيسة الانكليزية بالقوة والحرارة نفسها التي كره بها البروتستانت في مبدأ أمرهم كنيسة روما وبابويتها، وللأسباب نفسها، وهي أن هرم السلطة الكنسية، سواء كان هرم الأسقفية[٥٩] أو هرم البابوية، ظل في أعينهم مكوناً من أناس «مسحوا أنفسهم» بأنفسهم وتدخلوا بغير حق بين الانسان والله..

وان كان المتطهرون نفضوا أيديهم من الرحمة والمغفرة والتزموا بدلاً منهما بالصفات الأكثر عدوانية وشراسة للعهد القديم، فانهم لم يفعلوا ذلك إلّا لأنهم هم أيضاً، كمن يحكي عنهم العهد القديم، كانوا يقاتلون في وجه صعوبات ضخمة لإرساء أسس مبادىء جديدة وطريقة حياة مختلفة. ولذا فان صوت نفير يشوع، سفاح العهد القديم قرين هولاكو وجنكيز خان كان مواتياً لمزاجهم متفقاً مع ظروفهم أكثر من موعظة الجبل الداعية إلى ادارة الخد الآخر. فهم لم يجدوا في العهد القديم المبرر المشروع لذبح أعدائهم، وبالتالي أعداء

الرب، فحسب بل ووجدوا السند القوي للدعوة إلى ذلك تماماً كما هو مذكور في العهد القديم أن شاول جمع جنده وضرب عماليق وخلص اسرائيل من أيديهم. وقد كانت تعليمات يهوه إلى شاول عن طريق «النبي» صموئيل صريحة:

> «هكذا يقول رب الجنود: .. الآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا (اذبحوا) كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً رضيعاً».
>
> (صموئيل الأول ١٥: ٣)

ولقد كانت سقطة شاول التي جعلت يهوه يندم على كونه اختاره ملكاً أنه عفا عن أجاج ملك عماليق فلم يذبحه. وهي زلّة سرعان ما قوّمها صموئيل «النبي» إذ أخذ السيف ومزق أجاج إرباً أمام يهوه في الجلجال (صموئيل الأول ١٥: ٣٣).

تلك ـ تحديداً ـ ظلت الروح العبرانية الملهمة التي تشبعت بها المسيحية المهوّده على أيدي «المحتجِّين» البروتستانت في ارسائهم لأسس «طريقة حياة جديدة» ومنظور جديد لعلاقة الألوهة بالعالم ومن فيه أحلّت إلّه النقمات الدموي الرهيب محل «الأب الذي في السموات».



خلاصة الباب الأول

تساءلنا في طرحنا للفرض الموجِّه لما نحن بسبيله من بحث، ترى هل للدين دور في صنع وتكييف دور غربي فيما يخص مسيرة المشروع الصهيوني؟

ومما هو متوافر من معطيات في مجال البحث، يبدو أن حجم دور الدين وثقله ظلا حتى الآن أكبر وأفعل بكثير مما يقيّمان به في الرؤية السائدة لخلفيات ومكوّنات الدور الغربي في تنفيذ ذلك المشروع. وهو ما قد يكون بالوسع إرجاعه إلى ما تشير إليه المؤرخة الصهيونية بربارا توخمان في ملاحظة لم توردها، بطبيعة الحال، تطوعاً، بل لمآربها الفكرية والعقائدية الخاصة، لكنها تظل مع ذلك ذات صلاحية:

> «لقد بات من شبه المستحيل في عصرنا أن نقدّر تقديراً صائباً دور الدين في صنع أحداث التاريخ، سياسية كانت، أو اجتماعية، أو اقتصادية. وذلك لكون الدين قد بات غائباً من الحياة المعاصرة، على الأقل متى قورن حضوره بما كان عليه قبل زماننا. إلّا انه لا يجب أن يغيب عنا أن هذا القرن وليد ما قبله، وأن انكلترا، مثلاً، إن كانت قد أخذت على عاتقها اعادة اليهود إلى فلسطين، فإن اضطلاعها بذلك العمل راجع إلى ما باشره الدين من تأثير قوي في ذلك الاتجاه فيما سبق زماننا من قرون»(٦٠) .

وتستمد الملاحظة صلاحيتها بشكل خاص من ظاهرة «غياب الدين من الحياة المعاصرة». فالذي ترجحه مواقف المعاصرين في البلدان الغربية المسيحية من مسألة الايمان أن التديّن بشكل عام بات منظوراً إليه بأنه نوع من التخلف عن العصر. وليست المسألة مسألة انغماس في المادية، أو مسألة انتصار التجريبية العلمية على الايمانيات، فحسب، بل هي ـ فيما تشير إليه الأدلّة المتوافرة ـ مسألة انحسار قوي ومستمر حتى لمجرد الاهتمام بالدين الذي

يوصف باستمرار بأنه «لا يلوح بيده مستغيثاً وهو في خضم عدم الاكتراث، بل هو يغرق».

غير أن في غياب الدين من الحياة المعاصرة مفارقة يتحتم أن يقف عندها العقل، من حيث أن الدين شكّل باستمرار، في كل العصور وكل الثقافات، أحد أهم العمد الرئيسية التي قامت عليها طريقة حياة أي شعب أو مجموعة من الشعوب. فدائماً كان هناك للإنسان دينٌ ما يرتكن إلى معتقداته ووعوده وتقنيناته في التعامل مع الحياة والعالم. ولم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ الانساني، حتى أشدها بدائية، أن وُجدت طريقة حياة انبنت على إلحادٍ مصمّت يغيّب في غماره الدين غياباً كاملاً ويختفي دور الألوهة. وحتى عندما قادت «العلمية»، أي الايمان بالعلم، انسان العصر إلى التشكك في صلاحية مقولات الدين بازاء ما وجده العقل من لا معقولية في تأكيدات الرواية التوراتية عن خلق العالم منذ ستة آلاف سنة وعن تناسل البشر من صلب أب واحد ورحم أم أولى، حاول انسان العصر أن يختلق لنفسه ديانة جديدة أرضية، أحلّ فيها التاريخ وقواه محل الإله و «العناية الإلهية»، هي الماركسية التي اجتذبت لوقت أعداداً كبيرة من البشر من خلال ما وعدتهم به من فردوس أرضي في «آخر الزمان» الماركسي.

وبذلك الايمان الأرضي الممعن في التفاؤل، ملأت تلك الأعداد الكبيرة من البشر في هذا القرن الفراغ الذي خلفه موت المسيحية.

غير أن الايمان الماركسي لم يشمل كل المعاصرين ممن غاب الدين من حياتهم. فكيف كان «ملء الفراغ» فيما يخص أولئك الآخرين؟

يبدو أن البروتستانتية عندما اضطلعت بعملية تهويد المسيحية لم يتوقف انجازها عند موت المسيحية وانهيار صرحها الايماني، بل امتد ذلك الانجاز إلى توفير البديل لمن غاب الدين من حياتهم. وبطبيعة الحال، لن نجد أفواجاً من المسيحيين الذين ماتت مسيحيتهم واقفين على أبواب المعابد اليهودية طالبين الاذن بالدخول، وان وجدت

باستمرار، وبشكل متعاظم، حالات فردية كثيرة تقف وقبعاتها في أيديها طالبة الاذن بالدخول. إلّا أن الاتجاه الأشمل والأعم، فيما تنبىء عنه مواقف واتجاهات الغربيين الذين غاب الدين الذي كان دينهم من حياتهم المعاصرة، يتمثل في أن «ملء الفراغ» الفاغر كحفرة سوداء بغير قرار في الروح فشلت المادية في ردمها، يجري من خلال ضرب غريب من التدين بالوكالة والتهود بالروح، امتداداً ـ فيما يبدو ـ لرؤية مارتن لوثر للكلاب القابعة تحت مائدة اليهود لتلتقط الفتات المتساقط من مائدتهم اليهيوية الحافلة بطيبات الايمان والصلاح والرضا الإلّهي، يشهد بذلك الرضا ما يحققه اليهود باستمرار من نجاح وثراء وتنعم في مجتمعات الأمميين الغربيين.

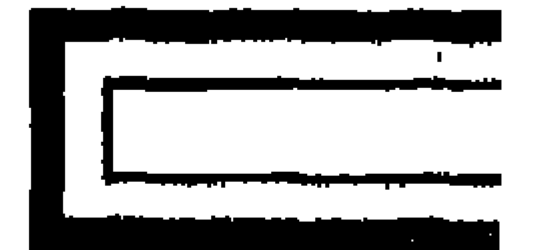
والواقع أن تيار ذلك الايمان بالوكالة ليس جديداً. فكما لاحظنا في الفصل (٧) من هذا الباب، لا خلاف على أن المقولة «الأخلاقية» الأساسية للنظام الراسمالي الذي انبنت عليه المجتمعات الأممية (مجتمعات الجوييم) الغربية، تلك المقولة التي بزغت مع النظام إبان الانقلاب البروتستانتي وطورها وعززها انتصار النظام وما ظل يحققه من نجاحات، وهي أن كل امرىء مسؤول عن أمر نفسه اقتصادياً، ومسؤول عن «خلاصه» الاقتصادي من عدمه، أي مسؤول عن فقره أو ثرائه، مثلما هو مسؤول عن «خلاصه» الديني أو عن هلاك روحه، هي أساساً مقولة نابعة من مفاهيم اليهودية التي قرنت باستمرار وبمنتهى اليقين بين الثراء والوفرة ورضا يهوه عن الفرد أو «الشعب» كله، وبين الفقر والشقاء الدنيوي وبين غضب يهوه على الفرد من «الشعب» أو على «الشعب» كله نتيجة لـ «الزيغ» وعدم الالتزام بالوصايا وما يترتب على ذلك من عقاب، هنا على الأرض، لا في أية حياة أخرة.

وان شئنا الوقوف على مثال حي ملموس على الارتباط الحيوي العضوي الذي من خلاله يظل الحاضر دائماً وليداً للماضي، ومثال يوقفنا على الدور الذي يلعبه الدين في صنع وتكييف وتوجيه المواقف

ذات الأثر الحاسم فيما يشهده المعاصرون من أحداث سياسية وتوجهات اقتصادية واجتماعية، فلنتوقف عند ما يلقيه الاستشهاد التالي من ضوء على المعطيات:

«إن المسز مارغرت تاتشر.. قد اختارت أن تضطلع بإحياء ما قد نصفه بالوجه الأشد صرامة من أوجه الرسالة المسيحية. ولا يغيب عنا أن الجوانب الصارمةمن المسيحية إنّما هي، في جوهرها، عناصر مستمدة من اليهودية، أي من العهد القديم، بوصفها وصايا و«مناهٍ» ينزل العقاب بمن يخالف أياً منها. وليس هناك مجال في سياق كهذا لأية مماحكة أو أي اعتذار عن الفشل بدعاوى الماركسية والفرويدية المقوِّضة لمبدأ مسؤولية الفرد مسؤولية كاملة عن نجاحه أو فشله. فالدرس اليهودي الذي يعلمنا إياه العهد القديم أننا نعيش في عالم شرس لن يُخلصنا من أذاه إلّا جهدنا الفردي وانصياعنا لوصايا الآلّه ونواهيه. وفي حالة الشعب الانكليزي ـ الذي يبدو أنه لم يفطن بعد إلى مدى تزعزع وضعه في عالم اليوم، ولم يصح بعد على الحقيقة الماثلة في أن العالم ليس مديناً له بما يقيم أوده ـ يعتبر النهج الديني اليهودي، أي نهج التعامل الذي يحدد به العهد القديم مفهوم العدل، وهو «عين بعين، وسنّ بسنّ»، النهج الأصلح والأكثر ملاءمة من ذلك الذي اقترحه المسيح في موعظة الجبل (عندما قال طوبى للودعاء، طوبى للفقراء، وطوبى لصانعي السلام).

فواقع الأمر أنه ان كان للرأسمالية البريطانية وللأمة البريطانية أن تأمل في أي نجاح يتيح لها عيش مرحلة أخرى من المنجزات الكبرى، فإن الديانة المسيحية لن تكون السبيل إلى ذلك مثلما كانت الحال في فترات سابقة. ومن الصعب حالياً التنبؤ بما قد يترتب على ذلك من آثار. إلّا أن هناك عدة مؤشرات هامة، منها منح الحاخام الأكبر لليهود البريطانيين لقب اللوردية، وادخاله مجلس اللوردات، ومنها تعيين كثيرين من اليهود في مناصب وزارية كبرى، قد يتبين أنها تشير إلى أحداث كبيرة المغزى»[٦١].



هوامش الباب الأول

(١) ولا تفوتنا ملاحظة القيمة السحرية للعدد ٧. ارجع في ذلك الى «سحر الاعداد»، بكتابنا **«السحر في التوراة والعهد القديم»**، لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٠، ص ٤٦٣.

(٢) و«اسرائيل» هي الأخرى كنعانية سابقة بقرون على «الاراميين التائهين» و«العبرانيين»، إذ هي منسوبة إلى الإله إيل. ارجع في ذلك الى كتابنا **«قراءة سياسية للتوراة»**، لندن: رياض الريس للكتب والنشر، تحت بند «إيل إله الكنعانيين الذي استعاره الاراميون التائهون».

(٣) والواقع انهم حاولوا الاستيلاء على المدينة لاكثر من ذلك بكثير لأن محاولاتهم بدأت في ظل السفاح، يشوع (القرن الثالث عشر ق.م).

(٤) ارجع في شأن سحرية التابوت واستخداماته العسكرية إلى كتابنا **«السحر في التوراة والعهد القديم»**.

(٥) Paul Johnson, **«A History of the Jews»**, N.Y.: Harper & Row, 1988, pp. 56 - 57.

(٦) كان يعقوب، عندما «تلقّى» ذلك الوعد من «إله» لم يكن يعرفه أو يعبده ولم يكن يعرف بوجوده، هارباً من أخيه عيسو الذي كان ـ طبقاً للحكاية ـ يبحث عنه ليقتله لأنه «سرق منه حق المولد وحق البكورية»، أي الحق في ميراث الاب. وكان يعقوب بذلك شخصاً أبقاً مشرداً بلا وطن (وقد وصفته التوراة بـ «الآرامي التائه»)، فكان طبيعياً أن يشتهي أو يتمنى لو كانت كل تلك الارض، غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ملكاً له. ولا احد يعلم، وليس بمكنة أحد أن يعلم، بطبيعة الحال، ما يمكن أن يكون ذلك الرجل الهارب من وجه أخيه قد رآه أو لم يره في منام. لكن الحكاية تؤكد أنه، في ذلك المنام، تلقى وعداً من إله رآه نازلاً على سلّم من السماء باعطائه كل تلك الارض ميراثاً أبدياً له ولنسله من بعده. وبصرف النظر عن أن حكاية السلّم النازل من السماء هذه «مقتبسة»، كالكثير الذي لا حصر له غيرها، من الديانة المصرية التي كان ذلك السلّم النوراني فيها لصعود أرواح الفراعنة إلى السماء لا لنزول الآلهة منها، فإن ذلك «الحلم» الذي حكت عنه حكاية، حُوِّل ـ إيمانياً ـ إلى «كلمة الله»، وبات بذلك حقيقة كونية لا شك فيها وأُسست عليه قانونياً وأخلاقياً وإلهياً دعاوى لم يسبق أن ادّعى بها شعب في التاريخ، فهي دعاوى وُسِّعت لتشمل الحق في تملّك عالم بأسره.

(٧) انظر في ذلك سحر إيليا وسحر اليشع في كتابنا **«السحر في التوراة والعهد القديم»**.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) Raphael Patai, **«The Messianic Texts»** (On the age - old Dream of a Great People) N.Y., Avon, 1979, p. xix.

(١٠) Ibid, p. xxi.

(١١) Joseph Campbell, **«The Power of Myth»**, New York: Doubleday, 1988, p. 41.

(١٢) ارجع في ذلك إلى صفحة ٢٨١ من كتاب N. Ausubel, **«The Book of Jewish** =

Knowledge» N Y. 1964.

(١٣) ارجع إلى صفحة ٢٨٣ من المرجع نفسه.

(١٤) Samuel Noah Kramer, «**Sumerian Mythology**», Greenwood Press, Westport Connecticut, 1988, p. 54.

(١٥) Ibid, p. 55.

(١٦) ارجع إلى كتاب أوزوبل السابق الاشارة إليه، صفحة ٢٨٤.

(١٧) ارجـــع في ذلـــك إلى كتـــاب Barbara Tuchman, «**Bible and Sword**», Ballantine Books, N.Y., 1984, p. xv.

(١٨) ارجع في ذلك إلى ص ٢ من المرجع السابق.

(١٩) ارجع في ذلك إلى نفس الصفحة من المرجع نفسه.

(٢٠) ارجع إلى كتاب البروفسور باتاي السابق الاشارة إليه، «النصوص المسيحانية»، ص ٢٣.

(٢١) ارجع في ذلك إلى الصحفة نفسها، المرجع نفسه.

(٢٢) ارجع في ذلك إلى كتـــاب «**The Forgotten Books of Eden**», ed R.H. Platt Jr., Bell Publishing Co., N.Y., 1981, pp. 81 - 105.

(٢٣) ارجع في ذلك إلى صفحة ١٧ من المرجع نفسه.

(٢٤) ارجع إلى صفحة ٢٤ من المرجع نفسه.

(٢٥) ارجع إلى صفحة ٢٥ من المرجع السابق لباتاي.

(٢٦) ارجع إلى صفحتي ٢٥ و ٢٦ من المرجع نفسه.

(٢٧) ارجع إلى صفحة ٢٧ من المرجع نفسه.

(٢٨) أنظر صفحتي ٣٢٨ و ٣٢٩ من المرجع نفسه.

(٢٩) وتلك هي معركة هرمَجدّون الدموية التي سيكون فيها الانتصار الأخير لصهيون.

(٣٠) ولما كان ذلك الكلام كتب في أواخر سنة ١٣٧٥م. فإنه يعني ان كل ما عدا اليهودية عبادة للأصنام.

(٣١) ارجع في ذلك إلى باتاي، «النصوص المسيحانية بصفحتي xl, xli.

(٣٢) ارجع إلى كتاب المؤرخة توخمان السابق الاشارة إليه، صفحة ٢٤.

(٣٣) «الترك» تسمية شبه مصطلحية استخدمت بتوسع كبديل لـ «المسلمين» والـ «محمديين».

(٣٤) ارجع إلى توخمان، صفحة ٥٧.

(٣٥) ارجع إلى صفحة ٥٨ من المرجع نفسه.

(٣٦) Mayir Verete, «**The Restoration of the Jews in English Protestant Thought: 1790 - 1840**», in **Middle Eastern Studies**, Vol. VIII, Issue 1, p. 14.

(٣٧) ارجع إلى كتاب المؤرخة توخمان السابق الاشارة إليه، صفحة ٨٣.

(٣٨) ارجع في ذلك إلى صفحة ٨٣ من نفس المرجع السابق.

(٣٩) David Ben-Gurion, «**The Rebirth & Destiny of Israel**», New York: The Philosophical Library, 1954, p. 100.

(٤٠) ارجع في شأن الاستنساخ من أسطوريات وفولكلور شعوب الشرق الأدنى القديم في تلفيق حكايات التوراة وغيرها من أسفار العهد القديم وفي شأن السرقات من الديانة المصرية إلى كتابينا: «**قراءة سياسية للتوراة**» و «**السحر في التوراة والعهد القديم**»، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.

(٤١) ارجع في ذلك إلى:
شفيق مقار: «**قراءة سياسية للتوراة**»، ص ص ١٣٢ ـ ١٣٣، ٢٥٥ ـ ٢٥٨، ٢٨٢، ٢٩٦، ٣٣٨ ـ ٣٤٠، ٣٦٨،
و «**السحر في التوراة والعهد القديم**»، ص ص ٤٣٧ ـ ٤٥٤.

(٤٢) ارجع في ذلك إلى كتاب توخمان السابق الاشارة إليه، صفحة ٨٢.

(٤٣) Franz Kobler, «**The Vision Was There**», London: Praeger, 1956, p. 37.

(٤٤) Regina Sharif, «**Non - Jewish Zionism**», op. cit., pp. 13 - 14.

(٤٥) صدرت للكتاب أكثر من ٥٠ ترجمة جديدة منذ سنة ١٩٥٢، قام بها، أو أشرف عليها ووجهها يهود كهارى أورلينسكي، وناحوم سارنا. والتركيز ـ بطبيعة الحال ـ منصب على «الكتاب اليهودي» (**The Jewish Bible**) أي ما يدعوه المسيحيون بـ «العهد القديم». وهذه، كما هو واضح، عملية مفيدة للغاية في «تنعيم» تناقضات ذلك الكتاب، وإعادة صياغته لتجنب التصادم بالعقل الحديث الأميل إلى التشكك، وضمان وصول «كلمة الله» إليه بالصيغة الملائمة.
ومن الملاحظ أن الفريق العامل في تنفيذ هذه المهمة يضم «خبراء» من اسرائيل. وقد كان المحرك الأصلي لمشروع الترجمة الأخير «تفكير اسرائيلي» غايته تمتين أواصر اليهو ـ مسيحية. وضماناً للالتزام بذلك التفكير الخيّر، عمل في المشروع كل من موشه جرينبرج وجوناس جرينفيلد، ممثلين للجامعة العبرية باسرائيل، جنباً إلى جنب مع الحاخام والمؤلف الروائي حاييم بوتوك، صاحب رواية «الشعب المختار» التي حولتها هوليوود إلى فيلم اضطلع ببطولته الممثل اليهودي رود شتايجر.
وفي الولايات المتحدة مؤسسة نشر يهودية أنشئت سنة ١٨٨٨، واضطلعت منذ تأسيسها بعملية «تحديث» ترجمة العهد القديم تطويراً للترجمة البروتستانتية وتعميقاً لفوائدها، هي مؤسسة The Jewish Publication Society of America.

(٤٦) J. Dow, «**Hebrew and Puritan**», **Jewish Quarterly Review**, Vol. III., 1891, pp. 60 - 61, quoted by Sharif in op. cit.

(٤٧) انظر في شأن القبّالة كتابنا «**السحر في التوراة والعهد القديم**».

(٤٨) باتاي «**النصوص المسيحانية**» ص ص ٢١١ و٢١٢.

(٤٩) صيغة «قبل العصر المشترك» (B.C.E.) تمثل البديل اليهودي في مؤلفات السواد الأعظم من الباحثين اليهود، تجنباً لاستخدام صيغة «قبل الميلاد» (B.C.) التي تعني، كما هو واضح، «قبل ميلاد المسيح»، وهذا ـ من وجهة النظر اليهودية، منطقي تماماً، لأنه لا ميلاد لمن لم يولد ولم يأت بعد.

(٥٠) نسبة إلى العرافة اليهودية سيبيل، انظر بعده.

(٥١) سيبيل Sibyl، تحريفاً لاسم الإلاهة العرافة Cybele. وقد اتخذت الاسم عرافة يهودية مستهلنة عاشت «وتنبأت» في الاسكندرية في القرن الثاني ق.م. مدعية أنها أرسلت من «الله العليّ» لهداية اليونان وسائر الأغيار (الجوييم) وادخالهم في اليهودية. وقياماً منها بتلك المهمة، وضعت تاريخاً فوق طبيعي لليهود بوصفهم كائنات عليا فوق بشرية كلفها الله بوضع طريقة حياة سامية لكل البشر وترجمة رغباته لأولئك البشر الأغيار، وتنبأت بمجيء المسيح المنتظر الذي سيقيم حكم صهيون على كل الأرض ويخلص سكان الأرض من الفقر، والمعاناة، والألم، ومن الحرب، فيجعل صهيون مخلّصة لكل البشر. وقد =

استخدم دعاة المسيحية الأول نبوءات سيبيل في التبشير بالمسيحية، ولكن بعد أن أدخلوا عليها فقرات أشارت إلى أن المسيح قد جاء بالفعل.

(٥٢) ارجع في ذلك إلى كتاب المؤرخة توخمان السابق الاشارة إليه، صفحتي ١٢١ و ١٢٢.

(٥٣) ارجع في ذلك إلى مقال ماير فيريتي السابق الاشارة إليه، صفحة ١٦.

(٥٤) ارجع إلى نفس الصفحة من المرجع السابق.

(٥٥) ارجع في ذلك إلى توخمان، صفحة ١٣٩.

(٥٦) ارجع في ذلك إلى كتاب فرانز كوبلر السابق الاشارة إليه، صفحة ٢٦.

(٥٧) Sharif, **«Non - Jewish Zionism»**, op. cit., pp. 26 - 27.

(٥٨) ارجع في ذلك إلى توخمان، صفحتي ١٢٤ و ١٢٦.

(٥٩) The Episcopalian (Protestant) Church.

(٦٠) ارجع إلى توخمان، صفحة ١٨١.

(٦١) والاستشهاد من مقال بقلم الكاتب المحافظ بريجرين ورثورن عنوانه «اليهودية هي الديانة الجديدة لبريطانيا تاتشر»، صحيفة الصنداي تلغراف، الأحد ١٠ يناير ١٩٨٨، ص ٢٠.
وقد كان نشر المقال في وقت ثار فيه نقاش واسع حول ما وصف بأنه توحّد بأميركا كان من ثماره كتاب هام عن العلاقات البريطانية الأميركية:
David Dimbleby & David Reynolds, **«An Ocean Apart»**, London: Guild Publishing, 1988.

الباب الثاني

الصّهيونية المسيحيّة تغزو العالم الجديد

١

تخليق وحش اليهو ـ مسيحية

ينبغي، مـا لم يكن مـرمى البحث، أيّ بحث، أن يظـل في مـدار التـأمل النظـريّ، أن يتحدد لـه من منطلق الفرض المـوجِّه لـه إطار يربطه بالواقع.

ذلـك الإطار، فيمـا يخص هذا البحث، يتحـدد فيما يبـدو كتبعية، تصل إلى حد الانضواء ـ من جانب عدد لا يستهان بحجمه ولا بثقله الـدولي من المجتمعـات المسيحيـة التـي ينتمي مـعظم سكـانـهـا للپروتستانتية وروافدها ـ لا لليهودية كديانة تغليباً لها على المسيحية، فحسب، بل وللحركة السياسية ذات الطموحات الكوكبية، المنبنية على تلك الديانة، أي الصـهيونية[1].

ومن واقع المرحلة الراهنة من تلك التبعية الانضوائية، يتحدد ذلك الاطار أيضاً فيما يبدو كاصرار على خوض صراع عسكري مدمّر مـع الإسلام، الديانة التوحيدية الكبرى المنافسة الباقية.

والـذي يكشف عنه أيّ بحث جـاد في أبعـاد المشروع الصهيـوني ومساراته الماضية والراهنة واحتمالات مساراتـه المستقبلة، إصرار لا يحيد وقدرة فائقة على استغلال الحزازات بين الأديان، بل بـين شيع الدين الواحد، وما تفرزه تلك الحزازات من كراهيـات دينية ـ بـرهن التـاريخ بـاستمرار عـلى أنها نبـع لا ينضب لأشـد الحـروب ضراوة وإمعاناً في الـوحشية، يشهـد بذلـك تاريـخ أوروبا ـ استغـلالاً بالـغ

الكفاءة في السعي الذي لا يتوقف إلى تنفيذ الرسم الهندسي الصهيوني المستمد بحرفية كاملة من رؤى العهد القديم وطموحات مؤلفيه التي صاغوها إما على شكل «كلام إلّهي» قيل لهم رأساً وإما على شكل «نبوءات» أوحي بها إليهم.

كما يكشف البحث أيضاً عن أن الحركة الصهيونية، استغلالاً منها لواقعة الجمع بين العهد القديم والعهد الجديد في تكوين «الكتاب المقدس»، واستغلالاً للمنافذ التي فتحتها البروتستانتية إلى تغليب سطوة العهد القديم على عقول المؤمنين وأرواحهم باعتباره«كلام الله» الذي لا يناقض، إما لموسى وإما للعرّافين الذين دعوا في «الكتاب» باسم النبييم. واستغلالاً لما درّبت البروتستانتية العقل الغربيّ عليه من إقامة حواجز صلبة بين أشكال وضروب التناقض الكفيلة بإثارة الشك في مدى صلاحية ذلك الإعلاء للعهد القديم، يكشف البحث عن سعي ناجح للغاية من جانب منفّذي المشروع الصهيوني من اليهود والمسيحيين، استغلالاً لكل ذلك، إلى المزاوجة بين «كلام الله» ذاك، و«نبوءات» النبييم وبين نواتج عملية لا تتوقف من إعادة كتابة التاريخ، **بل و إعادة كتابة «الكتاب» نفسه،** في تخليق كائن أشبه بوحش فرانكنشتاين في رواية ماري شلي، تحت اسم «اليهو ـ مسيحية»، أي المسيحية المهوَّدة التي تجد سندها اللاهوتي في «تجديدات» الانقلاب البروتستانتي وتحوّلاته العديدة، وأبرزها التطهّرية ووريثتها الانجيلية. **وفيما تبرهن الأحداث كل يوم، تظهر أدلّة متعاظمة على نجاح الحركة الصهيونية، بشقّيهااليهوديّ والمسيحيّ، في تطوير ذلك الكائن المخلّق إلى وحش شديد الضراوة ممعن في الوحشية وشهوة الافتراس آخذ في وضع أسس «نظام» عالمي جديد كل الجدّة وخطر خطورة مميتة.**

وبطبيعة الحال، بحكم انبثاق الحركة الصهيونية من المسلّمات الأساسية للديانة اليهودية، يظل ذلك الكائن الاصطناعي، «اليهو ـ

مسيحية»، إجراء ضرورة مرحليّ تدعو إليه حاجة الحركة، في سياق معركتها الاستهلالية الراهنة الرامية إلى تجميع كل يهود الأرض (تماماً كما تدعو الرؤى المسيحانية) على رقعة من الأرض ستظل تتسع حتى تشمل كل الأرض المتعاقد عليها في كتاب «كلام الله» المقدس، بين الإلّه وآباء «الشعب»، والموعودة بوعد إلّهي لسلالة أولئك «الآباء» ابراهام واسحق ويعقوب، كميراث أبدي، على النحو الذي يؤكده قول بن جوريون الذي سلفت الاشارة اليه من أن «كتاب المسيحيين المقدّس» يشكّل أقوى وأفعل حجة ملكية تثبت أحقية اليهود في حيازة تلك الأرض، كل تلك الأرض. وذلك اطمئنان صهيوني إلى نوعية النتيجة الحتمية لصراع الشرق الأوسط أفصح عنه موشي ديان أيضاً عندما سئل عن السبب في أن دولة اسرائيل تبدو غير مستعدة اطلاقاً لتعيين «الحدود» التي تقبل بها، إذ قال «**ولماذا نعيّن حدوداً وعندنا التوراة؟**» أي أن تلك الحدود قد تحددت سلفاً، منذ البداية، في التوراة، في «كلام الله».

غير أن الطبيعة المرحلية لإجراء الضرورة المتمثل في تخليق كائن «اليهو ـ مسيحية» الاصطناعي الذي ستدعو الحاجة إلى الإبقاء عليه «حياً» إلى أن تتحقق كل «نبؤات» التوراة والعهد القديم و«كلام الله»، تموَّه وتُخفَى تحت كثبان ضخمة من دعاوى «التآخي» التي يطمر تحتها ماتظل اليهودية مفعمة به، كجوهر حيّ باق لها، من كراهية وازدراء لأي وكل دين آخر عداها يفصح عنهما «الزهار» بقوله إن مسيح المسيحيين «مات كبهيمة وقبر في كومة وسخ كما ترمى الكلاب والحمير النافقة مثلما يقبر أبناء عيسو (أي المسيحيون) وأبناء اسماعيل (أي المسلمون) مع نبيَّيْهم النجسين غير المختّنين. فهؤلاء جميعاً مدفونون معاً كالكلاب النافقة»[٣].

وتمتيناً لعرى ذلك الائتلاف اليهودي المسيحي، وتوثيقاً لأواصر «الأخوة» «اليهو ـ المسيحية»، وإمعاناً في إخفاء الكراهية والازدراء والتمويه عن تأصلهما في جذور المعتقدات اليهودية، تحول الكراهية

والعدوان مرحلياً، ولحين الانتهاء من مرحلة صراع الشرق الأوسط، إلى الإسلام وحده باعتباره العدو المشترك للديانتين الأخريين المتحالفتين المتآخيتين.

ومما توقفنا عليه المعطيات الوفيرة في مجال البحث والمتمثلة في كم هائل من المؤلفات والأبحاث الموجهة إلى العقل الغربي[٣] تستخدم في ذلك التحويل للكراهية والعدوان صوب الإسلام، الذكريات الغائمة المشوشة عن هزائم العالم المسيحي في حروبه الصليبية الفاشلة التي شنها لانتزاع القدس و«الأرض الموعودة» من أيدي المسلمين. وفي ذلك، كما في كل شيء آخر، تُطمَس التناقضات وتستخدم أنصاف الحقائق. ففيما يخص الحروب الصليبية التي تُستحضر لإثارة العداء، تغفل الحقيقة الماثلة في أن اليهود أيضاً، لا المسلمين وحدهم كانوا «العدو» في تلك الحروب، رغم أنها حقيقة تكشف عنها بعض الفقرات التي تفلت في كتابات الباحثين اليهود كما في حالة توخمان التي تقول، كما أسلفنا، إن الكراهية الشعبية لليهود لم تكن نشطة بشكل خاص (في أوروبا) إلى أن أشعلتها الحروب الصليبية، وتضيف أن خوف مسيحيّي العصور الوسطى غير المتعقّل من «الهراطقة» (أي غير المسيحيين) ومقتهم لهم كانا من محفزات تلك الكراهية بالإضافة إلى الحسد لثراء اليهود والتذمر مما كانوا يقتضونه من ربا[٤]، وكما في حالة فاينجولد[٥] الذي يقول إنه من الثابت الآن أن الحروب الصليبية كانت كارثة بالنسبة لليهود لأنهم باتوا إبّانها هدفاً في متناول اليد للسُعار الصليبي، ويؤكد أن آلافا منهم ذبحوا بسيوف الصليبيين.

غير أن ذلك، وإن تفجّر هنا وهناك في مثل هذه الانفثاءات لبخار الكره الكظيم، ينحىّ جانباً، ويُطمَر كالكثير غيره من تناقضات يهو ـ مسيحية، تحت سطح «التآخي» اليهودي المسيحي، وينساه بسرعة حتى من يفلت بخاره من أفواههم، كالمؤرخة توخمان، متى تعلق الأمر بالطرف الثالث في تلك الساحة، أي الإسلام، بوصفه العدو المشترك

للائتلاف اليهودي المسيحي. فالسيدة توخمان، متناسية كل ما عدّدته من جرائم المسيحيين بحق اليهود، **تعرب عن حزن بالغ لبناء مسجد عمر «على الصخرة المقدسة التي أوشك الأب ابراهام على التضحية فوقها بابنه اسحق، والتي اقيم عليها فيما سبق معبد سليمان «لأنه، ببناء المسجد على تلك الصخرة» تسيّد محمد مكاناً كان داود قد أقام فيه ملكه، وقام يسوع برسالته (!)»، وتأسى لأن «أتباع محمد، الذين كانوا حديثي عهد بالتوحيد، باتوا (بعد الفتح الإسلامي) الحائزين الفعليين للمدينة المقدسة للديانتين الأقدم، وبات بوسعهم أن يستغلوا مكانتها الروحية لصالحهم» وتقول إنهم «بالانتهازية الحصيفة نفسها التي اتصف بها مؤسس الديانة، كانوا متلهفين على اقتباس كل ما وسعهم ايجاد مكان له بين صفحات القرآن من معتقدات وممارسات يهودية ومسيحية!**[٦]».

فالمؤرخة اليهودية، في حين تقدّم في كتبها عريضة اتهام ضافية تعدد فيها جرائم المسيحيين ضد قومها، تنقلب فجأة أختاً لأولئك المسيحيين وتصل في ذلك التآخي إلى حد إنكار الوحي في حالة القرآن مكررة الادعاءات المشتركة بـ «الاقتباس» من معتقدات«اليهو ـ مسيحية» وممارساتها.

ومما يستوقف العقل في شأن ذلك العداء المعلن أن هذه المؤرخة وغيرها ممن يصدرون في كتاباتهم عن الكراهية ويلجأون في تلك الكتابات إلى التشهير الذي لا يسانده أي دليل خلا ما تمليه الكراهية، لم تستطع، كما لم يستطع غيرها (انصياعاً لدواعي الابقاء على مصداقية ما يكتبون) إنكار ما سجله التاريخ للحكم الإسلامي في فلسطين. فهي تسلم بأن عمر «أرسى مبادىء التسامح الديني تجاه المسيحيين واليهود على السواء، لكونهم زملاء في التوحيد، وسمح لمن شاء منهم البقاء أن يقيم في فلسطين، كما سمح لهم بالاستمرار في التردد على أماكن عبادتهم»، وتشير إلى «الخلفاء المتسامحين كهارون

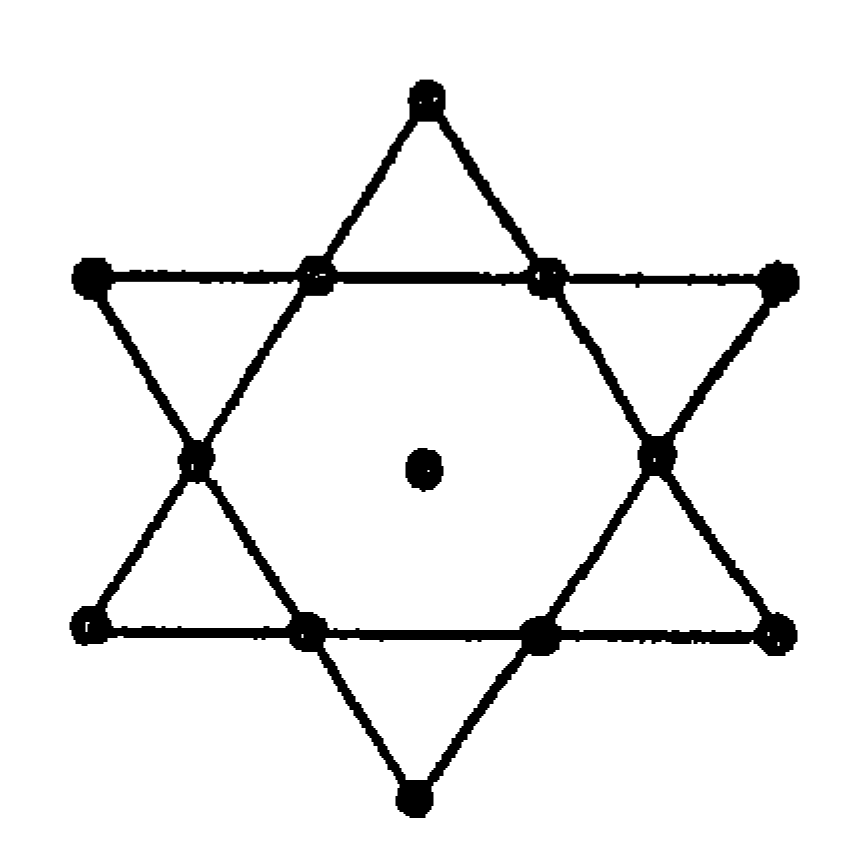
الرشيد الذي أهدى شارلمان، كعربون صداقة، مفاتيح كنيسة القبر المقدس واعترف به كحام للمسيحيين في الشرق»[٧].

وذلك هو ما نتوقف عنده محاولين استجلاء السبب في العداء المرور للإسلام. فاليهود قديماً لم يعانوا تحت الحكم الإسلامي، بل كانت معاناتهم في المجتمعات المسيحية. واليهود في عصرنا لم يضطهدوا في الشرق الأوسط بل في المجتمعات الأوروبية. ومع ذلك ينصبّ الكره والعداء على المسلمين، ويكفّر الأوروبيون عن اضطهادهم لليهود بالاغتيال المنظم دائم التوسع لشعوب الشرق الأوسط لحساب اليهود. فلمَ؟ وكيف؟ وإلى أيّ مدى؟ وما دور الدين والكائن المصطنع المستولد من زيجة اليهودية والمسيحية في ذلك الاغتيال المنظم؟

في محاولتنا الوقوف على الخيوط المتشابكة المعقدة المكوِّنة لهذه الصورة المليئة بالمتناقضات، يقودنا البحث بحتمية لا مهرب منها، تحت دفع حثيث مما هو متوافر على أرض الواقع المعاصر من ظواهر ومعطيات، إلى «العالم الجديد» الذي يبدو أن وحش «اليهو ـ مسيحية» ينطلق منه في غزوة صليبية أخيرة تختلف عن كل سابقاتها بكون الصليب يتعانق في راياتها بمجنّ داود، «نجمة» اسرائيل المستنسخة من مصر.

٢ كمّاشة اليهود والمتطهّرين

من المعطيات الهامة التي توجّه البحث صوب «العالم الجديد»، احتواء الخاتم الرسمي لدولة الولايات المتحدة الأميركية، منذ ما قبل ظهور الصهيونية اليهودية بوقت طويل، على «مجنّ داود»، النجمة السداسية التي ترفرف اليوم من علم محطة الصهيونية الأولى، اسرائيل. والمجنّ مكوّن في الخاتم من ثلاث عشرة نجمة تمثل كل نجمة منها ولاية من الولايات الثلاث عشرة الأولى التي تألّف منها الاتحاد (شكل رقم ١).



«مجنّ داود»، نجمة اسرائيل السداسية وتعرف ايضاً باسم «خاتم سليمان»



الخاتم الرسمي لدولة الولايات المتحدة الأميركية

(الشكل رقم ١)

ويلاحظ جوزف كامبل أن مصممي خاتم الولايات المتحدة وضعوا في صميمه «خاتم سليمان»، أو «مجنّ داود» مستخدمين في ذلك ١٣ نجمة صغيرة مثّلت كل نجمة منها ولاية من الولايات الثلاث عشرة الأصلية التي تألف منها الاتحاد، مع ترتيب تلك النجوم لتشكّل المثلثين المتراكبين اللذين رسمت بهما نجمة اسرائيل (استنساخاً من عقيدة الإلّهة معات المصرية). ويشير كامبل إلى أن النجوم تشكل ١٣ نقطة هي عينها النقاط الـ ١٣ في النجمة اليهودية بحيث أدمجت النجمة في خاتم الدولة الأميركي[٨].

ومن تلك المعطيات أيضاً أن الرسم الأول الذي اقتُرِح لعلم الولايات المتحدة كان رسماً صوَّر موسى خارجاً من مصر على رأس «بني اسرائيل»، لكنه ـ وقد أثار جدلاً ـ استُعيض عنه برسم النسر.

ومن تلك المعطيات أن قادة الولايات المتحدة وشعبها وكتّابها أسموا دولتهم وقت انشائها بـ «أورشليم الجديدة» وأسموا مدنهم ومستوطناتهم بأسماء توراتية، منها صهيون، وأورشليم، وحبرون، واليهودية، وسالم، وعدن، وأسموا أولادهم بأسماء «آباء» العهد القديم و«أبطاله»، وبخاصة السفاح، يشوع، الذي ما زال اسمه من أحب الأسماء إلى قلوبهم، ينادون به أبناءهم مع شيء من التدليل، تبركاً وانتساباً، بلفظة «چوش» (Josh).

ومن تلك المعطيات الانتماء الروحي الصريح من جانب الرؤساء والساسة الأميركيين، ذلك الانتماء الذي عبر عنه الرئيس الأميركي ليندون جونسون، مثلاً، بقوله إن ديانته، المسيحية، اشتقت من ديانة اسرائيل، أي اليهودية، وأوصله إلى ذروته الرئيس الأميركي جون كنيدي بتأكيده أن يهوه هو الذي يحرس الولايات المتحدة ويحميها، لا الجيوش أو الأساطيل.

في هذا العِرق الغني من العبرانية والتهوُّد، يجد الباحث منفذه إلى الوصلة الحية بين معتقدات المتطهرين الأول في انكلترا، وبين الإيمان الديني الذي أفرزته تلك المعتقدات لدى «النوع البشري الجديد» الذي عمر العالم الجديد، **والذي نجده متجاوزاً الخطوط الفاصلة بين الشيع الدينية، فاعلاً فعله في رؤية الرئيس الكاثوليكي جون كنيدي لمظلة الإله العبراني يهوه مخيّمة فوق أميركا، وفي اعتقاد الرئيس المسيحي المولود ثانية جيمي كارتر بأن اسرائيل هي الباب إلى المجيء الثاني.**

فكيف غزت العبرانية العالم الجديد؟ وكيف بزرت العبرانية في تربة ذلك العالم الجديد بزرة الصهيونية المسيحية قبل أن ينادي

هرتزل بانشاء الدولة اليهودية بأكثر من قرنين ونصف قرن؟

حتى نتتبع خيط ذلك التهوُّد، نعود إلى الحرب الأهلية التي نشبت في انكلترا نتيجة لتمرد كرُمويل. عندما حقق كـرُمويـل انتصاره الأول على الملكيين في مـارستون مـور، كانت أنشـودة النصر التي أنشدهـا أتباعه المتطهرون، حرفاً بحرف، تسبيحة موسى التي رنّمها إثر «غـرق فرعون وجيشه في البحر الأحمر»:

«يمينك يايهوه معتزّة بالقدرة. يمينك يايهوه تحطم العدو. وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك. ترسـل سخطك فيـأكلهم كالقش».

(خروج ١٥: ٦ و ٧)

فشـارل الأول أصبح، في هذه الرؤية التطهرية، «فرعـون»، وجيشه الملكي أصبـح جيش «المصريين»، وانتصـار كـرمـويـل تكـررت فيـه «معجزة البحر الأحمر»[٩].

وعندما احتدمت الحرب أكثر، اتسع نطـاق الهستريـا التطهريـة، فلم يعد الملكيون «مصريين» فحسب، بل أصبحـوا أيضاً أبنـاء أدوم، وأبناء موآب، وأبنـاء بابـل، أعداء «بني اسرائيـل» الألداء. وبـالتالي، انصبت عليهم من أفـواه المتطهرين المـرتعشة بحمى الايمـان غضبة ارميا الدموية العارمة:

«ملعون من يعمل عمل يهوه بـرخاء (ملعـون من يتراخى في القيـام بعمل يهـوه). **ملعـون من يمنـع سيفـه عن الدم».**

(إرميا ٤٨: ١٠)

فمع التهوّد بالروح، أُفعمت الروح من بداية الأمر، **بدموية العهد القـديم المطمئنة إلى أن الـولـغ في الـدماء إنمـا هو «قيـام بعمـل الرب».**

ولعله من الفاتح للعينين في شأن «عمل الرب» هذا، أن جنود كرمويل، في غمار إسباغ هوية اسرائيل على أنفسهم، كان تركيزهم على بابل[١٠]. وقد اتخذ التركيز طابعاً يهودياً خالصاً:

> «سيف على الكلدانيين وعلى سكان بابل وعلى رؤسائها وعلى حكمائها. سيف على أبطالها. سيف على خيلها وعلى مركباتها. سيف على خزائنها فتنهب. حَرٌّ على مياهها فتنشف».
>
> (إرميا ٥٠: ٣٥ ـ ٣٨)

فانكلترا، في هذيان الحمى التطهري، لم تصبح «مصر» و«أدوم» و«موآب» فحسب، بل وباتت أيضاً «بابل». ومن نبع الكراهية المصفاة لبابل، بلد السبي، استمد جنود كرمويل بوصفهم اسرائيل المسبية في وطنهم انكلترا ضراوة خاصة في مقاتلة «البابليين»، أي جند شارل الأول. ولقد كان من الطبيعي بعد زوال غمة كرمويل وعودة النظام الملكي، أن يبادل الملكيون المتطهرين كرهاً بكره، وشراسة بشراسة، ويردّوا لهم كيل الاضطهاد التطهري كيلين.

ويخبرنا ماكّولي[١١] أن الاضطهاد أحدث أثره الطبيعي فيهم. ويقول إنهم، كدأب الشيع المضطهدة، أقنعوا أنفسهم بأنهم في كرههم لأعدائهم إنما كانوا كارهين لأعداء السماء. ويلاحظ أن **العهد القديم مترع بما يجعل من السهل على من تمتلىء أرواحهم بالشراسة والظلام أن يجدوا فيه ما يمكنهم استخدامه خدمة لمآربهم. ولذا فإن المتطهرين انطووا على تفضيل للعهد القديم بدا واضحاً في كل مشاعرهم وضروب سلوكهم ومظهرهم وعاداتهم ودأبهم على اعطاء أطفالهم أسماء عبرانية، وتحولهم عن يوم الأحد إلى السبت اليهودي، وبحثهم عن السوابق التي يهتدون بها في مسلكهم في أسفار القضاة والملوك.**

ورغم التزامه أسلوباً متحفظاً فيما كتب، لم يستطع ماكّولي أن يكبح جماح نفوره وهو يتحدث عن المتطهرين قائلاً إنه ما على المرء

إلا أن يتأمل هيئتهم، بل ومشيتهم، وشعرهم المبتل اللاصق برؤوسهم، ونظرة التوقّر المعتم التي يرسمونها على وجوههم، وتباعدهم عن كل مرح مهما كان بريئاً، وأن يصغي إلى ذلك الخَنَف في أصواتهم إذ يتكلمون كأنما من أنوفهم لا من أفواههم (وهو الخنف المميِّز للصوت الأميركي في زماننا)، وأن يلقي بالا إلى هرائهم الفريد الذي يقحمون به المصطلحات والمفاهيم العبرانية اقحاماً على اللغة الانكليزية، وأن يتأمل في مجازاتهم المستعارة من «أشد شطحات شاعرية عصر سحيق وبلد ما أبعده» وفي محاولتهم المستمرة تطبيق كل هذا على الشواغل المشتركة للحياة الانكليزية، كيما يدرك أسباب النفور منهم والاضطهاد الذي يعانونه.

أما ويليام كنينجهام، فيقول في مؤلفه الضخم عن نمو الصناعة والتجارة في انكلترا[١٢] إن الاتجاه الغالب لدى المتطهرين، وهو **اتجاه لنبذ الأخلاقيات المسيحية واستبدالها بعادات يهودية، واتبّاعهم لحَرْفية تقنين عتيق بدلاً من الاصغاء لما يمليه الوعي السليم المستمد من تعاليم ديانتهم**، كل ذلك أدى إلى انتكاس تطهّري إلى مستوىً أدنى من الأخلاق الاجتماعية بات مميزاً لسلُوكهم داخل انكلترا وخارجها.

والأخطر من كل هذا الانفصام الخلقي والديني عن المجتمع الانكليزي، كان النزوع الجمهوري الذي لم يخبُ في نفوس المتطهرين حتى بعد موت كرُمويل وعودة النظام الملكي، والذي أضيف إلى الرفض التطهري لسلطة الكنيسة فجعلهم في نظر المؤسسة الحاكمة، لا «مستقلين» كما دعوا أنفسهم، بل منشقين خطرين على التاج وعلى الكنيسة معاً، وهو ما عبر عنه جيمس الأول بقوله «بلا أساقفة، ليس هناك مُلْك».

ولما كان كرُمويل نفسه، في أوج مجده الجمهوريّ، رغم تطهريته، قد وجد نفسه في صراع مع المتطرفين من المتطهرين الذين سعوا إلى الاطاحة به بحجة أنه لم يكن متطهراً بما فيه الكفاية وأنه كان عقبة

في وجه إقامة «**مملكة القديسين**»، فإنه كان من الطبيعي أن يستحيل التعايش بين النظام الملكي و«أولئك المتهوسين».

وقد كانت النتيجة هجرة تطهرية إلى «العالم الجديد»، باتت ـ فيما كشفت عنه مسارات تاريخ ذلك العالم الجديد ـ ذراع كماشة كانت ذراعها الأخرى، بغير تدبير، هجرة اليهود الهاربين من محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال، يهود المارانو (الذين تظاهروا باعتناق المسيحية) إلى أميركا الجنوبية. **وبإطباق ذراعي الكماشة، غزت العبرانية، ممثلة في التهود البروتستانتي من جانب، وفي الهجرة اليهودية من الجانب الآخر، أرض القارة الشمالية.**

«كان المتطهرون منسحرين إلى حد الهوس بالعهد القديم، كتاب اليهود، لكنهم لم يكونوا مضيافين لليهود أو لليهودية. كانوا قد بارحوا أوروبا، التي كانت «مِصرهم» وأرض عبوديتهم، **لينشئوا أورشليم الجديدة**. وفي خطبته الشهيرة على ظهر السفينة «أرابلّا» التي حملت المجموعة الثانية من المتطهرين إلى خليج مساشوستس سنة ١٦٣٠، شبّه جون وينتروب من كانوا على ظهر مركبه بكل من **الناجين من الطوفان على فلك نوح، وبمن بعثوا أحياء من عظام نخرة في رؤيا حزقيال**، وقال إنهم سيكونون الأسلاف الجدد للنوع البشري الجديد بعد أن تكون أوروبا قد قضت عليها خطاياها. وبعده بوقت قصير، ألقى صمويل ويكمان، أحد كبار رجال الدين البروتستانت في أوج ازدهار التطهرية، موعظة في يوم انتخاب أكد فيها للمستوطنين المتطهرين أن «أورشليم كانت، لكن نيو انجلند هي الموجودة الآن، وهم (اليهود) كانوا، لكنكم أنتم الآن شعب الله، وعهد الله معكم، فضعوا اسم نيو انجلند مكان اسم أورشليم».

«فالمتطهرون كانوا على أتم يقين من أنهم اليهود الحقيقيون، والورثة الحقيقيون والأخيرون لكل ما تعهد به الله في العهد القديم»[١٣].

وفي الوقت نفسه الذي كان أولئك «اليهود» الجدد يصلون فيه إلى مساشوستس ويمهدون لجعل مدينة بوسطن مركزاً جديداً لقيام

«مملكة الله على الأرض»، كان اليهود الحقيقيون يهربون من اضطهاد المسيحيين لهم في اسبانيا والبرتغال بعد انتهاء الحكم الإسلامي بشبه جزيرة ايبريا:

«كان وراء هجرة اليهود إلى العالم الجديد (أميركا الجنوبية أولاً ثم أميركا الشمالية)، تاريخ طويل من المعاناة والبؤس بدأ بالشتات اليهودي من شبه جزيرة ايبريا. **فاليهود الذين عاشوا في اسبانيا والبرتغال تحت الحكم الإسلامي كانوا مجدودي الحظ حقاً. ففي ظل أولئك الحكام المستنيرين، الذين كانوا قد استكملوا فتحهم لشبه الجزيرة سنة ٧١١، ازدهرت أحوال اليهود كثيراً، واستمتعوا بعصر ذهبيٍّ قلّ نظيره في الشتات، وبات بوسعهم الإسهام بحريّة في مجالات العلم والثقافة والتجارة، بل ووصل كثيرون منهم إلى مكانات رفيعة كاطباء ومستشارين في البلاط، في حين امتهن كثيرون غيرهم مختلف الحرف والصناعات.**

«**غير أن ذلك الوضع المثالي الذي تمتّع به اليهود في ظل الهيمنة الإسلامية تغيّر بعد انتهاء الحكم الإسلامي، وظل في تدهورٍ مستمر في ظل الأمراء المسيحيين.** ولو كان العداء المسيحيّ لليهود قد اقتصر على الحدّ من أنشطتهم التجارية والمالية لبات في وسع اليهود احتماله. غير أن ذلك العداء كان أوسع وأشد حدّة من ذلك. **فخلال الصراع المسيحيّ الطويل مع الإسلام، كانت الكنيسة الكاثوليكية وعامة المسيحيين قد امتلأوا حماساً صليبياً ومقتاً لكل ما هو غير مسيحي. وفوق ذلك، كان الوضع المميَّز الذي تمتع به اليهود في ظل الحكم الإسلامي ماثلاً في أذهان الجماهير المسيحية العريضة وباعثا على حزازة مريرة في نفوسهم تجاه اليهود الذين كان الكهنة المسيحيون يعلّمون تلك الجماهير أنهم غدروا بمسيحها وصلبوه. ومما زاد الطين بلّة أن يهود اسبانيا رفضوا بعناد التسليم بنبوة ذلك المسيح أو الدخول في ديانته،** وإن أقدم بعضهم على ذلك، فتحولوا عن دينهم، وعرفوا باسم المارّانو (وتعني اللفظة «النجس»، «الخنزير») وقد تمكن بعضهم من النفاذ إلى تلب الدوائر العليا في كل من الدولة والكنيسة»[14].

ويهود المارّانو أولئك يستحقون وقفة، وبالذات عند ما يشير إليه الباحث اليهودي الذي أوردنا من كلامه الاستشهاد السابق من أنهم «تمكنوا من النفاذ إلى صميم الدوائر العليا في كل من الدولة والكنيسة باسبانيا». **فذلك النهج القائم على زرع «العملاء الراقدين» في المراكز الحساسة بالبلدان المستهدفة باستخدام يهود «يعتنقون» ديانات تلك البلدان، نهج تشير الحقائق التاريخية المتوافرة إلى أنه متكرر ومستخدم بذكاء وأنه حقق لمستخدميه بعضاً من أهم منجزاتهم في التاريخ الحديث والمعاصر، ومكن يهودا متسترين وراء اعتناق المسيحية أو الإسلام زرعوا منذ أعمار غضة في المواقع التي اختيرت لهم من التوصل إلى شغل مناصب الأساقفة، بل والبابوات في هرم الكنيسة الكاثوليكية[١٥]، وإلى شغل مناصب كبرى في الجيوش وفي الحكومات والمنظمات أتاحت، مثلاً، تمهيد السبيل لانقلاب أتاتورك في تركيا، والتمكن من نسف الأوبك من داخلها، على سبيل المثال لا الحصر.**

وفيما يخص العالم الجديد، يوقفنا بحث الباحث اليهودي فاينجولد[١٦]، على أن كريستوفر كولمبس، عندما فشل في اقناع ملك البرتغال، يوحنا الثاني، بإمكانية تنفيذ مشروعه الخاص بالإبحار غرباً للوصول إلى الشرق، «اتجه إلى دييجو دى ديجا»، **أسقف سلامانكا، الذي كان من يهود المارّانو**، عارضاً عليه المشروع. وبعد تدارس المقترح مع اليهود المارّانو الآخرين، **وجّه «الأسقف» اليهودي مقدم العرض، كولمبس، إلى «مجموعة من اليهود الذين أوصلهم اعتناقهم للمسيحية إلى مكانة عالية في اسبانيا، وإلى «يهودى الخرائط» ابراهام زاكوتو . فتبنّت المجموعة مشروعه وظلت تعمل على تنفيذه باستخدام اتصالاتها وبتقديم التمويل له، خلال السنوات من ١٤٩١ إلى ١٤٩٣، ولذا لم يكن غريباً أن أرسل كولومبس أول رسالة بنبأ أول اكتشاف له في رحلته الأولى إلى لويس دى سانتانجل، أحد قادة تلك المجموعة.** ويبدو من

اتساع نطاق اتصالات كولومبس بيهود المارّانو وتعضيدهم له أن السلطات الاسبانية شكّت في أنه يهودي، وهو ما يعلق عليه فاينجولد قائلاً: «وإن كان بوسع المرء أن يتشكك في نسب يهودي لكولبس، فمما لا شك فيه أن الدور الذي لعبه يهود المارّانو في جعل بدء رحلاته أمراً ممكناً كان دوراً لا سبيل إلى المجادلة فيه».

وكان طبيعياً، وقد فطن اليهود الاسبان من مبدأ الأمر إلى الإمكانات الضخمة التي انطوى عليها مشروع كولبس وأسهموا في جعله ممكناً من خلال ما قدّموه إليه من دعم أتاح له القيام برحلته الأولى، أن يهرعوا بنشاط بالغ، إثر الاستيلاء الاسباني والبرتغالي على بلدان القارة الأميركية الجنوبية، إلى جني ثمار مبادأتهم. وكان مما أتاح لهم ذلك أن كلا من الحكومتين الاسبانية والبرتغالية لم تهتما إلا بنهب الذهب وملء خزائنهما به من خلال عملية منظّمة من الإبادة للسكان المحليين. فقد ترك ذلك الشاغل النشاط الاقتصادي مفتوحاً بالقدر الأكبر أمام مبادرات اليهود الذين توافدوا على المستعمرات الجديدة.

غير أن الوافدين، وقد بعدت الشقة ما بينهم وبين اسبانيا والبرتغال، بدا لهم أنهم كانوا قد باتوا قادرين على خلع أقنعتهم المسيحية تدريجياً والعودة إلى يهوديتهم الأصيلة، مما استجلب ـ بالحسم المعهود ـ نشاطاً مكثفاً من جانب محاكم التفتيش، امتد من الأرض الاسبانية إلى المكسيك بحثاً عن «المهوِّدين» المفسدين لنقاء العقيدة، أي من عرفوا باسم «المسيحيين الجدد»، مما ترتب عليه بدء تيار جديد من الهجرة اليهودية، كان ـ في هذه المرة ـ من المكسيك إلى أميركا الشمالية. وكما يقول هرتزبرج[١٧]، ليس من المستطاع حتى الآن تحديد تاريخ لبدء توافد اليهود على القارة الشمالية، إلا أنه يمكن استظهار تيارين لتلك الهجرة، يرجّح ابتداء أولهما من المكسيك، عبر نهر الريو جراندي، إلى ما هو الآن جنوب غرب الولايات المتحدة، بعد سنة ١٥٢٨، وهي السنة التي أُحرق فيها أول

«مهوَّد» من «المسيحيين الجدد»، ويرجَّح ابتداء ثانيهما، عبر الأطلسي، من أوروبا، خلال السنوات الأولى من القرن السابع عشر.

والثابت أن أول محكمة من محاكم التفتيش أنشئت في المكسيك سنة ١٥٧١، عندما بدا أن اليهود المتسترين وراء اعتناق المسيحية كانوا قد تكاثروا وازداد نشاطهم بقدر يحتمل أن الدولة والكنيسة في اسبانيا اعتبرتاه تهديداً لنهر الذهب الذي تدفق على خزائن التاج والكنيسة وكبار النبلاء من المستعمرات. ويبدو أن الكنيسة وجدت دافعاً عقائدياً عزز ذلك الدافع الذهبي إلى النشاط المكثّف لمحاكم التفتيش، تمثّل فيما قالته عن «الهرطقة» وإفساد الدين على أيدي «المهوِّدين». فالكنيسة الكاثوليكية لم تكن غافلة، بغير شك، عن الخطر الذي مثلته «العبرانية» وهو خطر تبدى واضحاً في نتائج الانقلاب البروتستانتي ومساراته بانكلترا، وهولندا، وألمانيا.

والذي يبدو مما تشير إليه وقائع تاريخ تلك الفترة، أن الكنيسة الكاثوليكية الاسبانية كان لديها مبرر جدّيّ لذلك الخوف، **إذ تشير تلك الوقائع إلى أن عدداً من «الرهبان المسيحيين» الذين عبروا الريو جراندى إلى جنوب غرب الولايات المتحدة، وأقاموا «مراكز تبشيرية» كانوا من اليهود المارّانو، وهو ما يشير إلى أن الاختراق كان قد تحقق إلى قلب التنظيم الهرمي للكنيسة نفسها.**

وفي الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه تلك الهجرة، كانت أعداد من اليهود الأوروبيين الذين لم يتظاهروا باعتناق المسيحية ولم يضطهدهم أحد في البلدان البروتستانتية قد بدأت تتوافد على أميركا الشمالية رأساً تحت تأثير ما ذاع بين الأوروبيين بشأن فرص الإثراء في تلك الأرض البكر الجديدة. ويقول هرتزبرج إن الحقائق التاريخية المتوافرة التي كشفت عنها البحوث **تشير إلى أن اولئك اليهود كانوا من بين مؤسسي الولايات الثلاث عشرة الأولى «التي تألف منها الاتحاد»، وهو ما يرجّح صحته تشكيل خاتم الاتحاد ليحتوي على النجمة السداسية مكونة من ثلاث عشرة نجمة تمثل كل**

نجمة منها ولاية من تلك الولايات الأولى، كما في الشكل رقم (١).

فالولايات المتحدة، منذ ظهورها، دخلت في تشكيل بنيتها وفي صنع «روحها» مؤثرات عبرانية بالغة الفعالية ، لا من غلبة عنصر البروتستانتية الأنجلو ساكسونية فحسب، بل ومن دخول اليهود كشركاء مؤسسين، إن صح التعبير، في تكوين أمتّها وتحديد مسارها، على النحو الذي يعبّر عنه فاينجولد بقوله:

> «اضطر اليهود، أبناء أوروبا بالتبنّي الذين ازدرتهم أوروبا، خلال القرون من الخامس عشر إلى السابع عشر، إلى الهجرة والبحث عن ملاذٍ يمكنهم أن يجدوا فيه منطلَقاً لمواهبهم وطاقاتهم. وقد وجدوا ذلك الملاذ في أميركا، الأرض التي كان مقدّراً لها أن تصبح الإبنة المفضّلة لأوروبا، والتي كانت في حاجة إلى مواهب اليهود وطاقاتهم كيما تتمكن من تنمية مواردها البكر. وهكذا يمكن القول من وجه بعينه **إن بين اليهود واميركا قضية مشتركة من مبدأ الأمر، وان ذلك التوافق شكل علاقتهما منذ التقائهما**»[١٨].

وفي كتابه، «اسرائيل في ذهن أميركا»، يعبّر الباحث والصحفي الأميركي بيتر جروس عن تلك «القضية المشتركة» بقوله:

> «إن كلًا من الولايات المتحدة واسرائيل يضمّهما عناق حميم في سياق علاقة خاصة غريبة.. وسواء كانت اسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة أصلًا استراتيجياً أو مشكلة استراتيجية، فإنها تجسّد مثلًا أعلى مغروساً بعمق في الفكر الأميركي منذ السنوات الأولى لظهور أميركا في العالم الجديد»[١٩].

* * *

٣ تكافؤ الأضداد في روح أميركا

منذ البداية، كانت «اسرائيل» حاضرة حضوراً بالغ القوة في روح أميركا. ففي سنة ١٧٧٦، عندما فكّر قادة ذلك البلد الذي كان ناشئاً آنذاك في تصميم شعار رسمي لهم، اقترح بنيامين فرانكلين على «المؤتمر القارى» الذي اعتُمِد انشاء الاتحاد تصميماً لذلك الشعار صوّر موسى في وقفة بطولية شاهراً عصاه التي «فلق بها مياه البحر الأحمر ليعبره بنو اسرائيل ويغرق فيه فرعون وجيشه». غير أن توماس جفرسون فضّل رسماً أقل جهراً وعدوانية من ذلك، اقترح أن يصور بني اسرائيل خارجين من مصر وراء موسى وأمامهم عمود سحاب وعمود نار كما هو مكتوب في سفر الخروج.

وفي سنة ١٧٩٠، احتفى جورج واشنطن احتفاء خاصاً بالحاخام موشه سايكاس، الرئيس الديني لتجمّع المصلّين اليهود بمدينة نيوبورت «كاحال كدوش يشوات اسرائيل»، وأجلسه بين ممثلي المدينة من القساوسة البروتستانت وأعضاء المحفل الماسوني. وكان سايكاس قد قدم عريضة إلى جورج واشنطن جاء في ديباجتها «اسمحوا لبني اسرائيل المنحدرين من صلب ابراهام أن يتقدموا إليكم بمحبتهم القلبية وإجلالهم لشخصكم ومواهبكم وأن يشاركوا زملاءهم مواطني نيوبورت في الترحيب بكم»، فرد واشنطن على العريضة برسالة ضافية جاء في خاتمتها التأكيد بأن «بني اسرائيل المنحدرين من صلب ابراهام الذين يسكنون هذه الأرض، سيظلون محل اعزاز مواطنيهم من السكان الآخرين، ولسوف يظل كل امرىء من هؤلاء وأولئك «جالساً تحت كرمته وتحت تينته ولا يكون من يرعب أحداً منهم»..»[٢٠].

والاستشهاد الأخير من رسالة واشنطن عن الكرمة والتينة وكل ذلك، مأخوذ من سفر ميخا ٤: ٥ بالعهد القديم، لكن الرئيس

الأمـيركي أسقط منه تـأكيد ميخـا بـأن أحـداً لن يعـود يـرعب بني اسرائيل «لأن فم يهوه رب الجنود تكلم».

وكان واشنطن قد عني بأن يؤكد أن «الولايات المتحدة ليست أمّة مسيحية، وليست أمّة يهـودية، وليست أمّـة محمّديـة»[٢١] مستخدمـاً لفظة «أمّة»، لا لفظة «دولة».

وبعد جورج واشنطن، أعلن الرئيس الثاني للولايات المتحدة، جون آدمز، سنة ١٨٠٩ أنه «**متمسك بأن العبرانيين قد فعلـوا في سبيل جعل النوع البشري متحضراً اكثر مما فعلته أي «أمّـة» أخرى**»، **وجاء «تمسكه» هذا في رسالة كتبها إلى توماس جفرسون، وهو ما أضاف إليه، في رده على ملتمس من أحد اليهود الأميركيين الجدد، الرغبة في أن «تحصل أمّتكم اليهودية على كـل مزايـا المواطنـة في كل بلد من بلدان العالم.** ولقـد فعل هـذا البلد (الـولايات المتحـدة) الكثير في ذلك السبيـل، لكني أود لو فُعِـل ما هـو أكثر فقضى عـلى كل ضيق فكر في مجالات الـدين والحكم والتجارة»[٢٢]. لكنـه في أخريـات أيامه، كما سنرى، غير نبرته كثيراً، مثلما فعل مـارتن لوثـر من قبله. والذي يعنينا هنا أنه **اعتبـر أن «العبرانيـين» هم «اليهود» الـذين عـايشهم، وأنه اعتبـرهم «أمّة» لا اتبـاع ديانـة من أمم مختلفة، وأنه بعد أن قال ذلك أكد أنه «لـولا اليهود لمـا تحضر البشر ولما عرفوا مفهـوم التوحيـد، ولما عـرفوا اللـه»**. ففي هذه التـأكيدات القاطعة التي ترسّخت في العقل الأميركي ـ بصرف النظر عمـا انطوت عليـه من جهـل بـالتـاريـخ أو تجـاهـل لـه ـ **نطقت الإيمـانيـة البـروتستانتيـة التطهريـة الملتـاثـة (عـلى حـد تعبـير المؤرخـة اليهودية توخمان) بالعبرانيـة والتوراتيـة ورؤى العهد القـديم وتصوراته**، و(كما عرّفت المؤرخة نفسها التاريخ استناداً إلى تعريف نابليون بونابرت له) بـ «الحكاية المختلقـة المتفق عليها» التي صنعت للخليقة من مبدئها «تاريخاً مقدساً» ملأ أدمغة المؤمنين بحرْفيّة العهد

القديم وكونه «كلام الله»، بأسطوريةٍ لا علاقة لها بالتاريخ كما وقعت أحداثه.

على الرغم من تلك التقوى التوراتية التي توقدت في روح الرئيس الأميركي آدمز، لم يكن الرجل مولعاً كثيراً باليهود كما عايشهم وخبرهم. وكما أسلفنا، كان الموقف التطهّريّ والبروتستانتي بعامة متّسماً منذ البداية بتكافؤ ضِدّي لمشاعر «المؤمنين» تجاه اليهود. وقد نشأ ذلك التكافؤ لمشاعر الانسحار والحب، والنفور والكره، لدى البروتستانت والمتطهرين «المعبرَنين» في سياق العملية التركيبية المفتعلة التي انغمس فيها العقل البروتستانتي تحت دفع حثيث من الضرورة السياسية المتمثلة في معاداة الكنيسة الكاثوليكية، كما أسلفنا، وهي عملية سدر ذلك العقل المشتت بين الإيمانيات والضرورات السياسية خلالها في محاولة اسباغ هوية «العبراني» المستمدة من حكايات العهد القديم على «اليهودي» الذي عايشه البروتستانت في أوروبا ثم عايشوه في العالم الجديد، ثم محاولة إسباغ تلك الهوية العبرانية على البروتستانت أنفسهم.

وذلك عين ما ذهب إليه الباحث بيتر جروس في قوله إن استخدام الأميركيين الأول للصور والتصورات التوراتية «لم يكن في الواقع أكثر من استخدام خطابيّ بلاغيّ الغرض منه ادعاء هوية توراتية للأميركيين الأول بوصفهم «الشعب المختار» تعبيراً عن الازدراء التطهري العميق لما رأى المتطهّرون أن كلا من الكنيسة الانجليكانية والكنيسة الكاثوليكية اتصفتا به من دنيوية في المجتمعات الأوروبية التي خلفوها وراءهم»[٢٣].

يؤيد ذلك ما أورده هرتزبرج من كلام للقس البروتستانتي ويكمان، كما أشرنا، أكد فيه أن «نيو انجلند» أصبحت أورشليم الجديدة، وأن الأميركيين أصبحوا شعب الله المختار، وهو ما علّق عليه هرتزبرج بقوله إن المتطهّرين لم يطاولهم أدنى شك في أنهم

اليهود الحقيقيون والورثة الحقيقيون والأخيرون لكل ما تعهد به اللـه في العهد القديم.

غير أن هرتزبرج، خلافاً لبيتـر جروس، لم ينكص عن استخـلاص الواقع الذي تمثّل في أن **ذلك الحلول التطهّريّ محل اليهود كشعب الله المختار كان نتاجاً للمشاعر البروتستـانتية والتطهـرية التي تكافأ فيها الانسحار «بـالعبرانيـين» والنفور من «اليهـود»**. وذلك عين ما لاحظه جروس بقوله إن «يهودي» الأسفار المقدسة (أي العهد القـديم) المعلىّ، في صـورتـه المثـاليـة، لا اليهـودي الـذي عـاصره الأميركيون الأول، كان هو من أفعم صدور أولئك الأميركيين وألهمهم. غير أنه وقد قال ذلـك، تباعـد **بحرص عن أيـة اشارة لما قد يكـون الاحتكاك المباشر باليهود في الواقع اليومي المعاش قد تسبب فيه من تكافؤ الأضداد في مشاعر الأميركيين تجاههم، وهو مـا تباعـد عنه ـ بطبيعة الحال ـ هرتزبرج، مُرجِعاً ذلك التكافؤ إلى «معاداة الساميّة» المتأصّلة في الروح لدى المسيحيين. أما جـروس ففسره بقـوله إنّ معـرفـة الأمـيركيين الأول بـاليهود كـانت «نظريـة» لا عمليـة:**

«لما كان عـدد اليهود لم يـزد على ١٥٠٠[٢٤] يهـودي من إجمالي عدد السكان (الغزاة الاستيطانيين) الذي ناهز أربعة ملايـين طبقاً لتعداد ١٧٩٠، وكان معظم ذلك العدد الضئيل من يهود الـولايات المتحدة الأول من الباعة، والسماسرة، وأصحاب الحرف الصغـيرة، اي من أنـاس لم يكن لهم كبـير وزن، فـإن القليلـين للغـايـة من الأميركيين الأول الذين مجّدوا العبرانية وأعلوها وانتمـوا إليها هم الذين عرفوا أحداً من أولئك اليهود معرفة شخصية أو احتكوا بـه عن كثب»[٢٥].

غـير أن ذلك التفسـير الدائـري لما وصفـه هرتـزبرج بـأنه نتـاج لـ «معـاداة السـاميـة» المتـأصّلـة في الـروح، لا يشرح بشكـل كـافٍ التناقض الأساسيّ الكامن في الانتماء الأميركي إلى العبرانية، ولا يقوم كتفسير وافٍ **للعمليات العقليـة المرتبكـة التي ما من شـك في أنها**

قادت رجل كالرئيس المؤمن جون آدمز الذي قال إنه لولا اليهود لما تحضر البشر إلى القول بأن «المرء يجب أن يحاول أن يحب اليهود، ولو أنه من الصعوبة بمكان أن يجعل المرء نفسه يحب البعض منهم»، وهو ما يشير ـ بالمناقضة لتفسير جروس ـ إلى أن **صعوبة الشعور بالحب هذه لم تنجم عن «عدم معرفة عملية شخصية أو احتكاك مباشر باليهود»**.

في صميم ذلك التناقض الأساسيّ في الذهن التطّهريّ والروح الأميركية، يمكننا أن نحاول تلمُّس طريق بين **المتاهات والمنعطفات التي لا تحصى التي أفضت إلى ما يواجهه عالم اليوم من نتائج التوحّد الأميركي اليهودي وعبادة اسرائيل في الغرب بعامة، والبلدان التي تغلب فيها البروتستانتية بشكل خاص. فـ «عقدة الذنب»، مثلاً، لم يكن بالوسع جعلها سلاحاً بمثل ما اتصفت به من مضاء على أساس من المشاعر «الأخلاقية»، أو «تأنيب الضمير»، لو لم تكن تلك «العقدة» الشهيرة قد ابتلت بها أنفسها الشعوب التي تعلق بها الأمر من خلال ما هو متأصل في الروح من رواسب العبرنة البروتستانتية، أي من خلال مشاعر الذنب الدفينة الناجمة عن «معاداة الساميّة المتأصّلة في الروح»**.

وإذا ما ألقينا بالاً إلى أعراض ذلك التناقض الأساسي لدى رجل كالرئيس الأميركي الثاني جون آدمز الذي عزا إلى «اليهود» الفضل في تحضر البشر، ثم قال في نفس واحد إنه يصعب كثيراً أن يقسر المرء نفسه على محبتهم، أمكننا أن نجد منفذاً يقبله العقل للاستماتة التي نلحظها لدى الصهيونيين المسيحيين، وبخاصة الأميركيين منهم، في العمل على «اعادة اليهود إلى الأرض الموعودة». فبداية الخيط هنا ـ بالتكافؤ الضدّي الملحوظ في الموقف البروتستانتي والتطهريّ كله من اليهود ـ تشير إلى ازدواجية تتأكد بشكل أقوى كلما أوغل الباحث في استظهار أعراضها، تتمثل في:

(١) الرغبة في القيام بما يقتضيه تحقق المجيء الثاني، وهو

تجميع اليهود في «وطنهم» وتمليكهم كل الأرض التي تعهد لهم الله باعطائها اياهم ميراثاً أبدياً لهم، من النيل إلى الفرات، حتى يتحقق الوعد، ويرضى الله، فيأتي المسيح ثانية ويكون مجيؤه ايذاناً ببدء العصر الألفي السعيد.

(٢) التخلص بذلك التجميع لليهود في أرض الميعاد من وجودهم في البلدان التي ستضطلع بتجميعهم وتمكينهم من استخلاص الأرض كلها، كوعد الله، ملكاً خالصاً لهم، والتخلص بذلك مما تثيره مشكلة شتاتهم من صراعات إلى ان يأتي المسيح فيتحولوا بمجيئه إلى مسيحيين مؤمنين، ويخلص المسيحيّين بذلك من مشكلتهم اليهودية نهائياً.

بداية الخط ماثلة اذن في ذلك التكافؤ الضدّي الذي نطق في قول مارتن لوثر ـ بعد أن كان قد أعلن أن قَدَر المؤمنين من غير اليهود أن يظلوا قابعين كالكلاب تحت مائدة اليهود، وأن يقنعوا بالتقاط الفتات المتساقط من مأدبة الشعب المختار مع الله ـ أن اليهود «عبء ثقيل ومصيبة»، واعلانه منتهى الاستعداد لتزويدهم بكل ما قد يحتاجونه من عون ودعم للعودة «إلى أرضهم في يهوذا».

ذلك قول صدر عن مارتن لوثر قبيل منتصف القرن السادس عشر. وفي سنة ١٨١٨، قال الرئيس الأميركي جون آدمز: «إنني أتمنى من كل قلبي أن يمكن اليهود من العودة إلى يهوذا ليعيشوا فيها كأمة مستقلة «وأعرب عن الأمل في أنهم» متى باتت لهم دولتهم المستقلة ورفع عنهم الاضطهاد، قد يتخلصون مما اتصفت به طبائعهم من حدّة وشراسة وغير ذلك من السمات الشاذة، بل وربما تحولوا مع الزمن إلى مسيحيين ليبراليين من دعاة توحيد العبادات»![٣٦]

ولم يكن آدمز وحده هو الذي جاهر بذلك التكافؤ الضدّي في مشاعره تجاه اليهود في الوقت نفسه الذي استبق فيه بثمانين سنة صهيونية اليهود ودعوة هرتسل. فابنة عمه، حِنّه آدمز كتبت تقول أن

اليهود المدينين للمسلمين بما أخذوه عنهم من علم واستنارة بينما كان المسيحيون غارقين في الظلام والجهل ابان العصر الوسيط، ما زالوا يدّعون لأنفسهم صفة «شعب الله المختار» ويتعالون على غيرهم بل وينظرون بازدراء إلى غيرهم من الأمم[٢٧].

وفي رسالة وجهها توماس جفرسون إلى مردخاي نوح، أحد الزعماء النشطين لليهود في بداية عهد الجمهورية الأميركية، سلّم جفرسون بأن المسيحية «مدينة» لليهودية، إلا أنه قال «إن التحيّز المحزن الذي تظهرونه حيالنا، حتى وإن كانت اليهودية هي الأقدم، لا يمكن إلا أن يحزّ في نفوسنا». وفي تعليق له على أوضاع اليهود، نعى عليهم كون «الأخلاق تكاد تكون غير معروفة بينهم»[٢٨]، كما قال إنهم «بحاجة أكثر من أي من الآخرين إلى الاهتمام بالتعليم»، ونصح لهم، «إن كانوا يريدون المساواة، أن يسعوا إلى ذلك من خلال العلم بمفهومه الدنيوي»، مؤكداً أن ذلك «هو السبيل الوحيد المتاح أمامهم كيما يصبحوا موضوعاً للاحترام والحظوة»: وهو ما يعلّق عليه هرتزبرج، على سبيل التمويه، ساخراً، بقوله إن «جفرسون، بهذا القول، كان معبِّراً عن وجهة النظر المأخوذ بها من جانب الرافد الرئيسي لعصر التنوير، وهي أن كل انسان بوسعه أن يحصل على مكانة متكافئة مع مكانة غيره، إلا أن عليه أن يدفع «رسم دخول» لذلك يتمثل في محاكاة طرق المستنيرين ونظرتهم إلى الأشياء. فجفرسون، فيما يبدو، لم يعتبر أن يهودياً يتكلم لغة اليديش ويحفظ التوراة كان يمكن أن يكون صنواً، من حيث منفعته للمجتمع، لمفكر ذي ثقافة كلاسيكية كجفرسون نفسه(!)»[٢٩]. غير أنه يحتمل أن الذي أراد جفرسون قوله كان، ببساطة، أنه **إذا ما أراد اليهود أن يُقبَلوا كشركاء وأنداد في المجتمع الأميركي البازغ فإن عليهم أن يثبتوا جدارتهم لذلك على أساس معايير ذلك المجتمع لا على أساس تفوق ناشيء عن كونهم شعب الله المختار**. ومن الواضح أيضاً أن تلك الغمزة من جفرسون كانت اشارة إلى أن «الأغيار» في العالم الجديد،

وقد فتحوا الأبواب وأتاحوا سبل المساواة، لم يكونـوا على استعـداد لأن يظلوا تلك الكلاب التي تحت المائدة التي تحدث عنها لوثر.

ولكن، هل خرجت الكلاب من تحت المائدة فعلاً؟

* * *

٤ «التسامح» وبداية الطريق إلى فلسطين

يلاحظ فاينجولد[٣٠] أن التسامح الديني لم يكن بحال شيمة المجتمع الأميركي عند بزوغه، ويقول إن ذلك المجتمع كان أشبه بقِدْر ظلّت تغلي بصراعات دينية لم تمِل إلى الهدوء إلا قرب أواخر القرن الثامن عشر، عندما أخذ الأميركيون يتلمّسون طريقهم صوب ما لم يكن بدّ من البحث عنه من أشكال التعايش بين مختلف الزُمَر الدينية.

ويورد ذلك الباحث ملاحظة لمّاحة بحق عندما يشير إلى أن **الاستعمار الانكليزي للقارة الشمالية من العالم الجديد كان مدخولاً بعنصر ديني قوي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالصراع بين البروتستانتية والكاثوليكية الذي كان ما زال مستعراً في أوروبا ابان استعمار العالم الجديد، وأنه كان من المأمول أن تتمخض عملية انشاء المستعمرات البروتستانتية عن درء ما عرف آنئذ باسم «الخطر الكاثوليكي» من خلال احتواء المستعمرات الكاثوليكية في أميركا الجنوبية**، ويضيف قائلاً إن الانتصار الانكليزي على الفرنسيين في الصراع الذي عرف باسم الحرب الهندية، سنة ١٧٦٣، وإن أدّى إلى تهدئة المخاوف من ذلك الخطر بعض الشيء، إلا أنه لم يقضِ عليها.

ويوقفنا تاريخ اليهود في العالم القديم، أي بين الشعوب الأغيار في أوروبا، **أنهم وجدوا أفضل الفرص لازدهارهم في فترات الشقاق والحروب، وبخاصة الدينية منها، بين تلك الشعوب**. والذي لا جدال عليه، في زماننا، أن الحركة الصهيونية وجدت أفضل فرص تحقيق مراحل ضخمة من مشروعها في غمار المحاولة الأميركية لدرء «الخطر الشيوعي» واحتواء قواعده في عالم اليوم. وفي بداية المغامرة الانكليزية في العالم الجديد، لم يشذّ الأمر فيما تعلق باليهود عن ذلك

النمط. فالصراع الديني السياسي الذي استعر بين البروتستانتية والكاثوليكية في أوروبا كان منفذ اليهود للخروج إلى وضع الانعتاق. وبامتداد ذلك الصراع عَبْر الأطلسيّ إلى العالم الجديد إثر اكتشافه وتكالُب اسبانيا والبرتغال الكاثوليكيتين على استعمار جنوبه، وانكلترا البروتستانتية على استعمار شماله، وجد اليهود منفذاً إلى استيطان ذلك العالم الجديد بشكل ظل من أقدم الأزمنة تقليدياً بالنسبة إليهم. فهم قد توافدوا على القارة الشمالية في موجتين: موجة هاربة من محاكم تفتيش البابويين المكروهين من بروتستانت الشمال، وموجة هاربة من «طغيان المؤسسة» عينه الذي هرب المتطهرون والمتعصبون البروتستانت بسببه من أوطانهم الأوروبية.

والملاحظ أنه في العديد من الأبحاث اليهودية التي تتناول تلك الفترة من الحلول اليهودي بأرض العالم الجديد، تتردد اشارات متسمة بالاستهجان إلى «انعدام الحماس الديني» لدى أولئك المهاجرين اليهود الأول إلى العالم الجديد. وقد يكون ذلك صحيحاً، فالمعروف أن عدداً من كبار حاخامات اليهود الروس عارضوا الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة ونصحوا لليهود بأن «الاضطهاد في روسيا خير من الاثراء في تلك الأرض الغريبة التي وراء البحار». إلا أنه قد يكون من الصحيح أيضاً، ومن المرجّح، أن فرص الإثراء السريع في العالم الجديد أمدّت المهاجرين اليهود بالقدر اللازم من البراغماتية الذي مكنّهم من تحمّل نواتج تكافؤ الأضداد في الروح الأميركية، والصمود لما ظلوا مواجَهين به من نفور كانوا قد باتوا معتادين عليه من خبراتهم الأوروبية. وقد شملت تلك البراغماتية ظواهر عديدة هي ما أجمِل تحت اسم «الحماس الديني المفتقد»، وكان منها الإقدام على التزوج من مسيحيات، والاندماج في أسر مسيحية، واعتناق المسيحية، من جانب، والتزام الصمت والامتناع عن الدخول في مجادلات دينية مع المسيحيين، من جانب آخر. وكان ذلك الصمت قد بدأ في لندن، إثر السماح بعودة اليهود إلى انكلترا،

بتحذير من الحاخامات اليهود بالامتناع عن الدخول في أي جدل دينيّ مع الأغلبية المسيحية «لأن الدخول في مثل ذلك الجدل من المحتم أن يسيء الينا، ويضرّ بنا، وينتقص مما قد بدأنا بالكاد نتمتع به من حريات، ويجعلنا مكروهين». وعندما توافد اليهود على مستعمرات التاج في أميركا الشمالية، جاءوا بذلك التحذير معهم والتزموا به، وبخاصة عندما حوكم اليهودي يوسف لمبروزو، بولاية ماريلاند، في فبراير ١٦٥٨، بتهمة الهرطقة لأنه رفض إعلان ايمانه بالثالوث المسيحي.

فكدأبهم عندما تثور العواصف، استكن يهود العالم الجديد، ولاذوا بشق عميق من «التأدّب» مع مضيفيهم من المستوطنين الأول الذين كانوا، على حد وصف فاينجولد لهم: «متهوسين دينيين أكثر منهم دعاة إلى حرية العبادة، ورغم أن الكثيرين منهم كانوا قد وجدوا طريقهم إلى العالم الجديد سعياً وراء الحرية الدينية، فإنهم - بمفارقة ملحوظة - لم يبدوا أدنى استعداد لإتاحة الفرصة لغيرهم للتمتع بمثل ما كانوا يريدونه لأنفسهم من حرية. وهكذا فإنهم دأبوا على جَلْد الكاثوليك، بل وشنقوا أربعة من طائفة الكويكر علنا في أحد المتنزهات ببوسطن»[٣١].

وذلك ما يوضحه هرتزبرج بقوله إنه «بعد ثلاثة أجيال من بدء الاستيطان، لخّص الواعظ صموئيل ويلارد موقف المتطهرين من اليهود بوصفه إياهم بأنهم «سوأة وسبّة للعالم أجمع»، وأنه من الأفضل نبذهم، لأن «ذلك اليوم المجدود الذي سيتحولون فيه إلى المسيحية هو اليوم الوحيد الذي يمكن أن يتحسّنوا فيه». ولقد كان ما قاله ويلارد عقيدة مسيحية راسخة، إلا أنه لم يفصح عما وراءه، وهو أن تحوّل اليهود إلى المسيحية كان ضرورياً، لا لمصلحة اليهود، بل لمصلحة المجتمع الأميركي المسيحي الذي سينقذه ذلك التحول من العدوى التي يعرضه لها وجود اليهود فيه كيهود. والثابت أن كل يهودي تحول إلى المسيحية أكّد للمتطهرين أنهم على حق تماماً، وأنهم

هم، لا اليهود، اسرائيل الحقة. وغير تخليص المجتمع من العدوى، كان هناك سبب أكثر إلحاحية لتحويل اليهود إلى المسيحية. فـ «آخر الأيام» كان وشيكاً، كان قادماً، ولم يكن بوسع المرء أن ينتظر صابراً إلى أن يرى اليهود النور كيما تتحقق النبوءة القائلة بأن يسوع سيأتي ثانية ولكن فقط بعد أن يعترف به اليهود العنيدون ويقرون أنه المخلّص»[٣٢].

ورغم أن الباحث اليهودي يقول بعد ما أوردناه من كلامه أن «المتطهرين كانوا، فيما يخص اليهود، واقعين في ورطة، بالنظر إلى أن المجيء الثاني للمسيح (كما يرونه) لا يمكن أن يحدث إلا إذا أدخِل كل اليهود في المسيحية واعترفوا به، لكن معظم أولئك اليهود كانوا بعيداً عن متناول المتطهرين»[٣٣]، فإنه يشطح بنا شطحة يهودية أصيلة يتحدث فيها عن «اكتشاف» مذهل توصل إليه منسى بن اسرائيل (صديق كرمويل الصدوق) حاخام أمستردام، وهو أن أسباط اسرائيل العشرة المفقودة عندما فُقِدت، وجدت طريقها بشكل ما إلى أميركا، وأن الهنود الحمر كانوا سلالتها!

والذي لم يشأ الباحث التوقف عنده، أو الانتباه إليه، فشطح عنه تلك الشطحة اللطيفة الخاصة بالهنود الحمر، أن تلك الورطة التي تحدث عنها كانت، فيما هو مُرجّح من أهم العوامل التي أفضت إلى مسار التوحّد الأميركي بـ «اسرائيل»، ذلك المسار الذي كانت بدايته ظهور بوادر التسامح الديني تجاه اليهود. فالورطة الحقيقية التي واجهها المؤمنون الأميركيون من مبدأ الأمر نشأت من موقف تكافؤ الأضداد فيما يخص اليهود. لأنه إن كان مما لا مهرب منه أن يجمّع اليهود من الشتات ويحوّلوا إلى مسيحيين قبل أن يتحقق المجيء الثاني للمسيح (المسيحي) فإنه ظل واضحاً أن ذلك التجميع لليهود وتحويلهم إلى مسيحيين واجب ديني تعين على المؤمنين البروتستانت، وبخاصة المتطهرين، الاضطلاع بعبئه تحقيقاً لخلاصهم بالمجيء الثاني وبدء العصر الألفي السعيد. ولكن أين يكون ذلك التجميع؟

هذا هو ما فطن إليه مارتن لوثر من مبدأ الأمر حين اكتشف وهو قابع تحت تلك المائدة يلتقط الفتات المتساقط من مائدة شعب يهوه المختار أن ذلك **«الشعب» قد يكون مختاراً وقد يكون ابن يهوه البكر وكل ذلك، لكنه فيما يخص لوثر والبروتستانت، «عبء ثقيل ومصيبة»، وأنه كيما تتحقق النبوءات ويكون المجيء الثاني، ينبغي أن يكون تجميع اليهود وتحويلهم هناك بعيداً عن الأرض الألمانية، في حالة لوثر، وعن الأرض الأميركية، في حالة المتطهرين. وأي مكان يمكن تجميعهم وتحويلهم فيه أفضل من «أرضهم يهوذا» وأرض الميعاد التي تعاقد الرب عليها مع الآباء؟**

ولقد كان ذلك هو الحلّ الذي طرحه عالم اللاهوت الانكليزي توماس برايتمان، وعضو مجلس العموم السير هنري فينش في مطلع القرن السابع عشر، ونادى به المتطهران الانكليزيان جوانا وابنزر كارتريت من أمستردام في منتصف ذلك القرن، ونادى به بعد منتصف القرن التاسع عشر رجل الأعمال المسيحيّ الأصولي ويليم بلاكستون في كتابه «يسوع آتٍ» الذي بات شبه كتاب مقدس آخر للانجيليين الأميركيين. وفي كل تلك الدعوات المفعمة بالتقوى، كان الحل: ليتجمعوا، ولكن بعيداً عنا!

في تلك الدعوة إلى تجميع اليهود في فلسطين وإعطائهم الدعم المسيحي لـ «تعود» فلسطين وطناً لهم، نجد السبق الذي كان للبروتستانتية والتطهرية والانجيلية المتولدتين عنها، على الصهيونية اليهودية، **وهو سبق اختلطت فيه التصورات والأهواء والعواطف والهستريا الدينية اختلاطاً محموماً ومنذراً بما يعانيه العالم من أزمات وصراعات وما ينتظره من نكبات.**

وإن شئنا مثالاً يوقفنا على ذلك، نجده واضحاً في تعامل القس البروتستانتي جون مكدونالد راعي الكنيسة المشيخية بمدينة ألباني الأميركية، مع نصٍ شاعريّ للغاية من سفر إشعياء يقول:

«يا أرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهار كوش.

> المرسلة رسلاً في البحر وفي قوارب من البردى على وجه المياه. اذهبوا أيها الرسل السريعون إلى أمة طويلة وجرداء إلى شعب مخوف منذ كان فصاعداً أمة قوّة وشدّة ودوس قد خرقت الأنهار أرضها».
>
> (إشعياء ١٨: ١ و ٢)

والنص، كما هو واضح، ملغّز بما فيه الكفاية، وكالكثير مما كتبه ذلك المتنبىء أو سُجِّل عنه، أقرب إلى هذيان محموم. لكن القس التقيّ فسّره للمصلّين الأتقياء في سنة ١٨١٤ هكذا: لما كانت **كوش هي اثيوبيا**[٣٤]، فإن «الأرض التي في عبر أنهارها» **لا بد بلاد بعيدة**، وربما كانت «**عبر المحيط الواسع الكبير**». ولكن أين تكون تلك الأرض التي يخاطبها إشعياء من ذلك الزمن السحيق منادياً؟ **مفتاح السر، لا بدّ، كامن في قوله «يا أرض حفيف الأجنحة»، لأنه أي أرض يمكن أن تكون تلك إلا الأرض التي يظللها جناحا النسر القوي الذي اتخذ رمزاً للولايات المتحدة الأميركية؟**[٣٥] ولما كانت «النبوءة» (الهذيان المتشاعر لإشعياء) تقول إن تلك الأرض التي عبر المياه الكبيرة، المستظلّة بجناحي النسر العظيم، ترسل رسلاً في البحر، وتهيب «بأولئك الرسل السريعين أن يذهبوا إلى أمة طويلة» (شامخة) ذات شعب «مخوف منذ كان فصاعداً» (شعب ظل الكل يخشون بأسه منذ وجد)، و«أمة قوة وشدة» (أي إسرائيل التي وصفت بأنها» لا تنام إلا على فريسة وشاربة دم قتلى»)، لكنها باتت «جرداء» (باتت أرضها خالية منها إذ شُتّتت) وذات «دوس» (وداستها الأقدام في الشتات)، **فإنه بات من الواضح تماماً للقس مكدونالد أن تلك الأمّة التي كانت شامخة وذات قوة وبأس وشعبها الذي كان مخوفاً منذ وجد، لا بد أن تكون اسرائيل، «الأمة اليهودية» التي شتتها أعداؤها وأعداء يهوه، و«الأمة» التي تدعو النبوءة الولايات المتحدة الأميركية، عبر القرون، لأن ترسل رسلها في البحر لنجدتها!** وبهذا التفسير بات بوسع القس أن يصدح قائلاً للمسيحيين الأميركيين الأتقياء «أن يهوه، إله السموات، يدعو الأمّة

الأميركية إلى أن تهبّ برسلها سريعاً لإغاثة أبنائه الضالين المشتتين، بني اسرائيل. فهبّوا يا رسل أميركا وأعدوا أنفسكم لتحملوا أنباء الفرح والخلاص لأقرباء مخلّصكم مما هم فيه من ذل وشتات»، ثم يؤكد لأولئك الأميركيين أنه مقضي به أن يعود كل اليهود إلى «أرض صهيون»، وأنه مقضي به أيضاً **أن تقود أميركا المسيحية أمم الأرض وتبعث بنيها وتستخدم ثروتها في تنفيذ مخطط الله للأرض»**.

يقول جروس[٣٦] إنه يتبين، من مثل هذا النداء الواضح، أن **رسالة أميركا كانت قد باتت جلية ومحددة للأميركيين منذ مطلع القرن التاسع عشر**، ويشير إلى أن التفسيرات التي من قبيل تفسير القس مكدونالد للاصحاح ١٨ من سفر إشعياء وغيره من نصوص العهد القديم **باتت دعائم للإيمان ودعوة إلى العمل**، ويقول إن تلك الدعوة إلى العمل أحدثت فعلها قبل عامين من وفاة القس مكدونالد في سنة ١٨٢١، إذ بدأ ارسال البعثات التبشيرية البروتستانتية إلى فلسطين من سنة ١٨١٩.

فالرجل شهد استجابة، لا بد أنها أبهجت قلبه كثيراً، لدعوته الأمة الأميركية إلى أن تهبّ لنجدة «أقرباء مخلّصها»، بصرف النظر عن أن أولئك الأقرباء لم يعترفوا في أي وقت بذلك المخلّص. غير أن الذهن الأميركي قادر ـ كما أظهر دائماً ـ على التعامل ببراغماتية بارعة مع أمثال هذه التناقضات، **وميال في الواقع إلى القليل من الفكر والكثير من العمل، وقد كان يكفي المؤمنين الأميركيين أن «الأراضي المقدسة» كانت آنئذ تحت حكم «المحمديين»، أي الأتراك العثمانيين، وأن ذهاب أولئك «الرسل السريعين»** من «أرض **حفيف الأجنحة» لم يكن استجابة لنبوءة العهد القديم فحسب، بل كان إسهاماً عملياً في تمهيد الطريق لـ «القيام بعمل الرب»، وهو العمل الذي** حدده القس ليفي بارسونز عشية رحيله إلى «الأرض الموعودة» بقوله إنه **«في صدر كل يهودي تعتمل رغبة لا**

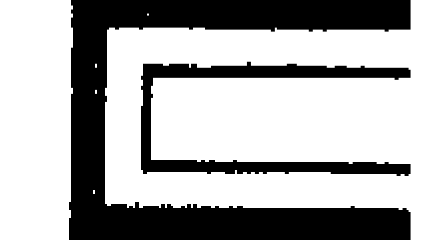
سبيل إلى التغلب عليها للعودة إلى الأرض التي أعطاها الرب لآباء اليهود، والاقامة فيها، وهي رغبة لن يمحوها حتى التحول إلى المسيحية. وما علينا إلا أن ندمر الامبراطورية العثمانية **ونخلّص فلسطين من حكم المحمديين**، وإذ ذاك سيقتضي الأمر معجزة لمنع عودة اليهود إليها من أربعة أركان المعمورة، عودة فورية»!

ويعلق جروس[٢٧] على ذلك بقوله أن **الرمز اللاهوتي أصبح مخططاً سياسياً، وبتتابع العقود، تعاظمت استجابة المؤمنين للدعوة**. ويقول أورسون هايد، من طائفة المورمون الجديدة، سنة ١٨٤١، إن «فكرة اعادة اليهود إلى فلسطين تزداد قوة وترسخاً وانتشاراً. فالعجلة العظيمة قد بدأت تدور، وتوقفنا كلمة الرب القادر على كل شيء على أنها لن يقف في طريقها شيء». وقد وجد البعض ممن لم يروا ذلك الرأي كويليم ميللر مؤسس طائفة أدفنتيست اليوم السابع الذي أعلن أن «اليهود قد فات زمانهم». **إلا أن الرافد الرئيسي للمسيحية الأميركية المعروف بالأصوليين احتضن تلك الرؤية**، وتعهدها، وزادها تنميقاً بحيث **لم تعد اعادة اليهود إلى فلسطين مشروطة بتحولهم** إلى المسيحية أو مرتبطة بتحول كهذا، **بل إن أرنوجيبيلين، أحد الزعماء الرواد لتيار الأصولية المسيحية في أميركا، وقد امتد به العمر إلى أن أوغل في القرن العشرين، أعلن عن ايمانه بأن اليهود يجب أن يعودوا إلى فلسطين حتى وإن عادوا بغير إيمان، أي حتى وإن كانوا ملحدين**، باعتبار أن عودتهم قضية جوهرية وتستحق التفاني في خدمتها لذاتها، أما تحولهم إلى المسيحية فإنه يمكن أن يحدث فيما بعد، على يد المسيح، عندما يجيء.

وقد تحقق ما قاله أرنو جيبيلين، الأصولي المسيحي الأميركي عن وجوب «اعادة اليهود إلى فلسطين حتى وإن كانوا ملحدين». فالصهيونيون اليهود أنفسهم يعترفون صراحة بالالحاد في الوقت

الذي لا يكفون فيـه عن الاستشهاد بـ «كـلام الله» دعمـاً لدعـوتهم الاستعمارية الاستيطانية التي لا تنتهي حدودها عند حدود فلسطين.

* * *



٥ الصهيونية تتأصل في روح أميركا

تشير كل المعطيات المتوافرة في تاريخ أميركا إلى أن ما بـدأ كحواذ ديني بـروتستـانتي، تطهـري، وإنجيـلي، ضرب بجـذوره في الـروح الأميركية كمزاج عام (Ethos) أساسيّ من مكونات تلك الـروح. وهذه، فيمـا يبدو، نتيجـة يصل إليهـا كل بحث يحـاول تتبع انتقـال عدوى التحوّل الإنجيلي للپروتستانتية، من انكلترا إلى مستعمرتها الأميركية. والانجيلية، باختصار، كانت حركة الاحيـاء الپروتستـانتية للتطهّـرية بعد أن خبا بريقها في انكلترا إثر انتهاء ثورة كرمْويل وعودة الملكيـة، فهي مـا يمكن تسميته بـ «العـودة إلى الأصول»، أي إلى «الكتـاب»، عـلى النحو الـذي عبّر عنـه اللورد شـافتسبـري، أشهـر الانجيليـين الانكليز:

> «ان الكتاب (والكتاب هنا «العهد القديم») هو كلمة الله مكتوبة من أول مقطع في أول كلمة إلى آخر مقطع في آخر كلمة من كلمـاته، ومن آخـر مقطع عـودا إلى أول مقطع فيـه. ولا شيء إلا الكتابـات المقدسة يمكن أن يفسر الكتـابات المقـدسة. ولقـد كنت حريـاً بأن أرفض تلك الكتابات لو كان كاتبها انسان، لكني أقبلها، أؤمن بها، وأباركها اذ هي كلام الله، وكبني إسرائيل، أحني الرأس وأتعبّد».

ولقـد كانت الانجيليـة، أو العودة إلى «الكتـاب»، السـلاح الـذي أشهرته الپروتستانتيـة المتخندقـة دفاعـاً عن نفسها في وجـه اجتياح العقـلانية لقـلاع الايمـانيـات في القـرن الثـامن عشر. وفيمـا يخص الپـروتستانتيـة بالـذات، كان التيـار العقلاني يشكـل خطراً شـديد الايذاء تهدد الأساس العبراني الذي شيدت الپـروتستانتيـة صرحها عليه. فالعلم والعقلانية نخرا بشدة في ذلـك الأساس، وألقيـا شكوكـاً مدمرة على الصيغة العبرانية المتضمَّنـة في العهد القـديم لخلق العالم والإنسان وعمر الخليقة، وهل هو ستة آلاف سنة تبعاً لسفـر التكوين أم تراه أطول من ذلـك بكثير، وظهـور الانسان عـلى الأرض وهل هـو

حدث مباغت كما تقول التوراة أم تراه نتاجاً لعملية طويلة من التطور من الأميبا إلى المخلوق المشعر القبيح قريب الصلة بالقردة؟

ولقد كان من الطبيعيّ أن يضيق المتطهّرون الجدد، أي الانجيليون، أمثال اللورد شافتسبري، بكل ذلك العلم ووليدته العقلانية «الوقحة» كما دعاها اللورد طالباً إلى الله أن يشد أزره وأزر كل آله الكرام في التصدي لزحف تلك القحة.

والمشكلة الأخطر فيما يخص المسيحيين المعبرنين من پروتستانت ومتطهّرين وانجيليين وأصوليين أن التيار العقلاني بدا مهدداً ببتر الصلة المفتعلة التي اختلقها آباء الكنيسة حين جمعوا بين العهد القديم والعهد الجديد في كتاب واحد وأن العلم، لا بنظرياته و«قحته» المقتحمة للإيمانيات فحسب، بل وبكشوفه، كان قد أخذ في مراجعة كل دعاوى «التاريخ المقدس» الذي هو العهد القديم، من الأساس. وباختصار، واجه البروتستانت خطر انهيار كل سند عقلاني لكون «الكتاب» كلام الله الذي لا يدحض من أول مقطع إلى آخر مقطع فيه. وقد كان ذلك الادعاء بكلام إلّهي سُجِّل في العهد القديم السند الإيماني والأخلاقي للانقلاب البروتستانتي من جذوره، وفجأة وجد المؤمنون البروتستانت أنفسهم مواجَهين بحقيقة أليمة بحق تمثلت في أن الكنيسة الكاثوليكية كانت في واقع الأمر أبعد نظراً بكثير، وأكثر حيطة بما لا يقاس، عندما أخذت بمقولات الكناية والرمزية في تعاملها مع «وقائع» التاريخ «المقدس» التي سردها مؤلفو العهد القديم ومع ما انبجس عنها من «نبوءات».

وكان خطّ الدفاع الذي التزمه البروتستانت بمختلف شيعهم رَفْض العقلانية والتخندق بإصرار في خندق الوحي، على النحو الذي يعبر عنه ما كتبه اللورد شافتسبري في يومياته عام ١٨٧١:

> «إن الوحي موجّه إلى القلب لا إلى العقل. فالله لا يهتم كثيراً لعقل الإنسان، لكنه يهتم أعظم الاهتمام بقلب ذلك الانسان.

> فمثقال ذرتين من الإيمان والمحبّة أعظم قيمة لدى الله بما لا يقاس من أي خزانة انسانية مكتظة بكنوز الفكر والمعرفة. **فالشيطان يجلس على عرشه في العقل، أما الله فعرشه في قلب الإنسان».**

وذلك كلام جميل مفعم بالايمان والطيبة بغير شك. لكنه، في أواخر القرن التاسع عشر، كلام انسان مأزوم ومحاصَر قد تخندق وقرر إبطال العقل. وذلك، فيما يكشف عنه مسار الانجيلية (أي «الكتابية»، وفي النهاية «الأصولية») هو ما فعله البروتستانت، سواء في انكلترا أو في القارة أو في «العالم الجديد»: تخندقوا. وبالحقيقة انكفأوا وراء غائصين في الإيمانيات المعبرَنة أكثر فأكثر، كأنما في رمال متحركة. وبمفارقة لم تفقد غرابتها، كان ذلك الغوص في الإيمانيات هرباً من مواجهة اجتياح العلم والعقلانية للقلاع القديمة التي بدأت تتكشف عن معمار من رمال، لوذا بأمل المجيء الثاني للمسيح الذي انتظره وتعجّله المؤمنون المحاصرون بالعقلانية كيما ينقذهم وينقذ العالم من الشيطان الذي تربع على عرشه في العقل اللعين. وفي مصارحاته لإدوين هودر، كاتب سيرته[٣٨]، عبّر اللورد شافتسبري عن ذلك الموقف ببلاغة فائقة، بقوله: **«إن التطلع إلى المجيء الثاني للمسيح والإيمان بانه سيحدث قد شكّلا المبدأ المحرك والقوة الدافعة في حياتي نظراً لأني أنظر إلى كل ما يحدث في العالم باعتباره خاضعاً لذلك الحدث العظيم وفي مكانة ثانوية بالنسبة إليه».** وفي يومياته، كتب اللورد التقي متسائلاً «لماذا لا نصلي من أجل المجيء الثاني آناء الليل وأطراف النهار، كلما سمعنا الساعة تدق معلنة انقضاء ساعة؟». وفي تعليقه على ذلك النص من يوميات شافتسبري، يقول هودر إنه **طالما كانت عودة اليهود إلى فلسطين أمراً لا غنى عنه لتحقق ذلك المجيء الثاني، «طبقاً لما هو متنبأ به في العهد القديم»، فإن شافتسبري لم يخالجه ولو ظل من شك في أن اليهود يجب أن يعودوا، وأنهم عائدون لا محالة، إلى أرضهم، ولذا فإن صلواته اليومية انصبت على تحقق ذلك الأمل. وقد بلغ من ايمانه أن جعل نقشاً في الخاتم الذي كان يلبسه**

حول اصبع من أصابع يـده اليمنى يقول «بحق اللـه، صلوا من أجل أورشليم»!

ووجه المفارقة التي أشرنا إليها في ذلك اللـون بأمـل المجيء الثاني ماثل في أن هرب المؤمنين في وجه اجتياح العلم والعقلانية **كـان عوداً إلى ديـانة أنكـرت بشكل قطعي المجيء الأول لمن تطلـع المؤمنون إلى مجيئـه الثاني**. فـالخـلاص الـذي تطلـع إليـه أولئـك الأتقيـاء البروتستانت كـان محوره اليهـود، لأنه بغـير اليهود، لا مجيء ثـان. وكما تقول بربارا تـوخمان، ظـل اليهود وتجمعهم في فلسطـين كأمـة عصب الايمان المسيحي المنبني على العهد القديم، أو المقدّمة الثـانية من مقدّمتيّ القياس: «نبوءات العهد القديم = اليهود وقد حوّلـوا إلى المسيحية وأعيدوا إلى فلسطين = المجيء الثاني للمسيح»[٣٩]. والمخرج الـذي وجده من لاذوا بـاللاعقـل من المسيحيين الهـاربـين من العلم والعقـلانية، ظـل ـ بالضرورة ـ مخـرجاً بـالتمنّي لم يكفّ اليهود عن السخرية منه حتى يومنا هذا، فهو مخرج الاعتقاد بأن اليهود سوف يصبحون مسيحيين، حتى وإن مات كثيرون منهم في معركة هرمجدّون الفـاصلة ولم يبق منهم إلا ١٤٤,٠٠٠ عـدّاً وعلى وجـه الـدقّـة، هم الـذين سيشملهم «الخلاص» ويـدخلون مـع المسيحيـين المؤمنـين في جنان العصر الألفي السعيد.

هذا هو التراث الانجيلي الـذي انتقل من انكلتـرا إلى مستعمرتهـا الأمـيركيـة. وفي تلـك المستعمـرة، التي أصبحت الـولايـات المتحـدة الأميركية، ضرب ذلك التراث بجذوره وأينع وأزهر:

«(ففي) الولايات المتحدة، باتت للانجيلية سطوة أكبر بكثير مما تمتعت بـه في انكلترا، وهي سطـوة بلغت الانجيلية بفضلهـا ذروة تمثلت في ثقافة شعبية واسعة الانتشار تدامجت فيها بوضوح كثرة من المفاهيم الروحية والدينيـة المكونـة للموقف الصهيـوني. وهكذا فإنه ـ كما يقول أدلـر ـ **وجد في التـاريخ الأمـيركي منذ بـدايته الأولى ميل مسيحي قوي للاعتقاد بأن المجيء الثاني متعين ان**

يظل رهيناً بإنشاء الدولة اليهودية التي يلتئم فيها شمل اليهود. وحقيقة أن هذا الاعتقاد لم يكن رأياً أجمع عليه كل اللاهوتيين المسيحيين في الولايات المتحدة، إلا أنه شكل جزءاً هاماً من مكونات التاريخ الفكري الأميركي، وشمل شيوع تيار قوي ولحوح من التطلع إلى العصر الألفي السعيد في الفكر المسيحي الأميركي»[٤٠].

ومن ذلك التراث الذي أينع، انبجست الأصولية الأميركية:

«كانت أهم الطوائف الدينية التي شملها التيار الأصولي في الولايات المتحدة من مبدأ الأمر طائفة المعمدانيين، والبروتستانت اللوثريين، وبعض الشيع المشيخية. والواقع أن الأصوليين، الذين جمع بينهم الأخذ بالتفسير الحرفي للنبوءات الواردة بالعهد القديم **والإيمان بحتمية الاحياء القومي للشعب اليهودي**، شكلوا جانباً كبيراً من البروتستانتية الأميركية قرب نهاية القرن التاسع عشر، **وجعلتهم صهيونيتهم (التي سبقت صهيونية اليهود) ينظرون إلى اليهود بوصفهم مفتاح المستقبل (لأميركا وشعبها)**»[٤١].

اليهود مفتاح المستقبل، وإسرائيل أمل المستقبل ومنبع البركة لأميركا. ولذا فإنه لم يكن من المستغرب أن يكون **أول قنصل أميركي في القدس درويشاً دينياً من طائفة الكويكرز**[٤٢].

كان ذلك القنصل، المستر واردر كريسون، سليل أسرة مسيحية ثرية من ولاية فيلادلفيا شغل من فجر شبابه بالبحث عن مستقر لإيمانه الديني العميق، فانتمى في سياق ذلك المسعى إلى طائفة عرفت باسم المهتزين أو المتطوحين (The Shakers)، ثم إلى طائفة المورمون التي عرفت بتهوّدها، ثم إلى طائفتين أخريين ثانويتين من الطوائف التي لم تكف عن الطفح كالبثور في روح أميركا، غير أنه لم يجد مستقره أخيراً إلا في اليهودية.

بدأ تحول كريسون باهتمام انتابه فجأة بفلسطين. وفي سنة ١٨٤٤، قبل هرتزل بنصف قرن، قرر الذهاب إلى هناك ليقوم

بـ «عمل الرب» ويساعد على إنشاء وطن قومي لليهود في «أرض الميعاد»، وبفضل مكانة أسرته الثرية واتصالاتها بالدوائر الحاكمة، تمكن من الحصول على منصب القنصل الفخري بالقدس. ولم يكد يصل إلى المدينة حتى بدأت رسائله ومذكراته تتّرى على أفراد أسرته ورؤسائه في واشنطن داعية إلى النهوض بما تتطلبه «الحاجة الماسة والعاجلة إلى جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود حتى يلتئم شمل الأمة اليهودية وتمارس شعائرها وتزدهر». ولما لم يلق استجابة من الرسميين الأميركيين، أخذ على عاتقه القيام بحملته الخاصة للحصول لليهود على «وطنهم»، فبدأ سلسلة من الاتصالات بعدد من كبار المسؤولين العثمانيين ما لبثت أنباؤها أن بلغت وزارة الخارجية في واشنطن، فسارعت باستدعائه. لكن كريسون لم يعد، بل بقي في القدس، واعتنق اليهودية، مما دفع ابنه إلى اتهامه بالجنون ورفع دعوى أمام المحاكم الأميركية طالباً الحجر عليه. غير أن صديقه الداعية اليهودي موردخاي توح خف لنجدته بعريضة تشهيرية من النمط المستخدم منذ ذلك الوقت بفعالية كبيرة في الولايات المتحدة وأوروبا، قال فيها للمحكمة «اننا، نحن اليهود الأميركيين، لن نصدق أبداً أن محكمة مسيحية يمكن أن تصدر حكماً مؤداه أن اعتناق اليهودية دليل جنون»! فرفضت الدعوى.

وعلى الرغم من أن ذهاب كريسون إلى آخر المدى في الانتماء العبراني واعتناق اليهودية لم تنتقل عدواه إلى كثيرين من الأميركيين المعبرنين، فإن بقاءه في القدس واستيطانه الصهيوني في «الأرض الموعودة» أرسى سابقة ما لبث مؤمنون غيره من الأصوليين أن أخذوا بها. فبعد ذهاب كريسون إلى القدس بست سنوات، أي في سنة ١٨٥٠، هاجر عدد من الأصوليين الأميركيين بقيادة السيدة شديدة التدين كلوريندا ماينور[٤٣]، التي هجرت زوجها الثري وأبناءها بفيلادلفيا، مثلما هجر كريسون قبلها زوجته وأبناءه الثمانية، إلى فلسطين، في محاولة لم يكتب لها النجاح لإقامة شبه كيبوتز سبقوا به

كيبوتزات الصهيونية بقرن من الزمان، مع اختـلاف واحد هـو أنهم، وقائدتهم المؤمنـة، أقامـوا في ذلك الكيبـوتز انتظـاراً للمجيء الثاني. لكنهم، وقد طال انتظارهم، عادوا إلى فيلادلفيا دون أن يحصلـوا على «الخلاص»، بعد سبع سنوات من بدء المغامرة.

ولم تكن تلك مرة أخيرة. فبعد بضـع سنين، في ١٨٦٦، قـام ١٥٠ حاجاً مسيحياً من الأصوليين من ولاية مين بمغامرة استيطان ممـاثلة لفلسطـين، انتظاراً للمجيء المـوعود، مـا لبثت أن باءت بـالفشل هي الأخرى، وبرر من قاموا بها اخفاق مشروعهم بـأن المجيء تأخـر لأن شعب الله المختار لم يكن قد تجمع كله في أرض الميعاد بعد[٤٤].

غـير أن هؤلاء الأتقياء جميعـاً يمكن تصنيفهم تحت فئـة غـريبي الأطوار أو «المتحمسين» أو أي شيء من ذلك القبيل، وتنحيتهم جـانباً باعتبار أن الايمـان كالحب، أمـر يطيش له الصـواب. أما من كـانوا كالمستر ويليم بلاكستون، وهـم كثـر، فلا سبيـل إلى وصفهم بشيء من ذلك أو الاستهانة بما مثّلوه.

****

٦ صهيونيون أشدّ صهيونية من اليهود

ولـد ويليم بـلاكستـون[٥٥] لأسرة مسيحيـة من أتبـاع الكنيسـة الميثودية (المنهجية)، ومنذ صباه، شغف بقراءة العهـد القديم وتتبـع مـا فيه من تنبؤات قيـل إنها بشّرت بـالمجيء الأول. وهكذا فـإنه لمـا كدّس ثروة من صنـاعة الإنشـاءات ومن استثمارات أخـرى، قرّر أن تلك الثروة لم تعطَ له لغير غاية، وأخـذ على عـاتقه «الإعـداد للمجيء الثاني».

بدأ بلاكستون «رسالته» بمؤلّف عنوانـه «يسوع آت»، نشره سنـة ١٨٧٨، فحقق نجاحاً تمثل في إعادة طبـاعته عـدة مرات، وبَيْـع أكثر من مليون نسخة، وترجمته إلى عدة لغات، منها العبرية!

وسيراً على خطى جون وسلي، مؤسس الميثـوديّة، لجـأ بلاكستـون إلى «التفسـير» الحرفي لكتـابـات مؤلفي العهـد القـديم في صيـاغتـه لـدعاواه. والـواقع أن استخـدام لفظة «تفسـير»، فيما يخصـه، غير مطـابق لمقتضى الحال. فـالرجـل ـ بالمنـاقضة حتى لمـواقف الـرافـد الرئيسي للبروتستانتية التي كانت قد مالت إلى قدر من المرونة أكبـر ـ تمسّك بحرفيّة «النص المقدّس»، كلمة كلمة، وحـرفًاً بحـرف، وأعلن ـ بناء على ذلك ـ **أن الله أبقى على اليهود لأن نيته اتجهت دائماً إلى جعلهم، من جديد، «شعبه الأخصّ»، شعبه المختار.**

وحتى يقف عـلى حقيقة نـوايا اللـه بنفسه، قـام الرجـل بـزيـارة فلسطـين، حاجـاً إلى «الأرض المقدّسـة» برفقـة ابنته، سنـة ١٨٨٨، وتمخضت زيارته عن الشعار الذي استغلته الصهيونية اليهودية بعد ذلك استغلالاً بالغ الفعالية فيما تعلق بـ «الضمير» الغـربي. فالمستـر بلاكستون وابنته أفزعهما كثيراً ما وصفه الرجل بقوله إنـه **«الشذوذ المتمثل في أن فلسطين هذه تُركت هكذا أرضاً بغـير شعب بدلاً من أن تعطى لشعب بغير أرض».**

وبطبيعة الحال، كان للاعتقاد الدينيّ الأصوليّ أثره القويّ الذي جعل المستر بلاكستون وابنته لا يريان الفلسطينيين سكان فلسطين، إلى الحد الذي مكّن الرجل من وصفها بأنها «أرض بغير شعب». إلا أن ذلك العمى الاعتقادي قوّاه كثيراً فيما بدا عاملٌ واقعيٌّ ارضيٌّ للغاية تمثّل في أن موجة الهجرة الكبرى الثانية لليهود الأوروبيين كانت قد بدأت إلى العالم الجديد، فتكالب اليهود الروس على وطن المستر بلاكستون[٤٦] الذي كان قد خبر قبل ذلك بوقت قصير تكالُب اليهود الألمان. ولا شك أن المستر بلاكستون، وهو «ممول» ومن أرباب الصناعات في أميركا، كان قد ذاق طعم المنافسة التي تعرض لها رجال الأعمال من الأميركيين أمثاله من جانب اليهود الألمان المهاجرين، فأفزعه ذلك التيار الجديد من الهجرة اليهودية إلى حد جعله يقول صراحة :

> «وما الذي سنفعله (نحن الأميركيين) حيال اليهود الروس؟ لم لا يعطون فلسطين؟ لم لا تُردّ فلسطين إليهم؟ **فطبقاً لتوزيع الله أرضه على الأمم تظل فلسطين وطنهم**، وتظل ملكاً لهم غير قابل للتصرف طردوا منه بالقوة الغاشمة. وعندما كانوا يفلحونها كانت فلسطين أرضاً مثمرة أقامت أود ملايين عديدة من بني إسرائيل الذين عملوا بكدّ في وديانها وعلى سفوح تلالها. فلقد كانوا أمّة زراعية منتجة بقدر ما ظلوا أمّة ذات باع تجاريّ عظيم، وكانوا مركز الحضارة والدين. فلم لا تضطلع الدول الكبرى التي أعطت بلغاريا للبلغار وصربيا للصرب بإعادة فلسطين الآن لليهود؟»[٤٧].

وعندما قدّم المستر بلاكستون «مظلمته» التي دعا فيها إلى ذلك، قبل سنوات من مؤتمر بال الصهيوني اليهودي، إلى الرئيس الأميركي بنيامين هاريسون، في ٥ مارس/ آذار ١٨٩١، كان قد جمع عليها توقيعات ٤١٣ من كبار الأميركيين المسيحيين البارزين، كان من بينهم عميد أسرة روكفلر آنئذ، جون د. روكفلر، وكبير قضاة المحكمة العليا، ورئيس مجلس النواب بالكونغرس، وعدد كبير من أعضاء مجلس

الشيوخ، وكبار قساوسة الكنيسة، ورؤساء تحرير عدد من الصحف الكبرى. وبطبيعة الحال، انبنت الـ «مظلمة» على أرضيّة إيمانية مشتركة بين كل أولئك الموقّعين عليها، سواء منهم رجال الدين أو رجال السياسة، وعلى أرضيّة سياسية تمثلت في قناعة لدى بلاكستون ومن وقعوا على مظلمته بأن الدول الأوروبية الكبرى التي استخلصت بلغاريا والصرب من ممتلكات الامبراطورية العثمانية كانت، من ناحية، **مؤمنة بـ «حق اليهود الذي لا يقبل التنازل» في «وطنهم» فلسطين، ومن ناحية أخرى، غير مشتاقة إلى أن تستقبل على أراضيها أعداداً متعاظمة من أولئك اليهود ليزاحموا مواطنيها**، وهو ما أفصح عنه الرجل بتساؤله عن البديل لما أسماه بـ «إعطاء فلسطين لليهود» (ولا أحد يعطي إلا ما في حوزته وما هو ملك خالص له)، وهل ذلك البديل «دعوة اليهود المضطهدين إلى أميركا، مثلاً؟»، لكن ذلك، كما أوضح، «سينطوي على كلفة باهظة ويتطلب زمناً طويلاً، في حين تظل فلسطين لدينا، أرضاً بغير شعب. ولكن هل فلسطين ملك لنا حتى نعطيها؟ ولم لا؟ ألم تعط الدول الكبرى الموقعة على معاهدة برلين ١٨٧٨ الأقاليم التركية (بلغاريا والصرب) لأصحابها الأصليين، فلم لا تعطى فلسطين لليهود؟ أليست حقاً مشروعاً لهم؟ وإذا ما تمتع اليهود على أرضهم هذه بالحكم الذاتي لا شك أن يهود العالم سوف يهرعون إلى نقل أخوتهم المضطهدين من كل أنحاء العالم وتوطينهم هناك في ذلك الوطن الذي لهم من أقدم الأزمنة. وهم قد ظلوا ينتظرون العودة إليه طوال سبعة عشر قرناً بصبر بالغ. فلنُعِد إليهم الآن الأرض التي حرمهم منها بقسوة بالغة أسلافنا الرومان».

وعندما قدم المستر بلاكستون «مظلمته» وعليها كل تلك التوقيعات إلى الرئيس الأميركي هاريسون، قدمها مشفوعة باستشهاد من العهد القديم عن «مسيح الرب قورش»، العاهل الفارسي الذي جعله أشعياء الثاني، كما أسلفنا، «مسيحاً ليهوه» وقال إن يهوه بارك «مسيحه

قورش الذي أمسك بيده وداس أمامه أمماً وأحقاء ملوك سحق وفتح أمامه المصاريع وجعل الأبواب لا تغلق، وأعطاه ذخائر الظلمة وكل كنوز الأرض الخبيئة». **وبذلك الاستشهاد، اعرب المستر بلاكستون عن اعتقاد راسخ، سنجده متردداً بكثرة على السنة الأصوليين الأميركيين الداعين إلى عبادة إسرائيل في زماننا، بأن قيام أميركا بـ «عمل الرب يهوه على الأرض» بإنشائها دولة إسرائيل وتأمين بقائها هو السبب فيما تتمتع به أميركا من قوة ومنعة ووفرة.** والذي قاله بلاكستون للرئيس الأميركي هاريسون (الذي لم يكن مستطيعاً آنذاك أن «يعطي» فلسطين لليهود، نظراً لأن أميركا لم تكن قد أصبحت القوة العالمية الكبرى التي باتتها الآن، ولم تكن قد أصبحت محتكمة في منظمة تدعى «الأمم المتحدة» بعد) أنه «لم تتح مثل هذه الفرصة الذهبية (فرصة إعطاء فلسطين لليهود بإعادتهم إليها كما فعل «مسيح الرب قورش») لبشر قان طوال ٢٤ قرناً» وحثّه على اغتنام تلك الفرصة «**تحقيقاً لمراميّ الله فيما يتعلق بشعبه المختار**».

ولقد يبدو من اهتمام بلاكستون بإنقاذ أميركا من المرور بخبرة لوثر المتمثلة في اعترافه بأنه اكتشف أن «اليهود عبء ثقيل ومصيبة»، أن بلاكستون كان مدفوعاً إلى الدعوة لـ «إعطاء» فلسطين لليهود بدافع وطني لا أكثر. غير أن ذلك الدافع الوطني، أي الرغبة في جعل «التئام شمل الشعب المختار» على أرض بعيدة، هي فلسطين، كان تعبيراً عما سبق أن استوضحناه من ازدواجية موقف تكافؤ الضدين من اليهود لدى أنصارهم من الصهيونيين المسيحيين. **فأولئك الأتقياء كانوا صهيونيين نعم، ولكن على حساب الغير، لا على حساب أوطانهم. وكانت مشروعية ذلك مستمدة من «كلمة الله» التي لا تدحض، كما هي واردة حرفياً في العهد القديم.**

وفي هذا، وبهذا الهوس التطهّريّ، كان الصهيونيون المسيحيون،

وفي الواقع ظلوا، «أكثر ملكية من الملك»، أي أشدّ وأكثر صهيونية من الصهيونيين اليهود أنفسهم.

فعندما عقد مؤتمر بال سنة ١٨٩٧، وتأسست المنظمة الصهيونية اليهودية وأعلنت ما أعلنته من برنامجها، وذاعت أنباء اختلاف وجهات النظر بين المؤسسين، **اتخذ المستر بلاكستون وغيره من الصهيونيين المسيحيين جانب الموقف المعارض لـ «تساهل» تيودور هرتزل.** وكان ذلك المؤتمر وما دار فيه من جدل ونقاش ذروة لما سبق عقده من تصادم الاتجاهات واختلاف المواقف.

وفي سنة ١٨٨٥، أخذ ناتان بيرنباوم لفظة «صهيون» من إشارات العهد القديم، ونحت منها لفظة «صهيونية» كمسمّى لحركة سياسية علمانية منبنية على المخطط السياسي الكامن من مبدأ الأمر في بنية اليهودية وتوجهاتها[٤٨]. **ولم يكن من الصعب على بيرنباوم أو غيره القيام بذلك التحويل للرؤى والأحلام والادعاءات والنبوءات المكدّسة تكديساً في تأليف الكهنة اليهود على مر قرون بأكملها لـ «الكتاب».** فبيرنباوم وغيره وجدوا الأرض ممهدة تماماً والبذرة قد غرست فيها على أيدي المؤمنين المسيحيين من مختلف الشيع **البروتستانتية التي ادّعت لتأليف الكهنة ما لم يعد أحد من الباحثين اليهود يجرؤ على ادعائه الآن، وهو أن تلك المؤلفات «كلام الله» كلمة بكلمة وحرفاً بحرف**، كما أنهم وجدوا الفكرة جاهزة والاعتقاد مترسخاً في العقول الأممية للأغيار المسيحيين بأن فلسطين ليست أرض الفلسطينيين، أهلها وأصحابها، بل وإنها «أرض خالية» بغير شعب، وأرض يجب أن تعاد إلى أهلها وأصحابها «الحقيقيين»، أي اليهود. وبذا **بات بوسع الدعاة اليهود للحركة الوليدة يهوديا في أخريات القرن التاسع عشر، الاستناد بظهورهم بقوة واطمئنان إلى الحائط الصلد من الايمان الصهيوني للمسيحيين البروتستانت الذي ظهر قبل ثلاثة قرون، وكان التمهيد الحقيقي لظهور الصهيونية اليهودية والسند**

«الأخلاقي» والاعتقادي الذي جعل من الممكن للدعاة اليهود أن يصفوها بأنه حركة «قومية» هدفها إعادة «الشعب» اليهودي إلى «أرضه» فلسطين، وبذلك إحلال دولة يهودية محل الفلسطينيين في فلسطين.

وغير بيرنباوم، ظهر ليون پينسكر وتيودور هرتزل، ونادى كل منهما على حدة، ومستقلاً عن الآخر بوجوب إنهاء الشتات اليهودي أو «المنفى» في بلدان الأغيار وتجميعهم في وطن يلمّ شملهم. ولم يتمسّك أيّ منهما في دعوته لإقامة «الوطن» بأن يكون ذلك الوطن فلسطين، بل أعلنا أن أيّ أرض يقام فيها ذلك الوطن تكفي وتكون مقبولة. لكن الاثنين اختلفا في التخطيط لبلوغ ذلك الهدف. فقد جنح هرتزل إلى الاعتماد على مساعدة الدول الكبرى التي رأى أنه لا بد من الحصول على معاونتها الكاملة كيما ينجح المشروع الصهيوني الذي كان وليداً آنذاك. أما ليون پينسكر، فكان قد أعلن مقدماً في كتابه «الانعتاق الذاتي»[٤٩] أنه لا سبيل إلى الحصول على مثل ذلك العون من البلدان الأممية، **ودعا اليهود إلى الاعتماد على الذات باستخدام ما هو متوافر لهم من أسلحة اقتصادية ومالية وقدرات تجارية في بلدان الأغيار.**

وكان هرتزل قد طرح أفكاره أولاً على الحكومة البريطانية التي اقترحت إقامة الوطن اليهودي في العريش، على الحدود المصرية، ولم يعترض هرتزل، بل رحب بالفكرة باعتبار أن العريش يمكن أن تكون «نقطة تجمّع مبدئية». ثم طرحت فكرة إقامة ذلك الوطن في قبرص، ثم في أوغندا. ولم يبدِ هرتزل تمسّكاً بأن يكون ذلك الوطن في فلسطين، لكنه تمسّك بوجوب إنشاء دولة يهودية على أيّ أرض يمكن للدول الكبرى، وبخاصة بريطانيا (بعد أن انتابه اليأس من ألمانيا)، أن تمكّن الحركة الوليدة من إقامة دولتها عليها.

وفي المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد ببال، في سويسرا، سنة ١٨٩٧، نوقشت وجهتا نظر پينسكر وهرتزل بين ما نوقش من

اختـلافـات في المـواقف والتـوجهـات. لكن المؤتمِـرين، الـذين أمّـوا الاجتماع من أنحاء المعمورة، اتفقوا على شيء واحد، هو وضع ميثـاق دولي يكون دستوراً للحركة التي أجمعوا على أن هدفها يجب أن يكون إقـامة الـدولة اليهـودية، ودعمـاً لذلـك الهدف، تمخض المؤتمــر عن تـأسيس مصرف وشركـة لـلاستيطـان كنـواة للمشروع، **كمـا أوصى المؤتمر بإعطاء أولوية خاصة لتملّك أو ـ بـالأقل ـ تـأمين جعـل وسائل الإعلام والنشر في العالم موالية للحركة.**

لم تلقَ الحركة الصهيونية اليهودية في مبدأ أمرهـا قبولاً واسعـاً بـين اليهود، في حـين أثارت حمـاساً شـارف الهـوس بـين المؤمنـين المسيحيين المتحمسين لتوفير متطلبات المجيء الثاني. وبالمقابل، كانت أقوى معارضة للصهيونية من جانب المتدينين اليهـود من الأرثوذكس (المتمسكين بحرفية العقيدة)، واليهود الشرقيين، وبعض الحاخامـات، واليهود الاصلاحيين. وقد ظـل موقف اليهـود المتدينـين من الحركـة متسماً بالشك وعدم الاطمئنان، في أفضل حالاته، وبالرفض الصريـح والمنـاوأة في أشد تلـك الحالات، كمـا في هذا الكـلام للحبـر المتـدين صدّوق من لوبلين:

> «إن أورشليم أرفع الذرى التي تتطلع إليها قلـوب كل اليهـود.. لكني أخشى أن يبـدو رحيلي وصعـودي إلى أورشليم كما لـو كـانـا علامة عـلى تحبيذي للنشـاط الصهيوني. واني لأتضرع إلى الـرب، وإن روحي لتتلهف إلى كلمته، وإني لأتمنى من كل روحي أن يكون يوم الفداء آت. وإني لأنتظر بكل يقظـة وقع أقـدام مسيحه الـذي وعدنا به. لكني، حتى وإن عذّبت بثلاثمائة قضيب محمى في النار، لـن أتحــرك من مكـانـي، ولن أصعـد إلى أورشليـم لصـالــح الصهيونيين»(٥٠).

والذي رآه اليهود الأرثوذكس، الذين اعترضوا من مبدأ الأمر على ادعاء الصهيـونيين بـأنهم «يتكلمون بـاسم كل اليهـود»، أن «الروح الرديء» الذي من عند الرب، وقد فشل في اغواء إسرائيل بـالابتعاد عن طـريق يهوه من خـلال ما عـرّض إسرائيل لـه من

اضطهاد، قد «سمح الرب له» بأن يجرب غواية إسرائيل بأسلوب أشد استدقاقاً وأكثر خبثاً، مستغلاً في ذلك غواية العودة إلى الأرض المقدسة في المخطط الشرير والوثني الذي جسدته الصهيونية، وهي حركة ظلت في حقيقتها علمانية على الرغم من ادعائها التمسك بالتوراة. وبذلك تكون الصهيونية خديعة أشد قسوة من الخديعة التي تمثلت في «المسيح الكذاب» (أي يسوع الناصري)، وتكون ديانة شيطانية ومكذوبة من أساسها»[٥١].

ولقد بلغ إيمان اليهود الأرثوذكس بشيطانية الصهيونية أن الحاخام يوسف حاييم أعلن بملء الصوت، عندما زار تيودور هرتزل فلسطين، أن «الشر قد دخل الأرض المقدسة معه» وقال «إننا لا نعرف حتى الآن ما الذي يمكننا أن نفعله دفاعاً عن أنفسنا في مواجهة هؤلاء (الصهيونيين) الذين يريدون تدمير كل إسرائيل (أي اليهود)، فليرحمنا الله»[٥٢].

وداخل الحركة نفسها، نشب خلاف متعدد الجوانب بين من تقبّلوها من اليهود، كان أظهر أشكاله هجوم أشير جينزبرج (آحاد هاعام)[٥٣] على توجّه هرتزل كلّه، باعتباره توجُّهاً افتقر إلى أيّة هوية ثقافية بل وافتقر حتى إلى الواقعية العملية التي رأى جينزبرج أنها كانت يجب أن تتوافر من خلال جهود عملية متسقة ترمي إلى (١) التركيز على المطالبة بفلسطين بالذات باعتبارها «الوطن الطبيعي» لليهود، و(٢) العمل على تنمية فلسطين استعداداً لاستقبال موجات الهجرة اليهودية إليها، و(٣) التركيز على بذل جهود رامية إلى الحصول على دعم دولي واسع للمشروع.

غير أن أيّ هجوم شُنَّ على هرتزل داخل الحركة الصهيونية اليهودية تضاءل بجانب غضبة الصهيونيين المسيحيين عليه لقبوله بأي مكان لإقامة الدولة اليهودية وعدم تمسكه بأن تكون تلك الدولة على أرض فلسطين. وتعبيراً عن ذلك الغضب المسيحي

الأصـولي، أرسل المستـر بلاكستـون إلى هرتـزل، مؤسس الحـركـة الصهيونية اليهودية، نسخة من العهد القديم وقد علّم على صفحاتها مشيـراً إلى الفقرات التي عـين فيه النبييم فلسطـين تحديـداً بـأنها «الوطن المختار للشعب المختار»[٥٤].

ولا غرو إن كان بلاكستون، الذي لم يعد أحد في أميركا يذكره، ما زال مـوضع احتـرام وتبجيل لـدى دولة إسرائيـل التي عنيت بعرض نسخة العهد القديم المهداة منه إلى هرتزل في قبر هرتـزل بـالقدس كما استزرعت أجمـة من الأشجار تخليـداً لذكـرى ذلك الصهيـوني المسيحي الأشد ولاء للصهيونيـة الأصوليـة من مؤسس الصهيونيـة نفسه.

****

٧
الصهيونية ساكنة البيت الأبيض

من مبدأ الأمر، كان العامل الديني(**) بالغ القوة والفعالية في صوغ مواقف الرؤساء الأميركيين من اليهود، الذين اعتبرهم أولئك الرؤساء «أسلافاً روحيين» واعتبروا ديانتهم منبعاً للدين، ومن مطلب «اعطائهم» فلسطين حتى تكون فلسطين منطلقهم إلى اخلاء وحيازة كل الأرض التي «تعاقد» الله الحكيم القدير (صاحب كل الأرض والمتصرف فيها كما يشاء) مع «آبائهم» على إعطائهم إيّاها لتكون ميراثاً أبدياً لهم.

وليس من المقبول عقلاً أن يكون العامل الديني ـ على ما له من أهمية وفعالية في صوغ المواقف ـ العامل الأوحد **الذي جعل الصهيونية تسكن البيت الأبيض الأميركي منذ ما قبل ظهور الصهيونية اليهودية بوقت طويل.** فقد باشرت عوامل عديدة سياسية، واقتصادية، ومتعلقة بممارسة الحكم في سياق العملية الديموقراطية، كما باشرت ميول الرؤساء الأميركيين واستعداداتهم الشخصية، فعلها في تشكيل وتوجيه بل وتعديل المواقف التي ظل العامل الديني كامناً ومؤثراً في جذورها.

إلا أنه من الثابت مما هو متوافر من معطيات عن ظاهرة الانتماء الصهيوني المبكّر لدى الرؤساء الأميركيين، **أن العوامل غير الدينية، على ما لها من فعالية، لم تَجُبْ فِعْل العامل الدينيّ أو تطغَ عليه، بل إنها ـ على العكس ـ عزّزت ورسّخت فعل ذلك العامل وزادته قوة بفضل النجاح الاقتصادي المتعاظم للمكوّن اليهودي من مكوّنات الأمّة الأميركية، وما تولّد عن ذلك النجاح من ثراء وسطوة ومكانة اجتماعية وما ترتب على الثراء والسطوة والمكانة الاجتماعية من تأثير لا سبيل إلى تجاهله في الكيفية التي**

يُمارَس بها الحكم في الولايات المتحدة من خلال العملية الديموقراطية.

والذي يشير إليه ما هو متوافر من معطيات تاريخية أن المحصّلة النهائيّة لذلك التفاعل الايجابيّ بين العوامل غير الدينية والعامل الديني تمثلت في أن **الصهيونية المسيحية التي ظهرت قبل ثلاثة قرون على عباب الانقلاب البروتستانتي وجدت مستقرّها الطبيعيّ (بصرف النظر عن كل التناقضات العقائدية المتعلقة بمسألة «المجيء») في العباءة الفضفاضة للصهيونية اليهودية التي بزغت على وجل (في مبدأ أمرها) خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وانتهت بأن اندمجت فيها.**

ولنتتبع مسار ذلك الانضواء من خلال ما هو متوافر مما تبقى أو مما هو متاح من سجلات مواقف الرؤساء الأميركيين من اليهود، مع أخذنا في الحسبان لكون «الكثير من تلك السجلات إما فُقِد فضاع من التاريخ وإما غير ميسّر الاطّلاع عليه، **وإن كان معظم ما هو متاح في محفوظات الولايات المتحدة يشير إلى أن رؤساء الولايات المتحدة لم يظهروا الوُدّ والصداقة تجاه اليهود فحسب، بل واضطلعوا بأدوار نضالية في مجال خدمة يهود الولايات المتحدة ومصالح اليهود في كل مكان بالعالم**[٥٦]».

(١) جورج واشنطن (١٧٨٩ ـ ١٧٩٧)

كان أول رئيس أميركيّ رجلاً شديد التديّن «عبرانياً» وظلّ حتى أخريات أيامه عظيم التقديس للشعائر والطقوس اليهودية والتاريخ «المقدّس» الذي تضمنه العهد القديم. في رسالتين وجههما إلى اثنين من قادة اليهود في مدن فيلادلفيا، ونيويورك، وريتشموند، وتشارلستون، وسفانا، غير الرسالة التي أشرنا إليها قبلاً، إثر توليه الرئاسة، أعرب واشنطن عن أمله في:

«أن يظل الربّ صانع المعجزات الذي خلّص العبرانيين في

> الأزمنة القديمة من بغي مضطهديهم المصريين، وزرعهم في أرض الميعاد، يسقيهم من ظلّ السماء، وأن ينعم ذلك الرب القدير، يهوه، على كل من بالولايات المتحدة التي تأسست بقدرته، بالبركات الدنيوية والروحية التي أنعم بها على شعبه».

وفي كلمة إلى جيشه، سنة ١٧٧٧، حث الجنرال واشنطن جنوده على أن «**يرقوا إلى المستويات الرفيعة التي كانت لجيش بني إسرائيل العظيم الذي ظل رافعاً راية يهوه طوال اربعين سنة في القفر تحت هداية وارشاد وقيادة أعظم وأحكم جنرال عرفه العالم طوال تاريخه (أي الله أو موسى)**»!

(٢) جون آدامز (١٧٩٧ ـ ١٨٠١)

إن كان جورج واشنطن قد اكتفى بالإشارة إلى أن يهوه، الرب القدير صانع المعجزات، هو الذي «زرع» بيده «شعبه» في «أرض الميعاد»، أي فلسطين، فإن خلفه، الرئيس الثاني للولايات المتحدة، جون آدمز، عني بأن يكون أشد وضوحاً وأكثر تحديداً، فأعرب ـ قبل هرتزل بقرن كامل ـ عن «الرغبة الصادقة في أن يعود اليهود ثانية إلى أرض يهوذا (فلسطين) كأمة مستقلة، لأني أؤمن بأن خيرة رجال الأمّة اليهودية وأعظمهم استنارة قد أسهموا في تحسين فلسفة العصر». وفي رسالة إلى توماس جفرسون كتب يقول: «حتى لو كنت ملحداً وكنت اؤمن بالقدر الأعمى متصرفاً أبدياً في شؤون البشر، لكنت حرياً بأن أؤمن بأن القدر قضى بأن يكون اليهود العامل الجوهري الأعظم والأفعل في جعل أمم العالم أمماً متحضرة»!

وعندما شكّلت لجنة في سنة ١٧٧٦ للتوصية بشعار رسمي للأمة الوليدة، من بنيامين فرانكلين، وجون آدمز، وتوماس جفرسون، واقترح فرانكلين رسماً يصور موسى وهو يفلق البحر الأحمر بعصاه ويُغرِق في مياهه فرعون مصر وجيشه بعد عبور بني إسرائيل سالمين، واقترَح جفرسون أن يصور الرسم بني إسرائيل خارجين من مصر تحت قيادة موسى، ويهوه يتقدمهم كعامود سحاب وعامود نار، كما

أسلفنا، سارع آدمز بتأييد مقترح جفرسون، لا لأن الرسم الذي اقترحه ذلك الأخير كان أقل عدوانية مما اقترحه فرانكلين، بل لأن عامود السحاب بدا له كرمز «لعلو بني إسرائيل»، وعامود النار تراءى لديه كرمز جيد لكون بني إسرائيل «مثّلوا مشعل النور الذي قاد البشر إلى درب الحضارة».

ولو أن ذلك كله لم يمنع آدمز، في أخريات أيامه، من أن يعرب عن أمله، كما أسلفنا، في أن يؤدي حصول اليهود على دولتهم المستقلة في فلسطين إلى «جعلهم يتخلصون مما اتصفت به طبائعهم من حدة وشراسة وغير ذلك من السمات الشاذة»!

(٣) توماس جفرسون (١٨٠١ ـ ١٨٠٩)

لم يكن جفرسون ـ رغم ما أبداه من «انتقادات» لطباع اليهود وافتقارهم إلى الأخلاق وعدم اهتمامهم كثيراً بالتعليم ـ أقل «تديّناً» من غيره. والذي يبدو أنه ترسّخ في العقل الأميركي من البروتستانتية والتطهّريّة أن المرء كيما يكون «متديّناً» وعارفاً بالله يجب أن يكون معبرَناً أي مقدِّساً لـ «العبرانيين» الذين يدور حول تاريخهم وحروبهم العهد القديم، مع الاعتقاد بأن أولئك «العبرانيين» العبيرو الخبيرو الآراميين التائهين بني اسرائيل هم «اليهود» الذين أسموا كذلك انتماء إلى «مملكة» يهوذا التي لم تعمر طويلاً، والاعتقاد بأن أولئك اليهود هم يهود أوروبا وأميركا المحدثين.

ولذلك، لم يكن من المتوقع أن يشذّ جفرسون عن غيره، أيّاً كانت نظرته إلى من خالطهم من يهود. وقد كان أول رئيس أميركي يعين يهودياً في منصب عام، عندما اختار روبين إتينج، سنة ١٨٠١، ليكون رئيساً لشرطة ولاية ماريلاند.

إلا أن اللافت للنظر حقاً في شأن جفرسون أنه، وهو الرئيس المتديّن، عمل بقوة على تحريم التعليم الديني في المدارس والجامعات لأنه ـ كما قال في رسالة إلى أحد قادة اليهود في تشارلستون ـ وجد

«من الامعان في القسوة والتمادي في الظلم الواقع على هـذه الطائفـة المضطهدة (اليهود) التي عانت الكثير أن يفرض على أبنائها منهج من الدراسة اللاهوتية لا تسمح لهم ضمائرهم بالاقبال عليـه». ولم يخطر لجفرسون ببال وهو يكتب هذا أنه بإشارتـه إلى أن ضمائـر اليهود لا تسمـح لهم بدراسـة المسيحية وضـع اصبعه بثبـات عـلى التنـاقض الرئيسي والجذري في الموقف البروتستانتي المعبّن كله.

وعندما انتهت مدة رئاسته، انخرط جفرسون في مراسلة عـدد من قادة اليهود الأميركيين الذين كانـوا قد بـدأوا يحتلون بثبـات مواقـع مؤثّـرة في النشاط الاقتصـادي وفي الصحافـة. وفي رسـالـة من تلـك الـرسائـل، وجهها إلى الـداعية مـوردخاي نـوح، قال جفـرسـون إن «المعاناة التي تعرضت لها طائفتكم (اليهوديـة) تزودنـا بدليـل صادم على شيوع روح التعصّب الـديني الذي تنكـره كل طـائفة أخـرى في أوقات ضعفها وتنتهجه في أوقات قوتها. وحقيقة أن قوانيننا الأميركيـة بـاتت توفـر المصل الـواقي من هذه الـرذيلة بمـا تهيؤه من حمـايـة لحقوقنا المـدنية والـدينية وبتحقيقهـا المساواة بـين الجميع، إلا أنـه مـا زال من المتعين أن نفعـل الكثـير، لأننـا، وإن كنـا أحـراراً بحكم القانون، ما زلنا غير أحرار في واقـع الممارسـة، فالـرأي العام يُنصِّب نفسه كمحكمة تفتيش ويمارس تلك الوظيفة بقـدر من التعصُّب يذكي نيراناً أشد ضراوة من نيران محارق فعل الايمان القديمـة[٥٧]. ولا شك في أنكم تشعـرون بهذا الضرب من التحيـز الذي مـا زال مخيماً عـلى الجـانب الذي تقف فيـه طائفتكم من ديـانتنا، عـلى الـرغم من أنهـا الأقدم..».

وفي رسـالتـه إلى يـوسف مـاركس، أحـد قـادة اليهـود بمـدينـة ريتشمـوند، أوضـح جفرسـون معنى القـول الأخـير في رسـالتـه إلى موردخاي نوح، بقوله «.. ولطالما أحزنني أن أرى طائفتكم اليهوديـة، وهي الأم والمنبع لكل طـوائف المسيحية، تُستفـرّد من جانب كـل تلك الطـوائف فتُضطهد وتُقهَـر، مما يـدل عـلى أن من يضطّهـدونهـا لم

يتعلموا شيئاً مما علمهم إياه من يدّعون بأنهم يجعلونه (أي العهد القديم) مثالاً يحتذونه في مبادئهم وممارساتهم».

ويكاد صراع جفرسون الشخصي الناجم عن موقف تكافؤ الأضداد فيما يخص تلك «الطائفة من الديانة المسيحية» (أو «اليهو ـ مسيحية»، كما باتت تدعى الآن)، أي اليهودية، يصرخ من بين أسطر تلك الرسائل التي كتبها تحت شعار الدعوة إلى «التسامح» والتآخي.

(٤) جيمس ماديسون (١٨٠٩ ـ ١٨١٧)

في الجانب الشخصي من حياة جيمس ماديسون، يتضح تأثير اليهود المالي (أو بالأصح التمويلي) والإعلامي الملاحَظ في حالة توماس جفرسون نتيجة لاحتلال اليهود مواقع مؤثرة في النشاط الاقتصادي وفي الاعلام. فماديسون عندما دخل البيت الأبيض، دخله محمّلاً بدينٍ شخصيٍّ كبير للممول اليهودي حاييم سالومون الذي عُني بأن يخفَّ إلى نجدة السياسي الأميركي الصاعد، «صديقه» جيمس ماديسون، مالياً، كلما تعرّض ذلك الصديق لضائقة أو أخرى، وهو ما اعترف به ماديسون، بقدر كبير من العرفان بالجميل، في رسالة شخصية إلى أدموند راندولف، أحد زملائه في المؤتمر القارّي، بإشارته إلى «عطف صاحبنا المقيم في فرنت ستريت، بالقرب من المقهى الذي تعرفه، فذلك العطف نبعٌ لا ينضب ظل ينقذني من ضائقة وراء ضائقة، وظللت ألجأ إليه المرة تلو المرة رغم شعوري بالمهانة لأنه رفض دائماً بإصرار أن يسمح لي بتعويضه عما يقدمه إليّ»!

ولم يكن غريباً، على ضوء ذلك العطف، أن يكون ماديسون أول رئيس أميركي يعين يهودياً في منصب ديبلوماسي. ففي سنة ١٨١٣، اختار الداعية اليهودي النشط موردخاي نوح لمنصب القنصل العام الأميركي في تونس، وكان المال اليهودي من سالومون وغيره، والدعم الاعلامي من نوح الذي رأس تحرير «السيتي جازيت» بمدينة

تشارلستون، بكارولينا الجنوبية، من العوامل الهامة التي ساعدت ماديسون على الفوز بالرئاسة مرتين متتاليتين، في ١٨٠٩، و١٨١٣. وفي «عرفان الجميل» الذي أبداه ماديسون تجاه ذلك الدعم اليهودي والاعلامي لطموحه السياسي، **يمكننا أن نستظهر البذور الأولى للدور بالغ الفعالية الذي يلعبه المال اليهودي وتعززه السطوة اليهودية على وسائط الاعلام وأدوات صنع الرأي في تسيير وتوجيه العملية الديموقراطية في الولايات المتحدة، منذ ذلك الوقت المبكر، على كل الأصعدة، لا على الصعيد الرئاسي فحسب.**

غير أن انتماءات الرئيس ماديسون اليهودية لم تنجم عن الفعل القادر لهذين العاملين الحيويين، المال والاعلام، وحدهما. فماديسون كان أصلاً منتمياً بالروح قبل أن يعزز النجاح السياسي بفضل هذين العاملين انتماءه، إذ كان رجلاً شديد التديّن اتّجه طموحه ـ قبل أن تجتذبه السياسة ـ إلى سلك الكنيسة، ولذا امتاز على غيره من الرؤساء الأميركيين المؤمنين بإجادته اللغة العبرية وتبحُّره في «آدابها»، أي العهد القديم وكتابات الكهنة والأحبار اليهود. وبتأثير تلك الخلفية العبرانية، كان فعل العامل الديني في حالته قوياً، وقد عززته وزادته قوة العوامل الأخرى غير الدينية، وأهمها، كما هو واضح، المال اليهودي والاعلام.

ولقد يبدو من الإشارة إلى دور المال هنا كما لو كان الأمر اقتصر على بُعْد نظر ممول يهودي أقدم، بأريحية لافتة للنظر، على إقراض سياسي أميركي صاعد بضعة قروض غير قابلة للاسترداد. إلا أن مثل ذلك النظر إلى فعل عامل المال في النطاق الشخصي يكون بعيداً عن الحقيقة. فبحلول العقد الذي تولّى خلاله ماديسون رئاسة الولايات المتحدة، كانت الجمهورية الناشئة آخذة في استكمال المرحلة الأولى من مراحل نموها، **وآخذة ـ في سياق النمط الاستعماري الاستيطاني الذي لم يتغير على مرّ عصور التاريخ ـ في استيعاب مساحات هائلة من الأرض أُخليت من سكانها الأصليين بالإبادة**

والإزاحة ليعمرها المستوطنون الجدد تحت الراية المثالية زاهية الألوان التي رفعها «اعلان الاستقلال».

وكما هو واضح من المثال المعاصر لتلك العملية في فلسطين، تتطلب عمليات الإبادة والإزاحة وتوطين المهاجرين الجدد قدراً هائلاً من التمويل تقدمه الخزانة الأميركية للحكومة الاسرائيلية الآن، لكنه لم يكن متاحاً من تلك الخزانة للحكومة الأميركية في مطلع القرن التاسع عشر، خاصة وأن الولايات المتحدة لم تجد بمكنتها في ذلك الوقت الذي لم تكن قد أصبحت فيه «القوة الأعظم» في العالم بعد، أن «تأخذ» كل ما أرادت أخذه من أراض باستخدام القوة الغاشمة وحدها، بل اضطرت إلى أخذ بعض تلك الأراضي بالشراء من دول أخرى. فنابوليون بونابرت، مثلاً، كان قد نَصَبَ على اسبانيا وأخذ منها منطقة لويزيانا الشاسعة بالقارة الأميركية الشمالية، لكنه ـ تحت وطأة حروبه التي لم تتوقف ـ وجد نفسه معسراً فجأة رغم ما كان قد عقده من أواصر علاقة وثيقة بكبار البيوتات المالية اليهودية. وإذ بدأت موارده المالية تنضب، نصحه مموّلوه اليهود ببيع لويزيانا إلى الأميركيين. وكان الأميركيون، من جانبهم، قد لجأوا إلى أولئك المموّلين أنفسهم وطلبوا منهم القيام بدور الوسطاء وتسهيل عملية الشراء باستخدام علاقاتهم الطيبة بذلك الامبراطور الفرنسي. وعندما تمت الصفقة سنة ١٨٠٣، في عهد جفرسون، قام أصدقاء الطرفين من المموّلين اليهود بدور الوسطاء ودور المموّلين في آن معاً، فأقرضوا الحكومة الأميركية الملايين الخمس عشرة بفائدة «معتدلة»، ودفعوا لنابوليون ما تبقى من تلك الملايين، بعد خصم ما كان مستحقاً عليه لهم من ديون متأخرة بفوائدها، بالإضافة إلى عمولات السمسرة.

وفي سنة ١٨١٩، تكررت الخبطة العقارية نفسها بشراء الولايات المتحدة ولاية فلوريدا من اسبانيا بمبلغ لم يتجاوز خمسة ملايين من الدولارات لم تحصل اسبانيا منه على سنت واحد، اذ استخدم المبلغ

في سداد ديون لـ «المواطنين» الأميركيين كانت الولايات المتحدة تطالب اسبانيا بها، وبفضل تلك الخبطة استخلصت الادارة الأميركية تلك الشريحة من أرض القارة الشمالية التي كانت قد أعطيت للإسبان بموجب معاهدة باريس ١٧٨٣، ودخل المبلغ جيوب المولين اليهود.

فالمال اليهودي كان نشطاً منذ البداية على كل الأصعدة، شخصية وعامة، ولم يكن نشاطه «خيرياً» دائماً كما كان في حالة الرئيس ماديسون، لكنه كان فعالاً في كل الأوقات، وبفضل دعمه لفعل العامل الديني، ومن خلال إحكام قبضته على وسائط الاعلام وأدوات صنع الرأي، كان من أسهل الأشياء وأكثرها طبيعية أن تصبح الصهيونية ساكنة البيت الأبيض الأميركي من قبل ظهور الدعاة الصهيونيين اليهود بوقت طويل.

ونحن، عندما نشير إلى «الدعاة الصهيونيين اليهود»، نعني الحركة المنظمة المعلنة التي بزغت إلى الوجود من مؤتمر بال سنة ١٨٩٧. إلا أنه قبل ظهور أولئك الصهيونيين «الرسميين» اليهود، أمثال پينسكر وهرتزل ووايزمان، كان هناك صهيونيون يهود بدئيون أو صهيونيون أوّل عملوا من خلال الفعل المشترك للعامل الديني والعوامل غير الدينية (المال والإعلام) لدى الرؤساء والساسة من المسيحيين المؤمنين.

وذلك ما يجعل ظاهرة موردخاي نوح واختراقه لجهاز السياسة الخارجية الأميركية مستحقاً وقفة خاصة. فالذي لا شك فيه أن ماديسون كان مستطيعاً أن يكافىء صديقه اليهوديّ على ما قدمه إليه من تأييد ساعده على دخول البيت الأبيض مرتين متتاليتين **بما هو افضل من تعيينه قنصلاً فخرياً للولايات المتحدة في بلد كتونس.** إلا أن موردخاي نوح نفسه هو الذي طلب ذلك، وكان قد وضع عينه على التعيين في بلد عربي منذ سنة ١٨١١، فلما فاز ماديسون بالرئاسة للمرة الثانية، سنة ١٨١٣، تحين الفرصة وطلب ذلك التعيين

من صديقه رئيس الجمهورية، وكان المنصب الذي أتيح اخلاؤه بسهولة لتعيين نوح فيه، منصب القنصل الأميركي في تونس، وكان يشغله توبايا لير الذي كانت تربطه صداقة عائلية بأسرة ماديسون.

غير أن موردخاي نوح لم يطل به المقام في تونس، اذ سرعان ما أُلغي تعيينه واستُدعي إلى واشنطن برسالة جافية اللهجة أرسلت إليه مع مبعوث خاص من واشنطن، من جيمس مونرو، وزير خارجية ماديسون (الذي خلف ماديسون رئيساً للجمهورية في سنة ١٨١٧)، جاء فيها ما يلي:

«لم يكن من المتوقع، عند تعيينك قنصلاً للولايات المتحدة في تونس، أن تعوق الديانة التي تعتنقها حسن أدائك لواجباتك القنصلية. غير أن ما تلقيناه من معلومات مؤخراً من مصادر موثوق بها يشير إلى أنه من غير المرغوب فيه إبقاؤك في هذا المنصب. وبناء عليه، رأى الرئيس أنه بات من المتعين الغاء تعيينك، وتبعاً لذلك عليك أن تعتبر نفسك خارج الوظيفة من لحظة تسلّمك هذه الرسالة».

وبطبيعة الحال، لم يَدَع زعماء اليهود ـ الذين كانوا قد باتوا ذوي أصوات عالية ومسموعة في الولايات المتحدة ـ المسألة تمرّ بغير ضجة، تبعاً للنهج الذي استنّوه واتّبعوه منذ ذلك الوقت المبكر، فأقاموا الدنيا حول رأسي ماديسون ومونرو ولم يقعدوها تحت شعار «نوح فصل من منصبه لمجرد أنه يهودي». والمعنى واضح: «معاداة الساميّة»! فمنذ ذلك الوقت المبكر، فيما يبدو، كانت التنظيمات اليهودية قد فطنت إلى الفعالية الكبرى لاستخدام **«مشاعر الذنب» لدى الأغيار المسيحيين نتيجة لكمون الوعي لدى أولئك الأغيار المعبرنين بأنهم في حين تشبثوا بأهداب «كتاب» اليهود (العهد القديم)، ظلوا في قرارة نفوسهم يكرهون اليهود**. ومما يشير إلى أن ذلك الضرب من الابتزاز الأخلاقي أثبت جدواه منذ ذلك الوقت، أن

ماديسون سارع بإرسال مبعوث، عُني بأن يكون يهودياً، لتهدئة ثائرة الزعماء اليهود.

إلى اليوم، ما زالت مسألة المستر نوح مغلّفة بالغموض. وقد قيل إن السبب الذي أدّى إلى عزله من منصبه كان اكتشاف «تلاعب في أموال أميركية» كانت تحت يد القنصل. ثم قيل إن السبب كان ما اكتشفته الخارجية الأميركية، بعد سنتين من تعيين نوح قنصلاً لها في ذلك البلد العربي، من أن «الترك» (أي «المحمديين») يكرهون ديانة المستر نوح. ولقد يكون التلاعب في تلك الأموال محتملاً، ولو أن الخارجية الأميركية أعلنت - بعد مراجعة للحسابات وتحقيقات استمرت عامين - أن يد المستر نوح لم تمتد إلى تلك الأموال، وعوضته بدفع خمسة آلاف من الدولارات إليه بحجة أنه «كان قد صرفها على أعمال القنصلية من جيبه الخاص»! أما مسألة الاضطرار إلى عزله من المنصب فوراً، وبالطريقة الفظة التي لجأ إليها مونرو، لأن «المحمديين»، فيما اكتشفته الخارجية الأميركية فجأة، «لا يحبون ديانة المستر نوح»، فيبدو أنها مماحكة براغماتية من الصنف الأميركي، فيما تشير مذكرة الرئيس ماديسون إلى وزير خارجيته جيمس مونرو بتاريخ ٢٤ ابريل ١٨١٥ بوجوب فصل نوح: «يخلَّى منصب القنصل في تونس فوراً باستدعاء اليهودي منه. **ويحسن، في تفسير ذلك الاستدعاء التعلل بأن المحمديين يكرهون ديانته وأن استمراره في المنصب كان حرياً بأن يخلق لنا وضعاً حرجاً بالنظر إلى أنه «عُرِف في تونس على نطاق واسع، أنه يهودي».**

ومما يعزز الاعتقاد بأن التعلل بكراهية أهل البلاد لديانة القنصل الأميركي إلى بلدهم، تونس، لم يعدُ كونه مماحكة، أن المستر نوح، عندما كان يسعى إلى تعيينه في ذلك المنصب كتب إلى جيمس مونرو، وزير خارجية ماديسون، في سنة ١٨١١، **قائلاً إنه ما سعى إلى ذلك التعيين في بلد اسلامي إلا «لأني أود ان ابين للدول الأجنبية أن حكومتنا الأميركية لا يحكم اختيارها لمن يمثلونها اي نوع من**

التمييز بسبب الدين. والواقع إني لا أتصور ما هو أفضل من اختياري لهذا المنصب حافزاً للكثيرين من أفراد أمتنا العبرانية على الهجرة إلى الولايات المتحدة مصطحبين معهم بطبيعة الحال رؤوس أموالهم الضخمة»! كما يعزز ذلك الاعتقاد أيضاً، وبشكل أقوى، ما كتبه الرئيس الأميركي نفسه إلى المستر نوح بعد فصله من أنه «لمن المؤكد أن انتماءك إلى الديانة التي تعتنقها كان معروفاً لنا عند تعيينك وأنه، في ذاته، لا يمكن أن يكون الدافع إلى استدعائك».

فماذا كان السبب الحقيقي في ذلك الاستدعاء؟ الغريب المريب في الأمر أن كل الأوراق المتعلقة بالموضوع، باستثناء مذكرة ماديسون المؤرخة ٢٤ ابريل ١٨١٥ إلى مونرو، **اختفت من محفوظات الخارجية الأميركية، وأن كل ما تبقى من أوراق عن المسألة لم يعدُ كونه رسائل ظلت متاحة للباحثين في جذور تلك المسألة المحيرة، في المحفوظات الخاصة لبعض الأسر الأميركية**(٥٨)، ومنها رسالة شخصية من القنصل السويدي في تونس إلى زميله السابق توبياس لير، سلف المستر نوح في منصب القنصل الأميركي.

ومن المعلومات الشحيحة التي تجود بها تلك الوثائق، والمعلومات العامة الباقية في أعداد الصحف الأميركية، يمكن تلمس بداية الخيط في مسألة نوح هذه. فوثائق الخارجية ومستنداتها قد تكون اختفت، والكثير من الحكايات المتضاربة قد تكون اخترعت حول هذه الشخصية الفريدة، إلا أن حقيقة واحدة بعينها تظل قائمة فيما يخص موردخاي نوح، هي **أن طموحه الديبلوماسي تركز على وجوب التعيين في بلد عربي.** فالثابت أن الخارجية الأميركية عرضت عليه قبل منصب القنصل الفخري في تونس منصب القنصل الأميركي في ريجا، عاصمة لاتفيا وهي إحدى ولايات البلطيق العامرة بـ «أفراد أمة المستر نوح العبرانية»، فرفض ذلك التعيين، وظل ـ منذ ١٨١١ ـ يسعى إلى منصب ديبلوماسي في بلد عربي، وعندما أتيحت له الفرصة بنقل توبياس لير من تونس، قَبِل التعيين متلهفاً.

فما الذي كان نوح يسعى إليه بكل ذلك القدر من الإصرار على العمل في بلد عربي؟

مما يمكن استخلاصه من أنشطة نوح بعد فشل مغامرته التونسية التي لم تطل لأكثر من عامين، قد نستطيع تلمس الحقيقة، لا فيما يخصه فحسب، بل وفيما يخص الخارجية الأميركية والرئيس الأميركي الذي استجاب لإلحاحه فأخلى له المنصب بنقل لير منه.

في أخريات أيامه، أوضح نوح في «محاضرة عن اعادة اليهود»، أن «كل محاولة لتوطين اليهود في أي بلد آخر (خلا فلسطين) قد فشلت»[٥٩].

فأية محاولات هذه التي كان يتحدث عنها؟

بعد فشل مغامرته التونسية، ألقى نوح «موعظة» على المصلين بمعبد «شريعة إسرائيل» بنيويورك دعا فيها سامعيه إلى «مصاحبته في رحلة إلى العصور الأولى لتاريخ أمّته»، وقال إنه «قد مرت سنوات عديدة، ألف وثمانمائة سنة، لم ينعم اليهود خلالها ببصيص من نور السعادة»، وسرد تاريخاً من الاضطهاد والشتات ومعاناة التعصب على أيدي غير اليهود، ثم طرح برنامجه لتحقيق «الخلاص» اليهودي، مذكراً سامعيه بأن اليهود «هم الذين يحتكمون في صرر المال» وأن بوسعهم «أن يشهروا السيوف ويخوضوا المعركة بما لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ مقاتل» فيعيدوا أمجاد يشوع بن نون.

والمعروف أن موردخاي نوح اضطلع ـ بعد فشل مغامرة تونس ـ بتنفيذ مشروع استيطان أطلق عليه اسماً حركياً وجده، فيما بدا، ملائماً لاسمه، اذ دعاه «آرارط»، أي الجبل الذي تقول النسخة العبرانية من أسطورة الطوفان السومرية أن «فلك نوح» رسا على قمته. لكن آرارط المستر نوح لم يكن في آسيا، بل في القارة الأميركية الشمالية، على جزيرة بنهر نياجارا، بالقرب من مدينة بافالو. وكان الهدف «اقامة وطن قومي لليهود»، بأموال اليهود وبدعم من المسيحيين المؤمنين. غير أن المشروع لم ينجح. وكان فشله بسبب شح

أثرياء اليهود الذين أحجموا عن تمويله، لا بسبب الافتقار إلى الدعم المسيحي.

ولم يفتّ الفشل في عضد نوح. فبعد بضع سنوات من فشل «آراراط»، اتجه تفضيله إلى سوريا، كما تبين من محاضرة ذكّر نوح خلالها سامعيه بأن «هناك في العالم الآن (١٨٣٧) ما يزيد على سبعة ملايين من اليهود، وهو ما يفوق عددهم في أي وقت سابق «وبأن أولئك اليهود» باتوا يحتكمون في ثروات تفوق بما لا يقاس ما يحتكم فيه غيرهم، وبأنهم «يتمتعون ـ لذلك السبب ـ بنفوذ يفوق في قوته ومضائه نفوذ كل من عداهم إذ يعززه ما يتصفون به من نشاط وما أنعم الله به عليهم من مواهب»، ولذا فإنهم «يجب أن يفعلوا شيئاً من أجل أنفسهم، ويجب أن يتحركوا قدماً صوب انجاز الحدث العظيم الموعود من قديم، والمنتظر منذ وقت طويل، فتعود سوريا إليهم بالشراء في ظل تعاون وحماية انكلترا وفرنسا»، وأكد لسامعيه أن «اعادة احتلال سوريا» ليست مستحيلة، بل «معقولة وقابلة للتنفيذ بمساعدة القوى العظمى، خاصة وأن اقامة حكومة عادلة ليبرالية ومتصفة بالتسامح هناك ستكون دعامة كبرى لمصالح انكلترا وفرنسا»[٦٠].

وبعد سبع سنين، أي في سنة ١٨٤٤، ألقى نوح محاضرة أخرى في معبد يهودي بنيويورك، تحوّلت فيها بؤرة الاهتمام من سوريا إلى «صهيون»، أي فلسطين، وتحوّل طلب العون من انكلترا وفرنسا إلى طلب ذلك العون من الولايات المتحدة: «إنني مؤمن عن يقين بأن اليهود سوف يعودون. ولما كنت **أعتقد أن أحداث العالم السياسية تتخذ من يوم لآخر شكلاً قد يؤدي في النهاية إلى ذلك الحدث العظيم، أي استعادة فلسطين**، فإني أعتبر أن واجبي يملي عليّ أن أدعو شعب هذا البلد الحرّ، الولايات المتحدة، إلى تقديم العون إلينا نحن اليهود في جهودنا الرامية إلى تحقيقه لأن ذلك سيكون من مصلحة الأميركيين كأميركيين وكمسيحيين»[٦١].

وعلى ضوء هذا التطور لفكر موردخاي نوح صوب الموقف الصهيوني، قَبْل هرتزل بأكثر من نصف قرن وقَبْل إنشاء دولة إسرائيل بأكثر من قرن، يصبح من المشروع التساؤل عن دوافعه فيما تعلق بالمغامرة التونسية، وعما إذا كانت تونس قد تراءت له قبل مشروع «آراراط» كموقع جغرافي ممكن لإقامة وطن مرحلي لليهود، وعما إذا كان قد حاول، بعد فشل الفكرة نتيجة لاستدعائه بعد سنتين اثنتين من تعيينه قنصلاً للولايات المتحدة في ذلك البلد، الاستعاضة عن الوطن المرحلي، الذي لم يتسن التوصل إلى اقامته، بمشروع آراراط الذي لم يكتب له النجاح بدوره؟

ويقودنا هذا التساؤل إلى تساؤلات أخرى، هي: ماذا كان دور إدارة الرئيس ماديسون في ذلك كله؟ ولماذا وجدت تلك الادارة في سنة ١٨١٣ لزاماً عليها أن تستدعي قنصلها توبياس لير من تونس فجأة، وبلا مبرر، لتمكّن موردخاي نوح من الحصول على ذلك الموقع الدبلوماسي؟ وهل كانت تلك الادارة على بيّنة من الأسباب الحقيقية لاستماتة نوح منذ سنة ١٨١١ في السعي إلى منصب ديبلوماسي يمكّنه من العمل في ذلك البلد العربي؟ وهل كانت تلك الادارة متعاطفة مع تلك الأسباب أو متواطئة عليها؟

الحقائق المتوافرة في شأن كل هذه التساؤلات تتمثل في **الاختفاء الغريب للمستندات والوثائق المتعلقة بالمسألة**؛ وفيما قاله نوح، في آخريات أيامه، كما أسلفنا، من أن «**كل محاولة لتوطين اليهود في أي بلد آخر (غير فلسطين) قد فشلت**؛ وفي اعترافه ـ في نهاية الأمر، بأن استدعاءه من تونس كان له ما يبرره من وجهة نظر الخارجية الأميركية.

فهل كانت المغامرة التونسية محاولة من تلك المحاولات التي اعترف نوح بفشلها معلناً أنه لا حلّ إلا فلسطين؟ وهل كان استدعاء نوح بعد سنتين من تعيينه في تونس نتيجة لمشاكل ديبلوماسية نشأت عن محاولة تعلقت بإقامة وطن مرحلي لليهود في ذلك البلد العربي؟

في محاضرته الأخيرة التي ألقاها سنة ١٨٤٤، طرح نوح برنامجاً من نوع الـ «خطوة بخطوة» الذي اقترن في زماننا باسم الدكتور هنري كيسنجر. وكانت الخطوة الأولى في ذلك البرنامج «السعي لدى سلطان تركيا للحصول على موافقته على شراء الأرض اللازمة لإنشاء الوطن اليهودي بأموال اليهود وامتلاكها». وقد كانت تونس آنذاك خاضعة للباب العالي وان قام على حكمها حاكم محلي هو «الباي»، وتمتعت بنوع من الاستقلال الذاتي. وفي غمار الجدل الذي أثير حول استدعاء نوح من منصبه بذلك البلد، ورد باستمرار ذكر «اساءة استعمال أموال حكومية أميركية» وأجريت مراجعة للحسابات وتحقيقات طالت حوالى عامين بعد الاستدعاء. فهل كانت «اساءة استعمال تلك الأموال» متعلقة ـ كما قيل ـ بتقديم رشاوى إلى قراصنة من البربر للإفراج عن رهائن أميركيين، أم ترى كانت تلك الأموال قد قدمت كمرغّبات للباي أو لأي ممثل للباب العالي عملاً على تسهيل أو «تزييت» عملية شراء الأراضي لإقامة وطن يهودي مرحلي في تونس؟

فهل حاول المستر نوح، خلال السنتين من ١٨١٣ إلى ١٨١٥ القيام بدور كالذي قام به ذلك القنصل الأميركي الآخر، واردر كريسون، في القدس، سنة ١٨٤٤؟ وكما أسلفنا، سارعت الخارجية الأميركية، في تلك السنة (التي كان نوح يلقي فيها خطبته الأخيرة وكان كريسون يقوم فيها بمحاولة شراء أراض في فلسطين لليهود من الباب العالي) باستدعاء المستر كريسون، مثلما استدعت المستر نوح قبلاً، سنة ١٨١٥، من تونس.

ترجّح الحقائق المتوافرة ذلك، وتشير في الوقت ذاته إلى أنه، وإن كانت الصهيونية قد وجدت لها مستقراً رسمياً في أميركا القرن التاسع عشر، فسكنت البيت الأبيض تحت مظلة الإيمان الديني وتحت إبط المال اليهودي والسطوة الإعلامية اليهودية والدور الذي لعباه بفعالية متعاظمة منذ ذلك الوقت في العملية الديموقراطية

بالولايات المتحدة، فإن تلك الصهيونية التي كمنت في الروح والفكر وفي أعلى مستويات السلطة السياسية لم تأخذ في العمل لصالح الفكرة الصهيونية الأساسية، وهي انتزاع الأرض من العرب لتسكين اليهود، إلا في وقت لاحق لزمن ادارة ماديسون ببضعة عقود. وقد أوضح تلك الحقيقة الباحث اليهودي ابراهام كارب بقوله[٦٢] أنه خلال السنوات التي انقضت (منذ رئاسة ماديسون) تمكنت أميركا من تخطي أزمة مالية ودخلت مرحلة من التوسع. وإذ شعرت الأمة الفتية فجأة بقوتها وامكاناتها، بدأت في البحث عن مغامرات في الخارج تمكنها من التعبير عن تلك القوة وتجسيد ما يمكن أن تحققه تلك الامكانات. ولقد تصادف ذلك النزوع مع شيوع التطلعات الألفية (التطلع إلى التعجيل بمجيء العصر الألفي السعيد) في الروح الأميركية. وكان نوح، عندما ألقى محاضرته سنة ١٨٤٤ عن «اعادة اليهود إلى وطنهم»، على وعي بمدى قوة تلك التطلعات والامكانيات التي أتاحها ذلك النزوع، ولذا فإنه عني بأن يركز على القول بأن الجمعيات التبشيرية المسيحية ينبغي لها، إن كانت حريصة على «تأمين رفاه إسرائيل الدنيوي والروحي» كما ادّعت، أن تتعاون على الصعيد الدنيوي بتقديم العون الذي يمكّن العاملين على إعادة اليهود إلى وطنهم من أن يفعلوا ذلك، وتترك الجانب الروحي لعناية الله.

وعن طريق الاستخدام الذكي للاستشهادات التوراتية، ركّز نوح على وجوب اضطلاع المسيحيين المؤمنين بكل ما من شأنه اعادة اليهود إلى فلسطين، مؤكداً أن العمل على ازدهار موانىء المتوسط، واخضرار وادي الأردن بالزرع بفضل نشاط اليهود الذين سيأتون من كل حدب، من المانيا، وبولندا، وروسيا، واجب مقدس يجب أن تأخذ أميركا، بلد الحرية، دور القيادة فيه، حيث أن حرية الأمة اليهودية واستقلالها لن ينبعا إلا من الجهد الذي تستطيع أميركا وحدها القيام به من أجل اليهود الذين لا يريدون إلا توفير الحماية الأميركية لهم وتمكينهم من القيام بما ينبغي عمله بأنفسهم!

غير أن محاضرة نوح لم تلق آذاناً صاغية إلّا لدى المسيحيين، فتعليقاً على محاضرة نوح، كتب اسحق ليسر في «ذي أوكسيدنت» (الغرب) قائلاً: «أثارت محاضرة «القاضي» (اشارة إلى اتخاذه صفة أحد «قضاة» اسرائيل) نوح قدراً كبيراً من الاهتمام بين مواطنينا المسيحيين فاق بكثير ما أثارته من اهتمام بيننا نحن اليهود[٦٣].

(٥) جيمس مونرو (١٨١٧ - ١٨٢٥)

قضى جيمس مونرو بقية حياته محاولاً التكفير عن الذنب الذي اقترفه باستدعاء نوح من منصب القنصل الأميركي في تونس أيام كان وزيراً لخارجية ماديسون. ولا يكاد كتاب من كتب الباحثين اليهود في تاريخهم الأميركي يخلو من ذكر وإدانة لذلك الذنب. وقد تمثّلت محاولات التكفير هذه في عقد أواصر صداقات وثيقة مع عدد من كبار قادة اليهود، كما شملت فتح أبواب السلك الدبلوماسي الأميركي أمام اليهود، حتى بعد واقعة مشهورة رفض فيها أحد أولئك الدبلوماسيين اليهود القيام بمهام منصبه في يوم سبت!

غير أن محاولات التكفير تلك ظلت ثانوية الوزن بجانب الخدمة الحقيقية التي أسداها مونرو ووزير خارجيته جون كوينسي آدمز لليهودية العالمية، على صعيدين عظيمي الأهمية، ما زالت الحركة الصهيونية المعاصرة تتربّح بفضلهما حتى الآن.

أول الصعيدين العلاقات الأميركية الروسية، وثانيهما إرساء حجر الزاوية الرئيسي في السياسة الخارجية الأميركية. وعلى الصعيدين، كان المهندس الحقيقي للتحركات الأميركية جون كوينسي آدمز، الذي كان تعيين مونرو له وزيراً للخارجية في إدارته عملاً حصيفاً اندرج بوضوح تحت بند محاولات التكفير عن مسألة نوح واسترضاء اليهود. فآدمز كان قد اكتسب موقعاً مميزاً لدى اليهودية العالمية أثناء قيامه بمهام منصبه كممثل لبلاده لدى البلاط القيصري الروسي، بسلسلة من الإدانات القوية التي ضمنها تقاريره إلى الخارجية

الأميركية، في عهد ماديسون، ابتداءً من ١٨٠٩، على ما تحدث عنه في تلك التقارير من اضطهاد لليهود الروس.

وعندما تولى آدمز منصب وزير الخارجية في إدارة مونرو، **أرسى في أسس السياسة الخارجية الأميركية المبدأ الذي ما زال معمولاً به حتى اليوم في مجال الابتزاز الديبلوماسي والتدخل في الشؤون الداخلية المحضة للدول الأخرى، تحت اسم «الحقوق الإنسانية»**. ففي ظل مونرو، أدخل آدمز الولايات المتحدة في شحان ديبلوماسي مع روسيا يمكن اعتباره البزرة الأولى للصراع الأميركي السوفياتي في النصف الثاني من هذا القرن، وهو الصراع الذي كمنت في جذور «حربه الباردة»، بشكل متواصل ولحوح، دعاوى «الحقوق الإنسانية» لليهود السوفيات، والذي حاول الاتحاد السوفياتي في مرحلة انهياره الأخيرة التخلص من الهراوة الأميركية النازلة بقوة بسببه تحت اسم تلك «الحقوق الإنسانية»، بفتح الأبواب على مصاريعها أمام الراغبين في الهجرة من اليهود السوفيات.

ولم يكن الشحان الذي بدأه آدمز في ظل مونرو مع روسيا القيصرية حول اليهود، بطبيعة الحال، لأن الولايات المتحدة لم تكن قد باتت القوة الأعظم في العالم بعد، **لكنه اتخذ مساراً دائرياً، تعلق ـ ككل عمل اضطلعت به واشنطن في مجال السياسة الخارجية ـ بالخوف على «الحرية» و «السلام»، و «الأمن»**.

فقد كان الدافع إلى كل ذلك وجود موقع جغرافي متقدم في أرض القارة الأميركية الشمالية، هو آلاسكا. وكانت المؤسسة الأميركية الحاكمة قد بدأت، في ذلك الوقت، تتطلع إلى التوسع، ورأت في آلاسكا هدفاً مغرياً لذلك التوسع. غير أنه كان عليها أن تتحين فرصة مناسبة للتحرك، سرعان ما واتتها عندما بدا للقيصر الروسي اسكندر الأول أنه كان لبلاده الحق في فرض منطقة استبعاد بحرية في مياه المحيط الهادىء، من شواطىء آلاسكا إلى خط عرض ٥١. وإذ أتيحت تلك

الفرصة، سارع جيمس مونرو بتكليف وزير خارجيته أدمز بتوجيه تعليمات عاجلة إلى ممثل الولايات المتحدة لدى البلاط القيصري بإبلاغ السلطات الروسية «صراحة، وبمنتهى الوضوح أن استمرار الوجود الروسي على أرض أميركية لن يكون في مصلحة السلام أو مصلحة روسيا نفسها». وتنفيذاً لتلك التعليمات، أبلغت الخارجية الأميركية ممثل روسيا القيصرية في واشنطن، أيضاً، على سبيل الزيادة في الايضاح، «احتجاج الولايات المتحدة الشديد ورفضها التام لأي حق تدعيه روسيا في أن يكون لها وجود على أي جزء من أرض القارة الأميركية، وتأكيدها القاطع بأن القارة الأميركية لم يعد فيها أي متسع لأي وجود استعماريّ أوروبيّ».

وقد ظلت الولايات المتحدة متشبثة بذلك الخط «التحرري» إلى أن تحقق لها ما أرادت من توسع شمالاً، فاشترت آلاسكا من روسيا، في ظل الرئيس الأميركي السابع عشر، أندرو جونسون، ووزير خارجيته ويليم سيوارد، سنة ١٨٦٧، بمبلغ سبعة ملايين ومائتي ألف دولار أسهمت المصارف اليهودية بالقدر الأكبر منها، بفوائد «معقولة»، بطبيعة الحال.

غير أن ذلك الكسب الاقليمي كان في وقت لاحق لرئاسة مونرو بزمن ناهز نصف قرن. أما الكسب الأهم، فتحقق لليهود بإرساء نمط التدخل الأميركي في شؤون الدول الأخرى سعياً إلى تحقيق مصالحهم وتمكينهم من الهجرة. وكما أشرنا سلفاً، تدفقت على الولايات المتحدة من روسيا، ابتداءً من سنة ١٨٨١، موجات متتالية من هجرة اليهود أدت إلى ازدياد عدد اليهود في الولايات المتحدة بنسبة ١٣٠٠٪ فيما بين تلك السنة وسنة ١٩٢٠، مما أثار قلقاً لدى كثرة من الأميركيين «المعبرنين» لم يحسنوا إخفاءه، وهو قلق ظل من العوامل الكامنة تحت السطح، شديدة الفاعلية، في تحريك وحفز الجهد الأميركي لـ «اعادة اليهود إلى أرض يهوذا» (فلسطين).

ومما هو متوافر من معلومات عن اتجاهات السياسة الخارجية الأميركية في عهد جيمس مونرو، يتبين أن أحد صعيديّ الخدمة الحقيقية التي أسداها مونرو ووزير خارجيته آدمز لليهودية العالمية، تمثّل في بذر تلك البزرة وإرساء ذلك النمط الذي يشهد العالم اليوم انفجاره العظيم ممثلاً في اندفاق موجات الهجرة من وراء حدود الاتحاد السوفياتي إلى الشرق الأوسط.

أما الصعيد الآخر، وهو لا يقل أهمية وخطورة متى نظرنا إليه من زاوية الارتباط الوثيق بين صعود الولايات المتحدة منذ زمن مونرو إلى وضع القوة العظمى، ثم القوة الأعظم، وبين التنفيذ المتصف بالتصميم للمشروع الصهيوني، فتمثل في أول مذاهب التوسع الأميركي، وهو ما عرف باسم «مبدأ مونرو».

فبذلك المبدأ، الذي أعلنه مونرو سنة ١٩٢٣، وحذّر فيه القوى الأوروبية من التدخل في أميركا الجنوبية لـ «ملء الفراغ» الذي كانت الولايات المتحدة جاهدة في احداثه بما أشعلته من ثورات في القارة الجنوبية ضد الحكم الاسباني، مؤكداً أن بلاده باتت معنية «بالضرورة وبشكل مباشر بكل ما يحدث في نصف الكرة الغربيّ»، وواعداً الدول الأوروبية - بالمقابل - بأن الولايات المتحدة لن تتدخل في شؤون أوروبا، خطت الولايات المتحدة الخطوة الأولى كقوة بازغة، على المسرح الدوليّ، مدفوعة بحكم قوة الأشياء، أو - بالأحرى - بما دعي إثر ذلك باسم «قدر أميركا الجليّ». ولقد وصف المبدأ بأنه «حجر الزاوية في السياسة الخارجية للولايات المتحدة»، وبأنه «المذهب الحي الباقي الذي تنبض به قلوب الأميركيين ويتحرك فكرهم، والجزء الحيوي الذي لا يتجزأ من الديبلوماسية الأميركية». وعلى أساس حجر الزاوية هذا، عني رؤساء أميركيون آخرون بأن يكمّلوا بناء الصرح بإضافات من مبادىء ومذاهب حملت أسماءهم كأنما لتنقش في لوحة شرف تاريخية بجانب اسمي جيمس مونرو، ووزير خارجيته جون كوينسي آدمز.

(٦) جون كوينسي آدمز (١٨٢٥ - ١٨٢٩)

لم يكن جون كوينسي آدمز، مهندس السياسة الخارجية الأميركية في عهد مونرو، سياسياً فحسب، بل كان أيضاً، وبشكل أساسي، منخرطاً في النشاط التبشيري. فقد كان الرجل بروتستانتياً شديد الإيمان بأن الصلاح، في حالة كل مشتغل بالسياسة والحياة العامة، هو «القيام بعمل الله على الأرض»، لا بمعنى الحلول محل الله طبعاً، ولكن بمعنى تنفيذ رغباته المعلومة جيداً للمؤمن. وفيما يخص المستر آدمز كانت تلك الرغبات واضحة وضوحاً لا يقبل الجدل في «كلمة الله» بـ «الكتاب»، أي العهد القديم. ولذلك انصبّ جهد الرجل على اختصار الطريق إلى تحقق مخطط الله عن طريق محاولة اقناع اليهود بتغيير رأيهم فيما يتعلق بمسألة المجيء، والقبول بالمسيح (المسيحي) والتعجيل - بذلك - ببدء العصر الألفي السعيد.

ومن مبدأ الأمر، كان ذلك طموحاً أميركياً مسيحياً ممعناً في التقوى وبالتبعية في التفاؤل. ففي سنة ١٦٩٦ كتب كوتون ماذر، أحد الآباء الروحيين للأمة الأميركية، في يومياته أنه يصلي بحرارة كل يوم «طلباً لتحول الأمة اليهودية، وتطلعاً إلى سعادتي الخاصة التي أرجو أن تتحقق ذات يوم بأن أعمّد يهودياً يصبح بفضل أدائي لواجبي الديني من قطيع الرب». وفي ذلك يقول الباحث جروس[٦٤] أن الطموح إلى تحويل اليهود إلى المسيحية اكتسب قوة جعلت منه شبه حملة صليبية اجتماعية في مستهل حياة الجمهورية الأميركية؛ وأنه تولدت عنه حركة شاعت بين الانتليجنسيا الأميركية كان من أوائل مؤيديها جون كوينسي آدمز؛ وأنه من التطلع إلى تحويل اليهود وبتحويلهم إكمال عمل الرب، نبعت الثيمة الباقية في التاريخ الاجتماعي الأميركي والمتعلقة - لا بالمسؤولية عن خلاص اليهود وحدهم - بل بالمسؤولية عن خلاص النوع البشريّ كله لا أقلّ؛ وأنه ساد الاعتقاد بين أتباع الحركة بأن تلك الساعة ستكون لها علامات، منها تلك اللحظة

المجـدودة التي سيتـاح فيهـا العثـور عـلى أسبـاط اسرائيـل العشرة الضائعة، **إلا أن العلامة المؤكدة على أن الخلاص لكل البشر قريب ستكـون بغير شـك تجمُّع كـل يهـود العـالم كـأمّـة في فلسطـين وأورشليم المقدسة.. ويشير الباحث إلى أنه لم ينقض وقت طويل قبل أن يتحول الرمز اللاهوتي إلى مخطط سياسي.**

وفي تلـك المسيرة، من الـرمز الـديني إلى المخطط السيـاسي، لعبت الصهيونية المسيحية ساكنة البيت الأبيض الأميركي من بداية أمـره، ممثّلـة بالأخصّ في شخص الـرئيس مونـرو، والرئيس جـون كوينسي آدمـز، دوراً لا سبيل إلى إنكـار أهميته. **فبجـانب الإيمـان الـدينيّ الحار، أرسى الإثنان معاً الأساس الأيـديولـوجي الذي اضطلعت الولايات المتحدة بموجبه بدور الـدولة القـائمة بعمـل الله عـلى الأرض والمكلفة من جانب العناية الإلهية بتحقيق خلاص «الأمـة اليهودية» وقيادة النوع البشري كله صوب تحقق غرض الله من خلق العالم.**

(٧) أندرو جاكسون (١٨٢٩ ـ ١٨٣٧)

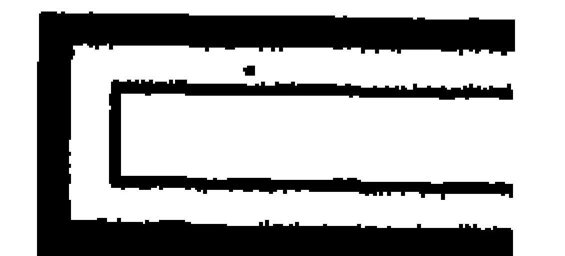
في تـاريـخ أنـدرو جـاكسـون السيـاسي، يبـرز مـرة أخـرى اسم موردخاي نوح، الذي كان قد تحوّل من قنصل إلى صحفي إلى مؤلف مسرحي إلى مشتغل بالسيـاسة المحليـة بنيويـورك من خلال أنشطـة «تـاماني هـول» التي ارتبط اسمهـا بفسـاد مـالي وسيـاسي ضـارب بجـذوره. فمن خلال نشـاطه في تـاماني هـول، أيدّ مـوردخاي نـوح جـاكسون تـأييداً قـوياً في انتخـابات سنـة ١٩٢٨، وكـان أصـوات اليهود ـ بطبيعة الحـال ـ من أهم وسائـل ذلك الـدعم. وفي تجييشه لتلـك الأصوات وراء جـاكسون، عُني نـوح بأن يـركّز عـلى «امتنـاع جاكسون عن أي انتماء ديني يخلّ بمبادىء الحريّة الدينية المقدسـة في الولايات المتحدة».

ومثلمـا فعل مـاديسون قبـلاً، كافـأ أندرو جـاكسون مؤيـده نوح

بتعيينه مشرفاً مالياً على ميناء نيـويورك. لكنـه لم يجد ذلـك التعيين، بجانب الاجراء السلبي المتمثل في الامتناع عن أي «انتماء ديني يخلّ بمبادىء الحرية الدينيـة» كافيـاً للتعبير عن مـدى عرفـانه بـالجميل للأصدقاء اليهود، فعمـد إلى التعبير عن تعـاطفه القـوي مع الـدعوة التي تبنتهـا مجلة «نـايلـز ويكـلي ريجستـر» التي رأس تحـريـرهـا وأصدرها صحفي في الكويكرز هـو حزقيـاً نايلـز الذي كـان من أشد أولئك المرتعشين ارتعاشاً من فرط الانشغال بأوضـاع اليهود. وكـانت الدعوة التي تبناها نايلز، بعد أن أشعلت حماسه الأنباء التي تلقـاها من مـراسليه الأوروبيـين عن تعاظم مـوجـة من الاهتمـام بفلسطـين كـ «وطن» لليهود، دعوة للمؤسسة الحاكمة الأميركيـة ألا تتخلف عن سائر الأمم المسيحية الأخرى في العمل على «انهاء هذا التشتت المثير للدهشة لهذا الشعب الفريد المثير لـلاهتمام في أرجـاء الأرض ووضع حـد لما عـاناه ويعـانيه من احتقـار وسوء معـاملة نتيجـة لاستمـرار تواجده «كجنس» منفصل في كل الأمم، دون أن يكـون له وطن في أي منهـا». وإذ حث نايلـز، الذي اعتبـر خلال الـربـع الأول من القـرن التاسع عشر أهم معلّق ومحلـل سياسيّ أمـيركيّ، على اضطـلاع قادة أميـركا بـدورهم المسيحي في إنهـاء معـاملـة مـا أسمـاه بـ «الجنس اليهودي»[٦٥]، تساءل: ولم لا يكون لليهود وطن قـوميّ وبلد يخصهم؟ ثم أكد أنهم، متى «أعطوا» ذلك الوطن، سيحققون المعجزات نظراً لما قرر أنهم يتمتعون به كـ «جنس» من مواهب عظيمـة تضعهم موضـع «الأمراء» من كل من عداهم، وأكد أنـه متى أضيف إلى تلك المـواهب «الملوكية» تعاظم عددهم، وما باتوا يتمتعون بـه من ثراء، وحمـاسهم الـديني الذي مكّن أسـلافهم من القيام بـأعمال ممعنـة في البسالـة والجرأة، فإن النتائج التي سوف تترتب عـلى «إعطائهم» ذلـك الوطن ستتجـاوز كل مـا يمكن أن يتصوره أي متكهن بـالنتائـج: فصحارى فلسطـين المجدبـة ستخضر وتورق وتـزهـر وتتفتـح كـالـورود، وأورشليم التي باتت في الحضيض سوف ترتفع ثـانية وتضـارع أكبر مدن العالم جمالاً وثراءً وروعة[٦٦].

وفي أحـاديثه الخـاصة، وخطبـه، عني جاكسـون بأن يفصـح عن انتمائه لهذه الرؤية لما يجب أن تفعله أميركـا من أجل اليهـود الذين كـال لهم المديـح في كتابـه[٦٧] عن معركـة نيو أورلينـز بحجـة تخليـد بطولات يهودا توورو في تلك المعركة. والمعروف أن توورو، الـذي أثرى ثراءً باذخاً من معارك جاكسون العسكـرية، كـافأ الجنـرال الأميركي بسخاء، فساهم في تمويل معاركه السياسية وحملته الانتخابية!

****



٨ الصهيونية عاملة من البيت الأبيض

(أ) مارتين فان بورين (١٨٣٧ ـ ١٨٤١)

في سنة ١٨٤٠، تلقّى وزير الخارجية الأميركية في ادارة الرئيس فان بورين، المستر جون فورسايث، مكاتبة رسمية سرية وعاجلة من القنصل الأميركي في بيروت عن القبض على عدد من اليهود في دمشق بتهمة ذبح أطفال ورجال دين من المسيحيين لاستخدام دمهم في صنع فطير عيد الفصح اليهودي.

وبطبيعة الحال، تلقّى الرئيس الأميركي ووزير خارجيته تلك المكاتبة التي استهلها القنصل الأميركي بقوله «أتشرف بأن أورد بإيجاز، لاطلاعكم، بعض التفاصيل الخاصة بسر بالغ الوحشية طالما ثارت فيما يخصه الشكوك بالنسبة للأمّة اليهود، وقد تكشف أخيراً في مدينة دمشق»، بقدر كبير من الامتعاض والحرج. فالوزير فورسايث كان قد خدم في ذلك المنصب عينه، وزيراً للخارجية، في عهد سلف فان بورين، أندرو جاكسون، ولم يكن جاهلاً بدور المال اليهودي في سير العملية الديموقراطية ببلاده، كما أن فان بورين نفسه كان مستفيداً من ذلك الدور وعلى وعي كامل بما كان اليهود قد توصلوا إليه من سطوة على وسائط الإعلام وصنع الرأي. ولذلك اعتبر كل من الرئيس ووزير خارجيته «التقارير الواردة عن أحداث مزعومة بدمشق مثالاً سيئاً على التعصّب والخرافات الشائعة في العالم القديم وهي أدواء سعت الولايات المتحدة إلى أن تظل بمنجاة منها، فوق أن العملية كلها فاحت برائحة التآمر الناجم عن التنافس بين القوى الاستعمارية المتهافتة على حيازة مناطق نفوذ في أقاليم الامبراطورية العثمانية الآخذة في الانهيار»[٦٨].

وما لبثت الخارجية الأميركية أن وضعت خاتم التصديق على تلك الرؤية للمسألة «استناداً إلى معلومات مؤكدة بأن «التحقيقات»

كشفت عن أن «عمـلاء فرنسيـين هم الذين أوعـزوا إلى «المحمديـين» المحليين بتوجيه تهمة القتل الشعائري المكذوبة هذه إلى اليهود، عملاً على تعزيز وضع فـرنسا كحـامية للمسيحيـين المحليين» (!؟). وبنـاءً عليه، صدرت التعليمات إلى القنصل الأمـيركي بالاسكنـدرية وزميلـه بالقسطنطينية «ببذل مساعيهما الحميدة لصـالح أفـراد ذلك الجنس اليهودي المضطهد المقهور»، كما سارع المبعوث الأميركي إلى بريطانيا بالاعراب للحكـومة البـريطانيـة عن «بالـغ القلق ازاء ضروب القسوة التي تمارس تجاه اليهود في الشرق».

وبذلك الاجراء الدبيلـوماسي، استن فـان بورين ووزيـر خارجيتـه تقليـد التـدخـل الأمـيركي فيمـا وراء البحـار انتصـاراً لـ «الجنس اليهودي المضطهد المقهور».

(٢) ويليم هنري هاريسون (١٨٤١)

لم يمتد العمر طويلاً بالرئيس هـاريسون ليحقق أي إنجـاز يذكـر لصـالح «الجنس اليهـودي»، إذ مات بعـد شهر واحـد من تنصيبـه رئيسـاً للولايـات المتحدة. لكنـه، وهـو في منصب الحـاكم الأمـيركي لـ «المناطق الهندية»، كان قـد أقام عـلاقات وثيقـة بعدد من التجـار اليهود الذين تولوا عمليـات التموين والإمـداد لقواتـه إبّان عمليـات إبـادة الهنود الحمـر، وأفاد من تلـك العلاقـة دعمـاً مـاليـاً لحملتـه الانتخابية كان حرياً ـ لو امتد به العمـر في الرئـاسة ـ أن يعبّـر عن امتنـانه لـه بمثل مـا فعل من سبقـوه ومن جاءوا بعـده من رؤسـاء أميركيين.

(٣) جون تايلر (١٨٤١ ـ ١٨٤٥)

عنـدما تـولى جون تـايلر الـرئـاسـة، سنـة ١٨٤١، كـان اليهـود الأميركيون قد أصبحوا قوة مؤثرة اقتصادياً ومـالياً وإعـلامياً بقـدر تجاوز بكثير نسبتهم العـددية إلى مجمـوع السكان. والأهم من ذلـك أنهم ـ فيما بدا ـ كانوا قد قرروا، استناداً إلى ذلك الـوضع، أن وقت

الملاينة والملاطفة كان قد ولّى، وأنهم كانوا قد استكملوا مرحلة هـامة وبدأوا مرحلة جديدة صوب وضع مهيمن. ونتيجة لذلك، تغير أسلوب تعاملهم مع كبار الساسة الأميركيين. فجون تـايلر، مثـلاً، عندمـا زلّ لسانه وهـو يعلن الحداد يـوماً واحـداً، بوصفـه نائب الـرئيس الذي انتقلت إليه السلطة، على سلفه هـاريسون، فـوصف الأمة الأمـيركية بأنها «أمّة مسيحية»، تلقى على الفور رسالة احتجاج شديـدة اللهجة من المستر يعقوب حزقيال، أحد زعماء اليهود بولاية فرجينيا، فسارع بالاعتذار مؤكداً للمستر حزقيال أنه لا يكنّ لليهود إلا أعمق الاحترام وأصدقه. ولم يكتف بذلك، فتحيّن فرصـة لكيل المـديح للممـول يهودا توورو الذي سبق أن مجّـده أندرو جـاكسون، ثم وبّـخ علناً الجنـرال وينفيلـد سكوت لأنـه رأس مؤتمراً من ضبـاط الجيش والبحريـة لم يمثّل فيه اليهود.

(٤) جيمس نوكس بولك (١٨٤٥ ـ ١٨٤٩)

في ظـل بولـك، تشكل في الجيش الأمـيركي أول فـوج كـل جنـوده وضبـاطه من اليهـود عرف بـاسم «فـوج الحـرس اليهـودي الأول»، ببلطيمور، بولاية ماريلاند، سنة ١٨٤٦، في غمار حملة طلب المتطوعين لخوض حرب المكسيك.

وجنباً إلى جنب مع تلك الخطوة الهامة ذات المـرامي البعيدة التي سبقت بها الولايات المتحدة بـوقت طويـل (بقرن إلا عـامين) تشكيـل اللواء اليهودي سنة ١٩٤٤، في الجيش البريطاني، أعاد بولك تجـربة تعيين قناصل يهود للـولايات المتحـدة، واختار لـذلك داود نعـر، أحد كبار مؤيدية ابان حملته الانتخابية سنة ١٨٤٤.

(٥) زخاري تايلور (١٨٤٩ ـ ١٨٥٠)

رغم أنه لم يحكم الولايات المتحدة إلا لسنـة واحدة، حقق تـايلور للمؤسسة اليهودية اختراقاً آخر بعد اختراقها العسكري الهام في ظل سلفـه، ففتح أبـواب البيت الأبيض لأول مرة لـرجال الـدين اليهود،

وعلى رأسهم الحاخام اسحق ماير وايز، كما عين ابـراهام جـوناس، أحد كبار منظمي بنـاي بريث، وصـديق ابراهـام لينكولن الحميم، في أحد المناصب الكبرى بالحكومة الأميركية.

وكان تايلور قد وثّق عـلاقاتـه باليهـود عن طريق تعـامله مـع من اشتغلوا منهم بالتوريد والإمداد لقواتـه إبان الحـرب المكسيكية التي برز فيها لانتصاره في معركة بوينا ڤيستا.

(٦) ميلارد فيلمور (١٨٥٠ ـ ١٨٥٣)

من خلال اتصالات وايـز بالبيت الأبيض منـذ فتح تـايلور أبـوابه لكبـار حاخـامات اليهـود، وبفضل نفـوذ ابراهـام جـونـاس، حققت المؤسسة اليهودية اختراقاً جديداً وسعت به سابقة التدخل الأميركي لصالح اليهود في الخارج إبان رئاسة فان بـورين، إذ قامت المنظمـة، بمباركة من البيت الأبيض، بحملة (كانت في الـواقع بـروفة لحمـلات عديدة شنتها بناى بريث وما زالت تشنها حتى اليوم) ضـد معاهـدة عقدت بين الولايات المتحدة وسويسرا، سلمت الـولايات المتحـدة فيها بحق الكانتونات السويسرية السيادي في الامتناع عن السماح لليهود بالاقامة فيها حتى من كان منهم مواطنـاً أميركيـاً. وكان الغـرض من الحملة منع التصديق على المعاهدة في الكونجرس.

واستجاب فيلمور للحملة، فوجه رسالة إلى الكونغـرس معلناً فيهـا «اعتـراضـه الحـاسم» عـلى المعـاهـدة عـلى أسـاس أنـه «ليس من صلاحيات حكومة الولايات المتحدة، بالقانون، أو بالمعاهـدات، أو بأي اجراء رسمي آخر، ارساء أسس أي تمييز بين المواطنـين الأميركيـين بسبب اختـلاف المعتقـدات الـدينيـة». وفي النهـايـة، رغم مـا لحق بـالولايـات المتحـدة من خسـائـر تجـاريـة، رفض مجلس الشيـوخ بالكونغرس التصديق على المعاهدة، وحققت المنظمات اليهودية سابقة أول انتصار لها في مجال السياسة الخارجية للولايات المتحدة.

(٧) فرانكلين بيرس (١٨٥٣ - ١٨٥٧)

كان قد بات من الواضح، بحلول منتصف القرن التاسع عشر، أن الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة كانت قد تمكنت - بالاستغلال الذكي المرن لرواسب الهوس الدينيّ التطهريّ والمعتقدات البروتستانتية، وبالاستخدام المخطّط المهندَس لقدرات المال اليهودي والهيمنة اليهودية على وسائط الإعلام وأدوات صنع الرأي، وبالتلويح المستمر بالشعارات الأساسية للديموقراطية الأميركية في الوقت الذي كان المال اليهودي والإعلام اليهودي يخضعان عملياتها فيه للمصالح اليهودية ولو على حساب المصالح الأميركية - من إرساء نمط الهيمنة على المؤسسة الأميركية الحاكمة الذي يعزى الآن إلى أسطورة تأثير «اللوبي» اليهودي.

والمتّتبِع للخطوات التي خطتها المؤسسة اليهودية في هذه المسيرة صوب الهيمنة على مراكز صنع القرار السياسي (وبالتبعية القرار الديبلوماسي، والقرار العسكري) في الولايات المتحدة، لا يمكنه إلا أن يلحظ **النعومة الفائقة التي طوِّرت بها إعلانات التعاطف والورع الأولى التي من قبيل تمنيات جورج واشنطن، الرئيس الأول للولايات المتحدة، بأن «يُنعِم يهوه على كل من بالولايات المتحدة ببركته»، وتمنيات خلفه جون آدمز بأن «يعود اليهود ثانية إلى أرض يهوذا كأمة مستقلة»، إلى إجراءات فعلية ملموسة في سياق تصاعد منظم ودفع حثيث صوب بلوغ أهداف ظلّت دائمة الاتساع تمثلت في إعلاء اليد اليهودية في تسيير سياسات الولايات المتحدة الداخلية على مختلف الأصعدة عن طريق احتواء الساسة والرؤساء الأميركيين بانتهاج نهج الـ «خطوة بخطوة»، وجعل كلّ خطوة تتحقق منصةَ قفزٍ إلى خطوة تالية أوسع وأفعل.** وهكذا، فإنه من استخدام مسيحيّة الأميركيين ذاتها (التي شكّلت المنفذ الرئيسي للصهيونية إلى عقولهم ومراكز صنع القرار في هرم السلطة ببلدهم) في إذلال الأميركيين والتوصل إلى

المزيد من الإخضاع لضمائرهم وضروب سلوكهم، واستخدامها في الوقت ذاته أداة لترسيخ مفاهيم جذرية في العقل الأميركي عن «حق اليهود كأمّة في وطن»، وكون اليهود «أمّة»، وكونهم «جنساً» و«جنساً أرقى مضطهَد بسبب امتيازه وثرائه»، وكونهم «مشعل النور الذي قاد البشر إلى درب الحضارة»، في الوقت الذي تمكن اليهود فيه من جعل الأميركيين يعتبرون القول بأنهم «أمّة مسيحية» وِزراً، ويعتبرون التفكير في إدخال الدين في مناهج الدراسة جريمة، تقدم اليهود إلى تحقيق اختراق وراء اختراق للسلك الديبلوماسي الأميركي، واستخدام ذلك الاختراق في تحقيق مآربهم فيما وراء البحار، بل وتوجيه النشاط الديبلوماسي الأميركي، حتى من ذلك الوقت المبكر، إلى التدخل في أخصّ الشؤون الداخلية للدول الأخرى تحت ساتر المشروعية الأخلاقية والذود عن الحقوق الإنسانية وتحت راية مسؤولية كُلّفت بها الولايات المتحدة عن حماية الحرية والسلام والقيم العليا في العالم. وبجانب هذه الاختراقات، وباستخدام دعاوى وطنية اليهود وبسالتهم في الذود عن الولايات المتحدة، تسنى تحقيق اختراق آخر تمثل في تشكيل قوة عسكرية يهودية محضة داخل التنظيم العسكري الأميركي كأنما استعداداً لليوم الذي يصبح للدولة اليهودية فيه جيشها الخاص بها.

فالتصاعد لم يتوقف، وإن تحقق بخطوات ناعمة منسابة استُغِلّت في تحقيقها كل دعاوى الديموقراطية الأميركية التي اكتست دائماً ومن مبدأ الأمر نبرة أخلاقية عالية. وهكذا، فإنه بعد النجاح الذي حققته بناي بريث في مجال تعديل السياسة الخارجية الأميركية وإخضاعها لمصالح اليهود لا لمصالح الولايات المتحدة التي ما من شك في أنها كانت دافع الخارجية الأميركية إلى التفاوض على بنود المعاهدة السويسرية، تحققت عدة اختراقات في عهد فرانكلين بيرس.

ففي عهد بيرس، الذي كان معروفاً بتديّنه، وبارتباطاته اليهودية

الوثيقة من خلال ذلك التديّن، حقق اليهود اختراقاً جديداً بالغ الأهمية، تمثل في **فتح أبواب المحكمة العليا أمام اليهود** بعرض تقدم به بيرس إلى يهودا بنيامين، عضو مجلس الشيوخ عن ولاية لويزيانا، بشغل مقعد من مقاعد القضاء بتلك المحكمة ذات الفعالية الكبرى في صوغ طريقة الحياة الأميركية من خلال القانون، لكن يهودا بنيامين رفض العرض لأسبابه الخاصة التي نبعت من انتمائه القوي إلى اللوبي الأوليغاركي المؤيد للرقّ. غير أن العرض كان قُدِّم، وأبواب المحكمة العليا كانت قد فُتِحت. ولما كان بيرس قد وجد أنه تعيّن عليه أن يُعرِب لأصدقائه اليهود عن ولائه النابع من انتمائه الديني المعبرَن، فإنه عوّض عدم توفيقه في تنصيب قاضٍ يهوديّ بالمحكمة العليا بإسناد منصب «وزير» (المسمى الأميركي آنئذٍ لمنصب السفير) بالسلك الدبلوماسي، إلى أوجسط بلمونت، في لاهاي. فكان ذلك بمثابة فتح لأبواب المناصب الدبلوماسية العليا أمام اليهود الذين كان اختراقهم للسلك الدبلوماسي الأميركي قد اقتصر حتى ذلك الوقت على مستوى القناصل، وبأعداد محدودة للغاية.

ولم يقتصر بيرس في تعبيره عن الولاء على فتح أبواب المناصب العليا بالمحكمة العليا والخارجية أمام اليهود، بل امتد ليشمل المناصب الحساسة في الحربية الأميركية، إذ عين رسام الخرائط اليهودي جوليوس بين مشرفاً عاماً على أنشطة وزارة الحرب في مجالات تخصصه. وقد كان إدخال اليهود في ذلك المجال العسكري، في المراكز العصبية لوزارة الحرب، منطوياً على مخاطر لم يتوقف عندها بيرس، لكن الأمر لم يطل قبل أن يكتشفها الجنرال يوليسيس جرانت.

(٨) جيمس بوكانان (١٨٥٧ - ١٨٦١)

دخل بوكانان البيت الأبيض مصمماً على أن يبزّ كل من سبقوه في التعبير عن ولائه لليهود. فهو لم يكد يستقر في مقعد الرئاسة سنة ١٨٥٧ حتى وجد نفسه مواجِهاً بمشكلة تنصّل منها بيرس في

أخـريات أيـام ادارته، تـاركاً إيـاها لخلفـه تمثلت في إلحـاح وزارتي التجارة والخارجية على ابرام معاهدة تجارية مع سويسرا عوضـاً عن المعاهدة التي خربتها منظمة بناي بريث في عهد الرئيس فيلمور. وكان الاجراء الذي لجأ إليه بوكانان في محاولـة التعامـل مع تلـك المشكلة سـابقةً بـالغةَ الأهميـة في مجال صنـع القرار عـلى أعلى المستـويات بـالولايـات المتحـدة، إذ **دعـا إلى البيت الأبيض «وفـدا» من كبـار الحاخامات اليهود** ضم اسحق ماير وايـز، وداود عينهورن، واسحق ليسر **للـوقوف عـلى مطالبهم فيمـا تعلق بمشروع المعاهـدة.** وبعد اجتماعه بأولئك القـادة اليهود، أعلن بـوكانـان عن ادخال عـدد من التعديلات الجذرية على المعاهدة قال إن القصـد منها ارسـال إشارة إلى السـويسريين بـأن الولايـات المتحدة لا تقـر مواقف الكـانتونـات السـويسرية من مسـألة اقـامة اليهـود بالأراضي السـويسرية. وقـد تواصل ذلك الضغط من جانب واشنطن وغـيرها إلى أن تحقق «عتق» اليهود الكامل في سويسرا (التي باتت الآن قاعدة رئيسية من القواعد الصهيونية شديدة الفاعلية) سنة ١٨٧٤.

ويجد المرء اغراءً هنا للقول بأنه ما أشبه الليلة بالبارحة. فجيمس بوكانـان، قبل أكثـر من ثلاثـة عقود من ظهـور الحركـة الصهيونيـة اليهودية، قام بما وجده لزاماً عليه بوصفه ممثلاً للصهيونية المسيحية فتدخّل في الشؤون الداخلية لـدولة مستقلـة ذات سيادة، مخـاطِراً في ذلك بمصالح الولايات المتحدة ذاتها في سبيل مصـالح اليهـود، تحت تأثير معتقداته الدينية المعبرَنَة وما كانت تلك المعتقدات التي اعتنقهـا كل من سبقوه من رؤساء وساسـة أميركيـين قد أوصلت اليهـود إليه من سطوة على سير العملية الديموقراطية ومراكز صنع القرار ـ نقول إن بوكانان، عندما فعل ذلك قبل عقود من ظهور الصهيونية اليهودية، لم يسبق هرتزل وغيره فحسب، بل وسبق بأكثر من قرن من الزمـان السنـاتور الأمـيركي «سكوب» (صـاحب الخبطات) جـاكسون الـذي قام ـ مستلهِماً في ذلك «تعاليم» هنري كيسنجر[٦٩] ـ بتخـريب قانـون

التجارة لسنة ١٩٧٤، وأوقف بذلك تنفيذ الاتفاقية التجارية التي أُبرمت بين واشنطن وموسكو سنة ١٩٧٢، وعلق بيع القمح للاتحاد السوفياتي ومنحه وضع الدولة الأكثر رعاية على فتح أبواب الهجرة أمام اليهود السوفيات.

وفي تحقيق هذا السبق الصهيوني، كان بوكانان مستلهماً «تعاليم» عرّابيه الروحيين، **لا من الكتابات «المقدسة» اليهودية، «كلمة الله»، فحسب، بل ومن التعليمات التي القيت إليه على السنة مستشاريه من الحاخامات اليهود.**

وكما أخضع ذلك الرئيس الأميركي ـ سيراً على خط من سبقوه ـ مصالح بلاده لمصالح اليهود أخذاً بما فرضه ذلك الاملاء اليهودي، بذر أيضاً بذور الحرب الأهلية الأميركية بسلسلة من السياسات انتهجتها ادارته في شأن قضية الرق وحقوق الولايات، كان واضعها ومهندسها السناتور يهودا بنيامين ممثل ولاية لويزيانا الذي رفض قبول منصب قاض بالمحكمة العليا عندما عرضه عليه سلف بوكانان، فرانكلين بيرس، حتى يظل حر الحركة في وضع مثل تلك السياسات التي انبثقت من خلالها شرارات حرب أهلية مدمرة.

(٩) ابراهام لينكولن (١٨٦١ ـ ١٨٦٥)

وفي حين كان يهودا بنيامين بيبّ، على الجانب المنحاز لـ «لوبي» الرق ومصالح الولايات الجنوبية، أي ادارة بوكانان، فتائل تفجير تلك الحرب، كان ابراهام جوناس، الذي حقق اختراقاً إلى المناصب العليا في الادارة الأميركية في ظل الرئيس زخارى تايلور، يبثّ، من خلال صداقته الوثيقة بابراهام لينكولن الذي بدأت علاقته به منذ تزاملا في المجلس التشريعي لولاية الينوي سنة ١٨٤٢، فتائل وألغام تلك الحرب على الجانب المعارض للرق والممثّل لمصالح الولايات الشمالية.

وكما أشرنا قبلاً، **اكتشف الجنرال يوليسيس جرانت، إبان الحرب الأهلية التي ما لبثت أن اشتعلت، مدى الخطورة الفائقة**

التي مثلها الاختراق اليهودي لجهاز الحرب الأميركي، كما اكتشف أيضاً الدور المزدوج الذي لعبه اليهود، استمراراً لأدوارهم العديدة السابقة في حروب أوروبا، بتمويل وامداد الطرفين المتحاربين والتربّح من كلا الجانبين.

ونتيجة لذلك، أصدر الجنرال جرانت، الذي كان قائداً للقوات الشمالية في قطاع تنيسي، أمره الشهير رقم ١١ لسنة ١٨٦٢ (الذي وصف بأنه «أفظع وأشمل قرار معادٍ للسامية في التاريخ الأميركي») بطرد كل اليهود خلال أربع وعشرين ساعة من صدور الأمر من كل قطاع تنيسي، نظراً لما ثبت من تخريبهم للمجهود الحربي للقوات الشمالية من خلال الاتجار مع القوات الجنوبية وتهريب الامدادات والعتاد إليها.

وعلى الرغم من الأدلّة الدامغة التي بنى عليها الجنرال الأميركي حيثيات أمره، حماية لأرواح جنوده في ظروف حرب شرسة، أقام اليهود ضجة كبرى وتحركوا في اتجاهين: فقدم ممثلوهم في الكونغرس مشروع قرار بإلغاء الأمر تشريعياً، وفي الوقت نفسه أوفدوا إلى الرئيس لينكولن «سفيراً» اختاروه من بين اليهود ذوي الفضل على لينكولن، هو الممول اليهودي سيزار كاسكل. ولم يعن من نظموا الحملة فيما يبدو بتوفير التزامن اللازم لكلا الاتجاهين، ربما لأنهم لم يكونوا قد توصلوا في ذلك الوقت إلى ما باتوا يتمتعون به الآن من خبرات في ذلك المجال، فكانت النتيجة أن سارع لينكولن بالغاء الأمر إدارياً، باستخدام سلطاته، في حين صوت الكونغرس بأغلبية ساحقة على رفض الالغاء، اقتناعاً من أعضائه، كما تبيّن مضابط الجلسات، بسلامة اجراء الجنرال جرانت وضرورته العسكرية نظراً لما ثبت من قيام أعداد كبيرة من اليهود بالمضاربة والتهريب والمتاجرة مع الجيشين المتحاربين.

وبإلغائه القرار إدارياً، أرسى لينكولن سابقة أخرى أخذت مكانها بين العديد من السوابق التي قام من سبقوه من رؤساء بإرسائها في

أسس النظام الرئاسي الأميركي و«الأخلاقيات» السياسية الأميركية، **هي سابقة مناعة اليهود القانونية من المؤاخذة حتى فيما يتعلق بجريمة اعتبرت دائماً من مكونات تهمة الخيانة العظمى.**

ومما يكشف عن ذلك أن عدداً من حاخامات اليهود أنفسهم كان قد حذر ـ قبل اصدار جرانت أمره ـ من أنشطة اليهود التي أفضت إلى إصدار الأمر، وقد وصفها الحاخام اسحق ليسر (بقدر كبير من الحصافة وبُعد النظر) بأنها «تدنيس لاسم الله» ووصف المنغمسين فيها بأنهم «حشد من المغامرين المعوزين يرتحلون، أو بالأحرى ينسابون (كما تنساب الأفاعي) وراء الكسب بطرق نخشى أن تكون غير قانونية، متظاهرين بأنهم يهود صالحون في حين أنهم ليسوا كذلك أبداً»!

وبطبيعة الحال، لم يرد في كل ذلك ذكر للخبرات الأوروبية المتكررة في أزمنة الحروب، وبخاصة تلك التي أشعلت من خلال الكراهيات الدينية، والتي عانت فيها أوروبا من ذلك «السعي (كما تسعى الأفاعي) وراء الكسب بطرق يخشى أن تكون غير قانونية».

وفيما يخص الرئيس لينكولن، كان الرجل، حتى بصرف النظر عن انتمائه الديني الذي نضح خارجاً على هيئته فجعلها شبه توراتية وأقرب ما تكون إلى صورة القبطان إيهاب في رواية «موبي ديك» لهرمان ملفيل، محاصَراً ـ في شأن اليهود ـ بين الصخرة والمكان الصلد، كما يقولون. فقد كان مضطراً في سعيه إلى تمويل حربه مع الجنوب، إلى تعميق علاقاته اليهودية وتطويرها من مجرد الصداقة، والاشتراك في «ديانة واحدة»، والاستفادة مادياً كأيّ سياسيّ أميركيّ آخر من سطوة المال اليهوديّ والهيمنة اليهودية على الصحافة وأدوات صنع الرأي، إلى ما هو أوسع وأخطر: تمويل الولايات المتحدة كدولة واغاثتها وهي مترديـة في مأزق الحرب الأهلية. وكان أول من اتجه لينكولن إليه من المموّلين اليهود ايزيدور بوش الذي رجاه أن يعاونه في طرح قرض حكومي بمبلغ مائة مليون من

الدولارات لتمويل المجهود الحربي للقوات الشمالية. ثم اتجه لينكولن بعد ذلك إلى يوسف سليجمان، أحد أكبر أصحاب المصارف اليهود في نيويورك، لا في طلب التمويل فحسب، بل وفي طلب المشورة في الشؤون المالية والاقتصادية للولايات المتحدة. وقد بلغ من إيمان لينكولن بمهارات سليجمان في مجاله أن عرض عليه منصب وزير الخزانة في ادارته، لكن المصرفيّ اليهوديّ وجد المنصب أصغر بكثير من قدراته، فرفضه.

وبدخول سليجمان البيت الأبيض مستشاراً مالياً واقتصادياً، بعد دخول الحاخامات اليهود مستشارين للرئيس جيمس بوكانان، قبل عهد لينكولن بوقت قصير، مستشارين في شؤون المعاهدات، ودخول يهودا بنيامين مستشاراً في شؤون الرق وممثلاً للمصالح المالية الجنوبية، **تحقق اختراق آخر كبير وبعيد الأثر للمؤسسة اليهودية الأميركية نفذت من خلاله إلى صميم مراكز صنع القرار في أعلى قمة لهرم السلطة، البيت الأبيض، فرسّخت أقدام الاتجاه الصهيوني المسيحي ومكنته من أن يصبح مؤسسياً على عدة أصعدة.**

وقد يفصح عن حقيقة ما كان الوضع قد صار إليه فيما يخص علاقة البيت الأبيض باليهود أن قادة اليهود اعتمدوا سيمون وولف، صديق لينكولن الحميم «**سفيراً يهودياً لدى واشنطن**» وكلفوه بالتدخل باستمرار في أخص دقائق القرار الأميركي في كل مجال رأوه متعلقاً بمصالحهم التي كانت قد بدأت تفصح عن كونها مصالح «مستقلة» يمكن أن تتصادم مع المصالح الأميركية.

ولقد كان طبيعياً أن يعتبر اليهود ابراهام لينكولن كسباً كبيراً لهم، فهو الرئيس الذي أمكنهم ـ من خلال الاستغلال الذكي لانتمائه الديني واحتياجه المالي ـ أن يحققوا في ظله خطوات كبرى صوب **هدف الهيمنة اليهودية على الولايات المتحدة، ذلك الهدف الذي سعوا إليه منذ البداية، متحسسين طريقهم في أول الأمر،**

مرتكنين إلى تقوى الرؤساء الأميركيين وهوسهم «العبراني» وإلى احتياج أولئك الرؤساء إلى المال والإعلام، وآخذين في التحرك بثقة متعاظمة، خطوة بعد خطوة، على النحو الذي أوضحناه، بعد نجاحاتهم الأولى، مؤسسين كل نجاح لاحق على ما سبقه من تلك النجاحات، إلى أن وانتهم الحرب الأهلية (التي أسهموا على الجانبين في بذر بزورها وغرس فتائل اشعالها في تربة الحياة الأميركية) بالفرصة الكبرى لإحكام قبضتهم وتحقيق أهم اختراقاتهم في ظل لينكولن.

ولقد كان ذلك على كل الأصعدة، فلم ينجَ منه حتى الصعيد العسكريّ، **إذ وجّه الحاخامات والقادة اليهود أعداداً كبيرة من اليهود الفقراء الذين كانوا لم يثروا بعد إلى التطوع في القوات الشمالية، في الوقت الذي كان اليهود الأثرياء يتاجرون فيه مع كل من الجنوب والشمال ويتربحون من سيول الدماء التي أريقت في تلك الحرب الوحشية وحشيةً خاصةً ككل حرب أهلية.** وبذلك التطوع، رسّخ الزعماء اليهود الاتجاه الذي ظهر في عهد الرئيس جيمس بولك بتشكيل الفوج اليهودي سنة ١٨٤٦، ابان حملة التطوع للاشتراك في الحرب المكسيكية. وبترسخ ذلك الاتجاه، **بات اليهود شركاء مؤسسين في آلة الحرب الأميركية.** ومما يشير إلى أنهم اعتبروا أنفسهم، وقد تحقق لهم ذلك الاختراق، شبه كيان مستقل شريك مع الأغيار (الجوييم) الأميركيين في المؤسسة العسكرية، أنهم أقاموا الدنيا فلم يقعدوها، مستغلين ورطة لينكولن في الحرب الأهلية، حتى تحقق لهم الاستقلال بحاخاماتهم بعد أن كان رجال الدين بالقوات الأميركية كلهم من البروتستانت.

وعلى الرغم من كل ما حققه ابراهام لينكولن لليهود أثناء مدة رئاسته، جاء نعيهم إياه إثر اغتياله، على لسان فيليب يواقيمسون، أحد كبار زعمائهم بنيويورك، أشبه بنعْي متعالٍ متصفٍ بالتنازل تفضل به أمير اقطاعيّ على أحد أقنانه:

«إننا، نحن اليهود، ملأ قلوبنا الحب والتقدير للفقيد لأنـه، وهو في منصبه العالي، اتصف بالتقدير والعرفان بالجميـل تجاه كـل من خفـوا لاقامـة أوده من أبناء ديننـا. فذهنـه لم يكن ملوثـاً بالأفكار الغوغائية تجاه اليهود»!

وشتان ـ كما هو واضح ـ بين هذه اللهجة وتلك التي كـان اليهود يـوجهـون بهـا رسـائلهم إلى جـورج واشنطن وغـيره من الـرؤسـاء الأميركيين الأول. وهـو ما قـد يوقفنـا على أن الـولاء لليهود الـذي انبجس من الانتمـاء الـديني المعبـرن لـلأمـيركيـين ورؤسـائهم وسـاستهم والذي ظـل يفتح بـاباً وراء بـاب أمام اليهـود الذين شكلوا باستمرار أقلية ضئيلة العدد نسبياً إلى مجموع السكـان، واستغلـه اليهود بذكاء وجرأة، كان قد أثمر ـ تحت أقـدام اليهود وحـولهم ـ ما جعلهم في ذلـك الأمد القصـير زمنياً (من ١٦٥٤ إلى ١٨٦٥) يتحـولون من مجمـوعة بشريـة مهـاجـرة قليلـة العـدد صغيـرة الشـأن إلى قـوة يحسب لهـا كـل حسـاب في الـولايـات المتحدة.

(١٠) أندرو جونسون (١٨٦٥ ـ ١٨٦٩)

مما يوقفنا على مـدى ضخامـة ذلك التحـول وعظم أثره، تـرويض الرئيس الأميركي أندرو جونسون. فجونسـون، قبل أن يصبـح رئيساً للولايات المتحـدة كان «مشـاغباً»، فيمـا تعلق باليهـود. ويضم سجله عدة هجمات اتصفت بالصراحة والشراسة على عـدد من قادة اليهـود وممثليهم في الكـونغرس، منهـا الهجوم بـالغ الحـدة الذي شنـه على السناتور اليهـودي ديفيد ليفي يـولي ووصفه فيـه بـ «ذلك اليهـودي القميء الحقير»!، وهجومه على السناتور يهودا بنيامـين عضو مجلس الشيوخ عن ولاية لويزيانا، السابق الاشارة إليه، بقوله «وهذا يهودي آخر، هذا البنيامين التعس»!

ذلـك الـرئيس العـاصي المشـاغب لاقى من المتـاعب والنكسـات والاحتكاكات بالكونغرس، وهجمات «الراديكاليـين» ما لقنـه دروساً لم

ينسها. وإلى اليوم، ما زال جونسون معتبراً سوأة في تاريخ الرئاسة الأميركية. وفي كتب التاريخ الأميركي يعمد الباحثون أحياناً إلى البحث عن أسباب ما يجمعون على أنه «شاع، على كل الأصعدة، من عداء شخصي لجونسون»، ويحاولون تلمّس أسباب «عامة»، أي لا علاقة لها بـ «الشخصيات» لذلك الرئيس، لكن عداء اليهود له وممارستهم لسطوتهم التي كانت قد تعاظمت في الكونغرس ولجوءهم للغوغاة الاعلامية ضده بحجة «الراديكالية» وبحجة «الدفاع عن الزنوج»، انتهت إلى ما انتهى إليه العداء اليهودي لريتشارد نيكسون، فأفضى إلى تجريحه واتهامه بـ «ارتكاب جرائم ومخالفات خطيرة»، من جانب مجلس النواب (impeachment)، وهو المصير نفسه الذي أوشك أن يلحق بريتشارد نيكسون لو لم يسارع بإنقاذ نفسه بتقديم استقالته في ٨ أغسطس ١٩٧٤.. إلى وزير خارجيته اليهودي، هنري كيسنجر)، ثم تقديمه للمحاكمة أمام كبير القضاة اليهودي سالومون تشيس في جلسة قام فيها أعضاء مجلس الشيوخ بالكونغرس بدور المحلفين، ولم ينقذ جونسون من الحكم الذي كان معداً له إلا تصويت سبعة من الشيوخ الجمهوريين المعتدلين مع الشيوخ الديموقراطيين، مما حرم «الراديكاليين» الذين تستّر أعداء جونسون الحقيقيون وراءهم، من الحصول على أغلبية الثلثين، التي يتطلبها الدستور الأميركي في حالة محاكمة الرئيس، لإصدار الحكم بالادانة. وقد كان قرار الجمهوريين في اللحظة الأخيرة الانضمام إلى الديموقراطيين تحركاً أملته الرغبة في صون كرامة منصب الرئيس واستقلاليته (المتصورة) لا الرغبة في إنقاذ أندرو جونسون نفسه.

وإذا نجا الرجل من المصير المعتم الذي كان قد أُعِدّ له، تاب وأناب، واستغفر السادة الذين علمته محنته انهم كانوا قد باتوا أصحاب السلطة الحقيقيين، وعقد «صداقات» مع كثيرين منهم، ثم وقد قبلت توبته، كان المتكلم الرئيسي في حفل تدشين معبد فاين ستريت المشهور بمدينة ناشفيل، سنة ١٨٧٤، وتفضل الحاخام

اسحق ماير وايز باصطحابه إلى المعبد في عربته وقد وضع اليارمولكا على رأسه. وعندما صعد إلى المنبر ليلقي كلمته، قال الرئيس السابق الذي رُوِّض بعد «إجازته في النار» كما كانت الضحايا تجاز في محرقة يهوه قديماً، أنه، وحق الله، «لم يوجد من امتلأ حباً لليهود مثله بين أبناء ديانته المسيحيين جميعاً، ولم يوجد من اهتم اهتمامه العميق والدائم بنجاح اليهود ورخائهم وازدهار ديانتهم ومعبدهم» وأعلن أن «المعبد سيظل أبداً النُصُب المقدس الذي يجسِّد كدّ اليهود ومثابرتهم واستحقاقهم للنجاح والرخاء والرفاه، لا في مدينة ناشفيل فحسب، بل وفي كل مكان».

(١١) يوليسيس جرانت (١٨٦٩ - ١٨٧٧)

كان جرانت، كما أسلفنا، قد أصدر أمره الشهير رقم ١١ بطرد كل اليهود من قطاع تنيسي الذي كان قائداً له إبان الحرب الأهلية الأميركية نظراً لما ثبت له ولقواده من تربُّح أولئك اليهود من الاتجار مع قوات الجنوب والتربُّح من امدادها وتموينها عن طريق التهريب. وكما قلنا، ألغى ابراهام لينكولن ذلك القرار.

واتعاظاً بالخبرة اللاحقة، وبالأخص بما فعله اليهود بسلفه أندرو جونسون، كفَّر جرانت عن خطيئته هذه بكل ما وسعه من قوة. ورغم أن شبح تلك الخطيئة المميتة ظل يطارده طوال حياته، فإن اليهود - بالبراغماتية المعهودة - لم يحاربوا جرانت عندما خاض معركة انتخابات الرئاسة سنة ١٨٦٨، بل دافع البعض منهم عنه ضد من هاجموه من ساسة أميركيين، عندما بدا واضحاً أنه كان في طريقه إلى الفوز بالرئاسة بفضل سجله العسكري، مثلما فاز أندرو جاكسون قبلاً.

غير أن الدفاع اليهودي عن جرانت لم يكن بالقوة التي تمحو «الوصمة» من جبينه، بل تُرك الذنب معلقاً في عنقه كحجر الرحى عملاً على استقطار كل منفعة ممكنة منه. وهو ما حدث فعلاً وجعل

بمكنة سيمون وولف، أحد من تصدوا للدفاع عن جرانت إبان الحملة الانتخابية ضد اتهامات منافسيه، أن يعلن ملء الفم، بنبـرة لم تخفِ نعومتها مـا انطوت عليـه من مفاخـرة، «أن بوسعـه أن يقرر بمنتهى الوضوح أن الرئيس يوليسيس جـرانت فعل من أجـل اليهود طـوال مـدتي رئـاستـه، من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٧، أكثـر ممـا فعـل أي رئيس أميركي دخل البيت قبله».

ومن الخدمات الكبـيرة التي قدّمهـا جرانت، كـان تعيينه بنيـامين بيبيكسوتّو، رئيس منظمة البناي بريث («أبناء العهـد») آنئذ، قنصـلاً للولايات المتحدة في رومانيا لـ «**القيام بالتحقيق في تصرفات حكومة رومانيا ضد اليهود ورفع تقارير عن نتائج تحقيقاتـه إلى الرئيس الأميركي رأساً**» كما لو كانت رومانيـا الدولـة المستقلة ذات السيـادة إقليمـاً خاضعـاً لسلطات البيت الأبيض. **وكمـا هي العـادة في كـل حـالات التدخـل الأميركي في الشؤون الـداخلية للـدول الأخرى، أعطى جرانت تلك التعليمات الغريبة «مبررهـا الأخلاقي» بقـوله في التعليمات التي أصدرها للمستر بنيامين أن «الولايات المتحدة معنية بأن تسود الحضارة كل بلدان العالم»!**

(١٢) رذرفورد هايز (١٨٧٧ ـ ١٨٨١)

عندما تولّى الرئيس هـايز الرئاسة، كانت أعـداد اليهود في مخـتلف إدارات ومكـاتب الحكومـة الأميركيـة قد وصلت حـداً جعـل بمكنـة المؤسسـة اليهوديـة أن تكرر مـا سبق أن فعلته بـالنسبة للمؤسسـة العسكرية الأميركية عندما طالبت بتعيين حاخامات في القوات المسلحة نظراً لارتفاع أعداد الجنود الأمـيركيين اليهـود. وفي حالـة الموظفـين المدنيين، لم يكن بوسعها أن تطلب ذلـك، لكنها طلبت شيئـاً آخر رأت أنه كفيل بإبراز الهوية اليهـودية، إذ تمسكت بـإعفاء كـل الموظفـين اليهود من العمل يوم السبت مراعاة للتحريم التوراتي الخاص بعـدم القيـام بأي عمـل في ذلك اليـوم. وعنـدمـا تبـاطـأت ادارة هـايـز في

الاستجابة لذلك الطلب نظراً لما وجدته فيه من ظلم للموظفين الآخرين من غير اليهود، أوعزت القيادات اليهودية إلى مرشح لشغل منصب بالسلك الديبلوماسي أن يعلن أنه، عندما يباشر مهام منصبه، لن يكون بوسعه أن يعمل في يوم السبت، وأعطت المسألة تغطية اعلامية جعلتها قضية عامة.

وإذ وصلت الرسالة واضحة إلى هاين، سارع بالتصريح للصحفيين بأن «أي مواطن يكون على استعداد لأن يضحي بفرصة كهذه على مذبح معتقداته الدينية لا بد أن يكون مواطناً صالحاً من الظلم لدافعي الضرائب الأميركيين أن نخسره»، وأعلن عن موافقته على المطلب اليهودي!

وكان الرئيس هايز قد بدأ مدة رئاسته بتعيين بنيامين بييكسوتّو، رئيس البناي بريث الذي بعثه سلفه ليحقق في تصرفات الحكومة الرومانية، قنصلاً للولايات المتحدة لدى بلاط سانت بطرسبرج، وتكليفه بأن يعيد الكرة **فيحقق في تصرفات الحكومة الروسية غير الحميدة ضد اليهود والتي أدت إلى الغاء المعاهدة التجارية التي كانت مبرمة بين الولايات المتحدة وروسيا**. غير أن حكومة القيصر عمدت، قبل أن يشرف المستر بنيامين سانت بطرسبرج بحضوره ليحقق معها، إلى رفض قبوله ممثلاً ديبلوماسياً لديها.

(١٣) جيمس ابرام جارفيلد (١٨٨١)

لم يعمّر جارفيلد في المنصب طويلاً، إذ اغتيل. لكنه قبل أن يذهب للقاء ربه كان قد عين المستر سيمون ولف قنصلاً عاماً للولايات المتحدة بمصر، وعني بأن يقول في قرار التعيين أنه شعر بسعادة غامرة لكونه «**عين سليل الشعب الذي استعبد في مصر قديماً مبعوثاً ديبلوماسياً إلى ذلك البلد من الأمة الأميركية الحرة العظيمة**».

كما حاول جارفيلد أن يحذو حذو سلفه هايز فيتدخل في الشؤون

الداخلية لروسيا القيصرية، استجابة لـ «طلب عاجل وملحّ» من بنـاي بريث، لكن حكومة القيصر لم تعره التفاتاً.

(١٤) تشستر ألان آرثر (١٨٨١ ـ ١٨٨٥)

حاول آرثر، عندما انتقلت إليه الرئـاسة إثـر اغتيال جـارفيلد، أن يجد مجالاً يوازي فيه من سبقوه في خدمـة اليهود، لكنـه لم يجد إلا هيئـة الصليب الأحمر الـدولية التي انضمت الـولايـات المتحـدة إلى معاهدة جنيف الخاصة بها في ظله، فعين أدولفوس سولومـونز، رئيس البناي بريث آنئذ، ممثلاً للولايات المتحـدة فيها، **حتى تتمكن بنـاي بـريث من التدخـل في شؤون الدول الأخـرى عن طريق الصليب الأحمر وما يفتحه من منافذ تحت ستار «الإنسـانية»**. وممـا يشير إلى أن اليهود اعتبروا ذلك الاختراق الـذي حققه لهم آرثـر انتصاراً هاماً، أنهم مـا زالوا يعتـزون، في متحف الصليب الأحمر بـواشنطن، ببطاقة الزيارة التي كان يستخدمها سولومونز بوصفه ممثلاً للولايات المتحدة، وأصل أمر تعيينه الصادر من الخارجية الأميركيـة، وبطاقـة دعوة لتناول العشاء تلقاها من رئيس الجمهورية السويسرية!

(١٥) ستيفن جروفر كليفلاند (١٨٨٥ ـ ١٨٨٩، و١٨٩٣ ـ ١٨٩٧)

عندما تولى كليفلاند رئاسة الولايات المتحدة، كـانت البناي بـريث قد وصلت إلى مكانة وحازت سطوة دفعتا الرئيس الأميركي لأن يرسل إلى المنظمة رسالة ولاء مفتوحة جاء فيها أن بناي بريث هذه:

> «جمعيـة أنشئت لتحقيق أهداف نبيلـة» وأنها ـ لـذلك ـ «لا ينبغي أن يقتصر ما تحدثه من أثر على إثارة حمـاس أعضائها بل ينبغي أن **تستجلب تمنيات النجاح لها من جـانب كل من يهمهم الارتقـاء بالنـوع الإنسـاني وتنمية الغرائز العليا في الطبيعة الإنسانيـة!»** ولهذا رجا أن «تتقبّل الجمعية صادق تمنياته بأن يتضاعف ما كانت قد توصلت إليه من نجاحات تثلج الصدر».

وعندما يتتبع المرء ما ظلت المنظمة تحققه من انجازات لصالح المشروع الصهيوني في زماننا، يمكنه أن يفهم حقيقة ما انطوت عليه تمنيات كليفلاند للبناي بريث بتضاعف نجاحاتها. فالمنظمة كانت قد وصلت في عهد ذلك الرئيس إلى وضع إملاء الارادة وباتت قوة موجِّهة للسياسة الخارجية الأميركية.

ولا ينبغي أن يغيب عنا هنا أن الولايات المتحدة كانت، في زمن كليفلاند، قد بدأت تتلقى من قارة أوروبا موجةً إثر موجةٍ من المؤثّرات التي انبجست من بدايات بزوغ الحركة الصهيونية اليهودية، تلك البدايات التي أثمرت، في السنة الأخيرة من سنيّ فترة رئاسة كليفلاند الثانية (١٨٩٧)، مؤتمر بال وإعلان ميلاد الحركة. وكما هو واضح، **كان لتلك الموجات من المؤثرات فعل قوي في الصهيونية المسيحية التي ظلت، منذ انشاء دولة الولايات المتحدة، من أهم الدوافع المحرّكة للرؤساء والساسة الأميركيين فيما تعلق بسياساتهم الداخلية والخارجية تجاه اليهود.**

ولهذا قلنا إن رسالة كليفلاند إلى بناي بريث كانت رسالة ولاء، ولم نصفها بأنها رسالة تأييد أو مؤازرة. أو رسالة تعاطف. **لأن زمن التأييد والتعاطف كان قد مضى، وبات على ساكن البيت الأبيض أن يبرهن على ولائه.** وقد ظل كليفلاند (ككل من دخلوا البيت الأبيض بعده) يبرهن على ذلك الولاء المرة تلو المرة، فاختار أحد يهود نيويورك ليكون مبعوثاً دبلوماسياً للولايات المتحدة إلى البلد الإسلامي تركيا. **وكان ذلك بمثابة اعتراف ضمني بأن الأيدي اليهودية هي التي بات من المتعين أن تحرك الخيوط ـ من خلال الولايات المتحدة وآلتها الديبلوماسية ـ سعياً إلى أخذ فلسطين. فاليهودي شتراوس أرسِل إلى العثمانيين ليلتقط الخيط الذي كان الصهيوني المسيحي واردر كريسون قد اضطر لاسقاطه من يده قبل ذلك بأكثر من نصف قرن، عندما استدعته الخارجية**

الأميركية من القدس لأنه بدأ اتصالات بالعثمانيين بغية شراء فلسطين منهم لليهود.

ولم يكتف كليفلاند بتعيين أوسكار شتراوس مبعوثاً ديبلوماسياً (وزيراً) لدى تركيا، بل عرض على أخيه ايزيدور شتراوس منصب وزير الخزانة في ادارته. إلا أن شتراوس رفض قبول المنصب لأنه وجده مفضياً إلى فرض قيود على حرية حركته في دنيا المال والأعمال.

وعندما اختار كليفلاند مبعوثه الديبلوماسي لدى الحكومة النمسوية، المستر جون كييلي، وعرضت الخارجية الأميركية اسمه على الخارجية النمسوية، فرفضت حكومة النمسا قبوله لأنه متزوج من يهودية ولأنه كان صاحب نشاط يهودي واسع ومعروف، ثار الرئيس الأميركي ثورة علنية عالية الصوت معلناً أن الولايات المتحدة ترفض مثل هذا التمييز الديني، وترك المنصب شاغراً طوال مدة ادارته الأولى.

والحقيقة أن السياسة الخارجية لإدارة كليفلاند بدت كما لو كان شاغلها الأساسي أمسى اليهود ومصالحهم التي أعليت على كل مصلحة عداها. فبعد اختيار شتراوس ليكون مبعوث الولايات المتحدة إلى تركيا، وبعد ترك منصب المبعوث الأميركي لدى حكومة النمسا شاغراً، عاودت إدارة كليفلاند التدخل في الشؤون الداخلية لحكومة القيصر، استجابة لـ «احتجاجات» بناي بريث على رفض السلطات القنصلية الروسية في الولايات المتحدة منح تأشيرات دخول لليهود، إذ أمر كليفلاند وزير خارجيته بتوجيه مذكرة شديدة اللهجة إلى الحكومة الروسية احتجاجاً على «ممارسات محاكم التفتيش الروسية»!

وكانت موجات الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة تتلاحق، وإذ رأى أثرياء اليهود في الولايات المتحدة نذر المخاطر الاجتماعية والاقتصادية التي انطوت عليها هجرة عشرات الآلاف من اليهود

الأميين الفقراء من روسيا وبولندا، فحركوا الخيوط في الكونغرس، واستصدروا تشريعاً جعل دخول المهاجر مشروطاً بنجاحه في امتحان يثبت أنه متعلم وقادر على كسب عيشه بطرق غير التسول والسرقة وأنشطة الباعة الجائلين، سارع كليفلاند فاستخدم حق النقض في وأد ذلك التشريع باعتباره متصفاً بالتحيز والتمييز ومناقضاً لما جرى عليه العمل قبلاً في مجال الهجرة.

وبطبيعة الحال، لم يستطع اليهود الأثرياء الذين كانوا قد حرّكوا الخيوط من وراء ستار في الكونغرس صوب استصدار ذلك التشريع أن يخرجوا إلى دائرة الضوء ويعارضوا كليفلاند، فلزموا الصمت، وتحقق بذلك انتصار هام للتيار الصهيوني اليهودي الذي كان آخذاً في التحدد والبزوغ في الولايات المتحدة (والذي لاقى في أول أمره مصاعب عديدة من جانب شرائح من المجتمع اليهودي الأميركي الثري، وبخاصة من مكونّه الألماني). **فاستخدام كليفلاند لحق النقض في وأد ذلك التشريع، لم يكن من قبيل التفاني في الليبرالية من جانب ذلك الرئيس الأميركي، بل كان استخداماً لدعاوى الليبرالية والتسامح في تنفيذ ما أملته رؤية التيار الصهيوني اليهودي البازغ (في اطار بناي بريث وغيرها) للكيفية المثلى للاستفادة عملياً من الهجرة اليهودية المتعاظمة إلى الولايات المتحدة.**

فالصهيونيون اليهود البدئيون أو الأول، كموردخاي نوح وغيره، لم يكونوا - وهم يستغلون الصهيونية المسيحية - غافلين عن تكافؤ الأضداد الذي سبق أن استوضحناه في موقف الصهيونيين المسيحيين من اليهود، ذلك التكافؤ الضدي الذي قاد أولئك الصهيونيين المسيحيين باستمرار إلى الوعي بضرورة «اقامة وطن قومي» يتجمع اليهود فيه من الشتات (والشتات يشمل الولايات المتحدة كما يشمل غيرها) ويتخلص المسيحيون المؤمنون عن طريقه من وجود اليهود بين ظهرانيهم، على النحو

الذي أفصح عنه ويليم بلاكستون، كما أسلفنا، عندما تساءل مازوما «وما الذي سنفعله (نحن الأميركيين) حيال اليهود الروس؟ لم لا يعطون فلسطين؟».

فالصهيونيون اليهود البازغون في زمن كليفلاند، وقد ظلوا على وعي بكل ذلك، كانوا على وعي هم أيضاً بالمشاكل الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التي رأى اليهود الأثرياء المحركون لخيوط استصدار ذلك التشريع من الكونغرس أنها ستترتب لا محالة على هجرة أعداد كبيرة من اليهود الفقراء غير المتعلمين إلى الولايات المتحدة ودخولهم في منافسة على فرص العمل مع العمال الأميركيين المنسحقين في قاعدة الهرم الأميركي. إلا أن ذلك **الوعي بالمخاطر الاجتماعية والاقتصادية الذي حرك أولئك اليهود الأثرياء إلى استخدام سطوتهم السياسية في استصدار تشريع الكونغرس عملاً على ايصاد الأبواب في وجه أولئك المهاجرين، كان هو عينه الذي حرك الصهيونيين اليهود في بناي بريث وغيرها إلى استخدام سطوتهم السياسية في دفع كليفلاند إلى وأد التشريع باستخدام حق النقض. وكان هدفهم بذلك واضحاً، وهو تحريك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الولايات المتحدة صوب التأزم باستخدام موجات الهجرة اليهودية من روسيا وبولندا، دفعاً للأمور صوب الحل الذي رأى بلاكستون وغيره من الصهيونيين المسيحيين أنه لا حل غيره: «اعطاء» فلسطين لليهود.**

ولم يقتصر الهدف الذي توخاه أصحاب التيار الصهيوني اليهودي البازغ في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر من ذلك «الضغط» باستخدام الهجرة اليهودية المتعاظمة مجرد تحريك المجتمع الأميركي من قاعدته صوب المرامي الصهيونية، بل شمل أيضاً تحريك اليهود الأثرياء، الذين أسماهم الحاخام مائير كاهانا في زماننا باسم «اليهود المستريحين»[٧٠] إلى «افتداء»

أنفسهم ومزاياهم (متى استخدمنا تعبير «الفداء» التوراتي) ببذل المال بسخاء عملاً على التخلص من المخاطر التي انطوى عليها تيار الهجرة إلى الولايات المتحدة بتحويل كل تلك الموجات البشرية إلى «وطن قومي» يلمها ويبعد متاعبها عن «اليهود المستريحين» في أميركا. وذلك نمط ما زال مستمراً حتى اليوم.

(١٦) بنيامين هاريسون (١٨٨٩ ـ ١٨٩٣)

توسطت رئاسة هاريسون فترتي رئاسة كليفلاند، وبزغ خلالها بوضوح الاتجاه الذي استظهرناه في تحليلنا للتناقض بين موقفي الكونغرس والبيت الأبيض من الهجرة اليهودية في ظل كليفلاند. فمن جانب، أفصحت مظلمة فضيلة القس وليم بلاكستون التي أسلفنا الاشارة إليها[٧١]، والتي قدمت إلى هاريسون سنة ١٨٩١ وعليها توقيعات ٤١٣ من كبار الأميركيين المسيحيين البارزين بطلب تجميع اليهود في «وطنهم» فلسطين، عن **القلق المتعاظم لدى المسيحيين الأميركيين من طوفان الهجرة اليهودية، والإيمان الأصولي المسيحي بأن اليهود يجب أن يجمّعوا في «وطنهم» فلسطين**. ومن جانب آخر، **أفصحت «عريضة» قدمت إلى هاريسون، في الوقت نفسه تقريباً، من اليهود الأميركيين بطلب «عقد مؤتمر دولي للنظر في أحقية اليهود في استرداد وطنهم القديم، فلسطين»، عن أن «اليهود الأميركيين المستريحين»، كما أسماهم كاهانا، كانوا يستجيبون لمناورة التيار الصهيوني اليهودي البازغ عن شعور بالقلق مما قد تتمخض عنه الهجرة اليهودية المتعاظمة إلى الولايات المتحدة، راكبين إلى المناداة بما رأوه كفيلاً بتخليصهم من تلك المخاطر موجة المطالبة المسيحية (التي جسدها بلاكستون وغيره وتمثلت في التوقيعات المسيحية الـ ٤١٣ على «مظلمته») بـ «رفع الظلم عن اليهود المضطهدين في كل مكان (مع غض الطرف عن أنهم لم يكونوا مضطهدين في أميركا) ورد وطنهم السليب منذ أيام الرومان إليهم».**

ومساندة لذلك الركوب على موجة المطالبة الصهيونية المسيحية بـ «رد وطن اليهود، فلسطين، إليهم»، عمد اليهود «المستريحون»، أي الذين كانوا قد استقرّوا وأثروا في الولايات المتحدة وباتوا متمتعين بسطوة سياسية وصلت إلى حد الهيمنة، إلى إحداث «جلبة تشريعية» من النوع الذي يلجأون إلى إحداثه في معرض استغلالهم للآليات الديموقراطية في الولايات المتحدة كلما تطلّب تحقيق مصلحة من مصالحهم إحداث مثل تلك الجلبة، كانت نتيجتها اتخاذ قرار بالكونغرس دعا وزارة الخارجية الأميركية إلى الاحتجاج لدى حكومة القيصر على اضطهاد اليهود. وعزز ذلك الرئيس هاريسون برسالة بعث بها إلى الكونغرس، قال فيها:

«إن ادارتي قد أعربت لحكومة القيصر، بروح ودّية، ولكن بحزم بالغ، عن عميق قلقها إزاء الاجراءات القاسية التي تتّخَذ حالياً في روسيا ضد العبرانيين. فنتيجة لإحياء القوانين المعادية للسامية، التي ظلّت في حالة همود لأمد طويل، أُرغِم كثيرون من هؤلاء الناس سيئي الحظ على ترك ديارهم ومبارحة الامبراطورية الروسية نتيجة لتعذّر ايجاد ما يقيم أودهم ويسدّ رمقهم داخل السياج المضروب حولهم».

وفي هذه الرسالة لم يشِر هاريسون إلى القوم باسم «اليهود» بل استخدم التسمية التوراتية، فقال «العبرانيين»، كما أفصح بطريقة دائرية عن التضرر من ارغامهم على «ترك ديارهم ومبارحة الامبراطورية» وبطبيعة الحال، الهجرة إلى الولايات المتحدة، وإن ترك ذلك المعنى مضمراً فلم يشر إليه صراحة.

واستطرد هاريسون بعد ذلك قائلاً:

«إن العبرانيّ لم يكن في أي وقت شحاذاً، بل كان دائماً شخصاً ملتزماً بالقانون، وإنساناً يكسب رزقه بعرق جبينه. وهو غالباً ما يفعل ذلك في ظل ظروف بالغة القسوة وقيود مدنية شديدة القهر. كما أنه من الصحيح أيضاً أنه لم يوجد في أي وقت جنس، أو طائفة أو طبقة عنيت بما فيه خير أفرادها كالجنس العبراني».

وكمـا هو واضـح، ذلك كـلام لم يقلـه الـرئيس الأمـيركي للقيصر الروسي، فإلى من كان موجهاً؟ وما معنى تـأكيده بـأن «العبراني» (لا «اليهـودي») تمسكاً بـالتصور المسيحي الأصـولي لليهـود بـوصفهم «العبرانيين» المذكورين في «الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديـد، «لم يكن في أي وقت شحاذاً»؟ هل كـان ذلك رداً عـلى اتهام وجـه إلى «العبراني»؟ وممن وُجّه، وما الذي جعله من الخطورة بحيث تطلّب أن يدحضه الرئيس الأميركي وينفيه برسالة إلى الكـونغرس؟ ومـا معنى قوله إن «العبـراني شخص ملتزم دائمـاً بالقـانون»؟ هـل كان هنـاك اتهام له، ذلك «العبراني» بالميل إلى خرق القانـون؟ وهل كـان الاتهام من الخطورة والإلحاحية بقدر جعل من الضروري أن ينفيه الرئيس في رسالة إلى الكـونغرس؟ ومـا معنى قولـه إن «العبراني يكسب دائمـاً رزقه بعرق جبينه»؟ هل كـان هناك اتهـام لـ «العبراني» بـأنه يكسب رزقه بطرق أخـرى؟ وهل كـان الاتهام من الشيـوع والخطورة بقـدر تطلّب دحضاً رئاسياً له؟ وما معنى تلميحه الغريب بعد كل هذا بـأنه لم يوجد أبداً «جنس» (هذه الكلمة الغريبة ثانية!) يُعنى بأفـراده كما يعنى «الجنس اليهودي»؟ وإلى من كان ذلك القول موجهاً؟ إلى ســائر الأمـيركيين لطمـأنتهم إلى أن اليهود في أمـيركا هم الـذين سيتكفلون بالعناية بكل أولئك اليهود المهـاجرين من شرق أوروبـا؟ أم تراه كـان موجهاً بالذات إلى أولئك «اليهود الأميركيين المستـريحين» عـلى سبيل التذكرة بأن عليهم أن يعنوا ببني «جنسهم»؟ وإن صح هذا الفـرض أو ذاك، فما الذي جعـل من الضروري أن يتصدى الـرئيس الأميركي للأمر في رسالة منه إلى الكونغرس؟

****

خلاصة الباب الثاني

انصرف الجهد، في مستهَلّ البحث، كما هو وارد في الباب الأول من الكتاب، إلى محاولة تبين وجود فعل للدين من عدمه في صنع وتكييف وتوجيه الدور الأميركي بخاصة والغربي بعامة في مسيرة المشروع الصهيوني البادىء بفلسطين. وكما يبين ذلك الباب، **قادتنا المعطيات إلى ترجيح أن للدين حجماً وثقلاً ظلا حتى الآن أكبر وأفعل مما يقيّمان به في الرؤية السائدة لخلفيات ومكوّنات الدور الغربي في تنفيذ ذلك المشروع.**

وإذ انتقلنا، في المرحلة التالية من البحث، كما هي واردة في الباب الثاني، إلى محاولة استظهار نوعية الفعل الذي باشره العامل الديني، بذلك الحجم والثقل، في المجتمعات المسيحية التي ينتمي معظم أفرادها إلى البروتستانتية وروافدها، واجهتنا **أعراض تبعية، تصل إلى حد الانضواء، من جانب تلك المجتمعات وقادتها، للحركة الصهيونية في سياق عملية تخليق اصطناعي لكائن يبدو أنه آخذ في الحلول محل مفهوم الألوهة ذاته في تلك المجتمعات، مستدرجاً البشر فيها إلى نوع جديد غريب من التدين يعبدون فيه جماعة بشرية منهم غُلِّفت بتصورات غيبية تحت اسم «اسرائيل». وهو اسم غير محدد، يعني «اسرائيل» الدولة، مثلما يعني «اسرائيل» الشعب أي اليهود.**

وقد قادنا البحث، في مرحلته الثانية، إلى ظاهرة تظل تفرض نفسها فرضاً من أيما زاوية نظر الباحث منها إلى موضوعه، هي **ظاهرة التوحّد المرحلي للصهيونية بالمسيحية الغربية في كيان وحش «اليهو مسيحية» المخلّق، من خلال ما يبدو انه «الكهرباء» أو الطاقة المستخدمة في تخليق ذلك الكائن المصطنع وابقائه حياً وفعالاً، وهو العداء المرور للإسلام، في سياق ما يبدو كإصرار**

على خوض صراع عسكري مدمر مع تلك الديانة التوحيدية الكبرى المنافسة التي ـ بحكم انتماء السواد الأعظم من سكان منطقة الشرق الأوسط إليها ـ تفترش رقعة تلك المنطقة المستهدفة خلال المرحلة الأولى من المسيرة الصهيونية صوب وضع السطوة الكوكبية.

وإذ يقود البحث إلى تلك الظاهرة بكل تناقضاتها وخيوطها المتشابكة المعقدة، يتجه ـ على ضوء ما هو متوافر على أرض العالم الواقع من ظواهر ومعطيات ـ إلى **الولايات المتحدة التي يبدو أنها القاعدة الرئيسية لوحش «اليهو مسيحية» وأنها ستكون منصة الانطلاق لغزوة صليبية أخيرة يتعانق الصليب فيها بنجمة اسرائيل.**

وعملاً على استظهار مدى صحة ذلك أو مدى خطئه، كان من المتعين استقصاء مسببات وبدايات الانتماء الانضوائي الأميركي للصهيونية انتماءً تشير الحقائق التاريخية إلى أنه بدأ من قبل ظهور الحركة الصهيونية يهودياً بوقت طويل، وأنه انتماء تشربت به مختلف أوجه الحياة الأميركية، واستشرى في مؤسساتها، ابتداءً من البيت الأبيض إلى الكنيسة، إلى الصحافة، إلى أفراد المجتمع العاديين كجزء من ديانتهم.

وقد عاد بنا ذلك الاستقصاء، بالضرورة، إلى منابع التهوُّد المسيحي في القارة الأوروبية التي هاجر اليهود منها إلى «العالم الجديد»، وإلى ما أفرخه ذلك التهوُّد من «عناق حميم بين الولايات المتحدة و«اسرائيل» في سياق علاقة خاصة وغريبة» شكلّها منذ أول لقاء بين أميركا واليهود الإيمان القويّ بأن «بين اليهود وأميركا قضية مشتركة».

وفي استقصائنا لمكوِّنات تلك «القضية المشتركة» وأعراضها في الفكر الأميركي، قادنا البحث إلى أعراض **موقف تكافؤي من اليهود في روح أميركا تمثلت نتائجه في أن أميركا وقد ضمها ذلك «العناق**

الحميم» مع «اسرائيل» (اليهود)، لم تجد مساراً لـ «القضية المشتركة» إلا العمل على «إعطاء» اليهود «وطناً» يؤخذ لهم من غيرهم.

وخلال ذلك كله، قادتنا محاولة استظهار نوعية الفعل الذي باشره العامل الديني إلى كم من المعطيات أشار إلى أن الصهيونية تأصلت في روح أميركا كـأمّة وشعب كمكون أساسي من مكونات تلك الروح بشكل سبق صهيونية اليهود، بل ومهد الطريق إليها، وبقوة أشد من صهيونية اليهود، جعلت الصهيونيين المسيحيين الأميركيين يسبقون بوقت طويل الاستيطان اليهودي لفلسطين بمحاولات استيطان قاموا بها عملاً على التعجيل بـ «تجمع شعب الله المختار من الشتات في الأرض الموعودة»، وتحقيق مخطط الله للعالم.

وكما أشارت المعطيات إلى ذلك الفعل القويّ للعامل الدينيّ، أي الحواذ العبرانيّ، أو «لوثة العهد القديم» لدى البروتستانتية وروافدها، في روح أميركا وفكرها كأمّة وشعب، أشارت بقدر أكبر من التحديد إلى فعله في أميركا كدولة، ممثلاً في العديد من ظواهر الانتماء الصهيوني المبكر لدى الرؤساء الأميركيين، ولدى الساسة والمشرّعين سواء منهم من طمح إلى دخول البيت الأبيض ودخله، أو لم يطمح وظل خارجه.

فمن واقع التوجهات والمواقف والرسائل والخطب والتصرفات التي استظهرها البحث، **تبين أن عامل الدين المتمثّل في عبرَنَة المسيحية ظلّ من مبدأ الأمر عاملاً بالغ الفعالية في صوغ وتكييف وتوجيه مواقف المستويات العليا من هرم المؤسسة الحاكمة الأميركية تجاه اليهود الذين نُظِر اليهم بوصفهم «الأسلاف الروحيين» للمسيحية الأميركية ونُظِر إلى ديانتهم بوصفها منبع الدين، وتجاه الدعوة (التي بدأتها قبل ظهور الصهيونية اليهودية بوقت طويل صهيونية المسيحية المهوّدة) إلى «اعطائهم» فلسطين**

لتكون «وطناً قومياً لهم» تنفيذاً لتعاقدات الله مع «آبائهم» وتحقيقاً لغرضه وفتحاً للطريق أمام تنفيذ مخططه للعالم.

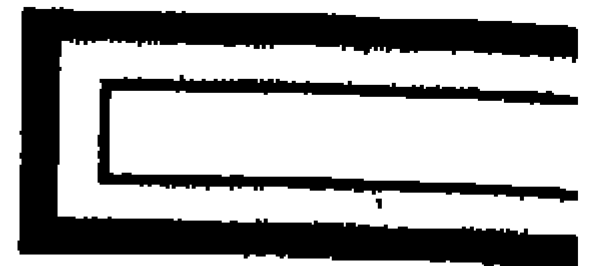
وفي استجلاء دور العامل الديني في كل ذلك، قاد البحث إلى الوقوف على أن عوامل غير دينية فعلت فعلها في صوغ وتكييف وتوجيه مواقف الساسة والقادة الأميركيين تجاه اليهود ومسألة «وطنهم القومي»، إلا أن البحث كشف عن أن **فعل تلك العوامل غير الدينية لم يَجُبّ فعل العامل الديني ولم يطغَ عليه، بل أنها ـ على العكس ـ عزّزت ورسّخت فعل ذلك العامل الديني وزادته قوة بفضل النجاح الاقتصادي المتعاظم للمهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة، وما قاد إليه ذلك النجاح من مكانة اجتماعية، وصوت سياسي مسموع وسطوة، وهيمنة على وسائل الإعلام وأدوات صنع الرأي، وما استخدم ذلك كله فيه من تأثير يهودي متعاظم في الكيفية التي تعمل بها الديموقراطية الأميركية.**

وعملاً على استظهار الكيفية التي يبدو أن الفكرة الصهيونية حققت بها اختراقها لقمة هرم السلطة في الولايات المتحدة، قبل ظهور الصهيونية كحركة يهودية بوقت طويل، تتبعنا ما ظل متاحاً استظهاره من سجلات مواقف الرؤساء الأميركيين تجاه اليهود، رئيساً بعد رئيس، ابتداءً من جورج واشنطن وانتهاءً بالرئاسة الثانية للرئيس الأميركي كليفلاند، في سنة ١٨٩٧، وهي السنة التي يمكن اعتبارها تاريخاً للميلاد الرسمي للحركة الصهيونية اليهودية. وقد دفعنا إلى انهاء التتبع لمواقف الرؤساء الأميركيين، في الباب الثاني، عند الرئاسة الثانية لكليفلاند، التي انتهت سنة ١٨٩٧، **ما توافر من معطيات أشارت إلى أن المحصلة النهائية للتفاعل الايجابي بين العوامل غير الدينية والعامل الديني (وهو التفاعل الذي حاولنا استظهار آثاره في مواقف الرؤساء الأميركيين) تمثلت في أن الصهيونية المسيحية التي ظهرت على عباب الانقلاب البروتستانتي، فسبقت الحركة الصهيونية اليهودية بثلاثة**

قرون، وجدت مستقرها الطبيعي في خاتمة المطاف في الصهيونيـة اليهودية التي بزغت بشكل محدد ابتداءً من تلك السنة، وانتهت بأن اندمجت فيها.

وقد أوردنا نتائج البحث فيما تعلق باختراق الصهيونيـة المسيحية قمة هرم السلطة في أميركا في فصلين شكّلا تتمة البـاب الثاني، ضم أولهما أعراض «سكنى» الصهيـونية في البيت الأبيض كفكـر وعقيدة ظلا يترسخان خطوة بخطوة، في ظل رئيس بعد رئيس، وضم ثانيهمـا خروج الفكر والعقيدة إلى مجال العمل الايجابي الصهيـوني ممثلاً في تدخلات أميركية في شؤون داخلية لدول أخرى كبيرة وصغيرة، ابتداءً من عهـد الرئيس مـارتن فان بـورين (١٨٣٧ ـ ١٨٤١)، واستمراراً بشكل أكثر تحـدداً في عهود من حكمـوا الولايـات المتحدة من البيت الأبيض بعده، وحتى سنة ١٨٩٧.

* * *



هوامش الباب الثاني

(١) في حديثه إلى مجلة «The Village voice» الأمريكية، بعددها الصادر في ١٢ نوفمبر ١٩٨٥، أوضح الحاخام موشه ليفنجر، أحد قادة كتلة المؤمنين (غوش إيمونيم) أن «الصهيونية تصوّف»، وأكد أنه **لا سبيل إلى الفصل بينها وبين اصولها التوراتية المنبثة عن حتمية قيام مملكة التوراة على الأرض،** لأن فصلها عن تلك الجذور لن يكون له من نتيجة إلا ذبولها وموتها، كنبات اجتث من جذوره. وبين الحاخام أن «الصهيونية لا تنشغل بالأفكار العقلانية، ولا بالسياسة العملية، ولا تتوقف عند مقتضيات العلاقات الدولية، أو متطلبات الرأي العام العالمي، أو الاعتبارات الديموغرافية، أو الديناميكيات الاجتماعية، لأن شاغلها الشاغل تنفيذ تعليمات الله، **وليس هناك ما تقيم له وزناً إلا الميثاق الذي قطعه الله مع ابراهام كما هو وارد حرفياً في سفر التكوين.**

(٢) ا. ب. برانايتس: **«فضح التلمود ـ تعاليم الحاخامين السرّيّة»**، اعداد زهدي الفاتح، ط ٣، بيروت: دار النفائس، ١٩٨٥، ص ٦٧.

(٣) وذلك خضم لا شطآن له. انظر، مثلاً، إلى وصف سير فرانسس بيكون لـ «الترك» بأنهم «أمة لا أخلاق لها، ولا أدب، ولا علم، ولا فن. فهي سوأة في جبين المجتمع الإنساني، وقد حولت جنة الأرض (فلسطين) إلى قفر موحش» («الحرب المقدسة»، الأعمال الكاملة لفرانسس بيكون، المجلد الثاني).
وارجع إلى كتاب الأستاذ ادوارد سعيد:
Edward Said: **«Orientalism»**, New York: Vintage Books, 1987

(٤) ارجع إلى كتاب توخمان السابق الاشارة إليه، ص ٥٧.

(٥) Henry Feingold, **«Zion in America»**, New York: Hippocrene Books, 1974, p.7.

(٦) ارجع إلى كتاب توخمان السابق الاشارة إليه ص ٢٥.

(٧) ارجع إلى صفحة ٢٦ من نفس المرجع السابق.

(٨) ارجع في ذلك إلى:
Joseph Campbell's conversation with Bill Moyers in: **«The Power of Myth»** New York: Doubleday, 1988, p.27.

(٩) انظر في شان «معجزة» البحر الأحمر **«قراءة سياسية للتوراة»** ص ٣١١، ٣١٢، ٣٢٧ ـ ٣٣١، ٣٣٥، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨٧.

(١٠) لايباري الكُرْه الذي ينضح به العهد القديم لمصر إلا الكُرْه المستعِر لبابل (العراق الآن).

(١١) Thomas Macaulay, **«History of England from the Accession of James II»** Vol. I, Ch. 1.

(١٢) William Cunningham, **«Growth of English Industry and Commerce»**.

(١٣) Arthur Hertzberg, **«The Jews in America»**, New York: Simon & Schuster, 1990, pp.32 - 33.

(١٤) ارجع إلى كتاب فاينجولد «صهيون في أميركا» السابق الاشارة إليه، ص ص ٢ و ٣.

(١٥) ارجع في ذلك إلى: يواكيم برنز، «بابوات من الحيّ اليهودي»، ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق: دار حسّان للطباعة والنشر، ١٩٨٣.
(١٦) ارجع إلى فاينجولد ص ص ١٤/١٨.
(١٧) ارجع إلى هرتزبرج ص ١٧.
(١٨) ارجع إلى فاينجولد ص ١٩.
(١٩) ارجع إلى جروس ص xi.
(٢٠) Abraham Karp, «**Haven and Home - A History of the Jews in America**», New York: Schocken Books, 1985, p.23.
(٢١) ارجع إلى جروس ص ٥.
(٢٢) ارجع إلى ص ص ٥ و ٦ من المرجع نفسه.
(٢٣) ارجع إلى ص ٦ من المرجع نفسه.
(٢٤) يتناقض هذا التقدير مع ما يقوله فاينجولد، من أن عدد اليهود في أميركا الشمالية سنة ١٧٨٠ كان حوالي ٣٠٠٠ من مجموع عدد الأميركيين الذي بلغ في ذلك التاريخ ٢,٨٠٠,٠٠٠ (فاينجولد ص ٢٠).

ويقول هايمان جرينستين أن نسبة اليهود إلى إجمالي عدد السكان اتجهت، في بداية الوجود اليهودي بأميركا، إلى التناقص بحدة نتيجة لمختلف العوامل (التي يمكن أن تجمل تحت تصنيف عام هو ما دعوناه بـ «تكافؤ الأضداد»)، ويشير إلى أن تلك النسبة، في مدينة نيويورك، التي كانت من مبدأ الأمر من أهم مراكز التجمع اليهودي، انخفضت من ٢,٥٪ في ١٦٩٥ إلى ١,٢٪ في ١٧٩٤، ارجع إلى:

Hyman Grinstein, «**The Rise of the Jewish Community of New York**», Philadelphia, 1945, p. 72.

(٢٥) ارجع إلى جروس ص ٦.
(٢٦) ارجع إلى جروس ص ٨ وهرتزبرج ص ص ٨٦ و ٨٧.
(٢٧) ارجع إلى هرتزبرج ص ٨٨.
(٢٨) ارجع إلى جروس ص ٦.
(٢٩) ارجع إلى هرتزبرج ص ص ٨٧ و ٨٨.
(٣٠) ارجع إلى فاينجولد ص ٢١.
(٣١) ارجع إلى الصفحة نفسها، المرجع نفسه.
(٣٢) ارجع إلى هرتزبرج ص ص ٣٤ و ٣٥.
(٣٣) ارجع إلى صفحة ٣٥ من المرجع نفسه.
(٣٤) وسنرى فيما بعد (من الباب الثالث) أن «كوش» حُوّلت إلى «روش» باعتبار «روش» هي الحبشة، لكنه تبين لآخرين أن «روش» هي روسيا!
(٣٥) وغنيّ عن الذكر أن الولايات المتحدة لم تكن قد ظهرت إلى الوجود في زمن إشعياء ولم يكن النسر قد اتّخذ رمزاً لها. لكن لا بد أن إشعياء، وهو «نبيّ» لا مجرد كاهن مشعوذ يستحلب الفطر المقدس ويهذي، رأى عبر القرون ظهور الأمّة المعبرنة، الولايات المتحدة، ورأى نسرها العظيم فأهاب بها أن تهب لنجدة اسرائيل!
والمضحك في الأمر كله أن القس المشيخي الأميركي، في غمرة تلهفه على حضّ مواطنيه =

= المؤمنين أن «يهبّوا لنجدة اليهود بإعادتهم إلى أرض الميعاد» فاته أن يدقق النص الذي فسره، ولو كان فعل لوجد أن إشعياء قال «ويل لأرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهار كوش المرسلة رسلاً في البحر.. الخ»، كما في نص الملك جيمس:
« **Woe to** the **land shadowing with wings** which is beyond the rivers of Ethiopia that sendeth ambassadors by the sea» (Isaiah 18: 1, 2).

(٣٦) ارجع إلى جروس ص ص ٩ و ١٠.
(٣٧) ارجع إلى ص ١٠ من المرجع نفسه.
(٣٨) Edwin Hodder, **«Life and Works of Shaftesbury»**, London, 1886.
(٣٩) ارجع إلى توخمان ص ١٨٢.
(٤٠) Sharif, **«Non - Jewish Zionism»**, op. cit., p. 91
(٤١) Ibid., p. 91.
(٤٢) ارجع إلى فاينجولد ص ١٩٨، وإلى جروس ص ص ٣٩ و ٤٠.
(٤٣) ارجع إلى فاينجولد ص ص ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٤٤) ارجع إلى ص ١٩٩ من المرجع نفسه.
(٤٥) انظر في شأنه:
Grose, **«Israel in the Mind of America»**, op. cit., pp. 35 - 38, 40 - 41.
Sharif, **«Non - Jewish Zionism»**, op. cit., pp. 91 - 93.
Feingold, **«Zion in America»**, op. cit., pp. 199 - 200.

(٤٦) بدأت منذ سنة ١٨٨١ موجات متتالية من هجرة اليهود الروس تراوح عدد المهاجرين في كل موجة منها ما بين ٦٠ و ٧٠ ألفاً، وارتفع ذلك العدد في سنة ١٨٩١ إلى ١١٠ ألفاً، وفي سنة ١٨٩٢ إلى ١٣٧ ألفاً، ووصل عدد المهاجرين الذين بارحوا روسيا في سنة ١٩٠٦ إلى أكثر من ٢٠٠ ألفاً.
ونتيجة لتلك الموجات المتتالية من الهجرة، بات تزايد عدد اليهود في الولايات المتحدة ملحوظاً بشكل خاص. فاحصاءات التعداد العام لسكان أميركا توقفنا على أنه بينما ازداد اجمالي عدد السكان فيما بين سنة ١٨٨١ و ١٩٢٠ بنسبة ١١٢٪، ازداد عدد اليهود بنسبة ١٣٠٠٪ أي أن معدل الزيادة كان أسرع ١١ مرة!

(٤٧) Reuben Fink, **«America and Palestine»**, New York, 1945, p. 21.
(٤٨) انظر في ذلك: كتابنا «قراءة سياسية للتوراة» السابق الاشارة إليه، وارجع في تاريخ الصهيونية إلى: Israel Cohen, **«The Zionist Movement»**, New York, 1946.
و Walter Laqueur, **«A History of Zionism»**, London, 1978.
(٤٩) Leon Pinsker, **«Autoemancipation»**, New York, 1906.
(٥٠) I. Domb, **«Transformations»**, London, 1958, p. 192.
(٥١) Emile Marmorstein, **«Heaven at Bay»**, Oxford, 1969, pp. 71 - 72.
(٥٢) Ibid., pp. 79 - 80.
(٥٣) احاد هاعام مثقّف يهودي اعتُبر من المفلسفين الأول للحركة الصهيونية. وقد كان من الصهيونيين اليهود القلائل الذين أخذوا البعد العربي في حسبانهم بشكل واضح ومحدد. ففي مقال له بعنوان «الحقيقة من فلسطين»، حذّر الحركة الصهيونية من الاستهانة بالعرب أو اعتبارهم مجرد همج متوحشين لا يدرون ما هو حادث لهم، وقال إن العرب، =

= ككل الساميين، يتصفون بـالذكـاء والمكر، وأنهم وإن ظلـوا ملتزمـين الصمت إزاء أنشطة الصهيونية لا تخفى عليهم حقيقة ما هو جار حـولهم، وما صمتهم إلا لأنهم لا يخشـون ـ مؤقتـاً ـ ما يتهـدد مستقبلهم، إلا أنهم متىّ تكاثـر اليهـود حـولهم في فلسطـين، سـوف يشعرون بأنهم باتوا مهـدّدين، ووقتها لن يخضعـوا ويستسلموا بسهـولة، ومتى شعـروا بـالظلم والاضطهاد واغتصـاب الحقوق فـإنهم، حتى وإن ظلوا صـامتين، سـوف تمتلىء قلوبهم بالنقمة والغضب العارم!

(٥٤) انظر جروس ص ٣٧.

(٥٥) ارجع إلى الفصل ٣ من الباب الثاني في شأن الصهيونية المبكرة للرؤساء الأميركيين. ومن الواضح أننـا عندمـا نتحدث عن «العـامل الـدينيّ» في هذا السيـاق، لا نتحدث عمـا هو متعارَف على فهمه من ارتباط التديّن بالصلاح والتقوى والأخلاق الحميدة ومخـافة اللـه، بل نشير تحديداً وعـلى وجه التخصيص إلى مـا حاولنـا استظهاره عـلى امتداد الفصـول السابقة من أعراض الحواذ (obsession) «العبـراني» الذي وصفتـه توخمـان بـ «لوثـة العهد القديم» لدى البروتستانت، وهو ما لا علاقة له بالمعاني التقليدية التي تتـداعى من لفظة «دين»، لكن له كل علاقة بالسياسة والأرض والتسيّد والانتصار والاثراء والاستيلاء وكل المكاسب الدنيوية التي تقطع «الأسفـار المقدسـة» بأنهـا ـ على ضـوء انعدام البعـد الأخروي في الديانة كما صنعها موسى ونماها النبييم، باستثناء اشارة عابرة وجلة في سفر دانيـال ـ الجزاء الـوحيد الممكن للبشر قبـل أن يموتـوا ويذهبـوا إلى «الجبْ»، الهاويـة، «شيول»، متى اتّبعوا بدقة وبلا تورّع «مخطط يهوه للعالم» كما وضعه مؤلفو العهد القديم وادعوا له أنه «كلمة الله» التي لا تُعدَّل ولا تحرَّف. ولعلنا لم يفتنـا، ونحن نتتبع أعـراض التطلع البروتستانتي إلى مجيء العصر الألفي السعيد، أن ذلك تطلّع ظلّ ارضيّاً دنيويّاً في حقيقته. (انظر موضوع سفر الرؤيا في مطلع الباب الثالث).

(٥٦) L. Kopperman, & E. Postal, «**Guess Who's Jewish in American History**», New York: Shapoesky Books, 1978, p. 269.

(٥٧) «auto - da - fe».

(٥٨) انظر في ذلك جروس ص ١٧.

(٥٩) Abraham Karp, «**Haven & Home - A History of the Jews in America**», New York: Schocken Books, 1985, p.47.

(٦٠) انظر ص ٤٦ من المرجع نفسه.

(٦١) انظر الصفحة نفسها من المرجع نفسه.

(٦٢) انظر الصفحة ٤٧ من المراجع نفسه.

(٦٣) ارجع إلى المرجع نفسه.

(٦٤) ارجع إلى جروس بالصفحات ٧ و ٨ و ١٠.

(٦٥) حكاية «الجنس اليهودي» هذه من الاخطاء الشائعة شيوعاً لافتاً للنظـر في «فكر» الاتبـاع الأمميين من الأغيار المؤمنين. انظر في شأنها كتاب الأستاذ باتاي:

Raphael Patai, (With Jennifer Patai), «**The Myth of the Jewish Race**» Detroit: Wayne State University Press, 1989.

وارجع أيضاً إلى مناقشتنا لها في «قراءة سياسية للتوراة»، رياض الريس للكتب والنشر.

(٦٦) ما زالت هذه الدعاوى التي روّج لها الصهيونيون المسيحيون من طينـة نايلـز مستخدمـة =

= بكثرة وبفعالية ملحوظة في الدعاية الصهيونية. ففلسطين صورت وتصور باستمرار بأنها كانت، في أيدي الفلسطينيين، صحراء مقفرة فاخضرت واينعت في أيدي اليهود (مع اغفال الدور الحاسم الذي لعبه التمويل الأميركي والميكنة والتقنية الزراعية وطوفان المعونات والدعم من الولايات المتحدة في حكاية «جعل القفر يزهر» هذه) أما القدس، فانتظر فقط إلى أن تصبح يهودية كاملة لا «يطأها بعد اغلف ولا نجس».

(٦٧) الكتاب الذي وضعه جاكسون بالتعاون غير المعلن للصحفيين اليهود تمجيداً لوطنية اليهود وبسالتهم في الدفاع عن «أميركا»:

Andrew Jackson: **«Narrative of the Defence of New Orleans»**.

(٦٨) ارجع إلى جروس ص ٢٣.

(٦٩) كان رأي كيسنجر بشأن بيع القمح للاتحاد السوفياتي هو الذي أفضى إلى وصف تلك العملية التجارية المربحة للمزارعين الأميركيين والاقتصاد الأميركي بـ «سرقة القمح الأميركي الكبرى»!

وقد صاغ كيسنجر ذلك الرأي في مذكراته على الوجه التالي، فأوضح بذلك الخلفية التي صدر عنها السناتور جاكسون في تخريبه للاتفاقية أملاً في الحصول على تأييد اليهود له تحقيقاً لطموحه في دخول البيت الأبيض (فالدكتور كيسنجر أرسى الأساس «الأخلاقي»، والسناتور جاكسون قام بالتنفيذ):

«لقد تبين أن كل شركة من الشركات الأميركية المشتغلة بتجارة الحبوب قامت، في محاولة لسبق منافسيها، ببيع أكبر كمية ممكنة من القمح إلى السوفيات خلسة، وأبقت معاملاتها معهم سراً فأخفتها حتى عن الحكومة الاميركية. وهكذا فإننا (في الادارة الأميركية) ظللنا نجهل طوال أسابيع بأكملها أن السوفيات كانوا قد تمكنوا، من خلال سلسلة من العمليات المنفصلة مع كل شركة على حدة من شراء ما بلغت قيمته حوالي بليون من الدولارات في سنة واحدة، وهو ما كاد يعادل كل ما كان مخزناً في صوامعنا من فائض الغلال. كما اكتشفنا أننا كنا قد جعلنا من الممكن للسوفيات الحصول على ما اشتروه بالأسعار المعانة من الخزانة الاميركية، في حين كان السوفيات في وضع لم يكن يسمح لهم بالاستفادة من اية أسعار معانة، حيث كانوا مضطرين إلى شراء القمح بسعر السوق أو مواجهة الموت جوعاً».

«Kissinger Memoirs», 1979, quoted by Kegley & Wittkopf in: **«American Foreign Policy - Pattern and Process»,** 3rd ed., Macmillan, 1987, p. 237.

(٧٠) انظر في ذلك كتاب الحاخام كاهانا:

«Uncomfortable Questions For Comfortable Jews», Lyle Stuart Inc. Secaucus, New Jersey, 1987.

(٧١) ارجع في ذلك إلى الفصل (٦) من هذا الباب.

البَابُ الثَالِث

المسيحيّة تخلّي المكان للمسيحانيّة الصّهيونيّة

١

المسيحانية ورؤيا يوحنا اللاهوتي

نبعت الصهيونية المسيحية من أمل انبنى على التلفيق وخداع النفس. أما التلفيق، فاتخذ منحى الخلط المفتعل بين من يقول المسيحيون أنه المسيح، وبين من يقول اليهود أنهم وعدوا به وما زالوا ينتظرون مجيئه ليحقق منجزاته الثلاثة الكبرى. كما اتخذ ذلك التلفيق ـ وبالضرورة ـ موقف التعامي عن القضية الجوهرية في الحكاية كلها، وهي قضية «المجيء»، وهل حدث بالفعل وسيحدث مرة ثانية كما يقول المسيحيون، أو لم يحدث بعد وسيحدث للمرة الأولى عندما تتوافر الشرائط المطلوبة لحدوثه. وأما خداع النفس، فاتخذ منحى طفولياً من قبيل إيهام الطفل نفسه بأن ما يريد حدوثه حادث لا محالة لمجرد أنه يريده. والذي يريده المسيحيون أن يتغير اليهود، ويتخلوا عن «صلابة رقابهم» المشهورة التي طالما تضرر منها يهوه ذاته، فيؤمنوا بـ «المسيح» عندما يجيء للمرة الثانية، ويكفوا عن انتظار من ينتظرونه.

فالذي يريده المسيحيون من اليهود هو أن يتخلوا عن يهوديتهم، لمصلحة الطرفين، نظراً لاعتقاد المسيحيين أن تخلّي اليهود عن اليهودية وتحوّلهم للمسيحية شرط أساسي لإتاحة فرصة «الخلاص» لكل من الطرفين وتأمين العيش في فردوس العصر الألفي السعيد الذي سيأتي في آخر الأيام لمن سـ «يخطفهم» المسيح من مسيحيين

أبرار ويهود تحولوا إلى المسيحية. أما كل من عدا أولئك المحظوظين فسوف يباد في معركة هرمجدّون الكونية الكبرى التي ستنشب في آخر الأيام ويباد فيها معظم البشر ومنهم اليهود الذين سوف «يصلّبون رقابهم» ويتمسكون برفضهم الإيمان بالمسيح. أما غير العنيدين من اليهود الذين سيتحولون إلى المسيحية ويحصلون على «الخلاص» فعددهم معروف سلفاً بفضل اطّلاع يوحنا اللاهوتي على تلك الخبايا الأخروية، وهو ١٤٤ ألفاً فقط.

ولكن من أية أشياء رديئة سيكون ذلك الخلاص الذي سيحظى به المسيحيون الأبرار واليهود غير العنيدين؟ سيكون من الموت أولاً. لأن «الموت والهاوية سوف يطرحان في بحيرة النار» (اللاهوتي ٢٠: ١٤). والموت أمره معروف، أما «الهاوية»، أي «الجِبّ» المأخوذ من عقائد ما بعد الموت في حضارة الرافدين، أو «شيول» المستلهنة شبيهة هيدز في الميثولوجيا اليونانية[1]، فمستقر الموتى في اليهودية. وأما «بحيرة النار» فالبحيرة التي تعدَم فيها أرواح الخطاة في الديانة المصرية، وقد تسربت فيما يبدو إلى رؤيا اللاهوتي من النهب الموسوي من الديانة المصرية، فاستخدمها كمستودع لحرق نفايات الشرور المصاحبة «للأرض القديمة والسماء القديمة»، ابتداء من الموت والهاوية، إلى «إبليس والوحش والنبي الكذاب وكل من لم يوجد اسمه مكتوباً في سفر الحيوة من بني البشر» (٢٠: ١٠ و ١٥).

وسيكون ذلك بعد معركة هرمجدّون الرهيبة التي ستنشب بين قوى الظلام وقوى النور عندما يجتمع كل أشرار الأرض في جيش كرمل البحر عدداً، ويصعدون مع جوج وماجوج فيحيطون بمعسكر القديسين وبأورشليم لأن «أرواح شياطين صانعة آيات (سوف) تخرج على ملوك العالم وكل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم، يوم الله القادر على كل شيء، عند الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدّون» (رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٦: ١٣ و ١٤).

وليست اللفظة وحدها، «هرمجدّون» هي العبرانية، فرؤيا يوحنا

اللاهوتي كلها عبرانية، وهو ما قرره الرجل صراحة قبل أن يتحدث عن «هرمجدّون»، إذ أعلن أنه نظر «وإذا قد انفتح **هيكل خيمة الشهادة** في السماء» (يوحنا اللاهوتي ١٥: ٥)، ثم أعلن أنه عندما سمع «صوتاً عظيماً من السماء»، سمعه «**من الهيكل**» (يوحنا اللاهوتي ١٦: ١)، ثم أعلن أن «**العرش**» (عرش الله) الذي خرج منه الصوت العظيم مقام في «**الهيكل**» الذي في السماء (يوحنا اللاهوتي ١٦: ١٧)، وكان، قبل أن يسمع الصوت العظيم، قد رأى العين «هيكل الله وقد انفتح في السماء وظهر **تابوت عهده في هيكله**» (يوحنا اللاهوتي ١١: ١٩).

فالرؤيا كلها «عبرانية»، أي مأخوذة من رؤى العهد القديم، وبالأخص من حزقيال ودانيال، **وقد كان الأجدر، بدلاً من وضع رؤيا يوحنا كحاشية في ذيل العهد الجديد، أن توضع كمعبر أو كهمزة وصل بين «العهدين»**. غير أنه كان من المؤكد، أياً كان موضعها من «الكتاب»، أن تظل تمارس غواية لا تقاوم على عقول المؤمنين. فهي رؤيا تعوِّض اليهودية كما هي مكتوبة في «الكتاب» (العهد القديم) عن فقدان البعد الأخروي، وتعزز الوعد الذي «أكمل به» مسيح المسيحيين، الناصري، «الناموس» الذي أكد أنه ما جاء لينقضه بل ليكمله، وهو وعد الحياة الباقية والانبعاث من الموت وعيش الصالحين (الذين تكتب أسماؤهم في «سفر الحيوة») في ملكوت السموات.

وذلك تحديداً ما يعلن يوحنا اللاهوتي أنه رآه رأى العين بعد الانتصار العظيم في موقعة هرمجدّون وإلقاء إبليس والوحش والنبيّ الكذاب وكل غير الصالحين (غير المسيحيين المؤمنين واليهود الذين اعترفوا بالمسيح، تبعاً للرؤية البروتستانتية) بل والموت ذاته **وهاويته الكئيبة (المأخوذة من الميثولوجيا السومرية) في بحيرة النار المأخوذة من عبادة أوزيريس في الديانة المصرية**:

«ثم رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى

> والأرض الأولى مضتا والبحر لم يعد له وجود. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة **أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مزيّنة كعروس مهيأة لرجلها**. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً **هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه (بشخصه) يقيم معهم إلّهاً لهم**. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون له وجود ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع لأن الأمور الأولى قد مضت. وقال الجالس على العرش **ها أنا أصنع كل شيء جديداً**. وقال لي اكتب كل هذا لأن هذه الأقوال صادقة وأمينة. ثم قال لي قد تمّ».
>
> **(يوحنا اللاهوتي ٢١: ١ ـ ٦)**.

و«يوحنا» اسم تسمى به صاحب الرؤيا التي ذُيِّل بها «العهد الجديد» ووُصِف بـ «الإلّهي» ('the divine') التي خُفّفت في الترجمة العربية إلى «اللاهوتي». وهو شخصية غامضة مختلَف على هويتها. وقد قيل إنه يوحنا، حواريّ المسيح، صاحب رابع الأناجيل. إلا أن المتخصصين في لغة العهد الجديد وجدوا أن ركاكة اليونانية في سفر الرؤيا بالمناقضة للغة إنجيل يوحنا تجعل مثل ذلك القول صعب التصديق. والمعروف على أية حال أن **«اللاهوتي» كان كاهناً يهودياً من فرقة من العرافين عرفت منذ زمن أليشع باسم «بني الأنبياء»** (الملوك الثاني)، وأنه عاش في عهد الامبراطور الروماني دوميتيان (٨١ ـ ٩٦ م.)، في مدينة إفسوس التي كانت عبادة الإلّهة اليونانية آرتميس ضاربة فيها بجذورها.

ومن المعلومات الشحيحة الباقية عنه، يبدو أن الرجل هرب أو رُحِّل إلى جزيرة بطموس، وهي إحدى الجزر الصغيرة أمام الساحل التركي، وأنه **ادّعى لنفسه صفة المبعوث من المسيح إلى «الكنائس السبع التي في آسيا»، وبتلك الصفة وجّه رسائل (اقتداء ببولس)** إلى «إفسوس، وسميرنا، وبرغامس، وثياتيرا، وساردس،

وفيلادلفيا، ولاودكية»، **المفروض أن دافعه إليها كان مقاومة انتشار التيار الوثني والرغبة في الدفاع عن المسيحية في مواجهته.**

غير أن الرسائل والرؤيا ظلت ناطقة بعبرانية واضحة بالغة القوة:

فمنذ البداية، كانت رؤيته لمن قال أنه «المسيح» (أي يسوع الناصري) **مؤطّرة بإطار شمعدان «المينورا» اليهودي**: «ولما التفتُّ، رأيتُ سبع منايـر من ذهب وفي وسط السبع منـاير شبـه ابن إنسان متسربلا بثوب إلى الرجلين» (١: ١٢)، و«هذا يقولـه الممسك السبعـة كواكب في يمينه الماشي في وسط السبع منابر الـذهبية» (٢: ١). ورغم أن اللاهوتي عُني بالقول بأن «شبه ابن الإنســان» الذي رآه فسّر لـه «سر السبعـة كواكب التي رأيت عـلى يميني، والسبع منـاير الـذهبية (بقوله:) السبعة كواكب هي ملائكة الكنائس السبع، والمنـاير السبـع التي رأيتها هي السبع كنائس» (١: ٢٠)، فإنه **من الواضـح تمامـاً أن «المنـايـر السبـع التي من ذهب» هي «المنـارة التي من ذهب نقي» التي قال موسى أن يهوه أمره بأن يصنعها من سبـع شعب** (خـروج ٢٥: ٣١ ـ ٤٠)، وصنعهـا بصلئيـل طبقـاً للتصميم الـذي أعطاه يهوه لموسى في الجبل (خـروج ٣٧: ١٧ ـ ٢٤). **وتلك المنـارة، أو «المينورا»** ذات الأفرع السبعة (منابر يوحنـا اللاهـوتي الذهبيـة السبـع). **قد تبـدو كما لـو كـانت مجـرد رمـز من رمـوز اليهـود الشعائريـة، لكنها:**

> **«رمـز ذو مغـزى كـوني، فهي تمثـل الأنـوار التي في جلـد السمـاء، أو الكواكب السبـع، أو (نظراً لأن عـدد شمعدانـات المينـورا ذات الأفـرع السبعـة، في الهيكـل، كـان عشرة) الأمم السبعين»[٢].**

فالرمزية الموحى بها في «المناير السبع الذهبية» في رؤيا الـلاهوتي، **رمزية يهودية صرف**، وفي الوقت ذاته **رمزية مسيحـانية، لكنهـا لا ترمز إلى «المسيح» الناصري، بل إلى المسيح المحارب الذي ينتظر اليهود مجيئه**: فالمينورا «هي تحـديداً مـا يمكننا التحـدث عنه متى

شئنـا أن نتحدث عن الـرمـزيـة اليهـوديـة من حيث أن الـرمـزيـة اليهودية تتسيّـدها المينـورا ذات الأفرع السبعـة، التي تشكّل - أكثـر مما يشكّـل أيّ رمزٍ آخـر - الرمـز اليهوديّ الأعظم أصـالة والأكثر شيوعاً»[3].

ورؤيا اللاهـوتي تنتمي أصلاً إلى نـوع أدبي/ ديني لا خلاف على يهوديته ذي طبيعة تلفيقية قائمـة على الاجتهـاد في التوفيق بين معتقدات دينية متنافرة مستمدة من أصـول ثقافيـة مختلفة. وقد ظهر ذلـك النوع، أول مـا ظهر، في غمـار خبرة السبي الـرضيّة، واتّجه إلى ادماج أفكار «الحكمة اليهودية» المأخوذة من مصر، والرؤى النبؤيّة التي درج العرّافون والكتبة اليهود (النبييم) على استخـدامها في إحكـام قبضة الطبقـة الكهنـوتيـة عـلى أعنـاق «الشعب»، في ظـلّ معتقدات دينية أخذت من مصر، وبابل، وفارس.

والملاحظ أن جهوداً كثيرة بذلت لتأصيل ذلـك النوع من التـأليف الأدبي/ الدينّي يهودياً. غير أن طبيعته التلفيقية - التي أقحمت عـلى الفكر الديني اليهودي أفكاراً غريبة عنه دخيلة عليه لا أصل لهـا فيه عن عالم آخر لم ترقَ اليهودية إلى التفكير في وجـوده أصلاً - أدّت إلى إحباط كل تلـك المحاولات الغـريبة. **وبـذلك ظلت انبثـاقات الـرؤى النبؤيّة عن الأخرويـات أشبه بـأعراض حمى في الـروح لم تجد الروح مهرباً من عذابها إلا في أحلام «الخلاص» التي تتداوى بها عن طريق التطلع إلى تـدخل سمـاويّ على مستـوىً كونيّ يضـع نهاية لتـاريخ معـاكس مليء بـالإحباط والضيـاع ويبدأ تـاريخاً جديداً يحكم الإلّـهُ العالمَ فيـه حكماً مبـاشراً كمَلِك أرضيّ ليمنع تكرار ما سبق من شرور ومظالم.**

وقد ظل الإسهام اليهودي الأصيل الوحيد في تلك العملية التلفيقية التي أفرخت الرؤى النبؤية عن «آخر الزمان»، و«الخلاص» و«السماء الجـديدة والأرض الجـديدة» من خـلال التدخـل السماوي لصـالـح المختـارين الصالحـين ضد الأشرار الظـالمين، قـاصراً عـلى المبـدأين

الأساسيين اللذين رُسِّخا في جذور الديانة إذ دقّهما موسى وكهنته في أدمغة «الشعب» دقاً متواصلاً ولحوحاً، وهما:

(١) أن يهوه يذود عن «شعبه» ويحارب عنه طالما عبده «الشعب» واتّبع وصاياه وامتنع عن مناهيه؛ و(٢) أن يهوه إله/ ملِك.

أما كل ما زاد على ذلك من مكونّات الإبداع السيريالي الذي خلطت فيه هذه المساهمة اليهودية تلفيقياً بالمعتقدات التي استعيرت من ثقافات وديانات أخرى عن «عالمٍ آخر» وحياةٍ بعد الموت، وأملٍ في البعث، وكلها دخيل على اليهوديةٍ وخارجٍ على تقنينها الديني، فظلّ مفتعلاً وأقرب إلى الهذيان. ولا غرو أن استُبعد من العهد القديم سفر كسفر أخنوخ الذي نلمس تأثيره واضحاً في رؤيا اللاهوتي، وغير ذلك من أسفار «أخروية». ويخبرنا الأستاذ پاتاي[٤] أن هناك نوعاً من الأنواع الأدبية الشعبية يمثله ضرب من الأسفار اليهودية يعرف باسم «الأسفار الرؤيوية» (apocalyptic books)، من المصطلح اليوناني (‘apocalypse’) الذي يعني «كشف ما هو خبيء» والمستخدم في تسمية الكتابات شبه النبوئيّة (quasi-prophetic) التي تزعم أنها تكشف عن أشياء خبيئة، وأن العصر الهلينستي شهد **تكاثراً للمؤلّفات الرؤيوية التي وضَع معظمها مؤلّفون يهود من فلسطين، أساساً بالعبرية أو بالآرامية، ولكن أحياناً باليونانية أيضاً**. ويتضمن ذلك النوع من التأليف الأدبي تنويعات عديدة وتوسعات على ثيمة توراتية أساسية هي **ثيمة يوم يهوه الذي سوف يعاقب يهوه فيه، كما علّم النبييم، أعداء إسرائيل، ويجعل شعبه قوة عالمية**، ويحاكم كل من عصاه سواء كان يهودياً أو من الأغيار. وقد استخدم **أولئك المؤلّفون الرؤيون، الذين يمكن اعتبارهم بادئين من زكريا، الرمزية والأساطير البابلية في تصويرهم التفصيلي المفزع للكيفية التي سيحدث بها تنفيذ حكم يهوه في الأشرار ويتحقق خلاصه للأخيار الصالحين.. والغرض من هذا التأليف الرؤيوي هو التلويح بأمل ما سوف يحدث**

مستقبلاً لشعب تتحلقه المتاعب وضروب الشقاء. وعملا على جعل رسالتهم فعالة، عمد أولئك المؤلفون الرؤيون إلى إجـراء تنبؤاتهم على ألسنـة شخصيات مشهـورة صوروهـا دائماً متنبئـة بما سـوف يقع مستقبـلاً. وعملا عـلى جعل المتنبيء بـالمستقبـل في تـأليفهم متمتعـاً بالمصداقيـة، عني كل مؤلّف من أولئـك المؤلفين بـأن تشمل تنبؤاتـه «المستقبل» الذي سبق زمن تأليفه، والـذي وقعت فيه أحـداث «تنبأ» بها، مثلما تنبـأ بما سـوف يقع في المستقبـل الذي سيعقب التـأليف. ومن الأجـلاّء الذين دأب المؤلفـون الرؤيـون على إسنـاد كتبهم إليهم أخنوخ (وهو مؤهَّل بشكلٍ خاص للقيام بدور المؤلف الرؤيـوي نظراً للقول الغامض الوارد عنه في التوراة من أنه «سار مع الله ولم يوجـد لأن اللـه أخـذه» (**تكـويـن ٥: ٢٤**)، وأبنـاء يـعقـوب الاثنـي عشر، وموسى، وسليمان، وإشعياء، وباروخ، وعـزرا. وإجمالاً، يمكن القـول أن مثل **هذا التأليف الرؤيو ي يهوديّ بشكل فريـد، تمامـاً كالأدب التوراتي الذي سبقه والأدب التلمودي الـذي أعقبه.** وقـد صنّف معظمـه تحت اسم «الأسفـار المنحـولـة» (pseudepigrapha) نظـراً لانتحال شخصيات من عزيت إليهم، وبذا استُبعد من العهد القـديم. إلا أن سفراً واحداً فقط، هـو سفر دانيـال، الذي يعتبـر السفر الأب والنمط الأصـلي لكل الأسفـار الرؤيـوية، سُمِـح بتضمينـه في العهـد القديم.

وكما يقول پاتاي، وضعت كل تلك المؤلفات الرؤيويّة في أوقات أزمة وأزمنة شدائد لإعطاء أمل بقرب تـدخل يهـوه لصالـح شعبه. **وكـان وضع يوحنا اللاهوتي مؤلّفه الرؤيوي في أشـد أوقات المصـاعب تأزماً في تاريخ اليهـود، إبان الحـرب اليهوديـة، أي الحرب التي خاضتها روما للقضاء على التمرّد اليهـودي.** ويبدو أن تـرحيله إلى جزيرة بطموس حيث سُخّر للعمل في محاجرها كـان لاتهامـه من قبل السلطات الرومانية بالاشتغال بالتهييج السياسي والديني.

وفي تلك المرحلة بالذات من التاريخ اليهودي، أكثر من أي مرحلـة

أخرى سابقة من القلق والخوف من المستقبل، كان التحرّك المألوف للتطلعات المسيحانية (التطلع إلى مجيء المسيح المخلّص المنتظر) مدخولاً بتوجّهات سياسية قوية:

> «فذلك الذي ثبت عجز البشر الفانين عن تحقيقه، سوف يحققه (لليهود المغلوبين على أمرهم في مواجهة جبروت روما) إله اليهود يهوه بجنده السماوي تحت قيادة المسيح المحارب، سليل بيت داود، وابن الله. وسيكون ذلك المسيح الذراع اليمنى للمُلْك المنشود، ولسوف تبيد أنفاسه ذاتها الأشرار الذين جراوا على **الوقوف في وجه قصد يهوه المتمثل في ان يحكم شعبه المختار العالم»**[٥].

بإزاء هذه الخلفية، وضع اللاهوتي رؤياه، مستخدماً الكناية والتلميح. فهو عندما يتحدث عن «الزانية بابل العظيمة أم الزواني ورجاسات الأرض»، إنما يعني روما. وعندما يتحدث عن «كأس من ذهب في يدها مملوءة رجاسات ونجاسات زناها»، فإنما يعني عباداتها الوثنية وثراءها المادي الباذخ. وعندما يتحدث عن الوحش الذي يحمل الزانية العظيمة، فإنما يعني نيرون وغيره من أباطرة روما. وعندما يتحدث عن «رؤوس الوحش السبعة التي **هي سبعة جبال عليها المرأة جالسة**»، يفصح في الحقيقة عن أن «الزانية العظيمة» في رؤياه هي روما عدوّة اليهود في زمانه. فالإشارة إلى تلال روما السبعة واضحة بما فيه الكفاية.

وبطبيعة الحال، يمكن القول بأن الرجل كان يرى الرؤى لشدة انفعاله بما كان حادثاً لـ «أخوته» المسيحيين (الذين كانوا في زمانة أقلية ضئيلة) على أيدي الرومان، وأن انفعاله لم يكن نابعاً من كراهيات الصراع اليهودي مع روما. إلا أن الطبيعة العبرانية الناضحة من رؤياه تدفع مثل ذلك التصور إلى ركن منزو صغير ومعتم من الصورة، وتسلط الضوء بقوة على الصلة العضوية الوثيقة بين رؤياه ورؤيا حزقيال ورؤيا دانيال، وتكشف عن مدى تأثره العميق بهما، لا فيما يتعلق بمفردات لغته الشعرية وخطوط الصورة وألوانها

في محتوى الرؤيا، فحسب، بل وفيما يتعلق بشخصية «المخلّص» الذي تحدث عنه.

ولئلا يفلت الخيط من أيدينا ونحن نجوس في متاهات المسألة، يحّسن أن نذكّر أنفسنا أننا هنا بمعرض التناول الفاحص لمعمار الجسر الموصّل إلى المعتقدات الدينية التي جعلت العقلية الأميركية ما هي عليه، والاختبار المدقّق للمواد التي صنع منها ذلك الجسر.

والجسر الذي نتحدث عنه هو ـ تحديداً ـ الوصلة المميتة التي خلقها آباء الكنيسة بقبولهم بعد طول تردّد بإضافة سفر منحول إلى العهد الجديد، كما يتبين من تحفظات أسقف قيصرية في القرن الرابع الميلادي:

> «أما رؤيا يوحنا، فإنها ـ كما أشرت قبلاً ـ سفر يرفضه البعض، ويقبله البعض الآخر كسفر من الأسفار المعترف بها، وهو ما استقر عليه الأمر ولو أنه ما زال يثير جدلاً»[٦].

وقد وازى الأسقف، الذي يعتبر أهم مؤرخي «الكتاب المقدس» الجامع للعهدين القديم والجديد، بين «رؤيا يوحنا اللاهوتي» والـ «رسالة إلى العبرانيين» التي قال إن الموافقة على إدراجها في العهد الجديد كانت لأنها اعتبرت «ذات جاذبية خاصة لأولئك العبرانيين الذين اعترفوا بالمسيح»، أي بوصفها عملاً مما يعرف الآن باسم «الترويج» من خلال «العلاقات العامة». وهو ما يرجّح أن الموافقة على إضافة «سفر الرؤيا» كحاشية في ذيل العهد الجديد كانت إجراءً براغماتياً من النوع نفسه.

ولقد كان من رفضوا السفر من آباء الكنيسة على حق في تخوّفهم منه. فالرؤيا التي تضمنها تناقضت تناقضاً أساسياً مع كل ما كان الفكر الديني قد حققه من تقدم، وانتكست إلى طقوس بدائية **وحشية كالطقس اليهودي الخاص بالحصول على «الفداء» عن طريق الاغتسال بالدم**. وحقيقة أنه وضع هنا الرمز المسيحي

الخاص بالحَمَل، أو كما أسماه، آخذاً عن دانيال، «الخروف»، وجعل منبع الدم من عنق «الخروف المذبوح»، إلا أن الطقس ذاته ظل بدائياً ووحشياً كأول مرة مورس فيها بخيمة الهيكل عندما أخذ موسى يرش الدم على المذبح وعلى بني إسرائيل (خروج ٢٤: ٦ ـ ٨)، وظل سحرياً، كما في سفر اللاويين: «فأنا أعطيكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم، لأن الدم يكفّر عن النفس» (١٧: ١١). وفي سفر الرؤيا، صاغ اللاهوتي مبدأ الفداء بالدم هكذا: «هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم وبيّضوا ثيابهم في دم الخروف. من أجل ذلك هم أمام عرش الله ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله والجالس على العرش يحل فوقهم. لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحرّ» (٧: ١٤ ـ ١٦).

والواقع أن اللاهوتي أمعن في يهوديته إلى حد قرّبه كثيراً مما تطورت إليه اليهودية سحرياً في القبّالة، قبل القبّاليين بوقت طويل. فهو يتحدث عن «**الحكمة**» ويتحدث عن «**اسم الوحش وعدد اسمه**»، ويقول **هنا الحكمة. من له فهم فليحسب عدد الوحش فإنه عدد إنسان**. وعدده ستمائة وستة وستون» (١٣: ١٨). وقد فُسِّر الموضوع بأن «عدد الوحش» هذا، ٦٦٦، هو حاصل جمع القيم العددية لأحرف «القيصر نيرو» (مع حذف الـ «نون» الأخيرة، أي الحرف الذي ينطق بصوت النون الأخيرة في ذلك الاسم)، وتلك القيم هي ١٠٠ زائد ٦٠ زائد ٢٠٠ زائد ٥٠ زائد ٢٠٠ زائد ٦ زائد ٥٠ = ٦٦٦!

وقد اعترض البعض على ذلك بقولهم إن اللاهوتي كان يكتب باليونانية في حين أن هذه القيم العددية قيم حروف ساكنة عبرية. إلا أنه من الواضح أن الفكر الذي عبّر عنه الرجل باليونانية كان عبرياً صرف. ولما كان اللاهوتي قد رأى في روما ـ كما أسلفنا ـ أفظع خطر تهدد اليهودية في زمانه، **ولذلك أسماها باسم بابل التي كان على يدها سبي اليهود**، فإنه ـ كالسائد في زمانه ـ جسد جبروت روما في

شخص نيرون، مثلما جسد أسلافه جبروت بابل في شخص نبوخذ نصر. وكان قد أشيع، بعد انتحار نيرون سنة ٦٨ م.، أنه لم يمت حقاً، وأن انتحاره كان خدعة للهرب من تمرد قواد الجيش عليه، وأنه اختبأ في مكان على نهر الفرات (ذكرى بابل، مرة أخرى) ريثما يجمع جيشاً يعود على رأسه ليسترد روما من القواد الذين تنازعوا السلطة بعده، ويسحق أعداء روما. وفي المخيلة اليهودية المرتعبة التي نسجت هذه الأسطورة حول نيرون، لم يكن لـ «سحق أعداء روما» معنى إلا سحق اليهود.

وفي سياق هذه الإعادة لتاريخ اليهود مع بابل ونبوخذ نصر، تقمص مؤلف سفر الرؤيا كلاً من حزقيال ودانيال. بل وذهب إلى أبعد مما ذهبا إليه مما فجّرته خبرة السبي من رؤى وأحلام. فاللاهوتي، في حقيقة الأمر، ارتاد ما انجرفت إليه اليهودية بعده بقرون عديدة، إبان عصر «الظلام» (العصور الوسطى)، حين فجّرت خبرة الشتات وما ظل كهنة اليهود يجلبونه على اليهود كبشر من اضطهاد، المحتوى السحري الكامن في جذور الديانة، فطفح إلى السطح ممثلاً في القبّالة.

ويتضح ذلك بشكل خاص في استخداماته للعدد السحريّ ٧ والعدد السحري ٣[٧]، في صوغ رؤياه، وفي استهلاله الرؤيا بمفهوم الاغتسال من الخطايا بالدم، وفي وصفه العبراني لـ «المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء» في الاصحاح ٢١ من الرؤيا، وتأكيده في النهاية أنه «لن يدخلها شيء دنس ولا ما يصنع رجساً وكذباً» تكراراً للإيمان اليهودي بأن المدينة ـ بعد قيام ملك صهيون على كل الأرض ـ «لن يدخلها أغلف ولا نجس». كما يتضح العرق القبّالي السحري السابق للقبّالة بقرون في حكاية «الأرواح السبعة التي أمام عرش الله» (١ :٤). فتلك الأرواح السبعة فكرة أخذتها اليهودية من الزرادشتية، كما في سفر زكريا (٤: ٢ ـ ٧)، لكن يوحنا اللاهوتي عدّلها بحيث جعل الأرواح السبعة عدداً سحرياً

لروح الإله الواحد، ثم ربط بين السبعة والـواحد بشكـل حميم **جعل السـلام والنعمـة يستمـدان من السبعـة مثلمـا يستمـدان من الواحد.**

فاللاهـوتي غلّف تطلعه المسيحـاني بغموض الـرؤية تغليفـاً جعل بمكنة المسيحيين أن يسقطوا عليه تطلعهم إلى المجيء الثاني، في حين نطق السفر بيهوديته المأزومة التي وجدت ملاذها، في خاتمة المطـاف، في صيغ السحر.

وفي تأليفه للرؤيا، **ارتد الرجل بالـروح والمخيلة إلى زمن السبي وبابل ونبوخذ نصر وأسبغ كل ذلـك على محق اليهـود في زمانـه، وروما، وتجسـدهـا شبـه الأسطـوري، نـيرون،** حتى وإن عـاش الـلاهـوتي، كمـا هـو مـرجّـح، في عهـد الامبـراطـور دوميتيـان (٨١: ٩٦ م.)، وفي سياق ذلك تقمص ـ كمـا قلنا ـ كـلاً من حزقيـال (المعتبر أباً روحياً لمن جاؤا بعده من رؤيويين)، ودانيال.

وقد كان حزقيال من المسبيـين إلى بابـل سنة ٥٩٧ ق. م.، وكـان معاصراً لكـل من إرميا ودانيـال. وفي بابـل، قضى كل سني «نبـوّته»، وهي «النبوّة» التي تمثلت أساساً في سلسلة من الرؤى القريبـة قربـاً غـريباً من الإبـداع الشعري السـيريـالي (والـرجـل معتبـر من أهم «شعراء» العهد القديم)، لكنه أوردها بادّعاء أنها رؤى رآهـا (بعكس دانيال الذي تواضع مؤلفو سفره في مبدأ الأمر فقالوا إن رؤاه كـانت أحلاماً تراءت له وهو نائم).

والواقع أن حزقيال لم يعتبر الأب الروحي للرؤيويين اعتباطاً. فقد أوقفته رؤاه الشعرية على مشـارف ما نجـده مسمى، في رؤيا يـوحنا الـلاهـوتي، بـاسم العصر الألفي الـذي يبعث الأخيـار الصـالحـون ليعيشوا فيه متحررين من الألم والمرض والشقاء والموت. لكن حزقيال لم يرَ أرضاً جديدة وسماء جديدة، ولم ير أورشليم نازلة من السمـاء مزينة كعـروس، **بل رأى انبعـاث صهيون،** ورأى «الأرض الخـربة»

وقد صارت «كجنة عدن» ورأى «المدن الخربة والمقفرة والمنهدمة» وقد صارت «محصّنة معمورة» (٣٦: ٣٥)، ثم أخذه يهوه (وكان يرفعه بيده من قفاه ويطير به في الهواء) وأنزله «في وسط البقعة وهي ملآنة عظاماً». وطاف به حول العظام «فإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة، وإذا هي يابسة جداً» وقال له «يا ابن آدم أتحيا هذه العظام؟ فقلت يا سيد الرب (يا أدوناي، يا يهوه) أنت تعلم. فقال لي تنبأ على هذه العظام وقل لها أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام: هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون. وأضع عليكم عصباً وأكسيكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أني أنا الرب. فتنبأت كما أمرت وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعش فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه. ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح. فقال لي تنبأ للروح تنبأ يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب هلم يا روح من **الرياح الأربع** وهبّ على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً جداً. ثم قال لي يا ابن آدم **هذه العظام هي كل بيت إسرائيل**. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا. لذلك تنبأ وقل لهم هكذا قال السيد الرب: **هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل**» (٣٧: ١ ـ ١٢).

ولقد كان ذلك تجديداً شعرياً جريئاً بالنسبة لليهودية التي خلت من أساسها من أي أمل في حياة باقية أو انبعاث بعد الموت. لكن التجديد الشعري كان منصباً، في حقيقته، على انبعاث اليهود كأمة بعد أن دمّر المُلك الذي أقامه الكهنة بهم، وأعادتهم كأمة إلى فلسطين، وإعادة بناء هيكلهم الذي دمره جبروت بابل، وهو ما يتضح من الإصحاحات من ٤٠ إلى ٤٧ وما حدده حزقيال قبل تلك الإصحاحات بقوله:

«لذلك هكذا قال السيد الرب (أدوناي يهوه): الآن أردّ سبي يعقوب وأرحم كل بيت إسرائيل وأغار على اسمي القدوس. فيحملون كل خزيهم وكل خيانتهم التي خانوني إياها (أيام كانوا ساكنين) في أرضهم مطمئنين ولا من يخيفهم. عند إرجاعي إياهم من بين الشعوب وجمعي إياهم من أراضي أعدائهم وتقدّسي فيهم أمام عيون أمم كثيرين. يعلمون أني أنا يهوه إلههم بإجلائي إياهم إلى الأمم (تشريدهم بين الأمم) ثم جمعهم إلى أرضهم. ولا أترك هناك (بين الأمم) أحداً منهم. ولا أحجب وجهي عنهم بعد لأني سكبت روحي على بيت إسرائيل».

(٣٩: ٢٥ - ٢٩)

فرؤيا حزقيال لم تكن ليوم بعث أو نشور، بل كانت ليوم انبعاث قومه المسبيين كامّة وجمعهم من بين الشعوب وإعادتهم «إلى أرضهم»، مع إشارة إلى أن يهوه «لن يحجب وجهه عنهم» بعد ذلك أي سيظل معهم يحميهم ويسوس شؤونهم.

ومن تلك الرؤيا نبعت رؤيا اللاهوتي، وعلى خطاها سارت، بل ومنها استعارت تصورات ظلت أساسية فيها:

رؤيا اللاهوتي	رؤيا حزقيال
«نظرت وإذا باب مفتوح في السماء» (٤: ١)	«كان.. ان السماء انفتحت» (١: ١)
«كنت في الروح في يوم الرب» (١: ١٠)	«فرأيت رؤى الله» (١: ١)
«رأيت.. شبه ابن إنسان» (١: ١٣)	«رأيت.. شبه كمنظر إنسان» (١: ٢٦)
«وصوته كصوت مياه كثيرة» (١: ١٥)	«كصوت مياه كثيرة صوت القدير» (١: ٢٤) «وصوته كصوت مياه كثيرة» (٤٣: ٢)

رؤيا اللاهوتي	رؤيا حزقيال
«ورجلاه شبه النحاس النقي كأنهما محميتان في أتون» (١: ١٥)	«ومن منظر حقويه إلى فوق ومن منظر حقويه إلى تحت مثل منظر نار ولها لمعان النحاس من حولها» (١: ٢٧)
«هوذا يأتي مع السحاب» (١: ٧)	«سحابة عظيمة ونار متواصلة» (١: ٤)
«وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس» (٤: ٢)	«وفوق المقبب (قبة السماء) شبه عرش وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق» (١: ٢٦)
«وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد» (٤: ٣)	«عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق.. ومنظر كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطر» (١: ٢٦ و ٢٨)
«ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات» (٤: ٥)	«لمعان ومن النار يخرج برق» (١: ١٣)
«وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور» (٤: ٦)	«شبه مقبب كمنظر البللور الهائل» (١: ٢٢)
«وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات» (٤: ٦)	«ومن وسط النار شبه أربعة حيوانات» (١: ٥)
«(والحيوانات) مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء» (٤: ٦)	«ملآنة عيوناً حواليها للأربع» (١: ١٨)
«الحيوان الأول شبه أسد. والحيوان الثاني شبه عجل. والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان. والحيوان الرابع شبه نسر طائر» (٤: ٧)	«أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها، ووجه ثور ووجه نسر من الشمال (اليسار) لأربعتها» (١: ١٠)
«ولكل واحد منها ستة أجنحة حولها ومن داخلها مملوءة عيوناً» (٤: ٨)	«ولكل حيوان أربعة أجنحة وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة» (١: ٦ و ٨)

رؤيا اللاهوتي	رؤيا حزقيال
«فلما رأيته سقطت عند رجليه كميّت فوضع يده اليمنى عليّ قائلاً لا تخف» (١: ١٧)	«ولما رأيته خررت على وجهي.. فقال لي يا ابن آدم قم على قدميك فأتكلم معك» (١: ٢٨ و ٢: ١)
«فاكتب ما رأيت وما هو كائن وما هو عتيد أن يكون بعد هذا» (١: ١٩)	«قال لي أنا مرسلك إلى بني إسرائيل» (٢: ٣)

وكما أخذ من حزقيال بتوسع، أخذ اللاهوتي من دانيال، ولو أنه ليس من الصائب تماماً القول أنه «أخذ من دانيال»، فالصحيح أنه أخذ من السفر الذي دعي باسم دانيال، ولم يؤلفه دانيال، بل أُلّف عنه فيما بين ١٦٧ و ١٦٤ ق. م.، وقت أن كان الحاكم اليوناني أنطيوخس الرابع[٨] جاهداً في تغييب عبادة يهوه في عبادة زيوس، وهو ما أثار رعباً خاصاً لدى كهنة يهوه نظراً لما عاينوه من سهولة مثل ذلك التغييب في تلك العبادة الوثنية، ان لم يكن لشيء فلاشتراك يهوه وزيوس في الأصل القضيبي وكون كل منهما «منيّ الحياة». وكان تأليف السفر حول شخصية دانيال ومقاومته للوثنية وأحلامه المسيحانية عملاً من أعمال المقاومة من جانب كهنة يهوه قصد به إثارة الحماس الديني لدى عامة اليهود وحثهم على الاقتداء بدانيال الذي يحكي السفر أنه صمد (قبل كتابة حكايته بأكثر من أربعة قرون) لمحاولات البابليين القضاء على عبادة يهوه. وككل الأعمال الرؤيوية تضمن السفر (الوارد عند اليهود ضمن أسفار الكتوبيم، لكنه أورد على أيدي المسيحيين ضمن أسفار النبييم) وعداً من خلال أحلام دانيال ورؤاه بقرب وقت «الخلاص» وانتصار شعب الله المختار على مضطهديه انتصاراً ماحقاً وشيكاً بقيادة المسيح المنتظر. وذلك ما نطق به سفر يوحنا اللاهوتي، وباستخدامه لفظة «المسيح» فيه، بدا كما لو كان «الخلاص» سيكون لقرب مجيء مسيح المسيحيين الناصري، للمرة الثانية، في وقت قريب من زمن كتابة الرؤيا.

والملاحظ أن سفر دانيال اختلفت بدايته عن سفر اللاهوتي في جزئية هامة، هي جزئية الرؤيا. فيوحنا يقول إنه رأى رأى العين، وأنه ـ مثل أخنوخ وإيليا ـ أُصعِد إلى السماء حيث رأى بعيني رأسه عرش الله ورأى الجالس عليه، ورأى **سبعة** أرواح الله، ورأى الشيوخ **الأربعة والعشرين** جالسين على عروشهم **الأربعة والعشرين** حول عرش الله، ورأى الحيوانات **الأربعة**، والفرسان **الأربعة**، والملائكة **الأربعة** واقفين على **أربع زوايا الأرض** ممسكين **أربع رياح الأرض**. أما مؤلفو سفر دانيال فتواضعوا في بداية السفر، وقالوا إن «دانيال رأى حلماً وأنه كتب الحلم» (٧: ١)، وأنه «رأى في رؤى الليل (أي في الأحلام)» (٧: ١٣) وأن تلك الرؤى كانت «في رأسه» ولم يرها رأى العين، إذ جعلوه يقول «أفزعتني رؤى رأسي» (٧: ١٥). غير أنهم ما لبثوا أن عدلوا عن خط «الحلم» هذا، ومالوا إلى «السرد الوقائعي»، فجعلوا «الرجل جبرائيل» الذي رآه دانيال في الحلم قبلاً، «يخرج له» (يظهر له مما وراء المرئيات) ويكلمه رجلاً لرجل، فيقول له «يا دانيال إني خرجت الآن لأعلّمك **الفهم**» (٩: ٢ ـ ٢٢). وبعدها بقليل، بينما أناس كثيرون حول دانيال، بدأ يرى رؤى وهو مستيقظ: «رأيت أنا دانيال الرؤيا وحدي والرجال الذين كانوا معي لم يروا الرؤيا لكن وقع عليهم ارتعاد عظيم فهربوا ليختبئوا. فبقيت أنا وحدي ورأيت هذه الرؤيا العظيمة» (١٠: ٧ و ٨).

والسؤال هو: لمَ عدل المؤلفون عن خط الحلم وجنحوا إلى «السرد الوقائعي» لرؤى رآها دانيال وهو مستيقظ؟

الجواب ماثل فيما نقله **«الرجل جبرائيل» إلى دانيال من «أخبار» عما سوف يحدث في مستقبل قال له أنه وشيك**. و«الرجل جبرائيل» هذا ملاك، كان أول لقاء لدانيال به في الحلم، عندما استغلق عليه فهم الحلم فسمع في منامه صوتاً ينادي قائلاً «يا جبرائيل فهّم هذا الرجل الرؤيا»! (٨: ١٦)، ووقتها قام جبرائيل

بشرح الرؤيا لدانيال في الحلم وكانت ـ في زمن دانيال السحيق ـ عن أحداث الستينات من القرن الثاني ق. م.، ولذلك حذره جبرائيل قائلاً «أما أنت فاكتم الرؤيا لأنها إلى أيام كثيرة» (٨: ٢٦)، أي أنها عن أحداث لن تقع إلا بعد زمن طويل. وهذا منطقي. فقد كان ذلك الحلم عن «ملك اليونان» الذي يبيد العظماء وشعب القديسين (أنطيوخس الرابع) لكنه، حسب حلم دانيال، في النهاية ينكسر.

إلى هنا وكان بالوسع أن تظل الرسالة الموجهة إلى اليهود من الكهنة مؤلفي السفر من خلال دانيال رسالة تحملها رؤيا منام. إلا أن ما قاله جبرائيل بعد تلك المرة لدانيال كان من الخطورة والأهمية بحيث اقتضى الأمر من المؤلفين «إخراج» جبرائيل ليخبر دانيال به، ويعلمه الفهم (و«الفهم» تعني الذكاء، مصرياً):

> «أنا جئت لأخبرك لأنك أنت محبوب. فتأمل الكلام وافهم الرؤيا. سبعون أسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة (أورشليم) لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم وليؤتى بالبر الأبدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح **قدوس القديسين**[٩]. فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر (من لدن يهوه) إلى **المسيح الرئيس** بتجديد أورشليم وبنائها سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً يعود ويبني سوق وخليج في ضيق الأزمنة. وبعد اثنين وستين أسبوعاً يقطع المسيح (ولكن) ليس له، وشعب رئيس آت سوف يخرب المدينة والهيكل وانتهاؤه بغمارة وإلى النهاية حرب وخرب قضي بها».
>
> (٩: ٢٣ ـ ٢٦)

والصياغة غامضة بعض الشيء، فلنوضحها قليلاً، طبقاً للنص كما أورده پاتاي[١٠] :

> «سبعون أسبوعاً كتبت على شعبك وعلى أورشليم لسجن المعصية وختم الخطيئة والتكفير عن الإثم والإتيان بالصلاح الدائم، ولختم الرؤية والرائي،

> ولمسح قدس الأقداس. فاعلم وافهم أن سبعة أسابيع (سوف تنقضي) ما بين خروج كلمة يهوه الآمرة بعودة اليهود وإعادة بناء أورشليم، وأن إعادة البناء ستستغرق اثنين وستين أسبوعاً (وستشمل) بناء ساحة واسعة وخندقاً مليئاً بالماء حول المدينة، وأن ذلك البناء سيكون في زمان ضيق واضطرابات، وأنه بعد الأسابيع الاثنين والستين (التي يستغرقها بناء المدينة من جديد) سوف «يقطع» (يذبح) المسيح، ولا يعود له وجود وأن المدينة والهيكل سوف يدمران بأيدي شعب وأمير (رئيس) سوف يأتي على رأس ذلك الشعب. إلا أن نهايته ستكون في طوفان (بغمارة) وإلى نهاية الحرب سيقع الخراب المقضي به».

وهذه، كما نرى، رؤيا جليلة لم يكن من اللائق، في تقدير المؤلفين، أن يراها دانيال في حلم من أحلام الليل. **ولذا «أخرجوا» له جبرائيل مما وراء الطبيعة ليكاشفه بها.** وكما هو واضح، وقد أُلّف السفر حول شخصية دانيال وأُعطي فيه دور الرائي الذي يحلم أولاً ثم يرى بعينيّ رأسه وبروحه وهو مستيقظ ثانياً رؤى خطيرة كهذه، **كان الغرض من الممارسة كلها إقامة أود اليهود روحياً وتقوية معنوياتهم في غمار المواجهة غير المتكافئة مع جبروت السلوقيين العسكري ومحاولتهم الخطرة ابتلاع ديانة يهوه في ديانة زيوس.**

وعلى الرغم من كل «الآلهيات» في ذلك العمل من أعمال المقاومة، ظل العامل السياسي ناطقاً جلياً بشكل لا يقبل التأويل. فبعد اللقاء بجبرائيل الذي «خرج ليعلم دانيال الفهم» ويوقفه على ما سوف يحدث بعد أن يخرج الأمر من عند يهوه إلى المسيح المحارب بإعادة تأسيس مُلْك الكهنة وإعادة بناء أورشليم وتحصينها، «يخرج» لدانيال من يبدو أنه كان أهم وأخطر من جبرائيل بكثير، أي يهوه. فدانيال تكاد تفارقه روحه من هول اللقاء هكذا وجهاً لوجه لولا أن

«يلمسه كمنظر إنسان ويقوّيه» (١٠: ١٩). وبعد أن يلمس «الخارج» إلى دانيال في تلك الرؤيا الرجل الطيب ويقويه، يقول له «هل عرفت الآن لماذا جئت إليك؟ فأنا الآن أرجع وأحارب رئيس فارس. فإذا خرجت هوذا رئيس اليونان يأتي.. وأنا في السنة الأولى لداريوس المادي وقفت لأشدّده وأقوّيه» (١٠: ٢٠ و ١١: ١). والتاريخ الماضي (ما حدث فيما مضى) مختلط هنا بالتاريخ الآتي (ما سوف يحدث مستقبلاً)، وكأن الذي خرج لدانيال يسافر به في الزمن جيئة وذهاباً. **وفائدة التركيز على التاريخ الماضي في مثل هذه الصياغة واضحة، فهو تركيز على وقائع حدثت بالفعل ويعرف الكل من معاصري تاليف السفر أنها وقعت، كحكاية داريوس المادي وتقويته وشد أزره ليدمر ملك بابل، لكنها ـ وهي واردة كما لو كانت استبصاراً بوقائع ستحدث مستقبلاً من جانب دانيال ـ تتخذ طابع النبوءات التي تضفي على شخصيته مصداقية مطلوبة حتى يمكن للسفر أن يحقق الغرض الذي وضع من أجله وهو إقناع اليهود بأن انتصارهم في النهاية محتوم بفضل محاربة يهوه ومسيحه عنهم.**

هذا السفر الرؤيوي الناضح بالسياسة والذي ظل يهوه فيه يسرد على دانيال تاريخاً سياسياً من الماضي ومن المستقبل على امتداد اصحاح بأكمله، هو الاصحاح الحادي عشر، صدر عنه اللاهوتي وحاكاه **في رؤياه التي انبجست من نفس الأوضاع السياسية المتأزمة لليهود التي نبع منها سفر دانيال**، مع فرق واحد هو أن **سفر دانيال بما ضمّه من رؤى دار حول صراع اليهودية مع خلفاء الاسكندر المقدوني، السلوقيين، وسفر اللاهوتي برؤياه دار حول الصراع مع روما. وعلى الحالين، كان الصراع سياسياً مدخولاً بالدين، وفي المرتين كان صراعاً يهودياً مع الأغيار.** ولا غرو أن نسخ اللاهوتي في رؤياه وصياغته لها من سفر دانيال، كما يتبين من التماثلات التالية التي نسوقها مثالاً لا حصراً:

رؤيا اللاهوتي	رؤى سفر دانيال
«رأيت.. شبه ابن إنسان» (١ : ١٣)	«وإذا مثل ابن إنسان أتى» (٧: ١٣)
«وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار» (١ : ١٤)	«لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار» (٧: ٩)
«وإذا عرش موضوع في السماء.. وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً» (٤: ٢ و ٤)	«وكنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام» (٧: ٩)
«وإذا جمع كثير لم يستطع احد أن يعدّه.. وقوفاً أمام العرش.. هم أمام عرش الله ويخدمونه ليلاً ونهاراً في هيكله والجالس على العرش يحلّ فوقهم» (٧: ٩ و ١٥)	«(أمام العرش) ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوف قدامه» (٧: ١٠)
«أربعة حيوانات حول العرش.. الحيوان الأول شبه أسد. والحيوان الثاني شبه عجل. والحيوان الثالث له مثل وجه إنسان. والحيوان الرابع شبه نسر طائر» (٤: ٦ و ٧)	«وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة هذا مخالف ذاك. الأول كأسد وله جناحا نسر.. وحيوان ثان شبيه بالدب.. وآخر مثل النمر وعلى ظهره أربعة أجنحة طائر وله اربعة رؤوس واعطي سلطاناً.. وحيوان رابع هائل وقوي وشديد جداً وله أسنان من حديد كبيرة.. وله عشرة قرون» (٧: ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧)

وليست كل هذه الشيميرا أو الكمّير (الحيوانات الخرافية المركّبة) أهم ما يربط بين دانيال ويوحنا من أوجه الشبه. **فتحت السطح، وراء كل هذا الترميز الحيواني الخرافي، سياسة وشواغل أرضية متعلقة بالملك والسلطان والكهنوت أفصح عنها يوحنا اللاهوتي في الترنيمة الجماعية للخروف المذبوح** (المسيح الذي «قطع»، أي ذبح، في رؤيا دانيال): **«لأنك ذبحت واشتريتنا (فديتنا) لله بدمك**

من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة فسنملك الأرض» (سفر الرؤيا ٥: ٩ و ١٠). وبالوسع طبعاً القول بأن اللاهوتي استخدم رمز الخروف المذبوح (المأخوذ من دانيال) رمزاً للمسيح المسيحي الذي «ذبح» على الصليب ليفتدي المسيحيين بدمه تبعاً لما يعلّم به العهد الجديد، لولا: أن اللاهوتي قال «اشتريتنا بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة»، أي كان فداؤك لنا بوصفنا الشعب المختار الأخص من بين كل الشعوب، وهو ادعاء بالخصوصية قاصر على اليهود وحدهم ولم تدّع به أي من الديانتين التوحيديتين الأخريين لأتباعها، ولولا: أنه قال «وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة»، أي جعلتنا «مملكة كهنة وأمة مقدسة»، وهو ادعاء لم يدّع به إلا كهنة اليهود لـ «شعبهم»، وقال «(ولأنك اصطفيتنا شعباً أخصّ وجعلتنا أمة مقدسة) فسنملك الأرض»، وهو طموح للتسيّد على العالم وامتلاكه لم يطمح إليه إلا اليهود. فرؤيا يوحنا اللاهوتي، على الرغم من كل إلهياتها وطوباوياتها، مفصحة في النهاية عن أنها يهودية المنابع، يهودية الروح والفكر، يهودية التوجُّهات، ومنبئة عن أن دوافع من «رآها» أرضية سياسية متعلقة بـ «امتلاك» العالم. وذلك كله، تحديداً، هو ما نطقت به الرؤى الواردة في سفر دانيال: **«والمملكة والسلطان وعظمة الملك تحت كل السماء تعطى لشعب قدّيسي العلي»** (٧: ٢٧).

في ذروة رؤياه، رأى يوحنا اللاهوتي:

> «أربعة ملائكة واقفين على أربع زوايا الأرض ممسكين أربع رياح الأرض لكي لا تهبّ ريح على الأرض ولا على البحر ولا على شجرة ما. ورأيت ملاكاً آخر طالعاً من مشرق الشمس معه ختم الله الحي فنادى بصوت عظيم إلى الملائكة الأربعة الذين أعطوا أن يضرّوا الأرض والبحر قائلاً **لا تضرّوا الأرض ولا البحر ولا الأشجار حتى نختم عباد إلهنا على جباههم. وسمعت عدد المختومين مئة وأربعة وأربعين ألفاً مختومين من كل**

أسباط بني إسرائيل. من سبط يهوذا اثنا عشر الف مختوم. من سبط راوبين اثنا عشر الف مختوم..».
(٧: ١ ـ ٨)

وبعد نجاة أولئك المختومين الذين حسب اللاهوتي عددهم **بالعدد السحري ١٢ مضروباً في ١٠٠٠ مضروباً في عدد أسباط بني إسرائيل**، بدأت المذبحة الكونية:

«جاء ملاك ووقف عند المذبح ومعه **مبخرة من ذهب** وأعطي بخوراً كثيراً لكي يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم على **مذبح الذهب الذي أمام العرش**»
(٨: ٣ و ٤)

فاللاهوتي، وقد أصعد **خيمة الشهادة** (١٥: ٥)، **والهيكل** (١٦: ١٧)، **وتابوت العهد** (١١: ١٩)، بل **والمينورا** (١: ١٢ و ٢: ١) **إلى السماء، وأقام عرش الله في الهيكل**[١](١٦: ١٧)، كان لا بد أن يتم عمله، ويرفع بقية عدّة هيكل خيمة الشهادة إلى السماء لتستكمل الشعائر بشكل أصولي يهودي حول عرش الله، ولذا رفع «**مذبح الذهب**» الذي صنعه بصلئيل بناءً على أوامر يهوه إلى موسى وتنفيذاً للتصميم الذي وضعه يهوه:

«وصنع مذبح البخور من خشب السنط.. وغشّاه بذهب نقي سطحه وحيطانه وقرونه. وصنع له إكليلاً من ذهب حواليه. وصنع له حلقتين من ذهب تحت إكليله على جانبيه بيتين لعصوين لحمله بهما. وصنع العصوين من خشب السنط وغشّاهما بذهب».

(خروج ٣٧: ٢٥ ـ ٢٨)

ورفع أيضاً **المبخرة والبخور**. غير أنه بعد أن استكملت شعائر المعبد اليهودي في السماء، وبعد أن خُتِم المختومون من كل أسباط بني إسرائيل على جباههم ورفعوا ليقفوا حول عرش الله، استهل الملاك المسك بالمبخرة التي من ذهب **عملية إبادة من بالأرض**

«فأخذ الملاك المبخرة وملأها من نار المذبح وألقاها إلى الأرض فحدثت أصوات ورعود وبروق وزلزلة» (٨: ٥).

وبإلقاء تلك القنبلة، تبدأ مذبحة كبرى يباد فيها البشر، وبينما المذبحة آخذة طريقها إلى تحقق «نبوءة» حلم انتقام إشعياء من كل البشر «لأن للرب يهوه سخطاً على كل الأمم وحموا على كل جيشهم، قد حرّمهم دفعهم للذبح، فقتلاهم تطرح وجيفهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم» (إشعياء ٣٤: ٢ و ٣)، يقول يوحنا اللاهوتي أنه نظر:

> «وإذا خروف واقف على جبل صهيون ومعه مائة وأربعة وأربعون ألفاً لهم اسم أبيه مكتوباً على جباههم».
>
> (١٤: ١)

و«الخروف» هنا مفروض أنه المسيح (الناصري) الذي يكنى عنه في لغة العهد الجديد بـ «الحَمَل». **غير أن خروف اللاهوتي هذا هو «مسيح» دانيال الرئيس، أي «المسيح القائد المحارب الذي سيعيد بناء أورشليم ويقيم الهيكل الثالث في اثنين وستين أسبوعاً «يقطع» بعدها، أي يذبح.** وكونه كذلك واضح من إيقاف اللاهوتي له على جبل صهيون ومعه اليهود المائة وأربعة وأربعون ألفاً (اثني عشر ألفاً في اثني عشر سبطاً) المختومون باسم يهوه على جباههم. وهؤلاء هم «مفديو الرب يهوه» الذين «سيشترون» من الأرض، سيحصلون على الخلاص، ولذا فإنهم وحدهم الذين رأى اللاهوتي أنهم سيقدرون على تعلم الترنيمة السماوية:

> «وسمعت صوتاً من السماء كصوت مياه كثيرة وكصوت رعد عظيم. وسمعت صوتاً كصوت ضاربين بالقيثارة يضربون بقيثاراتهم. وهم يترنمون كترنيمة جديدة أمام العرش وأمام الأربعة الحيوانات والشيوخ ولم يستطع أحد أن يتعلم الترنيمة إلا المائة والأربعة والأربعون ألفاً الذين اشتروا من الأرض».
>
> (١٤: ٢ و ٣)

ولما كان اللاهوتي قد قال إن أولئك «المفديين» استطاعوا أن يتعلموا الترنيمة «هم الذين لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أطهار» (١٤: ٤)، فإن الشراح المسيحيين لم يضيعوا الفرصة وقالوا إن المفديين كانوا ١٤٤٠٠٠ يهودياً و ١٤٤٠٠٠ «من العزّاب» المسيحيين الذين «لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أطهار»، رغم أن «الرؤيا» لا ذكر فيها لـ «شراء» ذلك العدد من العزّاب، في حين عني اللاهوتي بأن يحدد عدداً واسماً كل من اشتراهم الخروف من الأسباط الاثني عشر: «ورأيت ملاكاً آخر طالعاً من مشرق الشمس ومعه ختم الله الحي فنادى بصوت عظيم إلى الملائكة الأربعة الذين أعطوا أن يضروا الأرض والبحر قائلاً لا تضروا الأرض ولا البحر ولا الأشجار حتى نختم عبيد الهنا على جباههم. وسمعت عدد المختومين مئة وأربعة وأربعين ألفاً مختومين من كل سبط من بني إسرائيل: من سبط يهوذا اثنا عشر ألف مختوم. من سبط رأوبين اثنا عشر ألف مختوم. من سبط جاد اثنا عشر ألف مختوم «وهكذا، إلى سبط بنيامين (٧: ٢ ـ ٨)، ولم يقل في أي مكان آخر من رؤياه أنه رأى أو سمع عملية ختم ١٤٤٠٠٠ من العزّاب، فكل ما قال بعد ذلك التعداد الدقيق للمختومين على جباههم باسم يهوه أنه رأى «جمعاً كثيراً لم يستطع أحد أن يعده من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة وقوفاً أمام العرش وأمام الخروف وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف» (٧: ٩ و ١٠). لكنه، في وصفه لهذه المظاهرة الصاخبة أمام عرش الله وأمام الخروف لم يقل إن هذا الجمع العظيم كان من العزاب، أو أن أحداً انتقى منه ١٤٤٠٠٠ عازباً، بل قال، عندما سأله أحد الشيوخ كأنما ليمتحنه، «هؤلاء المتسربلون بالثياب البيض من هم ومن أين أتوا؟»: «يا سيد، أنت تعلم» (أي أنت أعلم مني) فقال له الشيخ شارحاً الأمر: «هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم وبيّضوا ثيابهم في دم الخروف. من أجل ذلك هم أمام عرش الله ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله والجالس على العرش يحل فوقهم. لن يجوعوا بعد ولن

يعطشوا بعد ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر. لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية ويمسح الله كل دمعة من عيونهم» (٧: ١٣ ـ ١٧).

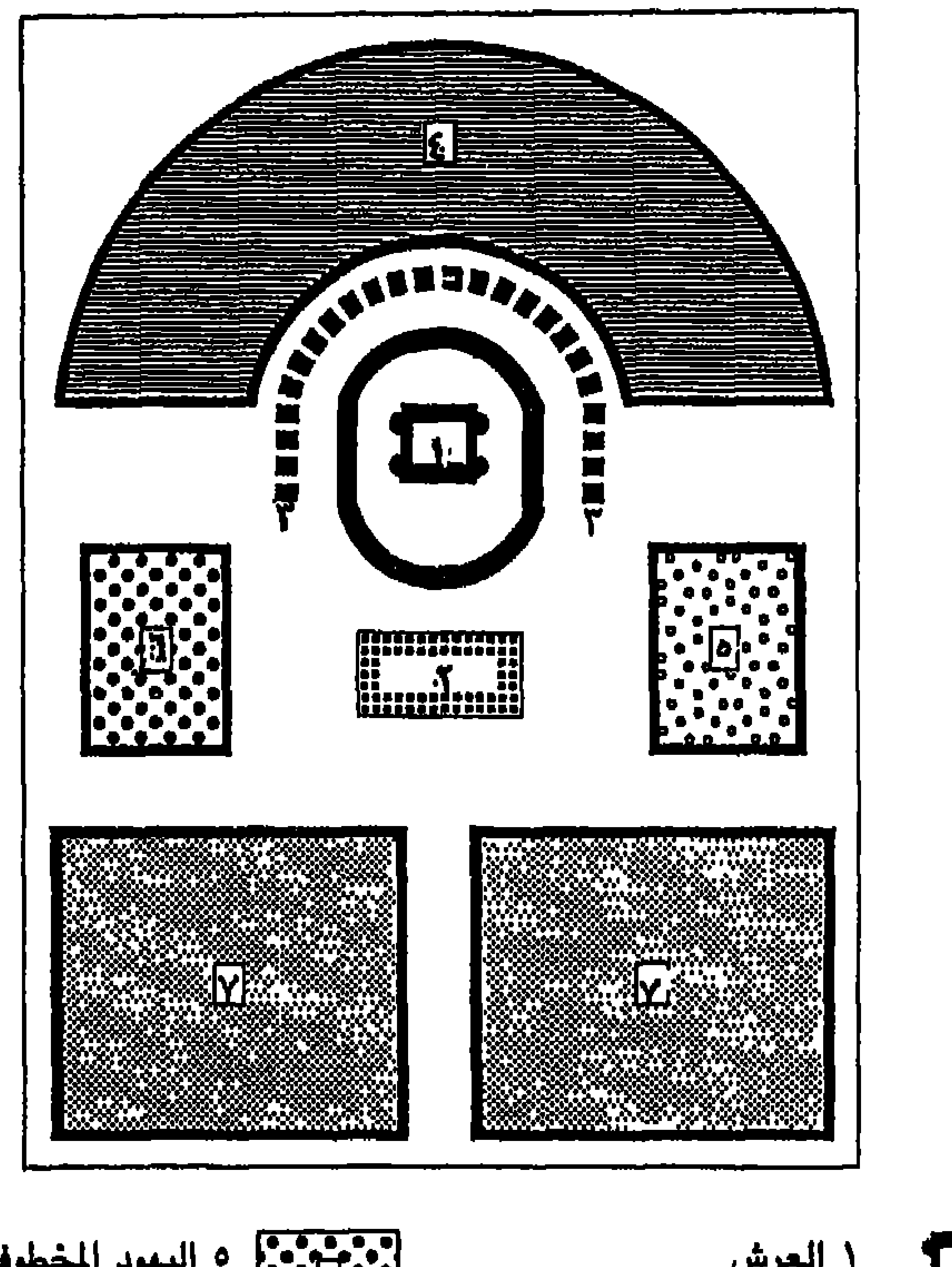
وهكذا شكل أولئك الناس الذين من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة بجمعهم الغفير الذي لم يستطع أحد أن يعدّه، «عامة» الناجين من الهول الأخير لأنهم «غسلوا ثيابهم» تطهروا، و«بيّضوا ثيابهم في دم الخروف»، آمنوا بالخروف وافتداهم الخروف بدمه، في حين ظل المفديون اليهود البالغ عددهم اثني عشر ألفاً من كل سبط «صفوة المفديين» الذين وقفوا مع الخروف على جبل صهيون واستطاعوا هم وحدهم تعلم الترنيمة السماوية، وهو ما يقوله اللاهوتي تحديداً إذ يصفهم بقوله «هؤلاء اشتروا من بين الناس باكورة لله وللخروف. وفي أفواههم لم يوجد غش لأنهم بلا عيب (لأنهم منتقون، مختارون) قدام عرش الله» (١٤: ٤ و ٥).

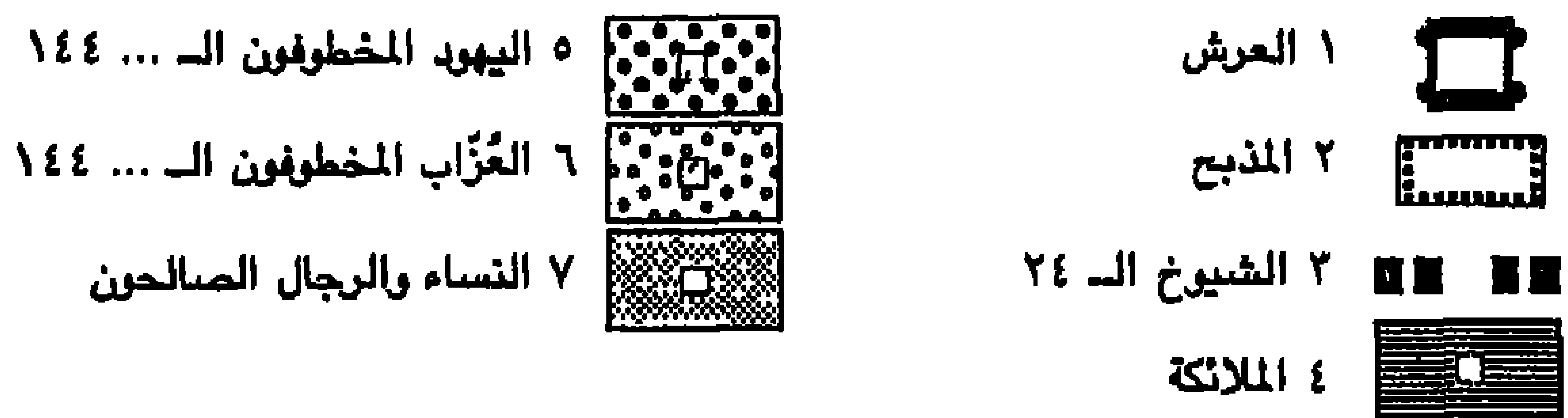
أما حكاية «العزاب» الذين لم يتنجسوا بالنساء التي ماحك بها المفسرون والمعتذرون المسيحيون تشبثاً بأن يكون لهم نصيب هم أيضاً في وضع المختارين، فحكاية ساذجة تناسى القائلون بها «مناهي» يهوه التي تكررت في التوراة بشكل لا سبيل إلى تناسيه فيما يخص التواجد بحضرته أو حتى الاقتراب من هيكله إلا إذا كان الحاضر أو المقترب قد راعى التطهر من نجاسة النساء.

عندما أصرّ «الشعب على أن يريه موسى يهوه رأي العين حتى يستطيع أن يقبله إلٓهاً بدلاً من بعل صفون وغيره من آلهة الآراميين التائهين الأصلية، تشاور موسى مع يهوه، ثم نزل إلى «الشعب» فقدّسه بأن جعله «يغسل ثيابه» وقال للشعب «كونوا مستعدين لليوم الثالث (الذي ضربه يهوه موعداً لم يف به للظهور لهم). لا تقربوا امرأة» (خروج ١٩: ١٤ و ١٥) فمجرد رؤية يهوه من مبعدة و«الشعب» في أسفل الجبل، تطلب «التقدّس» والتطهر بـ «غسل الثياب»، و(كما جاء في رؤيا اللاهوتي) «عدم التنجس بالنساء» فما

بـالك بـالتواجـد في حضرته بقـاعة عـرشه؟. وأسفـار التوراة حـافلة بعلامات حرص يهوه البالغ على ألا تصل نجاسة النســاء إلى أي شيء أو مكـان له صلـة به، بـل وقد اعتبـرت التوراة الأمـومـة ضربـاً من التنجس، ولو أن النجاسة في حالة ميلاد الطفل الذكـر اعتبرت نصف نجاسة المرأة في حالة ميلاد طفلة أنثى. وبشكل عام، استبعدت المرأة من الطقوس والشعائر الدينية، شأنها في ذلك شأن العبيد والأغيار.

وهكـذا فـإن الجـزئيـة التي تهـافت عليهـا المفسرون والمعتـذرون المسيحيون بأمل إيجاد أمـل لهم في جزء من «الغنيمـة» (التواجـد في صحبة «الخروف» وفي قـاعة العـرش، في الصفوف الأمـامية بـالأقل) جزئية لا سبيل إلى أن يستولد منها ما يبيح الادعاء بأن عدداً مماثلاً لعدد اليهود «المفديين» سوف يفتدى ويصبح حاشية لـ«الخروف» على جبـل صـهيون نتيجـة للطهارة المتمثلـة في «عدم التنجس بـالنسـاء»، خصوصاً وأن اللاهوتي لم يدّع ِ، حين تحدث عن وجود «جمع كثير لم يستطع أن يعدّه أحد من كل القبائل والشعوب» أمام عـرش الله، أن ذلك الجمع الغفير تواجد بقاعة العرش بسبب الطهارة وعدم التنجس بالنساء، إذ قرر أن أفراد الجمع تواجدوا لأنهم غسلوا ثيـابهم جيداً وبيّضوها في دم الخروف. فلماذا تعين الادعاء بتواجد المـائة وأربعـة وأربعين ألفاً الآخـرين مع الخـروف على جبـل صـهيون رغم أن ذلـك مخـالف للنامـوس إذ يمتنع وجـود أي أغلف نجس عـلى قمـة جبـل صهيون أو على سفحه أو حتى بالقـرب من قاعـدته، لأن ذلـك يسبب نجـاسة فظيعـة تبعد يهـوه عن الجبل بـل وعن «يروشـلايم» كلهـا؟ **والأقـرب إلى منطق الأشياء، والجبـل جبـل صهيـون، أن يكـون وقوف الخروف عـلى قمته بصحبـة المائـة وأربعة وأربعـين ألف** «مفـدّي» من أسباط إسرائيـل. فهل تعـين الادعاء عمـلاً على مـوازنة اليهود المفديين بعدد مماثل من المسيحيين الأطهار، طلباً للتساوق كما في (الشكل رقم ٢) الذي يصوّر تنظيم الحضور في قاعة العـرش طبقاً لذلك التفسير لرؤيا يوحنا؟ وهل تعين ـ تحقيقاً لذلك ـ اختـراع ضرب





رؤيا يوحنا اللاهوتي لقاعة العرش في السماء

(الشكل رقم ٢)

خاص من الطهارة لذلك الحشد الإضافي هو «عدم التنجس بالنساء» بالتعامي عن الحقيقة الماثلة في أن اليهود المفديين البالغ عددهم ١٤٤ ألفاً بالتمام والكمال، من المحتم ـ تبعاً لناموس موسى وأوامر يهوه ـ أن يكونوا «مقدّسين» بغسل ثيابهم جيداً والامتناع عن التنجس بالنساء كما علّم موسى «الشعب» قديماً وهو يعدّه لرؤية يهوه رأى

العين و«الشعب» واقف أسفل الجبل لا داخل قاعة العرش. ومن الثابت، على أية حال، وإن أزعج ذلك المسيحيين الطامعين في المساواة، أن أولئك الوُقُوف مع الخروف على جبل صهيون هم زبدة النوع البشري كله، أو «**الباكورة المشتراة من كل الناس لله**» وأنهم «**لا غش ولا عيب فيهم قدام عرش الله**»، أي ـ بغير كبير لف ولا دوران، هم صفوة شعب يهوه المختار.

والمسألة، على أي حال، لا مجال فيها للف أو دوران، فهي أشد استقامة وأكثر تحدداً ووضوحاً من أن تسمح لأحد بالانخراط في أية مراوغات. فمجيء المسيح، البطل المخلّص الذي وعد يهوه شعبه المختار بأن يبعثه، متعلق بأمور بالغة الخطر لا سبيل إلى تناسيها أو تجاهلها:

أولاً: من المتعين، إذ يتحقّق ذلك المجيء، أن يجمّع اليهود وتعود الشكينة، وهو ما يصلي اليهود من أجله ثلاث مرات في اليوم، كل يوم[١١]، منذ هُدِم الهيكل وبدأ الشتات سنة ٧٠ م. وذلك هو «الخلاص» أو «الفداء» الذي يتطلع إليه اليهود: لمّ شمل اليهود من أربعة أركان المعمورة على كل الأرض المتعاقد عليها مع يهوه، أي «الأرض الموعودة»، وهي ليست فلسطين وحدها، بل كل الأرض من النيل (نهر مصر، لا «غدير مصر») إلى الفرات.

ثانياً: من المقرر إلٓهياً، إذ يتحقّق ذلك المجيء، أن تحرر يروشلايم فتطهّر من كل أغلف نجس، أي من كل «جُويْ»، غَيْر، أي من كل من هو ليس يهودياً (وذلك معنى «أورشليم الجديدة» النازلة من السماء مزينة كعروس مهيأة لرجلها في رؤيا اللاهوتي) وأن يقام الهيكل الثالث على البقعة المقدسة نفسها من الأرض التي ملّكها الله لشعبه المختار بعد أن تكون، ككل يروشلايم، قد طُهِّرت من كل أغلف نجس، وتلك البقعة هي «جبل الهيكل» المقام عليه ـ كما يؤكد الثقاة اليهود ويؤمن «مؤمنو الهيكل» ـ المسجد الأقصى.

ثالثاً: من المقضيّ به منذ بدء الخليقة (لأن كل التاريخ تقرر في ستة أيام الخلق) أن يتحقق - تحت قيادة المسيح الحقيقي - انتصار الشعب المختار على كل أمم الأغيار في «يوم يهوه» الذي ستسيل فيه دماء الأغيار الذين يعذبون إسرائيل غير دارين بما هو مخبأ لهم، وتجري أنهاراً، وتتراكم جثثهم فيصعد نتنها إلى عنان السماء فيتنسم يهوه رائحة الرضى ويزهر الأرض بالنرجس لأن يوم انتقامه الذي توعد به الخليقة وتعهد به لنبييمه قد تحقق، وبتحققه يصبح شعبه المختار، لا «قوة عالمية» فقط، بل القوة العالمية التي لا قوة سواها والتي يخرج القانون منها إلى كل الأرض من مركز السلطة، صهيون.

هذه الأحداث الكبرى هي التي سيتحقق بها غرض يهوه من خلق العالم لأجل إسرائيل ومملكة التوراة، وهي وحدها ولا شيء سواها العلامات المؤكدة على حدوث المجيء والدليل الإلّهي الذي لا يدحض على أن المجيء مجيء المسيح الموعود، وبدونها لا وجود لمجيء ولا حق لأحد في أن يدّعي لنفسه، دجلاً، صفة مسيح الرب يهوه مخلّص إسرائيل وبطلها المحارب.

ولما كان المسيح الذي يدّعي المسيحيون أنه جاء لم يفعل لليهود شيئاً ولم يقم ملكهم بل كان تشتتهم ونفيهم هم والشكينة (سكني يهوه بين ظهرانيهم) بعد ظهوره وادعائه بأنه المسيح الموعود الذي من صلب دواد.

ولما لم يحرر ذلك المسيح المدّعي يروشلايم من كل من لم يكن يهودياً ولم يحفظ الهيكل بل جعل من يروشلايم موطئاً لكل أغلف بالجسد وأغلف بالروح وهدم الهيكل بعد عقود قليلة من ظهوره.

ولما لم يكن ذلك المسيح المدّعى بطلاً محارباً بل داعية خنوع وسلام، ولما لم يحقق انتصار الشعب المختار على كل أمم الجوييم، ولم يجعل شعب يهوه وابنه البكر قوة عالمية، دع عنك جعله القوة

الأعظم حاكمة العالم، بل ـ على العكس ـ بات «شعب الله المختار» بسبب دعوته الوثنية (المسيحية) ضحية للأغيار الوثنيين، وهُدِم هيكله، وزال مجده، بل دُمِّر وشُتِّت في بلدان من اعتنقوا دعوة ذلك المسيح المدّعى، واضطُهد فيها، وباتت تلك البلدان الوثنية (المسيحية) قوى عالمية يضطر الشعب المختار إلى العيش في حماها مرحلياً.

لذلك كله، إن لم يكن للمسائل الأخرى التي حاول أن يخرّب بها ديانة يهوه ويضلّ شعبه المختار بادعاء أنه «يكمّل» الناموس، في حين أن الناموس ـ بحكم نزوله على موسى من لدن يهوه ـ كان من مبدأ الأمر الكمال عينه، يستحيل أن يكون ذلك الدعيّ مسيح يهوه المنتظر.

وعلى ضوء ذلك، لنعد إلى «خروف» اللاهوتي، ونحاول أن نستكشف هويته الحقيقية، متحررين من مراوغات ذلك الرائي واعتذارات الشراح والمفسرين والمعتذرين المسيحيين الذين وجدوا أنفسهم مرغمين ـ وقد حشرت «الرؤيا» في الثلث الذي خصّ ديانتهم من «الكتاب»، حتى وإن حشرت كحاشية في ذيله ـ إلى الاستماتة في إضفاء معقوليةٍ لاهوتية ما على تذييل «العهد الجديد» بتلك الرؤيا اليهودية.

إلا أنه يحسن التوقف أولاً عند هذه الأقوال الحكيمة للمتخصص اليهودي موشه جاستر، من حيث أنها تلقي ضوءاً (مطلوباً بشكل خاص فيما يتعلق برؤيا اللاهوتي ودوافعه إلى «رؤيتها») على هذا النوع من الإبداع الأدبيّ ومراميه وحيل مؤلفيه:

«في اللحظة التي تنقطع عندها القدرة على التنبؤ، تحلّ «الرؤيا» بغموضها الميتافيزيقي وميلها إلى الترميز محل النبوءة. والمشاهَد أن «الرؤى» قامت بمثل ما قامت به النبوءات من إيراد للنُّذُر والبشائر عما ينطوي عليه المستقبل، ولكن بشكل مجازيّ متصف بجموح الخيال. ومن هذا نشأ الأدب الرؤيوي، وبخاصة في الفترة التي انقضت ما بين سفر دانيال

ورؤيا يوحنا اللاهوتي، وفي القرنين أو القرون الثلاثة التي أعقبت ذلك.

«ومنذ نشأته، استُغِلّ الأدب الرؤيوي أو بالأحرى «الأبوكريفي» (المنحول) **من جانب كل من رغب في التأثير في الجماهير العريضة وحيازة نفوذ عليها**، وقد كثر استخدامه بشكل خاص من جانب الشيع المسيحية الهرطيقة. فعامة الناس، كقاعدة، لا يقدرون على فهم شيء من المسائل العليا والمستدِقّة المتعلقة بالعقيدة، ولهذا فإنه يسهل بشكل أكبر التعامل معهم من جانب أولئك الذين يتكلمون لغتهم المعتادة، وأولئك الذين يخاطبونهم من داخل ما هو شائع بينهم من أفكار، مستخدمين في ذلك صورهم اللفظية المألوفة وما هو مستخدم بينهم من استعارات.

«**والواقع أنه لا توجد وسيلة أفضل من هذه لتحقيق الشعبية للعقائد التي تكون قد انحرفت أو تفرعت عن الخط المستقيم لأرثوذكسية العقيدة. فاي طريقة افضل، تحقيقاً لتلك الغاية، من طرح تلك العقائد على شكل حكاية دينية، أو كناية توراتية، أو رؤيا اخروية (عن «آخر الأيام»)**؟ ولذا فإن المؤلفات ذات النزوع التنبؤي الديني عُزِيت عادة لشخصيات جليلة من الآباء، من آدم فنازلاً. وقد كانت لكل شيعة، في ذلك المضمار، شخصيتها المفضّلة. وباستخدام ذلك الأسلوب، أُلّفت كتب مختلفة، أو عدّلت وحوّرت ـ في بعض الحالات ـ كتب ضاربة في القدم كيما توائم متطلبات الشيع التي اقتضت مصالحها ذلك. وهكذا تكاثرت تلك المؤلفات عدداً. ومن وقت مبكر للغاية دخلت تلك المؤلفات في منافسة مع السلطات الكنسية الحاكمة، ولذا وضعت تلك السلطات فهارس بتلك المؤلفات الهرطيقة حُثّ المؤمنون فيها على إحراقها باعتبار ذلك واجباً دينياً مقدساً. إلا انه من الغريب حقاً أن كل الكتب الأبوكريفية المنحولة والممنوعة، بقيت ـ بالرغم من ذلك ـ ووصلتنا، بشكل كاد يكون كاملاً. وإن كان البعض منها دُمِّر فعلاً واختفى..»[١٢].

ثم، وقد توقفنا هذه الوقفة، لنعد إلى اللاهوتي، محاولين الوقوف على الهوية الحقيقية لـ «بطل» رؤياه الأخروية. وطريقنا إلى ذلك:

(١) تصويره لـ «المسيح» الذي تحدث عنه وقال إنه أرسله.

(٢) تصويره لمعركة هرمجدّون الكونية الكبرى، وكلامه عن جوج وماجوج.

(١/١) تصوير اللاهوتي لـ «المسيح»

في بداية السِفْر، يخبرنا اللاهوتي أن الله أعطى المسيح (يسوع الناصري) بياناً ليوقف البشر على ما سوف يحدث عما قريب (النذير الذي تحدث عنه جاستر)، وأن المسيح بدلًا من أن يذيع ذلك البيان الإلّهي بنفسه أو عن طريق ملاك، كلّف ملاكاً بإعطائه إلى عبده يوحنا كيما يتكفل بإذاعته، لكنه ما يلبث أن يقول إن المسيح تجلى له شخصياً وقال له أنا الألف وأنا الياء، أنا الأول وأنا الآخر والذي تراه أكتب في كتاب وأرسل إلى الكنائس السبع التي في آسيا. وكان اللاهوتي، أثناء تواجده منفياً بجزيرة بطمس، مستطيعاً أن ينظر باتجاه كل كنيسة من تلك الكنائس السبع وهو على قمة من قممها الصخرية المرتفعة، ويبدو أنه راودته فكرة كتلك التي خطرت لبولس الرسول وهو في طريقه إلى دمشق عندما انكفأ على وجهه وسمع الصوت مدوياً في رأسه «شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟».

إلا أنه أياً كانت الأفكار التي دفعت اللاهوتي إلى كتابة ما كتب بيونانية يقول المتخصصون إنها ركيكة مرتبكة راكبة فوق بعضها بعض، يحسن التوقّف عند الرؤية التي رأى بها «المسيح»:

> «شبه ابن إنسان متسربلاً بثوب إلى الرجلين ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب. وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار. ورجلاه شبه النحاس النقي كأنهما محميتان في أتون» (١: ١٣ ـ ١٥) (وهذه، كما أسلفنا، أوصاف مستعارة من حزقيال ودانيال. وقد أضاف إليها اللاهوتي سيفا):

«وسيف ماض ذو حدّين يخرج من فمه».

(١: ١٦)

«ابن الله الذي له عينان كلهيب نار ورجلاه مثل النحاس النقي».

(٢: ١٨)

«الذي له سبعة أرواح الله والسبعة كواكب».

(٣: ١)

«القدّوس الحق الذي له مفتاح داود الذي يفتح ولا أحد يغلق، ويغلق ولا أحد يفتح».

(٣: ٧)

«الأسد الذي من سبط يهوذا أصل داود».

(٥: ٥)

«خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين هي سبعة أرواح الله المرسلة إلى كل الأرض.. وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش.. ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة: للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين».

(٥: ٦ و ١١ ـ ١٣)

بعض هذه التسميات، كـ «ابن الإنسان»، و«ابن الله»، و«الخروف»، الواردة في رؤيا يوحنا اللاهوتي تعييناً لمن كتب عنه، يمكن أن تعتبر إشارات إلى الناصري حيث أنه دعي بها بل واستخدم هو بعضها، وبخاصة «ابن الإنسان»، في الإشارة إلى نفسه. غير أن الناصري لم يوصف ـ وهو الذي يطالعنا من صفحات العهد الجديد وديعاً صبوراً ومحباً ـ بأن «عينيه كلهيب نار»، أو بأن «رجليه شبه

النحاس النقي كأنهما محميتان في أتون»، أو بأن له «سبعة قرون وسبع أعين»، أو بأنه «ممسك بسبعة كواكب في يمينه»، أو بأنه يحمل «سيفاً ذا حدّين»، كما وصفه اللاهوتي. فكل هذه تهاويل مسيحانية تشير إلى أن من «رآه» اللاهوتي كائن محارب ضارٍ كأسد، مسحور له سبعة قرون وسبع أعين، وصاحب سيف ذي حدّين. ولعل أوضح مفتاح يمكننا العثور عليه بين ركام رموز اللاهوتي وتلغيزاته، مفتاح يزودنا به ذلك «السيف ذو الحدّين»، وتحدده لنا أكثر تلك «الكواكب السبعة التي في يمينه».

فالسيف لم يرد له ذكر في حكاية الناصري كلها إلا في قوله «أنا لم آت لألقي سلاماً بل سيفاً» بمعنى أنا لم آت لأهادن في «تكميل الناموس» بل لأحارب في سبيل ذلك بدعوتي. ولهذا عني اللاهوتي بأن يضع ذلك السيف في فمه. غير أن مجمل الرؤيا يشير إلى أنه عندما يتحدث عن «ذلك الذي له السيف الماضي ذو الحدين» (٢: ١٢) يحكي عن السيف الذي ارتبط بالإله المحارب يهوه، رب الجنود، ورجل الحرب، والذي تقول الرؤى المسيحانية إن يهوه سيسلمه لـ «مسيحه» الذي وعد اليهود به ليقود جيوشه في مذبحة الأمم التي سيقام من خلالها ملك صهيون على كل الأرض. ولقد كان من أهم أسباب رفض اليهود للناصري واستخفافهم به أنه من مبدأ الأمر قال «طوبى لصانعي السلام» ولم يقل «مجداً لصانعي الحرب».

أما الكواكب السبعة التي قال اللاهوتي إنه رأى من رآه ممسكاً بها في يمينه وتردد ذكرها أكثر من مرة في سفر الرؤيا فكناية عن شمعدان اليهود الشعائري، المينورا، وهو ما يقطع به سفر زكريا (٤: ١٠)، ويوسف بن ماتياس (يوسفوس) في «الحرب اليهودية (٥: ٥، ٥). وقد أشرنا قبلاً إلى استخدامه للمناير السبع في الترميز عن المينورا. ويبدو أنه لم يجد ذلك كافياً، فاستخدم رمز الكواكب السبعة على سبيل التأكيد المضاف.

(٢/١) معركة هرمجدّون وجوج وماجوج

وهو ما يعود بنا إلى حيث بدأنا في مستهل هذا الفصل، إلى معركة هرمجدّون وإلى جوج وماجوج، ويقودنا ـ بالتالي ـ إلى سفر حزقيال. فذلك المتنبىء يقول إن يهوه أمره قائلاً «يا ابن آدم اجعل وجهك على **جوج أرض ماجوج رئيس روش ماشك وتوبال وتنبأ عليه، وقل هكذا قال أدوناى يهوه: هأنذا عليك ياجوج رئيس روش ماشك وتوبال**. وأرجعك وأضع شكائم في فكيك.. تنبأ يا ابن آدم وقل لجوج» (١:٣٨ ـ ٤ و ١٤).

فمن يكون جوج ذاك «الرئيس الرأس لماشك وتوبال» الذي ركب دماغ حزقيال فكرس لـ «التنبؤ عليه» اصحاحين كاملين (٣٨ و ٣٩) من سفره المتوقّد بنار لا تنطفىء؟ لا أحد يعرف يقيناً إلا يهوه وحزقيال. فقد حار في أمر جوج الشراح والمفسرون: من قائل إنه أنطيوخس الرابع (ابيفانس) وقد طلع لحزقيال بأفعاله الشريرة قبل أن يوجد بأكثر من أربعة قرون، إلى قائل بأنه قمبيز، إلى قائل بأنه رمز لجبروت الكلدانيين، إلى قائل بأنه رمز مسبّق لسلطان «الترك المحمديين»، أي المسلمين، وكل قائل يقول عن يقين مطمئناً إلى أن ذلك الكلام قيل لحزقيال حقيقة وواقعاً عن جوج الرئيس الرأس ذاك قبل الواقعة البحتة بقرون عديدة. أو لم يكن حزقيال نبياً؟ أو لم «تكن عليه يد يهوه»؟

ولكن، مرة أخرى، من يكون جوج ذاك الذي بلغ من الخطورة حداً جعل التلموديين يؤكدون أن كل من يحفظ السبت كما يجب سوف تكتب له النجاة من ثلاثة شرور فظيعة ذكرت صعوداً من السيىء إلى الأسوأ: فلن يعاني عذابات المسيح المنتظر، ولن يذوق عذاب جهنّا (الجحيم)، ولن يعرّض لأهوال حرب جوج وماجوج الضروس[١٣].

لنرجع إلى حزقيال، فهو يصف جوج أرض ماجوج ذاك بأنه

«الرئيس الرأس لماشك وتوبال». فمن يكون ماشك وتوبال أولاً؟

ورد الاسمـان، لأول مرة في العهـد القديم، في سفـر التكوين بـين أسماء أبناء يافث وأحفاد نوح: «وهذه مـواليد بني نـوح سام وحـام ويافث.. بنو يافث جومر، وماجوج، وماداي، وياوان، وتوبال، وماشك، وتيراس» (١٠: ١ و ٢). ولما كان سفر التكوين يقول عن مـواليد بني نـوح الذين ولـدوا بعد الطـوفان «ومن هؤلاء تفـرقت جـزائـر الأمم بأراضيهم كل إنسان كلسانه حسب قبائلهم بـأممهم» (١٠: ٥)، فإن كـل مولـود بعد الطـوفان من أولئـك المباركـين كان، لا بـد، في عرف التاريخ التوراتي، «أباً لشعب» من الشعـوب. وبذا تكـون لدينـا، من الأسماء الواردة بسفر حزقيال، ثلاثة شعوب: شعب اسمـه ماجـوج، وشعب اسمه توبال، وشعب اسمه ماشك.

وشجرة العائلة نفسها هذه، نجدهـا مكررة في سفـر أخبار الأيـام الأول (١: ٥). لكننا، في حين نجـد في كل من التكـوين وأخبار الأيـام الأول ذكراً لأبناء جومر، ابن يافث البكر: اشكناز، وريفاث، وتوجَرْمه، وأبناء ابنه الرابع ياوان: أليشه، وترشيش، وكتيم، ودودانيم، لا نجد ذكراً لأبناء بني يافث الآخرين، وبالأخصّ ماجوج، وتوبال، وماشك.

غير أننا نجد المتنبىء حزقيال، وهو آخذ في «رفع مرثاة على صور»، معنياً بأن يحدد من بين ذنوب صور التي قال له يهـوه إنه سيعـاقب صـور بسببها أشـد عقاب أن «يـاوان، وتوبـال، وماشـك، كانـوا هم تجارك (ياصور). بنفوس الناس وبآنية النحاس أقاموا تجـارتك. ومن بيت توجَرْمه (ابن جومر) بالخيل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك». (٢٧: ١٣ و ١٤).

ثم نعـود فنجد ذلـك المتنبىء المشتعل بحـزازة نـاريـة ضـد كـل الشعـوب، آخذاً ـ في غمـار تنبؤه على الغُلْف، جمهـور مصر، وبنـات الأمم العظيمة، وأشور وكل جماعتها ـ في التنبؤ بنهايـة سيئة للغـاية لشعبي ماشك وتوبال: «هنـاك ماشـك وتوبـال وكل جمهـورها حـوله

قبـورها. كلهم غُلْف قتـلى بـالسيف مـع أنهم جعلـوا رعبهم في أرض الأحياء. ولا يضطجعون مع الجبابـرة الساقطـين من الغُلْف النازلـين إلى الهاوية بأدوات حربهم وقد وضعت سيوفهم تحت رؤوسهم فتكون آثامهم على عظامهم مع أنهم كانوا رعب الجبـابرة في أرض الأحيـاء» (٣٢: ٢٦ و ٢٧). فحتى بعـد الموت سيخص يهـوه ماشـك وتـوبـال بإذلال خاص لشدّة كرهه لهما.

فالمسألة إذن مسألة كراهية طافحة بالصديد المعهـود لـ «الأمم»، لكنها ـ في هذه الحالة ـ كراهية خـاصة منصبـة على مـاشك وتـوبال ورئيسهما الرأس جوج الذي من نسـل ماجـوج، لأن ماشـك وتوبـال شكّـلا جماعـة بشرية نقم عليهـا «الشعب» اسهامهـا في ثـراء صـور وعلوها بتجارتها وأسـواقها، لكنـه وجد من الصعب افتـراسها فجبن أمـام خيلها وعتـادها واستعـدادها للحـرب وكل تلـك الأشيـاء التي جعلتهـا «رعبـاً للجبـابـرة في أرض الأحيـاء»، فكـان أن ظلت نـيران الكراهية تنفجر حمماً من دماغ حزقيال على امتداد اصحاحين كاملين لا أقل.

وهـو ما يـذكرنـا بكراهيـات قديمـة نفثها مؤلفـو سفـر التكـوين ومحرروه فأجروها على لسان بعض الشخصيات الرئيسية في حكايتهم التي حكـوها في ذلـك السفر. من تلـك الكراهيـات كراهيـة خـاصـة للحثيين. وقد أجريت الحزازة التي خُصّ الحثيون بها على لسان رفقة زوجـة اسحق. وغيرهـا كراهيـة مستعـرة لقـوم عيسـو، الأدوميـين. والكراهية للكنعانيين. والكراهية للبـابليين. ولـلأشوريـين. ولمصر. فهو تاريخ ملتو غريب طافح بالكراهية والمقت. لكنه في حالة ماشك وتـوبال وصل إلى درجة الغليان، فانفجر في سفر حزقيال. ثم جـاء اللاهـوتي، فاستعاره من حزقيال وخلطـه بالكـراهية لـروما ليصنـع رؤيا لنهـاية التاريخ.

وفي تلك الرؤيا يلتحم جيش «أبناء النـور» بجيش «أبناء الظـلام». وقد كان العهد قريباً ـ وقت تأليف يوحنا اللاهوتي رؤياه ـ بالـزيلوت

المتهوّسين الدينيين، أقران حشاشي الحسن الصباح، الذين دعوا أنفسهم «بأبناء النور» في حربهم المقضي عليها بالفشل والتي انتهت بالانتحار، ضد الوثنيين الرومان «أبناء الظلام». وهكذا فإن اللاهوتي عندما «رأى» معركة هرمجدّون في دماغه الذي جاشت فيه رؤى محمومة معظمها مستعار من حزقيال ودانيال وزكريا والتمرد اليهودي الذي كان تاريخاً معاصراً بالنسبة إليه، أدار تلك المعركة بين جيش القديسين بقيادة المسيح الذي حاول أن يجعله المسيح الناصري والذي نطقت فيه كل صفات المسيح المنتظر المحارب الذي بفضله ستقوم مملكة صهيون على كل الأرض ليحكم العالم شعب يهوه المختار، وبين جيش ائتلاف الأشرار بقيادة «جوج وماجوج» عند الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدّون، أي «جبل مجدّو». ومجدّو هذا اسم بلدة فلسطينية تقع على بعد خمسة وخمسين ميلاً شمالي القدس، جنوب نهر قيشون. وقد كانت في تاريخ فلسطين ميدان قتال لمعركتين كبريين نشبت أولاهما في القرن الخامس عشر ق.م. بين جيش مصر بقيادة تحتمس الثالث وجيش ائتلاف كنعاني سحقه تحتمس، ودارت رحى الثانية في عهد الملك يوشيا، سنة ٦٠٨ ق. م.، عندما «صعد نخو فرعون مصر على ملك أشور إلى نهر الفرات (فتصدى) له الملك يوشيا في مجدّو، فقتل نخو الملك يوشيا حين رآه، وأركبه عبيده ميتاً من مجدّو وحملوه إلى أورشليم فدفنوه هناك» (الملوك الثاني ٢٣: ٢٩ و ٣٠). ويقول عظيموف[١٤] إن مصرع يوشيا (وهو الملك الذي اضطلع بحركة الاصلاح الديني الكبرى بدأ بيد مع حلقيا الكاهن) في مجدّو جعل لتلك البلدة سمعة خاصة لدى اليهود بوصفها رمزاً للكوارث والنكبات. إلا أن الأقرب إلى الواقع أن الهزيمة التي لحقت بيوشيا على أيدي المصريين كانت ماحقة وترتب عليها دفع جزية ثقيلة «من الذهب والفضة» لفرعون، مما تطلب فرض ضرائب ثقيلة على «الشعب».

وبالنظر إلى تلك الخلفية، كان اختيار مجدّو موقعاً للمعركة

المسيحانية الكبرى التي سيقوم بعدها ملك صهيون على كل الأرض ويتسيّد شعب يهوه المختار كل الأمم بمثابة إنهاء فعلي لتاريخ العالم وابتداء لعالم جديد «سماء جديدة وأرض جديدة وأورشليم جديدة».

وباستخدام المادة الأسطورية التي كانت متوافرة له، صنع اللاهوتي رؤيا تلك المعركة الكونية الفاصلة:

> «ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم وبالعدل يحارب. وعيناه كلهيب نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب لا يعرفه أحد إلا هو. وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعى اسمه كلمة الله».
>
> (١٩، ١١ - ١٣)

وهذا هو البطل السماوي الذي سيقود المعركة، المسيح المحارب المنتظر:

> «والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزا أبيض ونقياً. ومن فمه يخرج سيف ماض ليضرب به الأمم وهو سيرعاهم (سيسوسهم) بعصا من حديد وهو يدوس معصرة خمر سخط وغضب الله القادر على كل شيء. وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب».
>
> (١٩: ١٤ - ١٦)

وهذا هو جيشه، ودوره، وصفته كملك كل الأرض ونائب يهوه:

> «ورأيت الوحش وملوك الأرض وأجنادهم مجتمعين ليصنعوا حرباً مع الجالس على الفرس ومع جنده».
>
> (١٩: ١٩)

وهؤلاء هم خصوم المسيح المحارب الذين جمعتهم الأرواح النجسة:

> «ورأيت من فم التنين ومن فم الوحش ومن فم النبي الكذاب ثلاثة أرواح نجسة شبه ضفادع. أرواح شياطين صانعة آيات تخرج على العالم وكل المسكونة لتجمعهم

لقتال ذلك اليوم العظيم، يوم الله القادر على كل شيء..
إلى الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدّون».
(١٦: ١٣ و ١٤ و ١٦)

وهذه هي قوى الشر التي تضل الشعوب وملوك الأرض وتجمعهم للذبح:

«فقبض على الوحش والنبي الكذاب معه الصانع قدامه الآيات التي أضلّ بها من قبلوا سمة الوحش ومن سجدوا لصورته وطرح الاثنان حيين إلى بحيرة النار المتقدة بالكبريت. والباقون قتلوا بسيف الجالس على الفرس الخارج من فمه وجميع الطيور شبعت من لحومهم».
(١٩: ٢٠ و ٢١)

فهي مذبحة كونية دعيت إليها كل طيور الأرض لتشبع من اللحم في «عشاء الإله العظيم».
(١٩: ١٧ و ١٨)

لأن الإله أقام تلك المأدبة احتفالاً بانتصاره على أعدائه الذين لم يبق منهم إلا إبليس:

«ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكي لا يضلّ الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة وبعد ذلك لا بد أن يحل (تفك قيوده) زماناً يسيراً».
(٢٠: ١ و ٢)

فالصراع الكوني لم يكتب له أن ينتهي بعد، وكل ما هنالك أن فسحة ألف سنة أعطيت للعالم:

وخلال تلك السنوات الألف سوف يعيش الأبرار مع المسيح ويملكون:

«وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف سنة.

> «فهذه هي القيامة الأولى. مبارك ومقدس من له نصيب في القيامة الأولى. هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم بل سيكونون كهنة لله والمسيح وسيملكون معه ألف سنة».
>
> (٢٠: ٤ - ٦)
>
> «ثم متى تمت الألف سنة (سوف) يحل الشيطان من سجنه».
>
> (٢٠: ٧)

وهو ما يدعو للتساؤل: لم لم يجهز المسيح المحارب على كل الشرور وأولها «الحية المتحوية»، الشيطان، التنين، إبليس، ولم تعين أن تعاني الأرض مرة أخرى بعد نعيم الألف سنة من عبث قوى الشر؟

يبدو أن لذلك علاقة بسحر العدد ٧. فالعالم، تبعاً لسفر التكوين، خلق في ستة أيام، وفي اليوم السابع، السبت المقدس، استراح يهوه من عناء الخلق. ولما كان من المعروف، يهودياً، أن «اليوم»، فيما يخص يهوه = ألف سنة فإنه كيما يتساوق آخر الأيام وأول الأيام تعين أن يكون التاريخ تكراراً لسبعة أيام الخلق، ولكن بحساب إلهي يستغرق كل يوم من الأيام السبعة فيه ألف سنة. وهكذا فإن مخاض الخلق (ستة أيام) تعين أن تعانيه الأرض ومن عليها طوال ستة آلاف سنة من العناء والعذاب والخطيئة والضلال والشر والشقاء، ثم في يوم سبت الخليقة، تستريح الأرض من العذاب يوماً إلهياً، أي ألف سنة في ظل المسيح. ثم، إذ ينقضي ذلك السبت الألفي تكون الدورة قد اكتملت وتحل نهاية التاريخ، وهي نهاية تبدأ، مثلما بدأت البداية في حكاية آدم وحواء، بالحية، إبليس، فهو إذ يطلق سراحه من سجنه في الهاوية بعد تمام الألف سنة.

> «يخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر».
>
> (٢٠: ٨)

فهذه هي المعركة الفاصلة ونهاية التاريخ:

> «فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر

القديسين وبالمدينة المحبوبة (أي أورشليم) فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يضلّهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون ليل نهار إلى أبد الآبدين».

(٢٠: ٩ و ١٠)

وبانتهاء الصراع، يبدأ الحساب إذ:

«يسلم البحر والموت والهاوية الأموات ليدانوا كل واحد بحسب أعماله. ويطرح الموت والهاوية، مرة ثانية، في بحيرة النار. وهذا هو الموت الثاني. وكل من لم يوجد اسمه في سفر الحيوة يطرح في بحيرة النار».

(٢٠: ١٣ ـ ١٥)

وبانتهاء التاريخ، تنتهي الأرض الأولى والسماء الأولى والبحر:

«ثم رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى ولت والأرض الأولى مضت والبحر لم يعد له وجود. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون فيما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت».

(٢١: ١ ـ ٤)

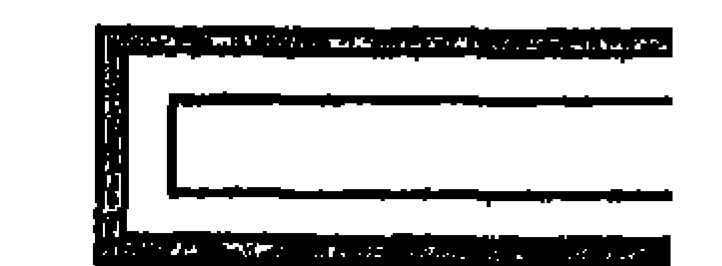
وبذلك ينزل الستار الأخير على دراما الخليقة.

فنحن نرى، بدأت المسألة بالنقمة على روما واستجلاب اللعنة عليها لاضطهادها اليهود، ثم تضخمت إلى أبعاد كونية أفضت في خاتمة المطاف إلى تحقق وعد يهوه لموسى في سفر الخروج حين أمره

بصنع خيمة الهيكل والتابوت ووعده، إن فعل، بأن يسكن وسط بني إسرائيل ويكون إلهاً لهم.

وبذلك تنقفل الدائرة، ويعود العالم، مثلما بدأ (تبعاً للتاريخ التوراتي)، عالماً لشعب يهوه المختار، أمة الكهنة المقدسة.

***



٢ الدين في جحيم المغفلين[١٥]

أياً كان رأي المرء في يوحنا اللاهوتي ورؤياه السيريالية شديدة التعبرن، ما من شك في أن الرجل «تنبأ»، نبوءة واحدة، عن غير قصد ربما، هي التي تحققت حتى الآن.

فرؤياه كلها كانت، منذ ذلك الوقت، نذيراً بالمسار الذي اتخذته المسيحية، والذي انتهى بها إلى الأفول وإخلاء المكان للمسيحانية.

والمسيحانية لا مؤدى لها، متى توخينا الصدق، إلا الابتداء من نقطة البدء وكأن شيئاً لم يحدث وأحداً لم يجيء. وربما كان ذلك هو المعنى الحقيقي للابتداء الذي أوحى به اللاهوتي في قوله عن السماء الجديدة، والأرض الجديدة، وأورشليم الجديدة المزينة لعريسها المنتظر.

وذلك ـ رغم كل تشنجات الموت التي تحاول الكنائس المسيحية التظاهر وهي في قبضتها بأنها ما زالت متواجدة في العصر وفاعلة ـ هو ما ينبيء عنه التوجّه الأساسي للتيار الأصولي في الغرب المسيحي، وبخاصة الولايات المتحدة.. وتوابعها.

وقد بدأ ذلك المسار، كما رأينا فيما أوقفتنا عليه المعطيات التي أوردناها في البابين الأول والثاني، بعبرنة المسيحية في غمار صراع سياسي/ اقتصادي/ اجتماعي مع الكاثوليكية، على أيدي «المحتجين»، البروتستانت، وهي عبرنة كانت الحجة الرئيسية فيها وجوب التمسك بحرفية العقيدة، أي بـ «كلمة الله» كما هي واردة في «الكتاب»، باعتبار كل كلمة في «العهد القديم» كله، لا في أسفاره الخمسة الأولى، أي «التوراة»، فحسب، «وحياً منزلاً من عند الله».

في تلك التربة الخصبة خصوبة مميتة (فيما ظل التاريخ يؤكده المرة تلو المرة بما سجله من العواقب المترتبة على مثل هذا الاعتقاد

بـ «حرفية الكلمة») بذرت، بعد الحرب الأهليـة الأميركيـة (١٨٦١ ـ ١٨٦٥)، بزرة «الأصولية» في الولايات المتحدة.

وكانت الولايـات المتحدة قـد ورثت عن انكلترا بـين ما ورثتـه من مكـونات المـوقف البروتستـانتي والتوجّـه التطهـري (Puritanical)، النـزعة الانجيليـة المحـافظـة التي اتسمت بهـا الكنيسـة الأسقفيـة الانكليزية في صراعهـا مع الكنيسـة الانجلو كـاثوليكيـة، وهي نزعـة اتسمت بادعاء المحافظة الصـارمة عـلى أساسيـات العقيدة كمـا هي واردة في «الكتاب»، وبميل أشبه بالزيلوتية اليهودية، أي ميل متصف بـالتعصب البالـغ للعقيدة إلى حـد يتخطى حدود المقبـول اجتماعيـاً والمعقول فكرياً.

هذه الانجيلية الصارمة وجدت تربـة صالحـة في الروح الأمـيركية الشجاعة وازدهـرت ازدهاراً خـاصاً كميكـانزم («آليّـة») دفاع ضـد مشاعر الذنب إبان عملية إبادة الهنـود الحمر، بـاعتبار أن إبـادتهم ضرورة أملتهـا المسيحية لأنهم «أعـداء اللـه والمسيـح» و«شيـاطـين متنكـرة في صـورة البشر»، لكنهـا ـ وقـد بـاتت أصـلاً من الأصـول الروحية والخطوط الدفـاعية ضـد الوعي بنبـوع الأمة الأمـيركية من جـريمة إبـادة جماعيـة لشعب بأكملـه لم يكن «شعبـاً من أبـالسـة الجحيم» أو أي شيء من ذلك القبيل، بل كان فقط مالكاً لـلأرض التي تعـين أخذهـا للغزاة الاستيطـانيين ـ نقـول إن الانجيلية الأمـيركيـة الصارمة والواقية من مشاعر الذنب هذه وجدت نفسها، بعد جائحـة الحـرب الأهلية، معـرضة لتيـارات فكريـة كاشفـة وخطـرة، انصبت باتجاهها من أوروبا الأم. وكان أول تلك التيارات وأخطرها ناجماً عن عملية إعادة النظر الشاملة في دعاوى مؤلفي العهد القديم من الكهنة اليهود على ضوء كشوف العلم وتقـدم العقل في غمـار ما عـرف باسم «النقد العالي» أو ـ بـالأصح ـ «الأعـلى» للكتاب المقـدس. أما التيـار الثاني، فكان الداروينية، نسبة إلى داروين ونظريته عن أصل الأنواع والنشوء والارتقاء عبر عملية طويلة من التطور استغرقت بغير شك ما

هـو أكثر من السنـوات الستّـة آلاف التي ضغط فيهـا مؤلفـو سفـر التكوين (أو بالأحرى مقتبسوه من أساطير الشرق الأدنى القـديم)[١٦] تاريخ العالم كيما يكون تاريخاً لـ «شعب الله المختار».

وبطبيعـة الحال، لم يـأخذ البـروتستـانت بعـامـة، والأمـيركيـون بخاصة، المسـألة وهم قعـود، بل هبـوا كدأبهم شجعـاناً إلى سـاحة الـوغى دفاعـاً عن أسس العقيدة ودرءاً لـ «المخـاطر الـروحية» التي وجدوا تلك التيارات التخريبية منطوية عليها.

ومن تلك الهبّة الشجاعة للدفاع عن «شرف الله»، تولّدت حركتـان «فكـريتان» أصـوليتان وجـد المسيحيون المحـافظون فيهمـا خندقـين إيمـانيـين في مـواجهـة الاجتيـاح العلمـاني، أي «الكـافـر». ودعمـاً للحركتين، ظهرت في أميركا، إثر نشر كتـاب تشارلس داروين، «أصـل الأنواع»، سنة ١٨٥٩، حركة «الخلقانية» (‘Creationism’ من الفعل «يخلق») التي بنت دعـواهـا «المقـدسـة» عـلى أن السفـرين الأول (التكوين) والثاني (الخـروج) من التوراة يجب أن يتمتعـا بحصانـة كاملة من الفحص والنقد والتنقيب نظراً لكونهما التـاريخ «المقـدس» لنشوء العالم وارتقائه. وكما هو ملاحظ، لم يقتصر «الخلقانيـون» على سفر التكوين، في ذلك الشأن، وهو السفر الذي تضمن «تاريـخ» خلق العالم، بل ضموا إليه سفـر «الخروج»، أي خـروج موسى عـلى رأس «بني إسرائيل» من مصر وبدء المغامرة الموسوية، وهو سفـر لا علاقـة له بـ «نشوء العالم وارتقائه» لكن له كل علاقة ببزوغ فكـرة «الشعب المختار» الأخصّ الذي ادّعت اليهودية، وتقبلت المسيحية المعبرنة، أنه «الشعب» الـذي خلق الله العـالم بـه ومن أجلـه. ولهـذا تعـين عـلى «الخلقـانيين» ضمـه إلى سفر التكـوين ليكون السفـران مكمّلين كـلّ للآخر كتاريخ «مقدس» لنشوء العالم وارتقـائه. وبطبيعة الحال، عني «الخلقانيون» بمحاربة «الدعاية المنافسة» فطالبوا بمنع تعليم التطـور في مناهج الدراسة بالمدارس والمعاهد الأميركية بـاعتباره مفضيـاً إلى «إفساد الأخلاق، ونشر الانحلال» و«مدمراً للكرامة الإنسانية» و«بغير

سند من العلم». وقد تزعم تلك الدعوة المنظر اللاهوتي المشيخي (نسبة إلى الكنيسة المشيخية Presbyterian) تشارلس هودج في كتاب بعنوان «ما هي الداروينية» (What is Darwinism?).

بالخلقانية، أقيمت متاريس الإيمانيات في وجه العقل. وبحركة الإدارة الإلهية لشؤون العالم، وحركة لاهوتية برينستون، حفرت الأصولية خندقين إيمانيين عميقين لروح أميركا.

أما حركة الإدارة الإلهية (Dispensationalism)، فحركة أخروية لاقت رواجاً شعبياً من مبدأ أمرها نظراً لما لوحت للجماهير العريضة به من أمل في قرب «الخلاص» وبدء عصر النعيم في القريب العاجل نظراً لأن «المجيء وشيك».

وقد استمدت الحركة اسمها من «فلسفة إيمانية للتاريخ» انبنت على النظر إلى التاريخ باعتباره مساراً من سبع (ذلك العدد السحري، مرة أخرى) مراحل: (١) مرحلة البراءة في جنة عدن، قبل السقوط في الخطيئة الأصلية، و(٢) مرحلة الضمير التي أعقبت الطرد من الجنة، و (٣) مرحلة الإدارة الإنسانية لشؤون العالم، في ظل العهد الذي قطعه يهوه مع نوح، و(٤) مرحلة الوعد، في ظل العهد الذي قطعه يهوه مع أبراهام بإعطاء نسله الأرض من النيل إلى الفرات، و (٥) مرحلة الشريعة، في ظل العهد الذي قطعه يهوه مع موسى بجعل «بني إسرائيل» شعبه المختار وأمته المقدسة، و (٦) مرحلة النعمة الإلّهية في ظل العهد الذي قطعه يهوه من خلال المسيح، و (٧) مرحلة العصر الألفي السعيد في آخر الأيام في ظل حكم صهيون للعالم.

وطبقاً لإيمانيات الحركة، ظلت كل مرحلة من تلك المراحل تنتهي ـ نظراً لفساد الطبيعة الإنسانية ـ بعصيان البشر لله ورفضهم لنعمته. وعملاً على «غربلة» العالم واستخلاص الأبرار من الأشرار، يقول الإداريون الإلّهيون (Dispensationalists) أن المسيح سوف يدعو الأبرار المؤمنين بملوكيته، في الفترة الحرجة بين المرحلة

السادسة والسابعة للاجتماع به في الهواء في غمار ما يدعونه بـ «الخطف». ومفهوم «الخطف» هذا نشأ عن قول بولس في الرسالة الأولى لأهل تسالونيكي «وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح (الشهداء) سيقومون أولاً. ثم **نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء**» (٤: ١٦ و ١٧). وفيما خلا مفهوم «الخطف» هذا المأخوذ من بولس، تظل الحركة، في أساسياتها، مدينة لرؤيا يوحنا اللاهوتي بمحتواها العبراني وتطلعها المسيحاني، وقد كان أول ظهور لها في كتابات جون نلسون داربي (١٨٠٠ ـ ١٨٨٢) القس المطرود من كنيسة إيرلندا، وأحد قادة «إخوان بليموث»، وهي شيعة انجيلية انكليزية ظهرت في مطلع القرن التاسع عشر وباشرت، رغم صغرها، تأثيراً قوياً على البروتستانتية، سواء في انكلترا أو في أميركا.

وبعد داربي، كان ترسيخ الحركة بوصفها تياراً «رسمياً» من تيارات الديانة الأميركية على يد قس من قساوسة الكنيسة الأبرشية (Congregational)، هو قورش (وقورش ـ كما نذكر ـ اسم الملك الفارسي الذي اعتبر «مسيح يهوه» لأنه أعاد المسبيين بعد هزيمة البابليين على يد الفرس إلى فلسطين) اينجرسون سكوفيلد (١٨٤٣ ـ ١٩٢١). وكان ترسيخ سكوفيلد لـ «الإدارية الإلّهية» ذكياً وعملياً في آن معاً. فقد أخذ الرجل ترجمة الملك جيمس المعتمدة للكتاب المقدس وحشر فيه هوامش وملاحظات جسّد فيها مفاهيم الحركة ودعاواها بحجة وضع «كتاب مقدس مرجعي» يسهل استخدامه والعثور على أي نص من نصوصه وفهمه بفضل ما هو مزود به من شروح. وقد نشر ذلك العمل الترويجي في سنة ١٩٠٩ بعنوان «كتاب سكوفيلد المقدس المرجعي»، ومنذ ذلك الوقت، باشر الكتاب تأثيراً قوياً على الحركة الأصولية في أميركا، وبات يدرّس في المعاهد الدينية ويستخدم في تدريب القساوسة على أصوليات الدعوة التي اضطلعت بها الحركة، وبشكل عام يعود إليه فضل الرواج منقطع النظير لـ «فكر»

«الإداريين الإلهيين»، وهو الرواج الذي جعلها أكثر «اللاهوتيات» شعبية في أميركا.

ومتى بحثنا عن سر تلك الشعبية الواسعة، عدنا إلى تحليل الباحث اليهودي موشه جاستر لدور «الرؤيا» وشغلها الفراغ الذي يحدثه انقطاع القدرة على التنبؤ، وقوله إن «الرؤيويّة استُغِلّت من جانب كل من رغب في التأثير في الجماهير العريضة وحيازة نفوذ عليها» باعتبارها أنجع وسيلة «لمخاطبة عقول من لا يقدرون على فهم شيء من المسائل العليا والمستدقّة المتعلقة بالعقيدة» عن طريق التواصل معهم «من داخل ما هو شائع بينهم من أفكار باستخدام صورهم اللفظية المألوفة».

فـ «النُهُج» (ونضعها بين أقواس تمييزاً لها عن «مناهج» بالمعنى العلمي للكلمة) التي من هذا القبيل الدهمائي تبدو صالحة بشكل خاص في مجال التخاطب مع العقلية الأميركية، ربما لطبيعة متأصلة في تلك العقلية، وربما لما أكسبها إياه من قابلية الانقياد للغوغأة الفكرية التأثير المتواصل اللحوح لنُهُج الإعلام الجماهيري القائمة على الإثارة واستخدام أسلوب «المقام المشترك» المنبني على مخاطبة الحد الأدنى من القدرات العقلية للجماعة التي تستهدفها الرسالة الإعلامية.

وذلك ما يبدو أن كلاً من داربي وسكوفيلد فطنا إليه في صوغهما للنسخة «الشعبية» الأميركية من الإيمانيات، فجعلهما يضعان في مكان القلب من الرسالة الموجهة إلى الجماهير الهدف «الرؤيا» بوصفها بؤرة النظام الإيماني الذي دعيا إليه، حتى وإن ظل سكوفيلد يتحدث في كل مناسبة عن «النبوءة» ودورها في الدين.

وأما الخندق الإيماني الآخر الذي حفرته الأصولية للروح الأميركية، فلاهوتية پرينستون التي نشأت عن اضطلاع أساتذة وخريجي مدرسة اللاهوت بتلك الجامعة الأميركية بالدفاع عن نقاء العقيدة في وجه الخطر الآخر القادم من أوروبا، خطر النقد التوراتي.

وقد كان الخط الذي اتبع في ذلك الدفاع ذكياً. فبالنظر إلى انتماء المدرسة إلى مؤسسة أكاديمية كجامعة برينستون، حتى وإن كانت قد أنشئت بأموال الكنيسة المشيخية، لم يكن بوسع أساتذتها وخريجيها انتهاج الخط اللاعقلاني الذي انتهجته الحركة الخلقانية في التصدي لنظرية التطور، والتخندق صراحة في خندق الإيمانيات. ولذا فإن المدرسة لاذت بالبراغماتية الأميركية المشهورة، وأعلنت أن «المخطوطات الأصلية للكتاب المقدس هي التي بلا أخطاء»، وبذا فإن النقد التوراتي حين يقيم الدنيا ويقعدها حول ما يصفه بأنه تناقضات وأخطاء علمية ومغالطات تاريخية ينصبّ نشاطه في الواقع على نصوص النسخ اللاحقة التي وقعت فيها أخطاء عند استنساخها من المخطوطات الأصلية! وهكذا فإن الحركة عندما أصدرت «إعلان بورتلاند» المتضمن ما انبنى عليه «فكرها» من أسس إيمانية، ركّزت ـ في المقام الأول ـ على القول بأن الكتاب «كلمة الله» التي أنزلها يهوه على موسى والنبييم، وأنه ـ تبعاً لذلك ـ مقدس لا يناقض ولا يجوز التشكك في صواب ما يقول. إلا أنها جنحت بعد ذلك إلى إبراز عدد من الأسس الإيمانية المسيحية التي انبنت عليها دعائم الديانة لكن اليهود رفضوها واعتبروها وثنية، كمسألة «المسيح»، ومسألة الميلاد العذري، والمعجزات، والقيامة بالجسد، والمجيء الثاني، فكان ذلك «الاتجاه الوثني» سبباً في دمارها واختفائها كحركة أكاديمية/ لاهوتية وتلاشيها من التيار الأصولي الأميركي، بل وقد أفضى في خاتمة المطاف إلى تقديم بعض الأساتذة الذين أسهموا في تكوينها والدعوة لها إلى المحاكمة بتهمة الهرطقة وإفساد العقيدة. وكان ذلك وقت أن بلغ تيار مقاومة العلم والعقلانية مداه بتقديم المدرسين الذين جرؤوا على التحدث إلى تلاميذهم في مدارس بعض الولايات عن تشارلس داروين ونظرية التطور إلى المحاكمة بتهمة الكفر وهدم المسيحية.

بفضل تلك المحاكمات وما صاحبها من تهييج غوغائي بحجة

الورع وما دار حولها من جدل وصاحبها من إثارة، ظلت الأصولية متصدرة مسرح الدين في أميركا، مسلِّطة عليها أضواءه، حتى أواخر العشرينيات من هذا القرن.

إلا أن الأصولية ـ فيما أدركه قادتها ومروجوها ـ كانت قد استنفدت كل ما كان بوسعها أن تفعله في تلك المرحلة، وباتت رسالتها مكرورة إلى حد أفقدها أعداداً كبيرة من المؤمنين. ولذا فإنها اختفت فجأة، منسحبة من مقدمة المسرح ومن دائرة الضوء. ويبدو أن اختفاءها كان اختيارياً ريثما تعيد تنظيم صفوفها، وترتب أولوياتها، وتجدد دعاواها وأساليب «بيعها»، وتبحث لنفسها عن مصادر تمويل وعرابين جدد.

وقد امتدت مرحلة «العزلة» هذه طوال عقد الثلاثينيات والسنوات الأولى من الأربعينيات، ثم، **فجأة، بعد منتصف الأربعينيات، في غمار عملية شاسعة من الدعاية والترويج للدواعي الدينية والضرورات الأخلاقية الداعية لإقامة الدولة اليهودية، بزغت الحركة الأصولية الأميركية من جديد. وفي بزوغها ذاك، زاوجت الحركة بمرونة أميركية تقليدية بين الاتجاه التبشيري الأصيل في البروتستانتية، وبين أساليب «البيع» المستخدمة تجارياً في ترويج السلع عن طريق وسائط الإعلام الجماهيري**. وكل ما كان هناك من فرق، فيما يخص السلع، أن السلعة التي اضطلعت الأصولية بترويجها كانت «الدين». وهكذا فإن المروجين لم يجدوا مأخذاً في استخدام تكنيكات وتقنيات ترويج الصابون ومساحيق التنظيف في «بيع» الدين لجماهير المستهلكين، مطمئنين إلى أن سمو السلعة ونبل الغاية كفيلان بإسباغ المشروعية على الوسائل المستخدمة في ترغيب المستهلك في الشراء:

«المشاهد أن الانبثاقة الأخيرة التي تحقق فيها إحياء الانجيلية المناضلة انبثاقة جديدة تماماً في نوعها، وأنها كالكثير مما هو أميركي، ارتبطت بالمال، وبالسطوة، وفوق كل شيء، بالتلفزيون. ففي

أميركا الآن (١٩٨٠) ٣٦ محطة تلفزيون لا تبث إلا البرامج الدينية، بالإضافة إلى ١٣٠٠ محطة إذاعة. ويشاهد الأميركيون برنامج جيري فالول المسمى «ساعة الزمن القديم الانجيلية»، على طول الولايات المتحدة وعرضها، من ٣٧٤ محطة تلفزيونية، بإقبال يفوق شغفهم بمتابعة حلقات مسلسل أوبرا الصابون «دالاس». ويتحصل الوعاظ التلفزيونيون على مبالغ جسيمة من المال، فيدوّرون بلايين الدولارات المعفاة من الضرائب كل عام (ويتحصل فالول بمفرده على أكثر من مليون دولار كل أسبوع). ويخاطب أولئك الوعاظ جمهوراً من المؤمنين يصل إلى ١١٥ مليوناً من الأميركيين»[١٧].

فما الذي «يبيعه» أولئك «الوعاظ»، ولأي غرض، ولحساب من يبيعونه فيتربحون من وراء بيعه كل تلك البلايين المعفاة من الضرائب؟

ولكن، أولاً، كيف أمكن أن يتحوّل الدين إلى سلعة تروّج وتباع وتسخّر لأي غرض خلا الغرض المفروض وهو الصلاح وعبادة الله ومعاملة الغير بالتي هي أحسن؟

يبدو أن من الضروري هنا أن ننظر إلى ما وراء دائرة الأصولية المسيحية حتى نتمكن من العثور على بداية خيط يوصلنا إلى بعض فهم لحقيقة المسألة.

فمنذ سنوات قليلة، تفجرت في الولايات المتحدة فضيحة دينية دارت حول «فقير» هندي، لا واعظ مسيحي أو حاخام يهودي، أسس «ديانة» دارت حول شخصه الكريم، اعتنقها مئات الآلاف من الأميركيين، رجالاً ونساء، وقدموا لـ «الرَجْنيش» مؤسس الديانة ومدار العبادة، «تقدمات» مكنته من تكديس ثروة هائلة، خلال فترة زمنية قصيرة للغاية، منها ٣٩ سيارة رولز رويس أهداها اليه المؤمنون. وعندما تكفلت جهة دينية منافسة نقمت على الرَجْنيش كل ذلك الثراء، بفضح العملية، فرّ الرجل آخذاً معه كل ما استطاع أخذه من مال، تاركاً أسطول الرولز رويس وراءه وهو آسف. وعندما

وصل الرجل إلى الهند وسئل عن حقيقة المسألة، قال لسائليه ببساطة إن «أولئك الأميركيين مغفلون.. بلهاء». وقال إنهم يموتون شوقاً إلى أن يضحك أحد على عقولهم ويأخذ أموالهم، فمن ذا الذي يلومه إن كان قد فعل؟

وقد يكون الأميركيون أو لا يكونون بكل تلك البساطة التي وصفهم بها الرَجْنيش في حديثه إلى الصحافة الهندية الذي قال فيه ما هو أشد إقذاعاً مما أوردناه. لكن الأميركيين، فيما تشير مواقفهم واتجاهاتهم التي تكشف عنها الدراسات العلمية، والتي يكتب عنها كثيرون منهم ومن محبيهم، أناس «طيبون»، متى أردنا أن نستخدم ذلك التعبير المصري المتحفظ بدلاً من تعبير الرَجْنيش الجارح. ومن علامات «طيبتهم» هذه، ما لاحظه الصحفي البريطاني المتأمرك بالروح ألستير كوك الشغوف غاية الشغف بكل ما هو أميركي من «تكاثر الديانات وأشكال العبادات تكاثراً يصل إلى العشرات إن لم يكن إلى المئات من تلك العبادات بينهم، نظراً لأن «أي نظرية عن الحياة والموت، عن الصحة والمرض، عن الفحولة الجنسية، عن القدر المكتوب، عن تناسخ الأرواح أو عن أي شيء كان، مهما كانت عارية أو ممعنة في البساطة (البلاهة)، سرعان ما تجتذب الأميركيين إلى الإيمان بها بحرارة بالغة»[١٨].

هذا الجوع إلى «الروحانيات»، أياً كان نوع تلك الروحانيات أو كان منتجها ومروّجها، يبدو كنتيجة لنوع غريب ضار من الخواء الداخلي الذي لا يكاد يكفي لملئه شيء، فهو خواء نهم أكول يجعل من يعاني منه متلهفاً إلى من يسدّه له بأي «بضاعة» يمكن أن تبدو «روحانية» بما فيه الكفاية.

وقد فطنت الحركة الصهيونية إلى أهمية هذا الخواء النهم إلى ما يسد جوعه، وأحسنت تسخيره في خدمة مشروعها الكوكبي الذي استمد رسمه الهندسي (blueprint) من الديانة اليهودية. والواقع أن

أحد الأوجه الخطرة لمشكلة الخواء الروحي النهم هذا وتسخير الصهيونية له، يتمثل في وضع قد يبدو كمفارقة ممعنة في الشذوذ أحد طرفيها المادية المفرطة والتخاذل الروحي وطرفها الآخر الانسحار باليهودية:

«تتمثل مشكلة المعاصرين مع الديانة اليهودية في كونها ديانة تمكّن كهنتها وكتبتها من إسباغ قداسة مزدوجة عليها: قداسة كونها ديانة، وديانة توحيدية سبقت زمنياً (وإن لم تسبق روحياً وفكرياً) الديانتين التوحيديتين الأخريين المعترف بهما، وقداسة كونها ديانة «شعب مختار» و«أمّة مقدّسة» اختارها الإله واصطفاها وانحاز إليها في مواجهة كل خليقته. وبفضل تلك القداسة المركّبة المتضاعفة، يبدو «الشعب المختار» آخذاً طريقه - في غمار ممارسة شاسعة الأبعاد لعملية غسل مخ كوكبية لحوحة لا تهمد - في فرض نفسه على عالم اليوم، وفيما يأمل قادة الصهيونية، على عالم الغد، بوصفه «الشعب الأسمى» والأمة المقدسة المهيمنة، مستغلاً في ذلك المسعى الكوكبي انقياد الأمميين الأغيار (الجوييم) والوهن المتعاظم لروحانيتهم وموقفهم من الدين.

«ولقد يبدو قولنا إن «الشعب المختار» آخذ في التحول إلى «شعب أسمى» بفضل تخاذل الأغيار الروحي والديني كما لو كان قولاً من قبيل المفارقة، أو - وذلك أسوأ - من قبيل التمنّي لصراع ديني مع اليهودية. لكن الأمر لا يمكن أن يكون أبعد من ذلك. فالحادث الآن لشعوب أممية كثيرة لا سبيل إلى وصفه إلا بالاستعمار الروحي من جانب اليهود الآخذين في جعل أنفسهم «شعباً أسمى». وذلك ملحوظ بقوة في المجتمعات الأممية الغربية على شكل تناسب طردي بين الإمعان في المادية والبعد عن الروحانيات، بل وازدرائها باعتبارها تخلّفاً فكرياً، من جانب غير اليهود، أي الكثرة الساحقة من أفراد تلك المجتمعات، وبين الافتتان باليهود، لا بـ «صلاحهم» وتدينهم وسموهم الروحي فحسب، بل و«بتفوقهم» العقلي والعملي و«نبوغهم». وفي سياق هذا الانسحار المهندس المكثّف اللحوح، تتنازل تلك الشعوب الأممية عن تراثها الروحي - وفي حالات محزنة وخطرة بحق - عن حريتها

الفكرية، بل وعن آدميتها نفسها.. فتترك بتنازلها ذاك فراغاً فاغراً لا تجد ما يملؤه إلا «روحانية» بالوكالة تتمثل في ضرب غريب من التهوّد بالروح والعقل»[11].

وفي مقدمة الشعوب الأغيار (الجوييم) التي تسد خواءها الداخلي بذلك التهوّد بالروح والعقل، الشعب الأميركي. وفي حالة الأميركيين بالذات، كان ذلك الضرب من التديّن بالوكالة عن طريق التهوّد أمراً سهلاً بل ومقضياً به متى اعتبرنا بما تكشف خلال المراحل السابقة من البحث من نتائج تعبرُن البروتستانتية الذي وجد أقوى تعبير له في الحركة الأصولية الأميركية.

والملاحظ أنه إن كانت الصهيونية قد فطنت إلى المنافذ التي أوجدها ذلك الاحتياج الأميركي إلى ما يسدّ الخواء الداخلي في الروح الأميركية، فإن استغلالها لتلك المنافذ اتسم بحذر بالغ ومفهوم، نظراً لأن انكشافه حري بأن يفقده قدراً كبيراً من فعاليته. وبفضل ذلك الحذر في ضخ ما هو مطلوب صهيونياً ضخّه في تلك الحفرة الفاغرة في الروح الأميركية، كانت عملية الإحياء الكبرى للأصولية الأميركية التي أعقبت فترة البيات الشتوي فيما بين أواخر عقد العشرينيات ومنتصف عقد الأربعينيات من هذا القرن، والتي بدأت على عباب تعاظم الدعوة بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، لإنشاء الدولة اليهودية وهي الدعوة التي حققت أول نجاح لها بقرار التقسيم الذي اتخذته منظمة الأمم المتحدة.

ولم يكن ذلك الإحياء ـ بطبيعة الحال ـ نتيجة للعامل الصهيوني وحده. فالحركة الأصولية الأميركية كانت ـ بعد أن استنفدت كل الطاقة التي ولّدها مرجل هبّتها الأولى، وهي الهبّة التي تمثلت دعامتاها الأساسيتان في محاربة تيار النقد التوراتي ومحاربة علم الأحياء الذي ناقض بكشوفه دعوى ظهور العالم بغتة بكل مخلوقاته في الأسبوع الأوّل من التقويم اليهودي ـ دخلت فترة بيات شتويّ ريثما تعيد تنظيم صفوفها وتجدّد دعاواها ومصادر تمويلها. والذي

حدث للحركة فأدى إلى إحيائها حوالي منتصف الأربعينيات من هذا القرن، أن المنطلقات المشتركة والتطلعات المتماثلة (مع اختلاف واحد بسيط هو الجزئية الخاصة بـ «المجيء» وهل سيكون لأول مرة أو للمرة الثانية) قادت كلاً من الحركتين، الصهيونية اليهودية والأصولية المسيحية، إلى زيجة مباركة كانت، في الحقيقة، مقضياً بها من مبدأ الأمر، متى اعتبرنا بأن صهيونية الجذور الأصولية سبقت الصهيونية اليهودية بثلاثة قرون. وكل ما كان مطلوباً كيما يتحقق التلاحم الكامل ظهور بوادر تشير إلى إمكانية التحقق العملي للهدف المشترك، وهو إنشاء الدولة اليهودية. وقد كان ظهور تلك البوادر في منتصف الأربعينيات بمثابة المحفّز أو العامل المعجّل بالتفاعل بين كيميائيتين عقائديتين لهما (على الأقل فيما تصوره الصهيونيون المسيحيون) مسار واحد وأهداف واحدة.

وقد يكون مما يشير إلى ارتباط ذلك الإحياء «الديني» بعوامل أخرى لا علاقة لها بالدين كدين: (١) أن الإحياء اقتصر على «الكنائس المستقلة» المكوِّنة للحركة الأصولية، و (٢) الازدياد الضخم الملحوظ فيما يوصف بأنه «النشاط التبشيري» للكنيسة البروتستانتية.

(١) **فيما يخص الإحياء «الديني»**، تستوقف نظر أي باحث مجموعة من الظواهر الهامة:

«تمر الولايات المتحدة بمرحلة إحياء في مجاليْ الإيمان الدينيّ والإقبال على الكنائس. إلا أنه باستثناء **المعمدانيين الجنوبيين، لم تنعكس آثار ذلك الإحياء على الطوائف الكبرى التقليدية. فهذه ظلت تعاني تدهوراً طال الآن لأكثر من عقدين.**

«(وبالمقابل) تلاحظ زيادات في أعداد المنتمين إلى **عدد كبير من الكنائس أميركية الصنع**.. فالحاجة إلى البناء (ملء الخواء) تتعاظم، وإشباع تلك الحاجة لا يأتي من جانب كنائس المؤسسة التقليدية، الكاثوليكية، والأسقفية، والمنهجية، والمشيخية،

واللوثرية، بل تضطلع به كنائس المعمدانيين الجنوبيين، والمورمون، والسبتيين (أدفِنتيست اليوم السابع)، وغير ذلك من حشد الاتجاهات والمواقف الأصولية، ككنيسة فضيلة القس جيري فالول المعمدانية ببلدة لينشبرج بولاية فرجينيا وغيرها من الكنائس المستقلة. ويؤم تلك الكنائس اكبر عدد من المصلين في الولايات المتحدة، وينتمي إلى بعضها اكبر عدد من المؤمنين المسيحيين الأميركيين، وإن كان بعض الكنائس الصغرى لا يزيد عدد المصلين به على مائة في المتوسط. كما أنه ظهر منذ الستينيات اهتمام واسع النطاق بالديانات الشرقية (كما في حالة الرَّجْنيش التي أشرنا إليها)، وبعض تلك الجماعات، كجماعة هاري كريشنا، أخذ في اجتذاب أعداد كبيرة من المنتمين.

«ومن المعايير التي يقاس بها حجم النمو غير العادي للإحياء الديني الأميركي، معيار النشر. وفي ذلك المجال، تبين الإحصاءات ان مبيعات الناشرين الانجيليين من الكتب والمطبوعات باتت تمثل ثلث إجمالي المبيعات من الكتب في السوق الأميركية.

«كما أن ظاهرة الكنائس الالكترونية (الوعاظ التلفزيونيين) آخذة في التعاظم. ففي أميركا الآن أكثر من ١٣٠٠ محطة إذاعة وعشرات من محطات البث التلفزيوني تكرس كلّ أو جلّ ساعات إرسالها للبث الديني»[٢٠].

ذلك على الصعيد الداخلي: تعاظم دور الكنائس «المستقلة» التي تتألف من مجموعها الحركة الأصولية في قيادة، بل في إحداث، حركة الإحياء «الديني»، وتوجيهها، واستخدامها.

(٢) أما على الصعيد الخارجي، التبشيري، في بلدان ما وراء البحار وخارج الحدود الأميركية، فتبين الإحصاءات الصادرة عن الحركة التبشيرية نفسها أن هناك زيادة ضخمة في أعداد المبشرين البروتستانت في أنحاء العالم الثالث وأن أكثر من ٩٠٪ من المبشرين الذين تتعاظم أعدادهم باستمرار يبعثون إلى تلك البلدان من الكنائس الأميركية الأصولية، وهو ما علق عليه القس

جيمس كوجزول رئيس قسم ما وراء البحار بمجلس الكنائس القومي الأميركي بقوله إن أولئك المبشرين الأصوليين «**يقومون بغسل أمخاخ من يبشرون بالمسيحية لديهم مستخدمين في ذلك تفسيرات أميركية للغاية لنصوص الكتاب المقدس**»[21].

وبطبيعة الحال، تتطلب كل تلك الأنشطة مالاً، كما أن من يمارسونها يفعلون ذلك بعقلية أميركية متفتحة ترى أن كل من يشبع حاجة من حاجات المستهلكين بسلعة أو بخدمة يجب أن يتحصل على جزاء نقديّ مجز كيما يستطيع أن يستمر في ممارسة نشاطه ومواصلة إشباع تلك الحاجات.

وفي سياق ذلك المنطق، تكاثرت على الساحة الأميركية سلالة من «**الصالحين المحترفين**» قامت بإشباع حاجات المستهلكين إلى «الغذاء الروحي» المعلّب تعليباً مبهجاً وجذاباً وربحت من ممارسة ذلك النشاط مئات الملايين من الدولارات. فالمستر پات روبرتسون، أحد نجوم الأصولية الأميركية، مثلاً، الذي كان من المتطلعين إلى الفوز بالترشيح لمنصب رئيس الولايات المتحدة في الانتخابات التي فاز فيها المستر جورج بوش بتلك الرئاسة، يدخل برنامجه التلفزيوني ١٧ مليوناً من بيوت الأميركيين، ويدر عليه نشاط ناديه المسمى بـ «نادي الـ ٧٠٠» دخلاً سنوياً يتجاوز المعلن منه ٢٥٠ مليوناً من الدولارات سنوياً.

فهي «رسالة»، وفي الوقت نفسه تجارة مربحة، ليس فيها ما يؤخذ على أحد. لأن للبشر في كل مكان وزمان حاجات تتطلب الإشباع. وليست كلها حاجات مادية. فمنها حاجات روحية هامة. أوَلم يقل المسيح إنه «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»؟ وفي أميركا، كما في غيرها، تتمثل تلك الحاجات الروحية في طلب العزاء والسلوى والوعد بتعويض لاحق عن الحرمان وكل صنوف المعاناة وخيبة الأمل التي يعانيها البشر، أطفال الله[22]، في هذا العالم الناقص الأرضيّ الزائل. وهي حاجات يتكفل الأصوليون بخيرية وصلاح وتقوى بإشباعها

قياماً منهم «بالرسالة»، سواء داخل أميركا، من خلال كنائسهم العادية والالكترونية، أو خارجها، من خلال بعثاتهم التبشيرية. ومن وجهة نظر المنظّم (الـ entrepreneur) في المفهوم الاقتصادي، يظلّ إشباع تلك الحاجات نشاطاً مشروعاً من أنشطة الأعمال، ينبغي لمن يضطلع به أن يحقق من ورائه مردودات مجزية تمكّنه من الاستمرار في إمداد المستهلكين ببضاعته الروحية.

إلا أن المشكلة تتمثل دائماً في أن حيازة «السلطة الروحية» على المؤمنين تميل إلى أن توقظ في نفوس من يحوزونها عن طريق إشباع الحاجات الروحية لأولئك المؤمنين رغبة قوية ـ لا شك في خيريتها وصدورها عن أحسن النوايا وأنبل المقاصد ـ في حيازة السلطة الدنيوية أيضاً عملاً على امتلاك الوسائل التي تتيح تنظيم حياة المؤمنين تنظيماً يتفق وما تقضي به أصول الدين. ومن هنا كان نزوع القسس الأصوليين، كالمستر پات روبرتسون وغيره، إلى الاشتغال بالسياسة والتطلّع إلى الإمساك بمقاليد السلطة من داخل البيت الأبيض، إن أمكن، أو من خلال «امتلاك» نفوذ وولاء أعداد كبيرة من المشرّعين في الكونجرس بفضل ما يحتكم الأصوليون فيه من أصوات واتجاهات المؤمنين التابعين لـ «كنائسهم».

ومن هذا المسار، تتحول عملية ملء الخواء الداخلي دائم العمق والاتساع كحفرة لا سبيل إلى ردمها، في أرواح الأميركيين، إلى عملية أوسع وأخطر وأشأم بكثير من مجرد «الصلاح» والهداية والتقوى وتحقيق الأرباح بمئات الملايين من الدولارات عن طريق البهلوانيات التلفزيونية التي يمارسها «الصالحون المحترفون» على شاشات التلفزيون وعلى موجات الراديو أو في القاعات والملاعب. تتحول العملية إلى عملية صنع رأي وصوغ مواقف وغسل مخ وإعادة صياغة لحياة المجتمع وأفراده بشكل يكفل لـ «الصالحين» ولمن يمثلونهم (أي إسرائيل والمال اليهودي والحركة الصهيونية والحركة

الانجيلية ـ بهذا الترتيب) تحقيق المصالح الكبرى التي يسعون لتحقيقها. وفي هذا السياق، سُئِل المستر تيم لاهاي، أحد نجوم الانجيلية التلفزيونية الأميركية المتطلعين إلى دخول البيت الأبيض عن أول قرار سوف يتخذه إذا ما دخل ذلك البيت المبارك، فكان رده الفوري «٢٥٪ بالأقل، كبداية، من الوظائف العليا للدولة، للمسيحيين الأصوليين»، وهو مطلب معتدل، لأن الرجل قال ٢٥٪ فقط، إلا أنه يفصح بغير شك عما قد يترتب على نجاحه من تسيّد أصوليّ.

في المقام الأول، يستمد الأصوليون الأميركيون «مشروعيتهم» الدينية والأخلاقية من ادعاء الصلاح والتقوى والتمسك الصارم بحرفية الأسفار المقدسة والإيمان بأن «الكتاب» هو كلمة الله التي لا تناقض ولا تعدل ولا يشك فيها. **واستناداً إلى ذلك الصلاح الذي ما بعده صلاح والإيمان الذي ما بعده إيمان، يرون أن الدين يقتضي أن ينفردوا هم وحدهم بلا شريك لهم بكل رأي وكل سلطة زمنية وروحية ويحتم أن يصبح تفسيرهم للكتابات المقدسة، كلمة الله، قانوناً ملزماً للجميع. فكما يقول أحد نجوم الحركة، الواعظ بيلي صنداي: «أميركا بلد متدين، وبوصفها ذاك لا مكان فيها للانشقاق، ولا فسحة على أرضها يمكن أن يعيش المنشقون عليها»**. والانشقاق هنا يعني مخالفة الأصوليين الرأي، أيّ رأي.

يُدعَى التجمّع الأكبر للأصوليين الأميركيين، الذي يقوده المستر جيري فالول، صديق الرئيس الأميركي السابق رونالد ريغان وصفيه، باسم «الأغلبية الأخلاقية» لكن في ذيل ذلك الاسم مختصر لفظة (Incorporated)، وهكذا فإن التسمية الكاملة «Moral Majority Inc.» تُقرأ هكذا «شركة الأغلبية الأخلاقية المدمجة». وتحت مظلّة تلك الشركة المدمجة عدد كبير من «شركات الصلاح والأصولية»، إن صح التعبير. ولكن هل الأصوليون الأميركيون من «أهل الله» حقاً؟ هل هم أهل صلاح وتقوى حقاً؟ الرائي لهم وهم يتحركون على المسرح جيئة وذهاباً كالليوث، منفعلين، متصببين عرقاً، لاهثين من

فرط ما بهم وما هو مشتعل بداخلهم من نار الإيمان، بعيون شاخصة إلى أعلى، وعيون متوقدة، وأفواه متوعدة الخطاة والأشرار بنيران الجحيم، لا يمكن أن يتصور إلا أن هؤلاء أناس بهم مسّ إلهيّ، وأنهم أناس قد نضوا عنهم الكسل والتراخي وأزاحوا المعاصي من طريقهم وهبّوا نشطين ليعملوا «عمل الله» على الأرض وينقذوا البشر في أميركا من مصائر سيئة للغاية.

غير أن هذا عالم ناقص ومليء بالشرور يتربّص الشيطان، الحية المتحوية إبليس لعنه الله، بالبشر المساكين فيه من كل جانب. لأن الواقع المعاكس يوقفنا المرة تلو المرة تلو المرة على أن أولئك الصالحين المحترفين ليسوا بكل ذلك القدر من الصلاح والتقوى، والحقائق تبرهن المرة تلو المرة على أن ذلك الناسك الهندي الذي أصبح بليونيراً، الرَجْنيش، كان على حق فيما وصف به الأميركيين الطيبين، والفضائح تؤكد المرة تلو المرة أن كل ذلك الإيمان، وكل ذلك الورع، وكل ذلك التحذير من نيران الجحيم تمثيل، وكما يقول مارتين ايمس في كتابه عن جحيم المغفلين ـ «شغل قرود» الغرض منه احتلاب الدولارات من جيوب المؤمنين.

ففي مايو سنة ١٩٨٧، تفجرت في «كنيسة» المستر فالول، «شركة الأغلبية الأخلاقية المدمجة»، فضيحة جنسية ومالية مدوية بطلاها «القس» الخمسيني[٢٣] «فضيلة» جيمي بيكر وزوجته الحسناء السيدة تامي، وهما من العمد الهامة في حركة المستر فالول نظراً لاندماج «كنيستهما» المسماة، اختصاراً PTL، بمعنى «كنيسة الحمد لله» (Praise the Lord)، وفي رواية أخرى بمعنى «كنيسة أهل المحبّة» (People That Love)، في كنيسة المستر فالول.

وعادة، عندما ينكشف تورّط أي قس بروتستانتي في فضيحة أو أخرى، ويدان أمام مجلس كنسيّ، فإنه «يُشلَح» بهدوء ويتوارى عن الأنظار في صمت. إلا أن الفضيحة في حالة المستر بيكر، ومساعده،

فضيلـة القس ريتشــارد دورتش كــانت أكبــر من أن تُكنَس تحـت السجّادة بهذه الطريقة خفيضة الصوت، فشُلِحا بعد تحقيق استمـر من مارس إلى مايو ١٩٨٧، وكان شلحهمـا علناً بقـرار من المسؤولين عن كنيسـة «مجتمعـات الـرب» (Assemblies of God) الخمسينيـة التي ينتمي إليها مليونان ونصف مليون أمـيركي، وكان قـرار الشلح لإدانة فضيلة القس بيكر بارتكاب جريمـة الزنـا مع الآنسـة جسيكا هاهن سكرتيرة «الكنيسة» (التي باعت صورها بعد ذلـك لمجلة بـلاي بـوي)، ولاتهامــه بـ «أنواع أخـرى من السلوك غـير الـلائق المتعلق بممارسة الجنس في حفلات عربدة جنسية، وبالشذوذ الجنسي». ورغم أن فضيلة القس بيكر ظل يؤكد والدموع تنهمر من عينيه أنــه «ليس مرحاً» (أي ليس شاذاً جنسياً)، فـإن دوائر وثيقـة الصلة بـالكنيسة صرحت للصحفيين بأن عدداً من الشهود اعترف بالاشتراك مع بيكـر والسيدة تامي في حفلات من ذلك النوع.

أما فضيلة القس ريتشارد دورتش، فقد شغل المنصب بعد إيقاف بيكر، إثر تفجّـر الفضيحة، رئيســاً «لكنيسة الحمـد لله» أو «كنيســة أهل المحبّة»، وأدار نيابة عنه عروضـها التلفزيـونية، لكنــه ما لبث أن أُوقِف هو الآخر، ثم شُلِح مع القس بيكـر لإدانته بـالتستر عـلى بيكر ومحـاولة تقـديم رشوة قـدرها ٢٦٥ ألفـاً من الدولارات إلى الآنســة جسيكا هاهن ومستشاريها لإغرائهم بعدم الشهادة ضد بيكر.

وإثر صدور قرار الشَلْح، صرّح المستر رايموند كارلســون، المشرف العـام على «مجتمعـات الرب» بـأن «الفضيحة أليمـة للغايـة وصعبة ومحرجة ومهينة للكنيسة الخمسينية، وأن التعليمات صدرت، لذلـك، إلى كل «جماعـات الرب» البـالغ عـددها ١٠,٨٨٦ جمـاعة بـالصلاة والصيام وطلب الغفران يوماً بطوله في كل أنحاء أميركا»!

وكـان المستر جـيري فالـول قد حـاول، قبل إعــلان قرار الشلـح، «احتواء الضرر»، على الطريقة الأميركية، فصرّح للصحفيـين أن الأمر كله «سوء تصرّف» من جانب بيكر ومساعديه. غير أن تتابع الأحداث،

واتهام بيكر وزوجته السيدة تامي باختلاس مبالغ جسيمة من أموال «كنيسة الحمد لله»، وتنظيم حفلات لتبادل الزوجات وممارسة الشذوذ وما إلى ذلك، أفضى بالمستر فالول إلى إعلان «نفض يده من المسألة كلها»، وتأكيده بأن بيكر لم يعد قساً تابعاً لكنيسته.

وكان المأمول بعد ذلك أن تخفت الضجة، وينسى الأميركيون (الذين عودتهم طريقة حياتهم على مثل هذه الفضائح) الأمر كله، وتعود «كنيسة الحمد لله» إلى ممارسة نشاطها والقيام بعمل الله على الأرض.

إلا أن الضجّة التي أحدثها غرماء القس بيكر من الانجيليين الالكترونيين الحاسدين كانت أكبر من أن تُكنَس الفضيحة في غمارها تحت السجادة الأميركية[٢٤]. فبينما المستر فالول وقادة الحركة الأصولية وأتباعها في البيت الأبيض، وعلى رأسهم المستر رونالد ريغان، يحاولون التهوين من المسألة بمختلف التصريحات البارعة، ارتفع صوت واعظ تلفزيوني آخر هو فضيلة القس جيمي سواجرت، صائحاً ونيران الفضيلة تتطاير شرراً من عينيه «إن جيمي وتامي بيكر هذين سرطان خبيث يجب أن يستأصل من جسم الكنيسة». ثم تبيّن فيما بعد أن القس سواجرت كان المُبلّغ لدى «مجتمعات الرب» بشأن ممارسات القس بيكر والسيدة حرمه. غير أن القس سواجرت، لسوء حظه، لم يكتف بالتبليغ ضد جيمي بيكر وتامي الحسناء، بل ضمّن بلاغه اتهامات مماثلة ضد زميل آخر من فرعٍ الكنيسة بنيو أورلينز، هو فضيلة القس مارفين جورمان، فكان أن شُلِح المستر جورمان هو الآخر.

وسارع القس المشلوح جورمان برفع دعوى قذف على القس سواجرت طالبه فيها بتعويض قدره ٩٠ مليوناً من الدولارات لأنه تسبب في قطع عيشه. غير أنه خسر الدعوى، فأسرّها في نفسه، وظل يعسّ وراء القس المشتعل بنار الفضيلة سواجرت إلى أن تصيده متلبساً في أوضاع مخزية مع بغي مشهورة من «مضيفات» المجتمع

الراقي في غرفة بأحد الفنادق وتمكن من التقـاط عدة صـور فاضحـة لهما.

وفي بداية الأمـر، حاول القس سـواجرت ـ ربمـا نتيجة لنصيحـة أزجـاها إليـه بعض الأصدقـاء اليهـود عن مـزايـا الطعن في الأدلـة بـالتزويـر ـ أن يكابـر معلناً أن الصـور التي قدمهـا القس الحـاقـد جـورمان مـزورة، وأنـه لا يعقـل أن ينـزل رجـل دين ورع مثلـه إلى مستوى مضاجعة مضيفات المجتمـع. غير أنـه اضطر في النهـاية إلى جمع المؤمنين التابعين لـه في قاعـة كبيرة، ووقف أمـام الميكروفـونات وكاميرات التلفـزيون معـولاً بصوت منكـر «لقد أخطـأت في حقّك، يـا إلّهي»، ثم نظر باتجـاه السيدة حـرمه التي كـانت جالسـة في الصف الأول وأعول قائلاً «وأخطأت في حقك أنت أيضاً، يـا زوجتي الحبيبة، فمغفرة». وبكى المؤمنون السبعة آلاف الذين احتشدوا في تلك القاعة بمركز «الإيمان العالمي» التابعة لفضيلة القس سواجـرت، وأغمي على البعض منهم من شدة التأثر، وأعلنوا أمام كاميرات التلفزيون، عندما أفاقوا، أنهم قد غفروا له ولا بد أن الله قد غفر له أيضـاً بالنظـر إلى خدماته السابقة.

ولم يكن ذلك غريباً، فأولئك الأميركيون الطيبون (حتى لا نستعمل وصف الرَجْنيش الجارح) يؤمنون حقيقة بأنه، بفضل وساطـة القس سواجرت وزملائه، تحلّ بهم نعمة الروح القدس ويتكلمون بالألسنـة، وبأن فضيلة القس يشفيهم من أمراضهم بمجرد وضع يده المبـاركة عـلى أجسادهم. وتبعـاً لما نشر من إحصـاءات وقت الفضيحة، يقـدر عدد المؤمنين بـ «رسالة» القس سواجرت، داخـل أميركـا وخارجهـا، بأكثر من ٢٠٠ مليون من المؤمنين.

وحتى الآن، لم تنسب إلى فضيلـة القس پـات روبـرتسـون أيـة مخالفات أخطر من اتهامه بتزوير تاريـخ زواجه في سجـلات الكنيسة ليخفي حقيقة أنه تزوج من مسز روبـرتسون وهي حـامل في شهـرها

السابع. والحقيقة أن الرجل اعترف بالأمر بشهامة ولم يراوغ، وطلب المغفرة من الله ومن المؤمنين.

وبطبيعة الحال، الأميركيون أحرار فيمن يجعلونهم قادة روحيين لهم. لكن المشكلة ماثلة في أن الأميركيين شعب مقدام يحمل على كتفيه رسالة كلفته بها العناية الإلّهية فيما يتعلق بمنح نعم الحرية والديموقراطية للشعوب الهمجية التي ما زالت محرومة بسبب همجيتها من تلك النعم. ونتيجة لتلك الرسالة الإلّهية لم ينج شعب من شعوب العالم حتى الآن من نتائج اضطلاع أميركا بحمل مشعل الحضارة والحرية والديموقراطية إلى كل ركن من أركان كوكب الأرض. وهو ما يلقي ضوءاً على ما يمكن أن يترتب على ممارسة القسس الأصوليين الأميركيين للسلطة الروحية التي باتت لهم على الجماهير العريضة والساسة والمشرعين وساكني البيت الأبيض وبالتالي على عمليات صنع القرار السياسي في الولايات المتحدة، وصنع الرأي وتوجيه المواقف.

وقد كان القس پات روبرتسون من الطامعين، إبّان مرحلة الانتخابات الأولية التي سبقت ترشيح المستر جورج بوش عن الحزب الجمهوري وفوزه بعد ذلك بالرئاسة، في أن يرشَّح لمنصب الرئيس أو نائب الرئيس. وهو ما لا يستبعد حدوثه إذا ما خطر للقس الطيب ولمن هم حوله ووراءه أن يعيدوا الكرة في انتخابات مستقبلة. ووقتها «ليحذر المشترون» كما يقولون في القانون، أي ليحذر الناخبون الأميركيون، وليحذر العالم كله في الواقع، لأن القس روبرتسون قد أعلنها صريحة واضحة من مبدأ الأمر. فهو، إذا ما وصل إلى السلطة، فسيحكم بـ «كلمة الله» التي لا تخطىء وسيحول تلك الكلمة، كما هي مسجلة في التوراة وسائر أسفار العهد القديم إلى تشريعات وقوانين يدار على أساسها المجتمع الأميركي وحياة من فيه، وبالتالي حياة الجنس البشري، تنفيذاً للرسالة.

وإن كنا لا نصدق، فلنرجع إلى مقال المستر بريجرين ورثورن الذي أوردناه في ختام خلاصة الباب الأول، فهذه الأشياء تحدث حقيقة، وفي أحسن البلدان.

* * *



٣ من حزقيال واللاهوتي إلى الأصولية المسيحية

عندما يتحول الدين إلى شيء مريض، تفسَد الروح فساداً لا يدانيه في الضراوة ما يفرزه الأكال من سمّ مميت في اللحم الحيّ. تتورم الروح وتلتهب وتمتلىء بصديد، ومما يتوقّد فيها من حمى، تضخ في الدماغ رؤى ملتوية شائهة وملتاثة. وكما يهترىء اللحم الحيّ ويتساقط إذ يفترسه الأكال، تهترىء الروح، ويتحول الإله فيما تغلي به من سموم إلى شيطان.

ولقد كان ذلك الضرب من التسمم الروحي خطراً ماثلاً باستمرار فيما يخص نبييم اليهودية. غير أن وعي معظم أولئك المتنبئين بحقيقة ما كانوا آخذين فيه من ضروب التدروش، ووقوفهم ـ ككهنة ـ على الأرضية الصلبة للطموحات والكراهيات الدنيوية التي ظلت المحرك الأول للديانة ولـ «نبوتهم» أنقذا معظمهم من تورّم الروح والتهابها، حتى في الحالات الحادة كحالات الإشعياءات الثلاثة، وحالة إرميا. فـ «الكلبية» (cynicism) الدنيوية، في تلك الحالات، كانت منقذة من أكال الروح الذي راح ضحيته بعض النبييم الأصاغر، كعوبديا، والذي نلمس الحالة القصوى له في حالة حزقيال.

وفيما يخص المتنبئين والعرّافين اليهود، كان لهم عذرهم فيما انخرطوا فيه من تطوّح إلى حافة الهاوية قرّبهم باستمرار من أعراض التسمم الروحي. فأولئك الناس كانوا كهنة ديانة انبنت منذ ظهورها على يديْ موسى على أهداف دنيوية سياسية وجيوبوليطيقية سُخِّرت الغيبيات المشرَّبة بالسحر في السعي إلى تحقيقها. وبالتالي، كان ذلك التطوّح والتدروش من طبائع الأشياء فيما تعلق بتحقيق تلك الأهداف، بل ولقد ظلا حتى اليوم، في هذا العصر «العلمي»، من أمضى الأسلحة في التسلّط على عقول الجوييم الأغيار، متى اعتبرنا بانسحار أولئك الجوييم بالتظاهر المستمر من جانب الكهنة اليهود

بحيازة ما لا سبيل إلى حيازته من أسرار وغوامض إلا لشعب الله المختار وكهنته، وانبهار الجوييم بطقوس الكهنة اليهود وشعائرهم وتعاويذهم باعتبار كل ذلك ضرباً معلّىً من «الاتصالات» شبه اللاسلكية (الروحانية) بالقوى الخفية، ودليلاً لا يدانيه شك على تمتّع اليهود بصلاح وتقوى يتلمّس الجوييم البركة منهما بالوكالة.

أما في حالة الأصوليين المسيحيين المعبرنين، فبصرف النظر عن انعدام العذر نظراً لاختلاف منطلقات ديانة الأصوليين ومراميها عن منطلقات الكهنة اليهود ومراميهم (متى صدقنا ما تقوله الأناجيل الأربعة وأخذنا بما تضمنته من أقوال مؤسس الديانة)، أدت الكلبية (cynicism) إلى إصابة مئات الملايين من المؤمنين في جحيم المغفلين بضرب مميت حقاً من التسمم الروحي، حتى وإن ظل «الوعاظ» الذين ابتلوا تلك الملايين بذلك التسمّم بمنجاة، هم أنفسهم، من لوثته.

ولنأخذ، مثلاً، المتنبىء حزقيال ونبوءاته المحمومة عن جوج وماجوج و«يوم يهوه» المخوف.

ذلك المتنبىء المتّقد بنار عديمة الانطفاء من الكراهيات والحقد المستعر لكل من عدا قومه من أهل الأرض، كان من بين المسبيين الذين أخذهم نبوخذ نصر إلى بابل بعد استسلام يهوياكين سنة ٥٩٧ ق. م. (الملوك الثاني ٢٤: ٨ ـ ١٤)، وكان عدد أولئك المسبيين عشرة آلاف، فلم يبق بأورشليم أحد إلا «مساكين شعب الأرض».

كان حزقيال، عندما سُبي، يتدرب على الكهنوت، ويأمل في السير على خطى أبيه ليصبح أحد عُمُد المؤسسة الكهنوتية في الهيكل، وبالتالي أحد أعضاء الصفوة المتربعة بقمّة هرم السلطة الروحية في «مملكة» يهوذا. لذلك، كان السبي، في حالته، نكسةً شخصيةً خطيرةً يبدو أنها أثرت في نفسه تأثيراً بالغ العمق، بدليل أنه لم يبدأ في رؤية يهوه وتلقّي التعليمات منه إلا في سنة ٥٩٣ ق. م.، أي في السنة الخامسة من سبيه. ولما كان سبيه قد بدأ وهو في سن الخامسة

والعشرين، فإن ابتداء رؤاه وتنبؤاته كان في السنة الثلاثين من عمره، وهي السنة التي كان من المفروض أن يدخل فيها «في الجند ليعمل عملاً في خيمة الاجتماع» (أي يدخل فيها سلك كهنوت الهيكل) (لاويين ٤: ٣).

وعندما «انفتحت السموات» فرأى حزقيال «رؤى الله» عند نهر خابور، و«صار كلام يهوه» إليه، و«كانت عليه يد يهوه» (حزقيال ١: ١ ـ ٣)، كانت «مملكة» يهوذا ما زالت قائمة ولم يكن الهيكل قد دُمّر بعد، إذ اكتفى نبوخذ نصر، بعد استسلام يهوياكين وسبي العشرة آلاف، بتنصيب عم يهوياكين، متّنيّا (الذي غير اسمه إلى صدقيّا) مَلِكاً بدلاً من ابن أخيه.

وهكذا فإن فورة الرؤى لم تكن نتيجة لدمار الهيكل وزوال «مملكة» يهوذا من وجه الأرض، بل كانت نتيجة لانتزاع حزقيال من أورشليم وحرمانه من ممارسة عمله ككاهن في هيكل يهوه، أي، كما يقول المصريون، نتيجة لـ «ضياع مستقبله». ولما كان الرجل كاهناً يهودياً، فإنه كان من الطبيعي للغاية أن يصب جام غضبه على المتسبب في ذلك الـ «ضياع لمستقبله»، أي «الشعب» العاصي، صلب الرقبة، مرتكب المعاصي، الذي تسبب بحرونته ومعاصيه في إثارة غضب يهوه وبالتالي في حرمان «المملكة» من حمايته، وتعرض حزقيال للسبي بين من سباهم نبوخذ نصر.

فدائماً، منذ بدأ موسى ذلك التقليد، كان «الشعب» هو المسؤول الأول والأخير عما ظل يحلّ به من كوارث. **ولقد كان ذلك أمراً طبيعياً في ديانة أقامت دعواها على أساس وجود علاقة حميمة بين معبودها وبين مصيرها الأرضي.** وبطبيعة الحال، كان الغرض من ذلك جعل يهوه المعبود الوحيد لـ «الشعب» وبالتالي جعل كل مكاسب هيكل المعبود من نصيب كهنة يهوه وحدهم. **وعلى صعيد سياسي أهمّ، كان الغرض من حركة «يهوه وحده» هذه التي بناها الكهنة على تهديد «الشعب» بالنكبات إذا ما انصرف عن عبادة**

يهوه، ووعده بالمكاسب والخيرات وبافتراس كل من في طريقه إذا ما انصاع لحكم يهوه الذي يمارسه كهنته نيابة عنه، توحيد «الشعب» وجعله أمة متماسكة في ظل هيكل يهوه الواحد الموحّد. وعلى ضوء ذلك، كان من المقضي به أن يفسَّر كل ما يحل بـ «الشعب» من نكبات وما ظل «الملْك» (هدف الديانة الحقيقيّ والأهمّ) يتعرض له من نكسات، بغضب يهوه من شعبه، وانصرافه عن حمايته، وعدم تمكينه من رقاب الشعوب الأخرى، وتركه لمصيره الذي ظلّ يستجلبه على رأسه بما لم يكفّ عن ممارسته من ضروب الوحشية والتعالي والعدوان في ظلّ ما أقنعه الكهنة به من خصوصية فريدة ومناعة من العقاب، طالما ظل لائذاً بحمى يهوه.

لذلك، نجد أن النصف الأول بأكمله من سفر حزقيال بالعهد القديم كُرِّس لصبّ الإدانة على «مملكة» يهوذا، و«التنبّؤ» بما سوف يحل بها من دمار نهائي. والمفروض أن حزقيال رأى تلك الرؤى «وتنبأ» تلك «النبوءات» في السنوات التي أعقبت السنة الخامسة من سبيه، قبل وقوع ما «تنبأ» به. إلا أنه ليس هناك من دليل يقبله العقل أو برهان مادي على أنه «تنبأ» قبل الواقعة ولم يسجِّل بعد وقوعها بادعاء أن كلامه «تنبؤ» سابق للأحداث، و«تنبؤ» من النوع الرفيع نظراً لأن مصدره الوحي المباشر من يهوه رأساً.

غير أن «النبي» حزقيال أوقع نفسه في «تنبؤ» كاذب دفعه إليه الحقد ولم يدسّه عليه الوحي، بادعائه أن يهوه كاشفه بما كان قد أعده لمدينة صور من خراب. وبطبيعة الحال، لا سبيل ـ مهما بلغت درجة الورع وما تولده في النفس من استعداد للتصديق ـ أن «يتغاضى» المؤمن عن تلك الهفوة الكاشفة ويظل مستعداً لتقبل بقية الكلام بوصفه وحياً من عند الله. لأنه لا يمكن تصور أن إلهاً مطلعاً على الغيب لأنه هو الذي يصنعه، كان المتسبب في تردي حزقيال في ذلك الخطأ التاريخي الذي أوقعه فيه حقده على مدينة مجاورة.

والحكاية أن حزقيال استهلّ النصف الثاني من سفره، بعد أن

فـرغ من «التنبؤ عـلى يهـوذا»، لـ «التنبؤ عـلى» المـدن والشعـوب المجـاورة، بـدءاً ببني عمـون. إلا أن ضراوة ذلـك «التنبؤ» انصبّت أساساً عـلى مدينـة صور الفينيقيـة. لماذا؟ لأنـه «في السنة الحـادية عشرة (من سبيـه، أي بعـد دمـار أورشليم والهيكـل) «كلّمـه يهـوه فحرّضه عـلى صور لأن صـورا الشريرة «قـالت على أورشليم هَـهْ قد انكسَرت، ومصاريع الشعوب قد تحوّلت إليّ. أمتلىء إذ خـربت (هي)» (٢٦: ١ و ٢). وبطبيعـة الحال، لم تقـل صور ذلـك لأحد وبخـاصـة لحزقيال القاعد هناك عند نهر الخابور، على بعـد مئات الأميـال. لكن يهوه قرأ طبعاً ما دار بخلد صور وأوقف حـزقيال عليـه وأكد لـه أنه سينتقم من صور انتقاماً رهيباً لشماتتها في أورشليم وتطلعهـا إلى أن «تتحـول إليها مصـاريع الشعـوب» بعد خـراب أورشليم. فمنذ تلـك الأزمنـة السحيقة كـان هناك في مؤخـرة الدمـاغ، بـاستمـرار، ذلـك الاشتهاء المميت لجعل «مصاريع الشعوب» مفتوحة لصهيون وحدها، لأن يهوه ما خلق العالم وما فيه من شعوب إلّا لها وحدها.

والذي حدث في زمن حزقيال أن صوراً، هي الأخرى، ظلت تعـاني مثـل ما عـانته أورشليم والسـامـرة من هجمـات بـدأت عـلى أيـدي الأشوريين وواصلهـا البابليـون. غير أنهـا ـ لكونهـا مدينـة ساحليـة حصينة ـ ظلت بمنجاة من الاجتياح والاستسلام تحت وطأة الحصار كما حدث للسامرة ثم لأورشليم. وفوق هذا وذاك، كانت صور مصـدر حسد لازدهار تجارتها، وثرائها، وتنعُّم كهنوتها المنافس لكهنوت يهوه. ومنـذ عهد سليمـان، الـذي لم يجـد من يلجـأ إليـه للحصـول عـلى الأخشـاب والذهب والصنّـاع المهرة لبنـاء هيكله وقصـوره إلّا حيرام مَلِك صور، ظـل رخاء صـور مثار حسـد من «الشعب» وكهنة يهـوه، يشهد بذلك «تنبّؤ» حزقيال «على صور» بكلام كهـذا: «يا معمـورة من البحار (أيتها) المدينة الشهيرة»، «القوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانها»! (٢٦: ١٧)، و«أيتها الساكنة عنـد مداخل البحـر (يا) تـاجرة الشعـوب.. يا صـور أنت قلت أنا كـاملة

الجمال»، و«ثروتك وأسواقك وبضاعتك وملاحوك وربابينك وقلّافوك والمتاجرون بمتجرك وكل رجال حربك» (٢٧: ٢ و ٣ و ٢٧). وبعد كلام كثير كهذا مفصح عن حقيقة منشأ الحزازة المتقدة تجاه صور، أكّد حزقيال أن يهوه سيخرب صور ويمرغ أنفها في الرغام: «لأنه هكذا قال الرب يهوه. حين أصيّرك (يا صور) مدينة خربة كالمدن غير المسكونة.. أهبطك مع الهابطين في الجبّ.. وأجلسك في أسافل الأرض في الخِرَب الأبديّة مع الهابطين في الجِبّ لتكوني غير مسكونة.. أصيّرك أهوالاً ولا تكونين، وتُطلَبين فلا توجدين بعد إلى الأبد يقول الرب يهوه» (٢٦: ١٩ ـ ٢١).

وكان المفروض أن يحلّ ذلك الخراب بصور على أيدي البابليين مثلما حل بأورشليم. وقد كان «تنبؤ» حزقيال «على صور»، تبعاً لقوله، في السنة الحادية عشرة من سبيه، أي في ٥٨٧ ق. م.، عندما كانت «مملكة» يهوذا قد زالت من الوجود، وهدمت أورشليم وهدم الهيكل، وبدأ حصار صور.

غير أن الحصار استمر حتى سنة ٥٧٣ ق. م.، ولم تتحقق وعود يهوه بخراب صور، وكذبت «تنبؤات حزقيال على صور»، واضطر الرجل، و«البيض يغطي وجهه» كما يقولون، أن يعترف بأن ما تنبأ به على صور لم يحدث، فلم تسقط المدينة، ولم تخرب، ولم تهبط إلى الجِبّ، ولم تصبح في أسافل الأرض كما توعدها يهوه، بل خرجت من حصار دام ثلاثة عشر عاماً بحل وسط مع البابليين:

> «وكان في السنة السابعة والعشرين في الشهر الأول في أول الشهر أن كلام الرب يهوه كان إليّ قائلاً: يا ابن آدم إن نبوخذ نصر ملك بابل استخدم جيشه خدمة شديدة على صور.. ولم تكن له ولا لجيشه أجرة من صور».
>
> (٢٩: ١٧ و ١٨)

فيهوه اعترف لحزقيال أن نبوخذ نصر خرج من حصاره لصور بخفّي حنين، بعكس ما كان يهوه قد وعد به تبعاً لما ورد في

الاصحاحات السابقة من سفر حزقيال. ولما كان يهوه قد اعتبر حصار نبوخذ نصر لصور «خدمة» له، فإنه رأى ألا يخرج نبوخذ نصر وجيشه «بلا أجرة (مقابل) خدمته التي خدم بها على صور»، ولذا فإن يهوه قرر، فيما قاله لحزقيال، أن يعوض نبوخذ نصر عن النصر الذي لم يستطع أن يحققه له على صور: «لذلك هكذا قال الرب يهوه: هأنذا أبذل أرض مصر لنبوخذ نصر ملك بابل فيأخذ ثروتها ويغنم غنيمتها وينهب نهبها فتكون أجرة لجيشه. قد أعطيته أرض مصر لأجل شغله الذي خدم به (في حصار صور) لأنهم عملوا لأجلي، يقول الرب يهوه»! (٢٩: ١٩ و ٢٠).

ومن الواضح في كل هذا أن المسألة ظلت باستمرار مسألة أحقاد واشتهاء وكراهيات وجشع صيغت كلها صياغات «إلهية» وأُضفِيَت عليها قداسة ظلت نابية لما أُغرِقت فيه من دنيويات وشراهات إنسانية.

لكن تلك «الإلهيات» تكتسب، بمرور الزمن، قداسة كثيفة تخفي ما انبجست «الإلهيات» منه أصلاً من أحقاد واشتهاء وكراهيات وجشع ودنيويات وشراهات إنسانية، وعندما تصل إلى الأجيال اللاحقة، عبر موصّل أو آخر من موصّلات «القداسة»، تصبح ذات فعلٍ مدمر بحق.

ولنأخذ، مثلاً، حكاية حزقيال مع صور. فحزقيال، فيما يخص صور، كان في قبضة مشاعر إنسانية دارجة للغاية يعرفها جيداً كل من حسد جاره على ما هو فيه من نعمة، خصوصاً متى كان هو ـ كحزقيال ـ قد «ضاع مستقبله»، وسُبِي من المكان الذي كان سيصبح من صفوته الكهنوتية الحاكمة المستمتعة بكل الخيرات وصاحبة القول الفصل في أرواح الناس وعقولها والواسطة بين أولئك الناس وبين معبود دمويّ مخوف. وكما أسلفنا، تفجّرت كل ضروب الحسد والإحباط والغيظ هذه في دماغ حزقيال رؤى و«نبوءات». وفي معمعان الرؤى و«النبوءات» تدفقت من روح حزقيال كالحمم البركانيّ

صنــوف النقمة وضروب المقت لكـل من كانت لـه يد في رخــاء الجــار المحسود، صور. ومن أولئك «المذنبين» كانت شعوب نسل يــافث التي ذكرناها قبلاً في سياق محاولتنا الوقـوف على هـوية جـوج الذي ركب رأس يوحنا اللاهوتي بـوصفه قـائد جيـوش الشر والظلام في مـوقعة هرمجدّون الكونية الكبرى، وهي شعوب «**يـاوان، وتوبـال، وماشـك** (الذين) هم تجارك (يا صور). بنفوس الناس وبآنية النحاس أقامـوا تجـارتك. ومن بيت **تـوجَرْمـة** بالخيـل والفرسـان والبغـال أقـامـوا أسواقك» (حزقيال ٢٧: ١٣ و ١٤).

ونتيجة لذلك الجرم، المتمثـل في رواج تجارة صـور ورخائهـا، أكد حـزقيـال ـ كمـا أسلفنـا (ص ص ٢٦٢/٢٦٣ أعـلاه) ـ أن يهـوه سيعاقب ماشك وتوبال ورئيسهما الرأس جوج عقاباً صارماً: «**هنـاك ماشك وتوبال وكل جمهورها** حوله قبورها. كلهم غُلْف قتلى بـالسيف مع أنهم جعلوا رعبهم في أرض الأحياء. ولا يضطجعون مع الجبابـرة الساقطين من الغلف النازلين إلى الهاوية بأدوات حربهم وقـد وضعت سيـوفهم تحت رؤوسهم فتكون آثـامهم على عظـامهم مع أنهم كـانوا رعب الجبابرة في أرض الأحياء» (٣٢: ٢٦ و ٢٧).

لسـوء حظ المعاصرين الـذين يعانـون في زماننـا ويلات هـذا الهـذيـان، قـرأه الكـاهن اليهـودي الـذي تسمى بـاسم يـوحنـا اللاهوتي وقال إن السماء انفتحت له ووقف في قاعـة عرش اللـه ورأى رأى العين مصير العالم ومن فيه، فالتاث به، ثم قرأ ما أكد حزقيال وهو في قبضة هياجه أن يهوه قاله له عن جوج وماجوج:

> «وكـان إليّ كلام الـرب يهوه قـائلاً: يـا ابن آدم اجعـل وجهـك على جـوج أرض ماجـوج **رئيس روش** مـاشـك وتوبال وتنبأ عليه، وقل هكذا قـال السيد الـرب: هأنـذا عليـك ياجـوج **رئيس روش** ماشـك وتـوبـال. وأرجعـك وأضــع شكائم في فكيـك.. **في ذلـك اليـوم عنـد سكنى شعبي إسرائيـل افلا تعلم. وتـأتي من موضعـك من**

> **اقاصي الشمال انت وشعوب كثيرة معك كلهم راكبون خيلاً جماعة عظيمة وجيش كثير. وتصعد على شعبي إسرائيل كسحابة تغشّي الأرض. في الأيام الأخيرة يكون (ذلك) وآتي بك على أرضي لكي تعرفني الأمم حين اتقدّس فيك امام اعينهم ياجوج.**
>
> **«.. ويكون في ذلك اليوم، يوم مجيء جوج على أرض إسرائيل، يقول السيد الرب، إن غضبي يصعد في انفي. وفي غيرتي في نار سخطي تكلمت أنه في ذلك اليوم (يوم الرب) يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل. فترعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدابّات التي تدبّ على الأرض وكل الناس الذين على وجه الأرض وتندكّ الجبال وتسقط المعاقل وتسقط كل الأسوار إلى الأرض. واستدعي السيف عليه في كل جبالي، يقول السيد الرب. فيكون سيف كل واحد على أخيه. واعاقبه بالوباء وبالدم وأمطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الكثيرة الذين معه مطراً جارفاً وحجارة برد عظيمة وناراً وكبريتاً فاتعظّم واتقدّس واعرف في عيون امم كثيرة (اشتهر) فيعلمون اني انا الرب».**
>
> **(حزقيال ٣٨: ١ ـ ٤ و ١٤ ـ ٢٣).**

ومن عظم الأمر واحتدام الرؤيا في دماغ حزقيال، لم يكتف باصحاح واحد في سفره، فزاد عليه آخر على سبيل التأكيد المضاف:

> «وأنت يا ابن آدم تنبأ على جوج وقل. هكذا قال السيد الرب يهوه. هأنذا عليك ياجوج رئيس روش ماشك وتوبال. وأردك وأقودك **وأصعدك من أقاصي الشمال وآتي بك على جبال إسرائيل. وأضرب قوسك من يدك اليسرى واسقط سهامك من يدك اليمنى. فتسقط على جبال إسرائيل أنت وكل جيشك والشعوب الذين معك. ابذلك ماكلاً للطيور الكاسرة من كل نوع ولوحوش الحقل. على وجه الحقل تسقط لأني**

تكلمت، يقول السيد الرب. وأرسل ناراً على ماجوج وعلى الساكنين في الجزائر آمنين، فيعلمون اني أنا الرب. وأعرف باسمي المقدس في وسط شعبي إسرائيل ولا ادع اسمي المقدس ينجس بعد فتعلم الأمم اني أنا الرب قدّوس إسرائيل.

«ها هوذا قد اتى وصار (يوم الرب). هذا هو اليوم الذي تكلمت عنه».

(حزقيال ٣٩: ١ ـ ٨).

وفي ذروة الهياج، يسدر حزقيال في وصف ما سوف يحدث لجيش الأمم القادم من أقاصي الشمال تحت قيادة جوج من أرض ماجوج، وكيف أن «سكان مدن إسرائيل سيظلون يجمعون السلاح والعتاد ويوقدون بها النار سبع سنين وينهبون الذين نهبوهم ويسلبون الذين سلبوهم» وكيف أنهم سيظلون يطهرون الأرض من جيف القتلى سبعة أشهر في مقبرة عظيمة ستعرف باسم «وادي جمهور جوج»، ويؤكد أن يهوه نبّه عليه مشدداً أن يقول لكل طائر ذي جناح ولكل وحش من وحوش البر «اجتمعوا وتعالوا احتشدوا من كل جهة إلى ذبيحتي التي أنا ذابحها لكم ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحماً وتشربوا دماً. تأكلون لحم الجبابرة وتشربون دم رؤساء الأرض.. وتأكلون الشحم إلى الشبع وتشربون الدم إلى السكر من ذبيحتي التي ذبحتها لكم. فتشبعون على مائدتي من الخيل والمركبات والجبابرة وكل رجال الحرب، يقول السيد الرب. وأجعل مجدي في الأمم وجميع الأمم يرون حكمي الذي أجريته ويدي التي جعلتها عليهم. فيعلم بيت إسرائيل إني أنا الرب الههم من ذلك اليوم فصاعداً» (حزقيال ٣٩: ٩ ـ ٢٢).

ففي آخر الأمر، يفعل يهوه كل ذلك ليقنع «بيت إسرائيل» بأنه الرب إلّههم ويجعل بيت إسرائيل يعبده ويتقي غضبه من ذلك اليوم فصاعداً. والثمن هنا تقديم كل تلك الشعوب ضحية،

ذبيحة، تقدمة، على مذبح تمجّد يهوه وضمان عبادة «الشعب» له.

ولندع جانباً وحشية الرؤية ودمويتها. فالوحشية الدموية صفة ملازمة لحكي العهد القديم عن يهوه وعن «الشعب» إلى حد جعل المؤرخ اليهودي ادوارد ماير يصف يهوه بأنه «شيطان دموي من شياطين البراكين». لكنه هكذا رأى حزقيال وغيره من «نبييم» اليهودية ما انبغى أن تكون عليه الألوهة.

والذي يعنينا هنا، على أية حال، هو جوج وحشده العظيم. لأن هذا الهذيان المحموم الذي أشعله الإحباط والغيظ والكره في دماغ حزقيال انتقلت عدواه، بعد حزقيال بقرون، إلى كاهن يهودي آخر تسمّى باسم يوحنا أو دعي بذلك الاسم ووصف بأنه «الإلّهي» أو ـ في الصيغة المخففة ـ بـ «اللاهوتي»، فجعلته العدوى يرى هو الآخر رؤيا لـ «يوم يهوه»، «آخر الأيام». ثم، بعد اللاهوتي بقرون، انتقلت العدوى من صفحات العهد القديم وذيل العهد الجديد إلى الأصوليين المسيحيين الأتقياء، فرأوا هم أيضاً رؤى معاصرة لـ «يوم يهوه» ومعركة هرمجدّون التي سيحسم يهوه بها الشحان الذي طال أمده بين **أبناء النور وأبناء الظلام** في العالم، وينزل ليحكم العالم بنفسه، أو عن طريق نائب الملك، مسيحه المختَلَف على هويته.

وبالضرورة، نعود إلى حزقيال وإلى ذلك الشرير جوج والحشد العظيم الذي معه. وحتى نقف على مدى ما يمكن للذهن البشري أن يذهب إليه من التلفيق العقائديّ على أوهى الأسس وأشدها إمعاناً في الطفولية، نتوقف عند «جومر». وجومر ذاك، كما أسلفنا، أكبر أبناء يافث: «بنو يافث جومر، وماجوج، وماداي، وياوان، وتوبال، وماشك، وتيراس. وبنو جومر اشكناز، وريفاث، وتوجرمه. وبنو ياوان أليشة، وكتيم، ودودانيم. من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم بأراضيهم، كل إنسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم» (تكوين ١٠: ٢ ـ ٤).

جومر، بكر يافث وحفيد نوح، فيما استقر عليه البحث في أصول

«شجرة العائلة» وفروعها[٢٥]، اسم بدئي لشعب من شعوب الأناضول عرف في النقوش الأشورية باسم «السيميرّاي» وورد ذكره في حكي اليونان الأقدمين بوصفه **شعباً خرافياً يعيش في الضباب والظلمة**، فعرف بـ «السيميريين، **أبناء الظلام**». إلا أنه، رغم أن شعب جومر السيميري ذاك لم يكن شعباً خرافياً من شعوب الأساطير، إذ حاربه الأشوريون وهزموه في معركة فاصلة وقعت حوالي سنة ٦٤٠ ق.م. ففتحت هزيمته أبواب الأناضول الأوسط أمام الليديين[٢٦]، **استقر ذكره في الحكي اليهودي بوصفه شعباً محارباً شيطانياً يسكن الغيم والظلمة، وأنه تحالف مع الحية/ الشيطان ضد يهوه.**

ومن ذلك التصور، نبعت فكرتان في فولكلور العهد القديم: (١) فكرة الشر الرابض هناك بأقصى الشمال، متربصاً بالأخيار (شعب يهوه)، و (٢) فكرة «**أبناء الظلام**» بوصف التسمية مظلّة شاملة يندرج تحتها ـ جنباً إلى جنب مع شعب جومر/ السيميريّ ذاك ـ حشد من شعوب أخرى شريرة ومعادية لـ «الشعب» الذي بات ـ تعريفاً له بالنقيض ـ «**أبناء النور**».

ولقد كان من الطبيعي أن يلاقي ذلك التصنيف تقبلاً فورياً واسعاً لدى الأصوليين المسيحيين في أميركا إذ اتسّق مع تصنيف العقل الأميركي التبسيطيّ للبشر إلى أخيار 'Goodies' وأشرار 'Baddies'!

إلّا أن التصنيف قبل أن يصل إلى العقل الأميركي المعبرَن، كان قد ظل يفعل فعله المدمّر بكفاءة عالية في إبداع سيناريو «يوم يهوه» الذي ستكون فيه نهاية الذبيحة الكبرى، كل الأمم، أي «أبناء الظلام»، أعداء «أبناء النور»، «الأمة المقدسة»، بني إسرائيل:

> «لقد قضى يهوه إلّه إسرائيل بحرب على كل الأمم (الجوييم، الأغيار)، وبقديّسي شعبه سوف يضرب بجناح قوي».
>
> (**لفيفة الحرب، لفائف البحر الميت، العمود ١٦: ١/١**)[٢٧]

وفي يوم الهول ذاك سوف تكون هناك:

«معركة كبرى وذبح عظيم تحت قدميّ يهوه إله إسرائيل في اليوم المحدد منذ القدم، **يوم الرب، الذي سيباد فيه أبناء الظلام**. في ذلك اليوم سوف تخوض المعركة من أجل الذبح العظيم جمهرة من الآلهة وحشد عميم من بني الناس، **ويتقارع أبناء النور وأبناء الظلام** كيما يتمجد يهوه وتتبدّى قدرته، ويكون هناك جيش جند السموات، وضجيج حرب الآلهة وبني الناس في يوم الكَرْب الذي سيكون يوم بلاء عظيم للشعب، لمفديي الرب، لأنه من كل ما عانوه من بلاء لن يكون هناك ما يماثل كرب ذلك اليوم منذ ابتدائه المباغت حتى نهايته..».

(لفيفة الحرب، العمود ١/٢/١: ٩ ـ ١٢)[٢٨]

في سفر يوئيل («يهوه هو إيل»)، أول أسفار النبيين الأصاغر في العهد القديم، نجد هذا الوصف لـ «يوم الرب»، ويوم محاكمة كل أمم الأرض في وادي يهوشافاط:

«آه على اليوم لأن يوم الرب قريب. يأتي كخراب من القادر على كل شيء».

(١: ١٥)

«اضربوا بالبوق في صهيون صوّتوا في جبل قدسي. ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب. يوم ظلام وقتام يوم غيم وضباب مثل الفجر ممتداً على الجبال. شعب كثير وقوي لم يكن نظيره منذ الأزل ولا يكون أيضاً بعده إلى سنيّ دور فدور. قدامه نار تأكل وخلفه لهيب يحرق».

(٢: ١ ـ ٣)

«وأعطي عجائب في السماء وفي الأرض دماً وناراً وأعمدة دخان. تتحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم قبل أن يجيء يوم الرب العظيم المخوف. **ويكون أن كل من**

يدعو باسم يهوه ينجو. لأنه في جبل صهيون وفي أورشليم تكون نجاة».

(٢: ٣٠ ـ ٣٢)

«لأنه هوذا في تلك الأيام وفي ذلك الوقت عندما أرد سبي يهوذا وأورشليم اجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط وأحاكمهم هناك على (ما فعلوه) بشعبي وميراثي إسرائيل الذين بددوهم بين الأمم وقسموا أرضي والقوا قرعة على شعبي.. وماذا انتنّ لي يا صور وصيدا وجميع دوائر فلسطين؟ هل تكافئونني عن العمل أم هل تصنعون بي شيئاً؟ سريعاً بالعجل أرد عملكم على رؤوسكم. لأنكم أخذتم فضتي وذهبي وأدخلتم نفائسي الجيدة إلى هياكلكم، وبعتم بني يهوذا وبني أورشليم لبني الياوانيين لكي تبعدوهم عن تخومهم. هأنذا انهضهم من الموضع الذي بعتموهم إليه وأردّ عملكم على رؤوسكم وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا ليبيعوهم للسبائيين، لأمّة بعيدة لأن الرب تكلم.

«نادوا بهذا بين الأمم. قدّسوا حرباً. انهضوا الأبطال ليتقدم ويصعد كل رجال الحرب. اطبعوا سكّاتكم سيوفاً ومناجلكم رماحاً. ليقل الضعيف بطل أنا. أسرعوا وهلموا يا جميع الأمم من كل ناحية واجتمعوا. وإلى هناك أنزل يا ربّ أبطالك. تنهض وتصعد الأمم إلى وادي يهوشافاط لأني هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم (القادمة) من كل ناحية. ارسلوا المنجل لأن الحصيد قد نضج. هلموا لأنه قد امتلأت المعصرة. فاضت الحياض لأن شرّهم كثير.

«جماهير جماهير في وادي القضاء لأن يوم الرب قريب في وادي القضاء. الشمس والقمر يظلمان والنجوم تحجز لمعانها. والرب من صهيون يزمجر ومن أورشليم يعطي صوته فترتجف السماء

والأرض. ولكن الرب ملجأ لشعبه وحصن لبني إسرائيل. فتعرفون أني انا الرب إلهكم ساكناً في صهيون جبل قدسي وتكون أورشليم مقدّسة ولا يجتاز فيها الأعاجم (الأغيار) في ما بعد.

«ويكون في ذلك اليوم أن الجبال تقطّر نبيذاً والتلال تفيض لبناً وجميع ينابيع يهوذا تفيض ماء ومن بيت الرب يخرج ينبوع ويسقي وادي السنط. ومصر تصير خراباً وادوم تصير قفراً خرباً من اجل ظلمهم لبني يهوذا الذين سفكوا دماً بريئاً في أرضهم. ولكن يهوذا تسكن إلى الأبد واورشليم إلى دور فدور. وأبرّىء دمهم الذي لم ابرّئه والرب يهوه يسكن في صهيون».

(٣: ١ - ٢١)

في هذا السفر القصير، أوجز هذا المتنبىء يوئيل القضية إيجازاً بليغاً من قبيل ما قلّ ودل:

(١) يهوه قد أعد لكل أمم الأرض يوم خراب وهول عظيم لن ينجو منه أحد إلا كل من دعا باسم يهوه من اليهود، لأنه لن تكون نجاة إلا في جبل صهيون وفي أورشليم.

(٢) يهوه سوف يرد سبي اليهود من الشتات في كل الأمم ويجمّعهم في الأرض الموعودة.

(٣) يهوه لا يعنيه إلا شعبه، لأنه ماذا تكون صور وصيدا وكل دوائر فلسطين أو كل أمم الأرض جميعاً بالنسبة إليه؟ لا شيء. لأن غير اليهود لن «يكافئوه» على شيء، ولن «يصنعوا به شيئاً».

(٤) ليهوه يوم حساب عظيم مع كل الأمم، وبخاصة الأمم المجاورة لـ «الشعب» لأنها «باعت اليهود لـ «الياوانيين»»، أي بني ياوان، أليشة، وكتيم، ودودانيم، وبخاصة «كتيم»، الإسم «الحركي» الذي أُطلِق على كل أمة كبيرة وقوية عادت «الشعب» أو أخضعته.

فقد أطلق على اليونان، ثم على الرومان. ولما كان المرجّح أن سفر يوئيل كُتِب حوالي سنة ٤٠٠ ق. م.، فإن إشارته إلى «بيع بني الشعب وبناته» إلى الياوانيين قد يكون منشؤها اتجار الفينيقيين في الرقيق وبيعهم بعض اليهود لليونان.

(٥) غير أن ذلك وزر يهون بجانب أخذ الفينيقيين لفضة يهوه وذهبه ونفائسه الجيدة وإدخالها إلى هياكل آلهتهم. وربما كان ذلك من خلال المتاجرة مع البابليين إثر نهب الهيكل بعد استسلام يهوياكين في القرن السادس ق. م. وهو ما يمكن أن يفسّر أيضاً الحزازة الخاصة التي نضحت في «تنبؤ حزقيال» على صور.

والملاحظ في نص يوئيل أنه تراوح بين التكلم بلسانه والتكلم بلسان يهوه. ومن المفهوم أن يشتعل (لحساب يهوه وحسابه) بمثل تلك الحزازة تجاه أولئك الأغيار الفينيقيين الذين أدخلوا نفائس هيكل يهوه إلى هياكل آلهتهم المنافسة.

(٦) ونتيجة لهذا قال يوئيل أن يهوه سوف يحاكم كل الأمم في وادي يهوشافاط، وهو مكان غير معروف، وقد أخذ يوئيل اسمه من اسم ملك من ملوك يهوذا عرف بذلك الاسم الذي يعني «يهوه قد قضى». وستكون المحاكمة صارمة لأنها ستدور حول ما فعلته الأمم بشعب يهوه.

(٧) وجرياً على مألوف عادته، منذ ظل «يغلّظ قلب فرعون» أيام موسى، لـ «يتمجّد فيه مرة أخرى»، نجد يهوه في رواية يوئيل عن «يوم الرب المخوف» مستحثاً الأمم على أن تفعل عكس ما أراد إشعياء لها أن تفعله في ظل حكم صهيون. فإشعياء رأى «العصر الذهبي» متمثلاً في أمم سادها السلام الصهيوني فحوّلت سيوفها ورماحها إلى محاريث ومناجل. لكن يهوه، في حكي يوئيل، يعكس الآية فيهيب بالأمم أن تجتمع للحرب و«تطبع سكاتها سيوفاً ومناجلها رماحاً» وتصعد على أرض «الشعب» ليحصدها يهوه حصداً ويريق دماءها

أنهاراً (وهذا معنى قول يوئيل «أرسلوا المنجل لأن الحصيد قد نضج. هلموا لأنه قد امتلأت المعصرة»). وإذ تجتمع الأمم في وادي القضاء، ستظلم الشمس، وينطفىء نور القمر والنجوم، وتبدأ المذبحة، فتخلص الأرض لشعب يهوه، وتصبح أورشليم محرّمة على غير اليهود، لا يطأ أرضها، كما جاء بالأنبياء، أغلف ولا نجس.

(٨) وإذ ذاك ستفرح الأرض وتفيض خيراً ونبيذاً، وكيما تتم الفرحة ويكتمل الحبور، سوف تصير مصر خراباً ويقوم مُلك يهوذا إلى الأبد على كل الأرض لأن يهوه سيسكن وسط شعبه في صهيون.

وكما قلنا، أوجز يوئيل الحكاية. لكن الإشارة الوحيدة التي وردت في سفره إلى «الأمم»، عدا صور وصيدا وكل دوائر فلسطين، أوحت بأن تلك «الأمم» هي الأقوام اليونانية، وبالأخص في قبرص القريبة وهي الجزيرة التي اعتبرت موطناً لشعبي أليشة وكتيم.

فهل يا ترى كان هدف يهوه أن يجمع أليشة وكتيم والفينيقيين ليحاكمهم في وادي يهوشافاط؟ لا يبدو ذلك، والذي يبدو أن يوئيل تواضع كثيراً أو كانت معلوماته الجغرافية ضئيلة ومحدودة بقبرص باعتبارها أقاصي المعمورة. والذي يرجّح ذلك كلام حزقيال. فذلك المتنبىء الناري قال إنه كُلّف من قبل يهوه بأن «يتنبأ على جوج» ويخطر جوج ذاك بأن يهوه قرر أن «يصعده من أقاصي الشمال ويأتي به على جبال إسرائيل» ليذبحه هو ومن معه من جيوش ويقيم مأدبة كبرى على لحومهم ودمائهم يدعو إليها كل جوارح الأرض ووحوشها لتأكل حتى الشبع وتشرب الدم حتى السكر. وإذا ما عدنا إلى أسماء الأقوام الوارد ذكرها بالأصحاح العاشر من سفر التكوين والتي ذكر حزقيال بعضها (ماجوج، وماشك، وتوبال) سنجد أنها ـ باستثناء بني ياوان الذين ذكرهم يوئيل (أليشة، وترشيش، وكتيّم، ودودانيم والأصحّ رودانيم، من رودس) وبني مصرايم أحفاد حام (لوديم، ولهابيم) ـ كانت من أقوام آسيا الصغرى التي ما من شك في أنها بدت لحزقيال كـ «أقاصي شمال» الأرض.

وحتى تتحدد المسألة بوضوح أكبر، يحسن أن نرجع إلى الخريطة (الشكل رقم ٣)، وإذ ذاك سنتبين معنى قول حزقيال «من أقاصي الشمال». فجومر، أي شعب السيميريين، كما أسلفنا، كان الشعب الذي سكن أواسط الأناضول عند منابع نهر الفرات إلى أن طرده الليديّون وحلّوا مكانه شمال شعب ماجوج. وإلى الجنوب الغربي، في المنطقة الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، كان شعبا ماشك وتوبال. وتلك هي الشعوب المعادية الشريرة التي أكد حزقيال أن يهوه ـ كدأبه في استدراج الشعوب لـ «يتمجّد فيها» ـ كان قد بيّت النية على استدراجها، وفي الواقع «قودها» غصباً («وأقودك وأصعدك من أقاصي الشمال (ياجوج) وآتي بك على جبال إسرائيل» (حزقيال ٣٩: ٢)، و«إصعادها» على شعبه إسرائيل «كسحابة تغشّي الأرض»، كيما «يستدعي السيف عليها»، ويعاقبها «بالوباء وبالدم وبالمطر الجارف وبحجارة البرد وبالنار والكبريت»، وبذلك «يتعظّم فيها» في «اليوم الذي تكلم عنه»، أي «يوم الرب» الذي في «الأيام الأخيرة».

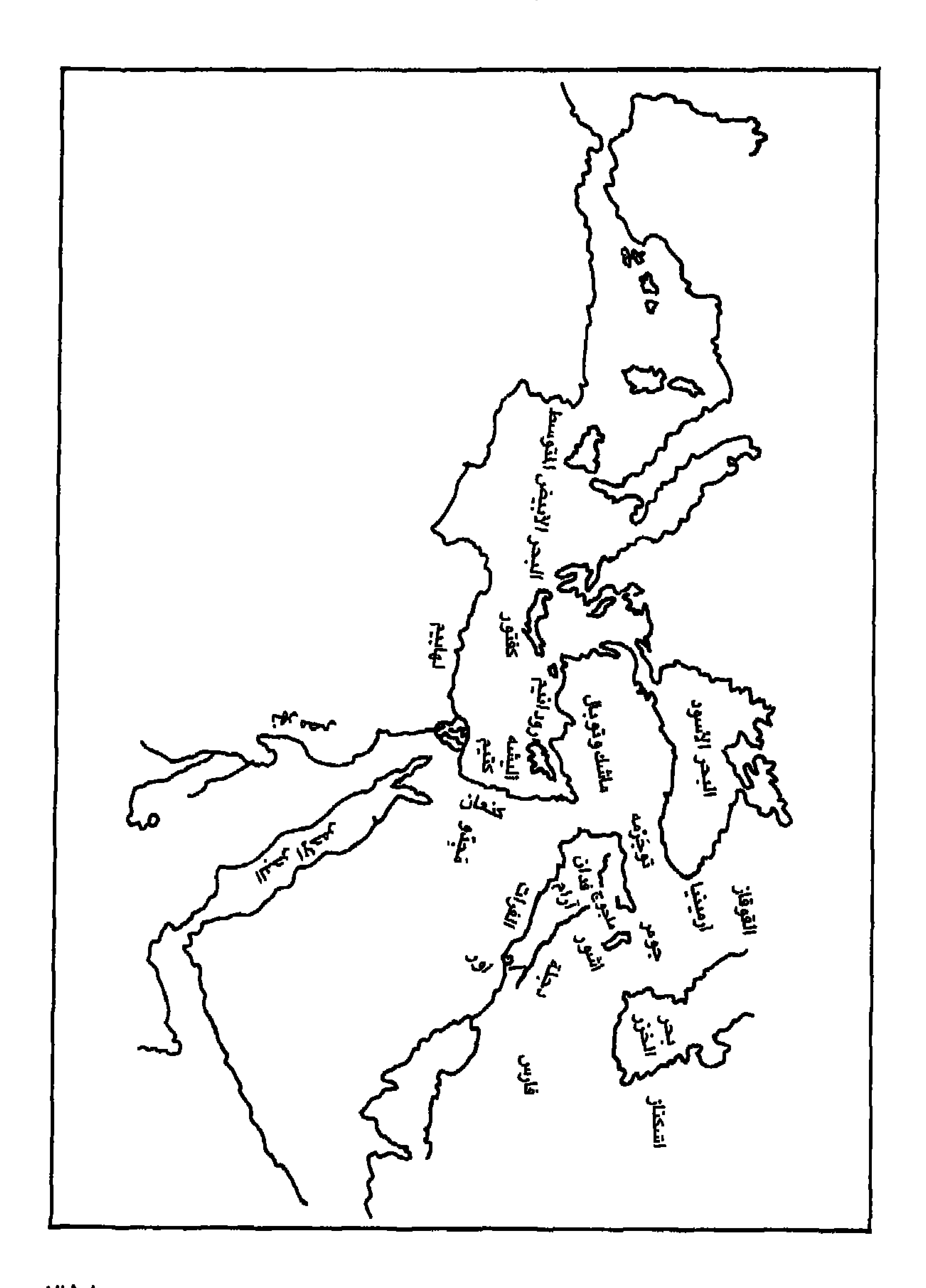
وذلك الهول كله بغير سبب واضح في سفر حزقيال اللهم إلا إذا كان الذنب الذي استحق ذلك العقاب أن ماشك وتوبال تاجرا مع مدينة صور. إلا أنه لا بد أن أسباباً إلّهية عليا خفية تعلو على أفهام البشر(شرحها يهوه لحزقيال ولم يجد حزقيال من الملائم إفشاء سرها) هي التي استوجبت ذلك.

غير أن المزعج في ذلك كله أن ذلك القائد الشرير جوج، الذي انطوى له يهوه على تلك الحزازة الفظيعة، كان ـ عندما كتب حزقيال ما قاله له يهوه، في سنة ٥٨٧ ق. م. أو ما بعدها ـ قد مات وشبع موتاً! فـ «جوج»، وهي تحريف لاسم «جيجِس» قائد الليدييّن الوارد في كتابات المؤرخين اليونان، قُتل في معركة مع السيميريين (جومر) في سنة ٦٥٢ ق.م.[٢٩]، أي قبل «تنبّؤ» حزقيال عليه بعدة عقود.

ولا تفسير لهذا إلا واحدة من اثنتين: إما أن يهوه ـ لأنه لم يعنَ

الشكل رقم (٣)

عالم سفر التكوين



في أي وقت إلا بـ «شعبه» ومصائر قادة «شعبه» ـ كان قد فاته أن ذلك الرجل الشرير جوج مات، وإما أنه ـ وهو القادر على كل شيء ـ كان يعرف أن الرجل مات لكنه قرر أن يعيده إلى الحياة ليقود تلك الجيوش من «أبناء الظلام».

ولنكد حظ العالم ومن فيه، وبخاصة في تلك المنطقة المنكوبة منه المسماة بالشرق الأوسط، وصل هذا الهذيان الشبيه بتخاريف الحمى إلى أدمغة المسيحيين الغربيين عن طريق كاهن يهودي آخر تسمّى باسم يوحنا اشتعلت الرؤى الأخروية في دماغه والرومان يشغّلونه سُخرة في محاجر جزيرة بطموس، فرأى الشيطان مسجوناً ألف سنة ثم رآه مطلق السراح ثانية بعد تلك السنوات الألف ليخرج إلى العالم:

> «ويضِلّ الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب بعددهم (الذي) مثل رمل البحر، ويُصعِدهم على عرض الأرض ليحيطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة (يروشلايم) فتنزل نار من عند الله، من السماء وتأكلهم، ويُطرَح إبليس الذي كان يضلّهم في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبيّ الكذاب ليعذبوا فيها ثلاثتهم معاً نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين».
>
> **(رؤيا اللاهوتي ٢٠: ٧ ـ ١٠)**

ومن يوحنا اللاهوتي، تحت وهم أنه «بُعِث من المسيح»، امتلأت أدمغة البروتستانت الأتقياء من المسيحيين الأصوليين، في جحيم المغفلين الذي تحول فيه الدين إلى شركات مدمجة وسيرك وميوزيكهول، بهذه الرؤى الملتاثة. وتحت تأثير الاعتقاد الأميركي الضارب بجذوره في الروح بأن «أميركا تقوم بعمل الله على الأرض»، أخذ المؤمنون الأميركيون على عواتقهم مهمة تحقيق تلك الرؤى، معيدين في إعدادهم لتحققها دراما «المسيح والهنود الحمر» من خلال

إسرائيل وهنودها الحمر (العرب الأمجاد)، عاملين بكل قواهم على تفجير الجحيم تعجيلاً بـ «يوم الرب»، وموقعة هرمجدّون التي سيقضي أبناء النور في غمارها نهائياً على أبناء الظلام.

* * *

٤ التديّن الأميركي و«الاستثنائية» الأميركية

يشير تاريخ الولايات المتحدة إلى أن عبادة إسرائيل تأصّلت في الروح وتشربها جسد الأمة الأميركية حتى النخاع، على الرغم من كل أعراض الموقف التكافؤيّ من اليهود، منذ البداية.

ففضيلة القس كوتون ماذر (١٦٦٣ ـ ١٧٢٨)، مثلاً، وهو أحد أهم الآباء الروحيين المؤسسين لتلك الأمة الشجاعة، كان ـ في الوقت الذي تمسك فيه بأنه من الكفر بالله وبالمسيح أن يحاول أحد «هداية» أهل البلاد الأصليين، الهنود الحمر، لأنه وجدهم مخلوقات بشعة لا يجوز أن تدخل في ديانته المقدسة ـ[٣٠] يضع اليارمولكا على رأسه ويدعو نفسه «الحاخام ماذر»[٣١].

فمنذ ذلك الوقت، كان الأميركيون ـ وهم يتظاهرون بمنتهى الورع والتديّن ـ سائرين صوب التنازل الروحي، والتبعية والتديّن بالوكالة. كانوا بالحقيقة، فيما تفصح عنهم أوضاعهم «الروحية» الراهنة، سائرين سيراً حثيثاً صوب ضرب غريب من فساد الدين يودي بمن تبتلي روحه به إلى الانسحاب من العلاقة بالخالق والتنازل عن عبادته اكتفاء بعبادة «إسرائيل».

وذلك فساد قاتل للروح كمنت جرثومته في التهوّد البروتستانتي منذ كتب مارتن لوثر، تحت ساتر أن «المسيح يهودي»، أن على غير اليهود أن يقنعوا بأن يُقعوا كالكلاب تحت مائدة اليهود ليلتقطوا الفتات المتساقط من مأدبة أبيهم، أي يهوه.

ولقد ظلّت حكاية «المسيح يهودي» هذه ساتراً جيداً لمثل ذلك النوع من التكلُّب الروحي، أي ممارسة عبادة الله ككلاب مُقعية تحت مأدبة اليهود. غير أن القول بأن المسيح يهودي لا يستقيم إلا على أساس التسليم بأن كون المرء يهودياً ينشأ عن انتمائه عرقياً إلى

«جنس» هــو اليهود، أو قــومياً إلى «شعب» هــو اليهود. غــير أن كــلا الادعــاءين فاســد من أساســه لأن اليهــود لا هم «جنس»[٣٢]، ولا هم «شعب»، بل هم أناس من أعراق وشعوب مختلفـة ينتمون إلى ديـانة اسمها اليهوديـة فيستمدون ـ بـالمخالفـة لأي وهم عرقي أو قــومي ـ تسميتهم منهـا. وما دام ذلـك كذلـك، وكان النـاصري ـ ســواء سلم القائل بأنه «المسيح» أو لم يسلّم ـ مؤسس ديانة جديدة غير اليهودية عرفت باسمه، هي المسيحية، فإنه لا يكون يهودياً، بل فلسطينيـاً من أهل الجليل ينتمي إلى الديانة التي هو منشؤها. والملاحظ أنــه ـ رغم تأكيده بأنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله فقط ـ تنصـل من تلك اليهودية التي ادعاها له مارتن لوثر. والأمثلة على ذلك التنصل عديدة لا تحصى في العهــد الجديـد، وأخطـرهـا نقضــه السبت و«إكمــالــه» الوصايا العشر، ومناقضتــه لقاعـدة عين بعــين وسن بسن و«مناهي» سفر اللاويين الخاصة بــ «ما يدخل الفم». وهو في النهاية قد قــال في ذلـك «لا تظنوا أني جئت لألقي ســلاماً عــلى الأرض. مــا جئت لألقي سلاماً بل سيفاً» (متى ١٠: ٣٤).

فحقيقة المسألة ليست كما صورها لوثر في قوله عن الكلاب القابعة تحت المائدة (وهــو قد عــدل سريعاً عــلى أية حــال) بل هي **احتضــار المسيحيــة كديــانة وبخــاصة في البلــدان الصنــاعيــة المتقــدمــة واستبدال شعوب تلك البلدان الله بإسرائيل كموضوع للعبادة،** وهو مسار بدأه شاول الذي تسمى بعد حكاية «شــاول، شاول، لمــاذا تضطهــدني؟» «باسم» بــولس الرســول، وأوصله إلى ذروتــه المنظرون البروتستانت وفساد الكاثوليكية.

ذلــك الموت ـ ككــل موت ـ أعقبــه فساد التعفّن، واهتــراء الروح. فبغير الدين يتحول البشر إلى أعجاز نخل خاوية. إلى أصداف خارجية ليس بداخلها حياة. وإن كان اليهود قد بقوا حتى اليوم وخــرجوا من خبــرة الشتات والاضطهــاد والمذابــح إلى حيث يقفون عــلى مشــارف التسيّد على عالم بأسره، فمــا ذلك إلا لأن دينهم أقــام أودهم ومكنّهم

من التشبث والصمود وزودهم بالطاقة الروحية والعزم الذي لم يحد ولم يكلّ على تنفيذ مخطط السيادة الكوكبية الذي انبنت عليه الديانة منذ صنعها موسى، حتى وإن كانت نظرتهم إلى الألوهة منذ مبدأ الأمر نظرة نفعية بحتة، باعتبار التمسك بعبادة يهوه مقايضة على الكسب والعلو والتسيّد. وفي حقيقة الأمر لا يمكننا أن نجد على ساحة الأديان التوحيدية في عالم اليوم ديناً التزم التزاماً صارماً بمفهوم قداسة الألوهة وعلوها، وظل آخذاً منطلقه من أن الألوهة تعبد لذاتها في ذاتها وليس على سبيل المقايضة، إلا الإسلام. وبموقفه هذا، بات الإسلام ـ ربما بأكثر من أي وقت مضى ـ ديانة منافسة خطرة، سواء في نظر المسيحية المحتضرة أو في نظر اليهودية الصاعدة. والأدلة على ذلك لا تكاد تحصى، وأظهرها وأوضحها العداء المشترك، المفضوح تارة والمقنّع تارة، للإسلام، وهو عداء تتبدى أعراضه على ساحات كثيرة في العالم، لكنها لا تتبدى بمثل ما تتصف به من ضراوة على ساحة صراع الشرق الأوسط.

وهناك، بطبيعة الحال، شبكة عريضة معقدة متداخلة الخيوط من العوامل الفاعلة فعلها في تحريك وتوجيه ذلك العداء المشترك في حالة صراع الشرق الأوسط. إلا أن عاملاً رئيسياً من أقوى تلك العوامل جميعاً يظل الدين:

«إن الكثيرين من المسيحيين ـ الأميركيين، سواء في ذلك أعضاء الجناح المحافظ أو عامة المسيحيين، يؤيدون إسرائيل تحت تأثير القيم الثقافية والسياسية المشتركة وكرد فعل لفظاعات الهولوكوست. كما أن كثيرين من المسيحيين المحافظين يشعرون أن **إنشاء دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ جاء كتحقق للنبوءات التوراتية وأن الدولة اليهودية ستظل تلعب دوراً مركزياً في مخطط السماء للأرض.**

«هذا ويميل الانتماء الديني إلى مباشرة تأثير قوي على أفراد الطوائف المسيحية الرئيسية، وبخاصة البروتستانتية، يجعلهم يتخذون مواقف مماثلة لإسرائيل. ويجعل التركيز الحصري على

التراث التوراتيّ كثيرين من المسيحيين الأميركيين ينظرون إلى الشرق الأوسط والصراع الدائر فيه كانعكاس للأحداث التي يصورها العهد القديم: فإسرائيليو القرن العشرين يصبحون في أعينهم بني إسرائيل التوراة، والفلسطينيون يصبحون «الفيليستين» (الذين حارب بطلهم جوليات داود)، وهلم جرا في سياق تسلسل خطر، وإن كان غير شعوري في معظم الأمر، من التداعيات التاريخية المغلوطة يتلاشى تحت وطأتها أي فرق بين المستوطنين اليهود و«الأمة» اليهودية التي غزت أرض كنعان بقيادة موسى ويشوع. **وهكذا فإن كل المسيحيين الأميركيين تقريباً ينهجون تجاه الشرق الأوسط نهجاً اقل ما يوصف به أنه قائم على صلة روحية مستدقة مع إسرائيل وميل إلى اتخاذ موقف المعارضة أو التشكك من كل ما ينطوي على شبهة التساؤل عن صواب سياسات إسرائيل»**[٣٣].

ولئلا تغمض الصورة، فنعتقد أن تلك «مواقف خاصة» و«انتماءات عاطفية» لبعض المتدينين، ونتصور أنها لا دخل لها في السياسة أو «المسائل الواقعية»، يحسن أن نتوقف عند هذا الكلام الذي نورده بإزاء الخلفية التي استوضحناها فيما يتعلق بالممارسة المتعاظمة في الغرب بعامة وفي الولايات المتحدة بشكل خاص والمتمثلة فيما أسميناه «التديّن بالوكالة»:

«لا أحد يستطيع أن يفهم أميركا وحريّاتها إلا إذا وعى وتفهم **التأثير الذي باشره وما زال يباشره الدين في صوغ هذا البلد.**

«فمن الخصائص الفريدة المميزة لنظام الحكم الجمهوري في أميركا أنه يستمد الحيوية المحركة له من موارد لا يمتلكها ولا يتحكم فيها. فلقد آمن معظم الآباء المؤسسين لهذا البلد أنه وإن كان النظام السياسي الذي وضعوه نظاماً جيداً، فإنه يمكن أن يفسد على أيدي الأشرار، وآمنوا بأنه كيما يعمل بالشكل الذي ابتغوه له والذي يمكّنه أن يعمل به إذا لم يفسده أحد، يظل بحاجة إلى أن تُضَخّ في عروقه باستمرار قيم من يعيشون في ظله، **وأكدوا أن تلك القيم تستمد**

بالقدر الأعظم من الدين.. والمعروف أن خلطَةُ الدين والسياسة خلطَة فعّالة للغاية، وهو ما برهنت عليه الأحداث باستمرار في أميركا، التي وصفها الروائي والشاعر الانكليزي جيلبرت كيث تشسترتون بأنها «امّة لها روح كنيسة». فبالرغم من إعلانات موت الله بين الحين والحين ما زال أكثر من ٩٠٪ من الشعب الأميركي منتمين إلى الدين وما زال الدين قوي التأثير في حياتهم بشكل أو بآخر»[٢٤].

وهذا شيء جيد، ما في ذلك شك، لولا أن الدين في أميركا تحول - ككل شيء آخر في طريقة الحياة الأميركية - إلى نشاط تجاري إعلاني مسرحي واليكتروني. تحول إلى ما يسمونه أميركياً بالـ «Big Business».

وذلك أكثر الأشياء طبيعية في أميركا، البلد الفتيّ الذي صنع لنفسه طريقة حياة تمازجت فيها اليهوية «Yahwism»، أي عبادة الله من خلال عبادة إسرائيل، والمامّونية «Mammonism» أي عبادة المال وتقييم كل شيء بما يدرّه أو لا يدرّه من مال. وكما تساءل مارتين إيمس[٢٥]، «أي شيء يمكن أن يكون أكثر أميركية من الصورة الأميركية للمسيح كمشعوذ أبديّ صانع عجائب وواهب شفاء، كمانح للصحة وللمال في آن معاً، لا فيما بعد، أو في السماء، بل الآن وهنا»؟ وفي سياق ذلك، تحول الدين، وبخاصة على أيدي الأصوليين الانجيليين، إلى صناعة تصل مردوداتها إلى بلايين الدولارات التي تستحلب من جيوب المؤمنين وحساباتهم في البنوك ومدخراتهم لتردّ إليهم على شكل أبعاديات في السماء، وبركة على الأرض تجعلهم من الرابحين «winners» لا الخاسرين «losers». و«رابحون» في اللغة الاصطلاحية الأميركية، تعني الأخيار الصالحين، في حين لا مؤدى لكون المرء من الخاسرين إلا كونه خاطئاً شريراً مغضوباً عليه. وهذا، فيما قد نذكر، امتداد في الحياة الأميركية المعاصرة للمفاهيم «الأخلاقية» النفعية التي راجت في انكلترا في فورة انتصار الطبقة

المتوسطة الصاعدة على عباب الانقلاب الصناعي، وهي المفاهيم البروتستانتية المعبرَنَة التي اعتبرت الفقر عقاباً من عند الله على الحطة والخطيئة وجزاءً وفاقاً للشر الكامن في نفس الفقير، أي «الخاسر» 'loser' في المفهوم الأميركي. وعلى هذا الأساس، أُكسِب المال قداسة وباتت حيازته معياراً للفضيلة كما اعتُبِر الافتقار إليه علامة على الانغماس في الرذيلة وعدم استحقاق **النعمة الإلّهية**.

لكن المال سيّد لا يرحم، ومعبود لا يقل صرامة عن يهوه. فله وصاياه و«مناهيه» هو أيضاً التي يتحتم على عباده كيما يظلوا من الرابحين أن يلتزموا بها التزاماً دقيقاً. وأول تلك الوصايا، تماماً كما في وصايا يهوه لـ «بني إسرائيل»: «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي». وذلك مأزق إلّهي لم تتوقف عنده الروح الأميركية طويلاً، إذ كان المخرج منه في متناول اليد ومتاحاً من خلال الإيمان اليهودي الضارب في القدم بأن أعظم جزاء يمنحه يهوه لمن يعبدونه هو أن «يكثّر مالهم». وبفضل ذلك الإيمان المفصلة أقانيمه بتوسع في سفر الخروج وسفر التثنية من التوراة، تسنّى للروح الأميركية أن تحل إشكال «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» عن طريق عملية بسيطة من إسباغ الهوية: إسباغ هوية يهوه على مامّون Mammon شيطان المال، وإسباغ هوية مامّون على يهوه، شيطان البراكين. وكان الناصري الضحية الأولى لعملية إسباغ الهوية هذه، إذ حوّله الأصوليون الأميركيون ومن اتبعوهم إلى مشعوذ يبيع الصحة والثراء لـ «المؤمنين» عن طريق شبكة واسعة من سماسرته وعاظ وقساوسة الكنيسة الأميركية.

ومثلما كان من الطبيعي للغاية أن يدمج شيطان المال في شيطان البراكين في «ديانة» أميركا المسيحية، كان من الطبيعي أن يندمج سماسرة «جيزَزْ» 'Jeezuz' (أي يسوع الناصري) من وعّاظ تلك الكنيسة وقساوستها، فيمن يمتلكون كلا من شيطان البراكين (يهوه) وشيطان المال (مامّون)، أي «بني إسرائيل» التوراتيين بوصفهم

اليهود المعاصرين الممثّلين في الحركة الصهيونية.

ولقد يبدو هنا كما لو كنا نتحدث عن جماعات من المتدينين غريبي الأطوار الهامشيين. ولذا فإنه قد يكون من المفيد ـ حتى تتضح الصورة ـ أن نذكّر بأن رؤساء أميركا «استلهموا» بشكل دائم «الهداية» من القيم الدينية الرائجة في زمانهم، وأن الرؤساء الثلاثة الأواخر، جيمي كارتر، ورونالد ريغان، وجورج بوش، تحلّوا بذلك النوع من التقوى والصلاح بقدر فاق كل من سبقوهم نظراً لتيار الإحياء الديني الأصولي الذي يجتاح أميركا بقوة لافتة للنظر منذ بزوغه كقوة سياسية واجتماعية فاعلة قبل منتصف هذا القرن، واتخاذه وضعاً شبه مهيمن منذ السبعينيات.

وفي الوقت نفسه، حتى لا تختلط الأمور فنتصور أننا نتحدث عن «تديُّن» حقيقيّ، يحسن أن نتوقّف عند بعض الحقائق الجوهرية فيما يتعلق بالنوعية «الدينية» للتيار الديني الغالب والأفعل في أميركا أولئك الرؤساء «المسيحيين» الأتقياء.

ولنبدأ من المسائل ذات الصلة. فمن المسائل التي يلحّ عليها الوعّاظ والقساوسة الأصوليون في أميركا المسيحية، «واجبات المواطَنَة المسيحية»، وهي ـ حسبما يعلّمون الأميركيين في مواعظهم ومنشوراتهم الدعائية ـ (١) الصلاة، (٢) التسجيل في سجل الناخبين، (٣) استقاء المعلومات الصحيحة من مصادرها المأمونة (أي من الوعاظ)، (٤) انتخاب الأخيار الصالحين فقط، (٥) التصويت.

ومن الواضح في هذه القائمة «المقدسة» من واجبات المواطن الأميركي والمواطنة الأميركية أن سماسرة «جيزَزْ» يمارسون سمسرتهم من خلال العملية الديموقراطية الأميركية. وتلك العملية، ببساطة، نسخة أميركية من تفلسف جان جاك روسّو عن «العقد الاجتماعي» وفي الوقت نفسه من فكرة «التعاقد» القانوني التي بنى عليها عزرا

(الذي كان مشتغلاً بالقانون) مفهوم العلاقة بين يهوه و«الشعب». وبادماج تفلسف روسّو وتفلسف عزرا، أميركياً، تشكّلت العملية الديموقراطية الأميركية المنبنية على تعاقد غير منطوق بين «الناخبين» الأميركيين و«خدامهم»، الساسة والرؤساء والمشرّعين الذين لا يصلون إلى السلطة إلا بـ «كلمة» Fiat الأغلبية، على أن يعمل أولئك الساسة والرؤساء على تسيير شؤون الولايات المتحدة وصوغ قوانينها وسياساتها الداخلية والخارجية على هدى ما «تريده» و«توافق عليه» الأغلبية.

وهذا ـ نظرياً ـ شيء جميل، وهو «الديموقراطية»، تقدّس اسمها. لولا أن الأغلبية توجَّه، أميركياً، إلى أن «تريد» و«توافق على» كيفية تسيير شؤون الولايات المتحدة وصوغ قوانينها وسياساتها بفعل مصالح وقوى تمارس فعلها عن طريق أدوات صنع الرأي وصوغ المواقف. وقد كانت تلك الأدوات ـ تقليدياً ـ وسائط الإعلام وصناعات النشر والترفيه. إلا أن ذلك الاحتكار كُسِر، وبقوة، بدخول «الدين» تلك الساحة، واستخدامه تكنيكات الإعلام والنشر والترفيه في اغتصاب شريحة كبيرة وهامة من الحِكْر التقليديّ القديم في مجال صنع الرأي وصوغ المواقف. والواقع ـ متى تدبّرنا أحداث التاريخ الأميركي ـ أن ذلك الاقتحام الديني ليس طارئاً أو جديداً. فـ «الدين» (متى وضعنا الكلمة بين قوسين للتذكير بأنها في هذا السياق الأميركي تعني أساساً التهوّد البروتستانتي) فعل فعله منذ بداية الأمر، على النحو الذي قادنا البحث إلى استظهار بعض أعراضه التي تمثلت في كمون الصهيونية في البيت الأبيض. وبالإضافة إلى ذلك، لعب «الدين» دوراً لا ينسى في إضفاء المشروعية «الدينية» على إبادة شعب الهنود الحمر بوصفه «شعب الشيطان وعدو المسيح»، ولعب دوراً في إضفاء المشروعية على نظام الرق (وإن عزيت إلى بعض الاتجاهات الدينية الليبرالية «أفضال» فيما تعلق بحركة مقاومة الرق في القديم ومساندة حركة الحقوق المدنية في الستينيات من هذا القرن). ولقد كان المثقف الفرنسي اليكسس دي توكفيل (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩) من اللماحية بحيث

لاحظ في كتابه عن «الديموقراطية في أميركا» (١٨٣٥ ـ ١٨٤٠) أن «الوعاظ والقساوسة الأميركيين يتكلمون كساسة، والساسة يتكلمون كوعّاظ».

غير أن دور «الدين» في كل ذلك لم يبلغ ما بلغه من قوة وفعالية وتأثير منذ ما قبل منتصف هذا القرن بسنوات، عندما بدأ الإعداد لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ استناداً إلى خروج الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية وهي في وضع القوة الأعظم الأقوى والأشد ثراءً والأمضى نفوذاً.

فلقد شهدت السنوات منذ ١٩٤٦ عدة تحركات دينية كبرى على الساحة الأميركية يمكننا إيجازها في (١) تدهور المكانة الاجتماعية والسطوة الدينية للمؤسسة الدينية التقليدية (الرافد الرئيسي) سواء في ذلك جناحها البروتستانتي أو جناحها الكاثوليكي، (٢) نفوذ ديني متعاظم ومكانة اجتماعية أقوى للتيار الانجيلي وبالأخص لرافده الأصولي، (٣) انخراط قوي وملحوظ للانجيليين والأصوليين في الساحة السياسية، (٤) حركة إحياء قوية لليهودية الأميركية، و (٥) اتجاه قوي إلى الائتلاف ثم إلى التحالف بين المسيحية واليهودية.

وفي سياق ذلك، «لجأ الأصوليون إلى استخدام تكتيكات كالضغط السياسي (اللوبي)، وقياسات الرأي، والتحريض السياسي، والمسيرات والمظاهرات، وجمع الأموال، واستخدام وسائط الإعلام الجماهيري كالراديو والتلفزيون»[٣٦].

كما انخرط الأصوليون بقوة وفعالية في المعارك الانتخابية للكونجرس وللرئاسة، إما كمروجين ومؤيدين وإما كمرشحين. وقد كان رونالد ريغان مديناً بدين كبير للحركة الأصولية في تحقيق نجاحه الانتخابي وبلوغ شعبيته الواسعة وتمكنه من دخول البيت الأبيض لمدّتي رئاسة متتاليتين. والشيء نفسه يقال عن جورج بوش الذي

ألقى الأصوليون المسيحيون بكل ثقلهم وراءه حتى بعد أن فشل پات روبرتسون في الحصول على الترشيح في الانتخابات الأولية. وقبل بوش وريغان، كان جيمي كارتر «الرئيس المؤمن» المنتمي، هو أيضاً، إلى التيار الأصولي المسيحي نفسه الذي تسمى باسم «المولودين ثانية» أخذا عن المواجهة التي وقعت بين نيقوديموس والمسيح في الأصحاح الثالث من سفر يوحنا بالعهد الجديد والتي قال المسيح فيها للمعلم نيقوديموس إنه «إن كان أحد لا يولد من فوق (أي يولد ثانية ولادة روحية بعد أن ولد أولاً ولادة جسدية) لا يقدر أن يرى ملكوت الله.. فالمولود من الجسد جسد والمولود من الروح روح» (يوحنا ٣: ٣ و ٦). ومن تلك المواجهة نبعت في المسيحية الأميركية الحركة المعمدانية، وحركة «المولودين ثانية» الأصولية.

ولقد يبدو القول بوجود دور قويّ وفعال لـ «الدين» في العملية السياسية وفي الحياة العملية في بلدٍ صناعيّ متقدّم كالولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين، في أسوأ الحالات، كتقوّل وادّعاء، وفي أقلها سوءاً، كإسقاط لأفكار مسبّقة عن تأثير الغيبيات، اغتصاباً، على مجالٍ علمانيّ صرف بطبيعته في زمن باتت الدينية فيه منظوراً إليها بوصفها ضرباً من سوء التكيف أو العجز عن التكيف للحداثة.

غير أن مثل ذلك النظر إلى المسألة: (١) يسقط من الاعتبار الحقيقة الماثلة في أن **قادة المجتمع الأميركي السياسيين والروحانيين على السواء عنوا بأن يتخذوا مواقفهم منذ نشأة جمهوريتهم وحتى الآن على أعلى قمة متاحة من الأرض الأخلاقية العالية، مستمدين باستمرار السند والمبرر لكل تصرف أميركي في شؤون أميركا وشؤون العالم من الدين والأخلاقيات العليا ومن المصطلحات ذات الرنين الأخلاقي القوي كـ «الحقوق الإنسانية»، و«القانون الدولي»، و«الحضارة»، وما أشبه، ومسبغين على أنفسهم وعلى بلدهم عباءة الاضطلاع بعبء رسالة حمّلت العناية الإلّهية ذاتها، لا أقل، الأمة الأميركية بها لصالح**

البشر جميعاً، و(٢) يسقط من الاعتبار كذلك ما تظل الأبحاث العلمية تكشف عنه بشأن التفرد الأميركي، أو مايدعونه أميركياً باسم «الاستثنائية الأميركية» ('American exceptionalism'). والذي تكشف عنه تلك الأبحاث باستمرار أن ذلك «التفرد» أو تلك «الاستثنائية» قد تكون آخذة في التقلص والانحسار في مختلف المجالات تحت تأثير مُعامِل «القرية الكوكبية»، أي تحول العالم بفعل التكنولوجيا الحديثة ووسائل الاتصالات والمواصلات إلى شبه وحدة ذات ملامح آخذة في التقارب إلى حد الاندماج، **غير أن «استثنائية» أميركا لم تظل على حالها فحسب بل تعاظمت في مجال التديّن**.

وحتى لا تغمض المسألة، يحسن ألا ننسى ما قادتنا إليه المعطيات التي تكشفت في مجال البحث عن طبيعة ذلك «التديّن»، وهي طبيعة «استثنائية» أميركية بدورها، ابتداءً من عبرانيتها القوية، مروراً بممارسة العبادة من خلال عبادة إسرائيل، وانتهاءً بتحويل الدين إلى نشاط من أنشطة الأعمال والاتجاه إلى تحويل ساحته إلى شبه حلبة سيرك يحل فيها المتطببون الروحانيون و«المتكلمون بالألسن»، و«واضعو الأيدي»، والمبشرون بيوم القيامة هرمجدّون والوعاظ الاليكترونيون محل مروضي الحيوانات.. وفي حالات محزنة، محل المهرجين.

إلا أنه يتعين التسليم أنه ـ بالمعيار الأميركي المتطور الشجاع ـ يظل ذلك هو «التديّن»، وكل ما في الأمر أنه «تديّن» من نوع خاص استثنائي وفريد، أميركيّ.

وذلك ما ينبغي أن نأخذه في اعتبارنا ونحن نمعن النظر في الحقائق الهامة التي كشف عنها مسحٌ دوليٌّ للقيم في العالم الغربي أجرته مؤسسة جالوپ للمسح الاجتماعي وقياسات الرأي في مطلع عقد الثمانينات وأفرغ إحصائياً في الجداول التالية[٣٧]:

الجدول رقم (١)

اسم البلد	هل تؤمن بوجود الله؟			هل تؤمن بالجنة؟			هل تؤمن بالجحيم؟		
	نعم	لا	لا اعرف	نعم	لا	لا اعرف	نعم	لا	لا اعرف
	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪	٪
الولايات المتحدة	٩٥	٢	٣	٨٤	١١	٥	٦٧	٢٦	٧
جمهورية إيرلندا	٩٥	٣	٢	٨٣	١٠	٧	٥٤	٣٥	١٠
إيرلندا الشمالية	٩١	٣	٥	٨١	١٠	٩	٦٥	٢١	١٤
اسبانيا	٨٧	٨	٦	٥٠	٣٨	١٢	٣٤	٥٢	١٤
إيطاليا	٨٤	١٠	٦	٤١	٤٤	١٥	٣١	٥٢	١٧
بلجيكا	٧٧	١٢	١٠	٣٣	٤٥	٢٢	١٨	٦٠	٢٣
بريطانيا	٧٦	٦	٩	٥٧	٣٢	١١	٢٧	٦٣	١١
المانيا الغربية	٧٢	١٦	١٢	٣١	٥٤	١٥	١٤	٧٣	١٣
النرويج	٧٢	٢٢	٧	٤٨	٤٢	١١	٢٢	٦٨	١١
الأراضي الواطئة (هولندا)	٦٥	٢٥	١٠	٣٩	٤٧	١٤	١٥	٧١	١٤
فرنسا	٦٢	٢٩	٩	٢٧	٦٥	٩	١٥	٧٧	٨
الدنمرك	٥٨	٢٧	١٥	١٧	٦٧	١٦	٨	٨١	١٢
السويد	٥٢	٣٥	١٤	٢٦	٥٩	١٤	١٠	٨٠	١٠

ومن الجدول، يلاحظ أن الولايات المتحدة احتلّت المكانة الأولى فسبقت حتى البلدان التي يشكّل الكاثوليك السواد الأعظم من سكانها، أي إيرلندا، واسبانيا، وإيطاليا. وبطبيعة الحال، لا يستقيم إغفال الحقيقة الماثلة في أن نسبة لا يستهان بها من الأميركيين ذوي الأصول الإيطالية، والإيرلندية، والإسبانية، كاثوليك هم أيضاً، مما قد يشير إلى أن ذلك الإيمان الديني القوي يمكن إرجاعه إلى عامل

الكاثوليكية. غير أن الأبحـاث العلمية التي أجـريت وما زالت تجـرى بـاستمرار[٣٨]، **تبـين أن قوة ظـاهرة الإحيـاء الديني في الـولايات المتحدة ترابطت بشكل متعاظم مع ظاهرة تآكـل النفوذ الـروحي لكنائس الرافد الرئيسي البروتستانتية والكاثـوليكية في آن معـاً، وأن الإحياء نجم عن النفوذ المتنامي «للكنائس» أمـيركية المنشـأ** ('home-grown' churches) التي يتشكل من مجموعها التيار الأصـولي.

الجدول رقم (٢)

اسم البلد	منتمون إلى كنائس او منظمات دينية ٪ من السكان	متطوعون بلا اجر في خدمة كنائس ومنظمات دينية ٪ من السكان
الولايات المتحدة	٥٧	٢٣
إيرلندا الشمالية	٥١	١٤
الأراضي الواطئة (هولندا)	٣٥	٩
جمهورية إيرلندا	٣١	٨
بريطانيا	٢٢	٧
اسبانيا	١٥	١٠
المانيا الغربية	١٣	٧
النرويج	١٠	٦
بلجيكا	٩	٥
السويد	٩	٥
فنلندا	٩	٤
إيطاليا	٧	٥
فرنسا	٤	٣
الدنمرك	٤	٢

وفي هذا أيضاً، تحتلّ الولايات المتحدة المكانة العليا بين كل البلدان الغربية، حتى الكاثوليكية، في مجاليْ الانتماء إلى «كنائس» ومنظمات دينية، والخدمة التطوعية في أنشطة تلك «الكنائس» والمنظمات. ولما كانت النسب قد شملت ـ بطبيعة الحال ـ «الكنائس» الأصولية والمنظمات العديدة المتفرعة عنها، كـ «المائدة الدينية المستديرة»، و«الصوت المسيحي»، و«انتصار الناخبين المسيحيين»، و«الحملة الصليبية من أجل المسيح في الجامعات»، و«حركة المسيح الشاب»، وعشرات غيرها، **في حين تشير الاحصاءات إلى تناقص مطّرد في أعداد المنتمين إلى كنائس الرافد الرئيسي التي كانت تشكل فيما بينها «كنيسة الولايات المتحدة»، فإن نسبتي الانتماء والتطوع المرتفعتين ترجعان بصورة أساسية إلى التنامي المتصاعد للانتماء «صعوداً من أسفل» لضروب «الإيمان» والانتماء والخدمة في أحضان عديد «الكنائس» المكونة للتيار الأصولي الأميركي، وبخاصة تلك المنضوية منها تحت لواء حركة «الأغلبية الأخلاقية» التي يقودها جيري فالول من «مركز قيادته» بكنيسة «الطريق» المعمدانية ببلدة لينشبرج بولاية فرجينيا.** ولفظة «الطريق» هذه قد تكون مفضية إلى سوء فهم، فـ «الطريق» هنا لا علاقة لها بـ «طريق الصلاح» أو «طرق التصوف» بل تعني ـ ببساطة ـ «الطريق إلى صناديق الانتخاب» لأن عدم التصويت في الانتخابات خطيئة كما يعلّم القس فالول.

من الاستقصاءات التي شملها بحث مؤسسة جالوب موضوع «الاحتياجات الروحية» وهل تقوم الكنيسة المسيحية بإشباعها في تقدير المؤمنين. ونتائج ذلك القياس واردة بالجدول رقم (٣).

وتتخذ «الاحتياجات الروحية»، في حالة التديّن الأميركي، طابعاً خاصاً يتواءم و«الاستثنائية» الأميركية، وهو ـ أساساً ـ طابع التجسيد (اسباغ الجسدية على «الروحانيات») أي جعلها أرضية متعلقة بالخلاص من الأوجاع والآلام الناجمة عن الأمراض،

الجدول رقم (٣)

اسم البلد	نعم، تشبعها	كلا، لا تشبعها	لا أعرف
	٪	٪	٪
الولايات المتحدة	٧٣	١٤	١٣
جمهورية إيرلندا	٦٤	٢٤	١٢
إيرلندا الشمالية	٦٠	٢٤	١٥
فنلندا	٥٨	٢١	٢١
النرويج	٥٠	٢٨	٢٢
فرنسا	٤٨	٣٧	١٥
ألمانيا الغربية	٤٧	٣٣	٢٠
اسبانيا	٤٥	٣٧	١٨
إيطاليا	٤٣	٢٩	٢٨
بريطانيا	٤٢	٣٢	٢٦
بلجيكا	٤٠	٢٩	٣١
السويد	٣٧	٣٥	٢٩
الأراضي الواطئة (هولندا)	٣٣	٢٩	٣٨
الدنمرك	٢٦	٤٥	٢٩

والخلاص من الأوجاع والآلام الناجمة عن الفقر، أي الحصول على نعمتي الصحة، و«النجاح»، وهو المسمى الأميركي للقدرة على مزيد من الاستهلاك. وذلك الطابع الأميركي لـ «إشباع الحاجات الروحية» ظاهر بجلاء في ممارسات الكنائس الأصولية، وهي أنجح الكنائس الأميركية وأكثرها احتواءً لـ «المؤمنين»، وفيما تمنحه تلك الكنائس من نعمة «جيزَزْ» لمن يطلبون إشباع حاجاتهم الروحية لديها، ويقدر

عددهم تبعاً للاحصاءات، بعشرات من الملايين من «المؤمنــين»، بنسبة تتــراوح بين ٦٠ و ٧٠ في المــائة من مجمــوع المسيحيين الأمــيركيين. وتستمــد كل تلــك «الكنــائس» المشروعيــة الــدينيــة لعمليــة تجسيــد الروحانيات هذه، بلا صعوبــة، من المفاهيم البــروتستانتيــة المعبرنــة المشرّبــة بالإيمــان اليهودي بــأن الثواب والعقــاب يكونــان هنــا عــلى الأرض: صحة وثراء وقوة للأخيار (أي الــ goodies أميركياً) ومرضاً وفقراً وانسحاقاً للأشرار (الــ baddies أميركياً).

الجدول رقم (٤)

ولقد تضمن بحث مؤسسة جالوب سؤال المسيحيين عما يــرون أن التديّن يوفره لهم من جزاء حسن هنا على الأرض، وكان السؤال «هل تجد أن الدين يمدّك بالراحة والقوة أم لا؟» فكانت النتائج:

اسم البلد	نعم، يمدّني	كلا، لا يمدّني	لا أعرف
	٪	٪	٪
الولايات المتحدة	٧٩	١٧	٤
جمهورية إيرلندا	٧٩	١٧	٥
إيرلندا الشمالية	٧٠	٢٢	٧
ايطاليا	٦٣	٣٠	٧
اسبانيا	٥٧	٣٤	٩
بلجيكا	٤٧	٣٢	٢٠
بريطانيا	٤٦	٤٩	٥
المانيا الغربية	٤٤	٣٩	١٤
الأراضي الواطئة (هولندا)	٤٣	٤٤	١٣
النرويج	٤٠	٣٨	٢٢
فرنسا	٣٧	٥٧	٦
الدنمرك	٢٩	٦٠	١١
السويد	٢٧	٦٣	١٠

و«الراحة» هنا هي الراحة من الألم الجسدي الناشيء عن المرض والألم النفسي والجسدي الناجم عن الفقر، و«القوة» هي القوة الاجتماعية، أي المكانة، وجماعياً، القوة السياسية والمنِعة العسكرية. وذلك تحديداً ما قاله الرئيس الأميركي الأشهر (الكاثوليكي) جون كندي، حين أعلن أن مصدر قوة أميركا وثرائها ومنعتها إيمانها بيهوه، وأنه لولا يهوه لما كانت لجيوشها قيمة. أما على المستوى الفردي، فقد أدرك سماسرة جيزَز، قساوسة ووعاظ أميركا الأصولية، أنهم حين يأخذون ما أسموه فعلاً وتوراتياً باسم «العشور» (أي ما يبتزونه من تبرعات «المؤمنين» المعفاة من الضرائب) يجب أن «يبيعوا» أولئك «المؤمنين» شيئاً. و«يركّز بعض الوعاظ على بيع الصحة في حين يركز البعض الآخر على بيع النجاح، أي المال، علماً بأن الصحة والمال، في أميركا، هما الشيء نفسه.. وفي الوقت نفسه، يدعو فضيلة القس روبرت شوللر عرضه التلفزيوني الديني باسم «ساعة القوة»[٣٩].

بشكل عام، يمكننا ـ من خلال تحليل المعطيات الوارد في المصدر السابق الإشارة إليه[٤٠] الذي أوردنا منه الجداول الأربعة السابقة ـ أن نخلص إلى عدد من النتائج الهامة:

أولاً: بالمناقضة للنمط الغربيّ المتمثل في تضاؤل دور الدين تحت وطأة العلمانية ومواقف الفكر الحديث، تشكل الولايات المتحدة شذوذاً لافتاً للنظر بكونها أكثر أمم الغرب حداثة وأشدها تقدماً، وفي الوقت نفسه أعظم الأمم الحديثة تديناً.

ثانياً: بعد فترة (لم تطل في الواقع) من تدهور مكانة الدين في المجتمع الأميركي، كان إحياؤه **على عباب النجاح الجماهيري الواسع لحركة «المسيحيين المولودين ثانية» التي أعطت الولايات المتحدة منذ منتصف السبعينيات ثلاثة من رؤساء الجمهورية واحداً وراء الآخر**، وما أحرزته الحركة الأصولية بشكل عام من نجاح بدا أنه على أشلاء كنائس الرافد الرئيسي

البروتستانتية والكاثوليكية التقليدية، فعاد التديّن إلى احتلال المكانة التقليدية التي كانت حكراً له من قديم على خريطة القيم الأميركية. فالمشاهد أن الإيمان الديني كان، تاريخياً، من المنابع الرئيسية للقيم والمثل العليا الأميركية. **وهناك الآن من الأدلة التي لا تدحض ما يشير بقوة إلى أن المجتمع الأميركي آخذ ـ في غمار حركة الإحياء الأصولية ـ في إعادة تنصيب الدين في ذلك الدور التقليدي القديم، ولكن في سياق أوسع لم يعد قاصراً على القضايا الاجتماعية الأميركية كالاجهاض، والحقوق المدنية، وما أشبه، بل اتسع ليشمل، وبتركيز أكبر، القضايا السياسية في العالم أجمع. وذلك طموح أميركي قديم أعطاه الرؤساء الأميركيون فيما سبق وصف الرسالة التي حمّلت العناية الإلهية الأمة الأميركية بها. لكنه الآن، وقد انفردت الولايات المتحدة بوضع القوة الأعظم في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، بات ـ فيما تفصح عنه الإعلانات الدينية الصادرة عن قادة أميركا «الروحيين»، والنبرة الأخلاقية/ الدينية لتصريحات قادة أميركا الزمنيين ـ تصميماً تخطى بكثير مرحلة الطموح القديم، واقترب بكثير من غواية «هداية» العالم.**

ثالثاً: على الرغم مما قد توحي به الإحصاءات بالغة الدلالة وأعراض الحيوية الدينية من أن الأميركيين قد اختاروا درب الصلاح والتقوى وباتوا بذلك ـ كما تطلّع كثيرون من قادتهم الأول ـ «نبراساً لكل الأمم»، لا في مجال صون الحرية ونشر الديموقراطية وإقامة دعائم القانون في علاقات الأمم فحسب، بل وفي مجال علاقات المخلوقات بخالقها أيضاً، يظل هناك مجال واسع للتساؤل عن نوعية ذلك التديّن القويّ ومضامينه ومترتباته، خصوصاً وأن دور **المؤسسات الدينية التقليدية (الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية) تضاءل فيه وما زال يتضاءل مفسحاً الساحة أمام اجتياح انجيلي أصولي قد انخرط انخراطاً لا رجعة فيه في**

العمليـة السياسيـة ووطد أقـدامه في المـواقع التي انتـزعها من المؤسسـات التقليـديـة بعقـد تحـالفـات معلنـة مـع الحـركـة الصهيـونيـة والسطـوة السيـاسيـة والاقتصـاديـة للمنظمـات اليهودية.

رابعـاً: يوقفنـا التاريـخ الأميركي، وتعـزز ذلك كـل البحوث التي تتناول الهوية الأميركية ومشكلة القيم على أن «الاستثنائية» الأميركية أو التفـرّد الأميركي قـد لا يتمثـل في شيء قـدر تمثلـه في أن «الأمّـة الأميركية» ـ دونـا عن سائـر أمم العالم التي نضجت هـوياتهـا (إن صـح استخدام لفظـة «نضج» في هـذا السياق) عبـر خبرات صنعت تاريخاً لكـل أمة من تلـك الأمم عبر عشرات، وفي بعض الحـالات عبر مئات، القرون ـ أمّةٌ أوجدت نفسها، خلقت لنفسها هوية ووجـوداً بلا عمق تـاريخي حقيقي، مثلما يبـدع الفنان عملـه الفني، فيجعـل لـه وجـوداً حيث لم يكن هنـاك شيء من قبـل، بفعـلٍ عمـدٍ من أفعـال المخيلة، عن طريق النحت لتلك الهوية وذلك الـوجودً من المـادة الخام لعدد من الأفكار والمعتقدات التي اعتبرها العقل الأميركي خاصـة به وحده، فريدة له وحده، واستثنائية للهويـة التي أبدعهـا من صلصال تلك الأفكار والمعتقدات.

والذي يعنينا هنـا أنه، في أي محـاولة لاستطـلاع ماهيـة الهويـة القومية الأميركية والأفكار والمعتقدات التي أبدعت منها تلك الهويـة، **لا سبيـل إلى إغفال الـدور بالـغ الأهمية كبيـر الفعاليـة للأفكـار والمعتقدات الدينية في صنع تلك الهوية. وذلك مـا يتضح بشكـل فـريد واستثنـائي بحق في مواقف الأمـيركيين من القضـايـا التي تتكـون من مجموعهـا شغلة الحيـاة، لا بـالنسبـة لـلأمـيركيـين وحدهم، بل ـ تبعاً لحيازة أميركا لوضع القوة الكوكبية الأعظم ـ بالنسبة لكل سكان العالم.**

خامساً: فللدين (ومتعيّن أن نذكّر أنفسنـا باستمـرار بماهيـة ذلك «الدين» أميركياً حتى لا تغمض الصورة تحت تأثير الفهم المأخوذ بـه،

بعيداً عن «الاستثنائية» الأميركية لماهية الدين) وجود وظيفي فعال للغاية اجتماعياً وسياسياً في المجتمع الأميركي، وهو وجود يبلغ ذروته في الانخراط السياسي والاجتماعي للدين على أيدي الأصوليين المسيحيين الأميركيين فيما عرف بتوحد الراية والإيمان، أي في الوطنية المشبعة بحماس الدين.

سادساً: وكما ظلت الحالات التي مزج فيها «الإيمان» بالسياسة عبر عصور التاريخ تبرهن، المرة تلو المرة تلو المرة، على نوعية ضروب الفساد التي تلحق بالدين وأشكال التشويه التي يبتلى بها من خلال ذلك التشغيل الوظيفي له، تعرض الدين في أميركا للمحنة التي أشرنا إليها في مستهل الفصل السابق عندما قلنا إن الدين يمكن أن يتحول إلى شيء مريض، فيُفسِد الروح فساداً لا يدانيه في الضراوة حتى ما يفرزه الأكال من سم مميت في اللحم الحي، إذ تتورم الروح وتلتهب وتمتلىء بصديد، ومما يتوقد فيها من حمى، تضخ في الدماغ رؤى ملتوية شائهة وملتاثة، وكما يهترىء اللحم الحيّ ويتساقط إذ يفترسه الأكال، تهترىء الروح، ويتحول الإلّه فيما تغلي به من سموم إلى شيطان.

وهذا كلام قد يبدو كضرب من التجنّي متجاوز الحدّ على أمّة كالأمة الأميركية الشجاعة لمجرد أنها أمّة «مؤمنة بالله»، و«أمة شديدة التدين». إلا أن المشكلة، فيما يخص تلك الأمة واستثنائيتها، متمثلة في هوية الإلّه الذي تعبده، ونوعية التديّن الذي تنغمس فيه.

والمؤشر الأول على هوية الإلّه ونوعية التديّن ماثل في أن الأميركيين اختاروا لأنفسهم أن يكون الوسطاء بينهم وبين الله وعاظهم وقساوستهم الأصوليون الاليكترونيون أمثال القس بيكر والقس سواجرت والقس روبرتسون، وفضيلة «الهادي» الأكبر، جيري فالول.

عندما بدأت الجماعات البشرية، في طفولة العقل، تتخذ لها معبودات، كان «الأسلاف» أول ما تعبّدت له تلك الجماعات البدائية من «آلهة». ولقد كانت رحلة الإنسان طويلة وصعبة بحق، من عبادة «الشبح» إلى عبادة «اللـه». وكانت ذروة تلك الرحلة الوقوف على مفهوم الإله الواحد العليّ صانع كل شيء والقادر على كل شيء، في سياق التطور الطويل للفكر الدينيّ المصريّ الذي قاد البشرية إلى الوعي بوحدانية الإله، وعلوّه، وخيريته، وأبوّته لكل البشر، أي عالميته.

وعندما استعار موسى انتقائياً من الديانة المصرية الرفيعة ما تصور أنه كان مستطيعاً باستخدامه ولوي عنقه وتحريفه أن يصنع للمعبود البركانيّ القضيبيّ يهوه «لاهوتاً» رفيعاً، اضطر ـ بحكم قوة الأشياء التي تمثلت في النوعية البدوية شديدة التخلف لمن قرر أن يجعلهم عباداً لذلك المعبود ـ إلى تشويه الكثير مما استعاره طمساً لأصوله المصرية وإنزاله إلى مستوى السحر كيما يتقبله من استعير لهم[٤١]، فكانت النتيجة صنع معبود قبليّ محارب وشيطان دمويّ مخوف جُرِّد من كل سماويات الديانة التي استعير له منها، وعُرِّيت عبادته من أخرويات الفكر الديني المصري، هو يهوه إله إسرائيل.

وظل يهوه إلـه إسرائيل معبوداً ذلك وصفه منذ اخترعه موسى لـ «بني إسرائيل» إلى أن بدأت رؤى العالمية وأحلام صهيون كقوة كبرى تراود أخيلة المتنبئين والعرافين اليهود، ابتداءً من إشعياء الثاني أو إشعياء التثنية (Deutero-Isaiah)، صاحب الاصحاحات ٤٠ ـ ٥٥ من السفر المعروف بذلك الاسم، في عصر السبي البابلي، وإذ ذاك بدأ المتنبئون اليهود يسقطون صورة جديدة ليهوه اختلفت كل الاختلاف عن صورته الأنتروبومورفية التشبيهية القديمة، فوصفه إشعياء الثاني بأنه «حقاً إله محتجب»، ورُفع من الأرض حيث كان

قد أُسكِن منذ زمن موسى في تابوت العهد، فأُسكِن في السماء، وجُعِل بذلك إلّهاً عالمياً لكل البشر، ولو أن الفكر الديني اليهودي لم يستطع أن يتخلى عن خصوصية الإلّه (كونه إلّهاً خاصاً لإسرائيل)، لأن التخلي عن تلك الخصوصية معناه التخلي عن مفهوم «الشعب المختار»، ولذا فإن ذلك الفكر دار حول تلك الصعوبة بحلّ كان منطقياً للغاية ومتماشياً مع الطبيعة العنصرية الأصيلة في اليهودية: فيهوه تبين حقاً أنه إلّه محتجب وسماوي وعالمي لكل البشر، إلا أن ذلك لم يغير من كونه إلّه اليهود وحدهم شيئاً، لسبب بسيط وواضح، هو أن اليهود هم البشر، وهم الذين خَلَقَ يهوه العالم لهم ومن أجلهم، ولما كان البشر هم وحدهم الذين يمكن أن يكون لهم إلّه يعبدونه، فإن يهوه ظلّ، حصرياً وقصرياً، إلّه اليهود وحدهم.

ثم جاءت المسيحية، وبدأت رحلتها المحتومة التي استهلها بولس الرسول صوب الاحتضار كديانة تحت وطأة ما أهيل فوقها من تناقضات، ووصلت في عصرنا إلى موتها النهائي فأفسحت الساحة لديانة أرضية جديدة هي الماركسية، في ذلك الجزء من العالم الذي دعي بـ «الشرق». أما في الغرب، فكانت المادية الدنيوية الممعنة هي ما اندفق ليسدّ الهوة الفاغرة في روح إنسان الغرب التي خوت بعد موت الدين، أو ما أسماه نيتشه بـ «موت الله». ولما كانت الماركسية، كديانة أرضية، قد وعدت المؤمنين بها بـ «فردوس أرضيّ، في آخر الزمان»، فإن أولئك الغربيين الذين لم يجدوا في مادية مجتمعاتهم ما يكفي لردم الحفرة التي خلّفها في أرواحهم موت المسيحية مرقت أعداد كبيرة نسبياً منهم فخرجت على إجماع مجتمعاتها وانغمست في «هرطقة» الإيمان بالماركسية أو بصورتها المعدّلة، الاشتراكية.

لكن السواد الأعظم من الغربيين لم يُستدرَج إلى مثل تلك «الهرطقة»، وظل يبحث في إطار مواضعات المجتمعات الغربية عما يملأ تلك الحفرة. وبطبيعة الحال، ظلّت الكنائس التقليدية، كاثوليكية وبروتستانتية، تحاول مستميتة إعادة «قطعان المسيح» إلى حظائر

الإيمان في ظل وصايتها الروحية. غير أن «قطعان المسيح» كانت قد جمحت في رياض المادية ومغاني الاستهلاكية وأخذت تتواثب هنا وهناك والندى يبلل حوافرها وأظلافها غير عابئة لمحاولات الوعّاظ والكرادلة إعادتها إلى حظائر الإيمان، وقد نضت عنها خوفها القديم من «جهنم»، وانغمست في مباهج الجنس والشذوذ والمخدرات.

وكان ذلك العوز، ذلك الإملاق الروحي لتلك الملايين التي «مات إلّهها»، الفرصة الذهبية لكل «منظّم» (entrepreneur) روحيّ متصف بروح المبادأة، للتقدم إلى الساحة وطرح بضاعته الروحية لإشباع الحاجات التي ظلت تصرخ طالبة الإشباع، وسدّ الحفرة الفاغرة في الروح، بوصفه مورّداً لبضاعة «جيزَزْ». وكان أن تكاثر سماسرة جيزَزْ، أمثال بيلي جراهام، وجيري فالول، وپات روبرتسون، وجيمي بيكر، وجيمي سواجرت، وأورال روبرتس، وعشرات من «أصحاب الفضيلة» الوعاظ والقساوسة الأصوليين، فملأوا الساحة التي خلت تقريباً من كرادلة الكنيسة الكاثوليكية وأساقفة الكنيسة البروتستانتية، وبأساليب سوق القرية وساحة السيرك، وباستخدام وسائط الإعلام الجماهيري وتكنيكات الإقنّاع الخفيّ وأساليب الترويج التجاريّ، أخذوا يشبعون حاجات المستهلكين الروحية مقابل مردودات مربحة للغاية. وكدأبها، كانت أميركا - بلد التجديد - سبّاقة في ذلك المجال بسلالتها من «المنظمين».

غير أن أولئك المنظّمين الروحيين لم يفتهم طبعاً أنهم لم يكونوا يمارسون بيع سلعهم في فراغ. بمعنى أنهم لم يكونوا يبيعون خرزاً ملوناً لجحافل من الهمج البدائيين ليأخذوا مقابل الخرز خيراتها. ولذا فإنهم فطنوا من مبدأ الأمر إلى أنه تعين عليهم أن يبدأوا عملية البيع من نقطة ارتكاز point d'appui، كما يقولون في المصطلح العسكري، يمكن الانطلاق منها بموثوقية. ولم يجد الأصوليون صعوبة في العثور على تلك النقطة، فكلاً من المسيحية التقليدية وانحرافها العقائدي البروتستانتي جعلا العثور عليها أمراً في متناول اليد: فهناك «جيزَزْ»،

المسيح، وهناك «المسيّا»، المسيح المنتظر، وهناك يهوه باعتبار أن يهوه هو «الله». وبوضع الثلاثة معاً في وعاء كوكتيل أصولي، ورجّهم جيداً، مع إضافة قطرة أو قطرتين من الوعود بالصحة ووفرة المال والمكانة الاجتماعية والمناعة ضد تحول المؤمن إلى «خاسر»، وقطرة أو قطرتين من الوطنية ومشاعر العلو والرضى عن النفس، أمكن للوعاظ والقساوسة الأصوليين صنع رحيق روحيّ مسكر بحق.

وبشكل طبيعيّ للغاية، كان بولس الرسول أول من لجأ إليه سماسرة جيزْزْ الأصوليين بحثاً عن القداسة والسند «الديني» لـ «رسالتهم». فبولس كان مروِّجاً من الطراز الأول، ومنظّماً، وداعية غرس في لحم المسيحية منذ بات «رسولاً» بذرة الفساد الذي انتهى بموتها. ورسائله إلى رومية وكورنثوس وغلاطية وتسالونيكي توثّق توثيقاً متيناً طبيعة وتكنيكات الدور الذي اضطلع به كـ «رسول» بعد أن وجد أن ترؤّسه لفرقة من فرق الموت death squads في خدمة الرومان لم يكن كافياً للقيام بشكل كامل وفعال بالدور الذي وجد من واجبه الديني الاضطلاع به في القضاء على ديانة «ذلك الذي شُنِق» كما يدعوه اليهود.

وفي رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، بحجة فض الخلافات وحسم الانشقاقات بين المسيحيين الجدد، يقول بولس:

> «وأما من جهة المواهب الروحية أيها الأخوة.. (فإنه) لكل واحد يعطى إظهار الروح للمنفعة. فلواحد يعطى بالروح كلام الحكمة.. ولآخر **مواهب شفاء بالروح.** ولآخر **عمل قوّات (أشباه خوارق)**، ولآخر **نبوّة**، ولآخر تمييز الأرواح، ولآخر **(التكلم) بأنواع السنة**، ولآخر **ترجمة السنة.** ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء».
>
> (١٢: ١ و ٧ ـ ١١)

فـ «الروح الواحد»، روح الله أو المسيح يقسّم المواهب على من

يرى أنهم يستحقونها، ومن تلك المواهب موهبة التطبيب بالروح، أي شفاء الأمراض بالقوة الروحية، والتكلم بالألسنة، وترجمة تلك الألسنة.

ولننظر الآن كيف استفاد الأصوليون الأميركيون من تلك «المواهب» التي تكلم عنها بولس:

«اليوم نجد أن المتطببين بالروح الذين تخرجوا من استعراضات السيرك وخيام الأسواق الريفية قد طوروا استعراضاتهم بحيث باتوا يستخدمون التلفزيون والتكنولوجيا العليا كيما يصلوا إلى جماهير أعرض بكثير من أي شيء كان ممكناً قبلاً. وبأكثر التقديرات تحفظاً، بات الانجيليون التلفزيونيون يبثُّون رسالتهم إلى عشرات الملايين من الأميركيين أسبوعياً.. وقد بدأتُ أبحاثي في مجال التطبيب الروحي بناء على دعوة من لجنة الفحص العلمي للدين في أميركا.. وكان اختياري الأول المستر پات روبرتسون، نظراً لصعوده السريع، وما بات يتمتع به من شهرة، ودخوله سباق الترشيحات الأولية لانتخابات الرئاسة الأميركية. إلا أني ما لبثت أن تبينت أن تلك المهمة، فيما يخص المستر روبرتسون أشبه بمحاولة الإمساك بكرة من الزئبق.. فهو ومساعده بن كينشلو يقفان على المسرح أمام المؤمنين ويخفض كل منهما رأسه ليضبط جهاز الاستقبال في دماغه لتلقي «روح الكلام بالحكمة» من العُلَى، ثم يأخذ كل منهما في إسماع المؤمنين الكلام الذي يكون قد تلقاه من الله لتوه، ويعلن الواحد أن هناك، بين أفراد الجمهور الحاضر في القاعة مؤمناً «يعاني من ضيق في صدره» وأن ذلك المؤمن «الذي يعاني من ذلك الألم في صدره بسبب مرض القلب يجري علاجه الآن، في هذه اللحظة، بيننا، في هذه القاعة، وسيشفى من مرضه لتوه»، في حين يصيح الآخر منتشياً «هللويا! لقد تلقيت الآن للتو كلمة حكمة ومعرفة أوقفتني على أن بيننا مؤمناً يعاني من التهاب رغامي في القصبة الهوائية وأن الله يشفيه الآن بقدرته»، أو «إني أرى بالروح مؤمنةً حاضرةً هنا تعاني من آلام حادة في المعدة. لا تبتئسي أيتها المؤمنة، فالله شافيك لتوك، الآن»، وهكذا، بلا نهاية: أوجاع، والتهابات، وأورام،

وعظام مكسورة، ورئات محروقة، وثآليل، واضطرابات عاطفية، تُكشَف للمستر روبرتسون ومساعده، وتشفي وتجبر، والجمهور يصيح «المجد لجيزَزْ»، «هللويا»، وهنا وهناك يتملك الهياج أحد أفراد الجمهور من المؤمنين أو المؤمنات، خصوصاً متى أُصعد على المسرح، ووضع الواعظ يده على جبينه أو على جبينها في عملية «الذبح بالروح»، فينطلق أو تنطلق في نوبة من الانتشاء الديني العارم، والتواثب في الهواء، والتلويح بالذراعين، والصراخ، والعويل، فلا يهدأ أو لا تهدأ إلا بفقدان الوعي والارتماء بين أيدي عدد من المساعدين يعرفون باسم «المسّاكين» «catchers».

«وغير التطبيب بالروح، هناك أيضاً «التكلم بالألسن»، وهو استعراض ينخرط فيه الواعظ أو القس بأن يأخذ في البربرة بألفاظ غير مفهومة لا معنى لها والغمغمة بأصوات غريبة يعتقد سامعوها من المؤمنين أنها صلاة خبيئة بلغة مقدّسة لا يفهمها إلا الله ومن كان من قساوسته المسوحين بطبيعة الحال. ولا جدوى من القول لمؤمن إن كل «ممسوح» من هؤلاء المسوحين يبرطم بـ «لسان» غير الذي يبربر به الآخر. فتلك «أسرار عليا»، وكأنما الله وكل أولئك المسوحين ذهبوا معاً إلى مدرسة برليتز سماوية أتقنوا فيها تلك الألسن الخبيئة التي يتبرع كل واعظ بتقديم ترجمة فورية لها إلى المؤمنين. وعلى سبيل الاختبار، سجّلت صوت أحد أولئك المسوحين من أهل الله، وهو كندي من مدينة تورنتو، وهو سادر في وصلة من ذلك التكلّم بالألسن، ثم ذهبت فأسمعته التسجيل، وعن طيب خاطر تبرع بترجمته لي فوراً، لكنه ما لبث أن اكتشف أني ـ بخبث طوية ـ كنت قد سجلت ترجمته الفورية لجمهوره في القاعة، وكانت مختلفة كل الاختلاف عن الترجمة التي تبرع لي بها»[٤٢].

والمشكلة فيما يتعلق بالتديّن في الغرب، وفي الولايات المتحدة بالذات، أن الكنائس التقليديّة وقد وجدت أعداد زبائنها من المؤمنين تتناقص بسرعة مزعجة، في حين تتعاظم أعداد المؤمنين في كنائس التيار الأصولي الناجح باستخدامه لتكتيكات الترويج التجاري ومبادىء إدارة الأعمال وانخراطه في عملية إشباع الحاجات

«الـروحية» لجمهـور درج على الاستهـلاك الفوري للسلـع بغير كبـير تدقيق في مكوّناتها ولكن باهتمام بالغ بتغليفهـا، وجدت تلـك الكنائس المكوِّنة لما ظل يدعى حتى الآن بـ «الرافـد الرئيسي» أنـه بات متعينـاً عليها أن تنافس «الكنائس» الأصولية التلفزيـونية وغـير التلفزيـونية على ساحة «الخيارات المتعددة» التي أوجدها الصعود الـذي لا يقاوم لتلك الكنائس «المستقلة» والمجددة باستمرار.

ومن الأساليب التي وجدت الكنائس غير المستقلـة، التقليديـة، أنه بات متعيناً عليهـا الأخذ بهـا، إن كان لهـا أن تضمن لأنفسها بقـاء شريحـة ولو ضئيلـة من قطاع «المؤمنـين»، أسلوب «الميـوزيكهول» في المراسم والطقوس الدينية، غناءً ورقصاً وزمراً وطبلاً وتطوّحاً.

وبطبيعة الحال، يظل ذلك التهـافت على «أرواح» المؤمنـين منصبّاً على ظاهر المسألة من خارجها باعتبار جيوب المؤمنين المصدر الرئيسي للتمـويل ـ بجـانب المتاجـرة والاستثمارات بطبيعـة الحال. فهـو، في النهاية، تهافت على ما يتيح لتلك الكنائس البقاء والاستمرار بشكل أو بآخر في غمار التنافس القاطع للرقاب من جانب «الكنائس» المستقلـة والانجيليين التلفزيونيين وغير التلفزيونيين من الأصوليين.

أما جوهـر المسألـة، فحكايـة أخرى. فـالمستهلكون لـ «بضـاعة» الكنـائس، الأصـولي منهـا وغـير الأصـولي، قـد يجـدون ضربـاً من الطمـأنينة والإشبـاع في الانتماء الـديني من خلال هـذه الكنيسة أو تلـك. وذلك مـا تشير إليـه في حالـة الولايـات المتحدة بشكـل خـاص الاحصاءات الواردة بالجداول الأربعة السابقة.

إلا أن السؤال يظل هنا: ما مصدر تلك الطمأنينـة، وما نـوع ذلك الإشباع؟

الذي تشير إليـه كل المعطيـات أن الأميركيـين ـ بشكل محـزن حقـاً ـ قد ارتـدّوا إلى نوع مطـوّر من عبادة السلف التي عـرفها الإنسـان البدائي في بـداية رحلـة البشرية إلى اكتشـاف الـدين.

فالانسان الغربي، والأميركي بشكل خاص، قد أوصل عملية عبرنة الدين (التي بدأتها البروتستانتية واكتشفت مخاطرها الروحية والعقائدية بعد فوات الأوان) إلى ذروتها المنطقية بعبادة من علّمته البروتستانتية أنهم أسلافه الروحيون: اليهود. ولقد عبر مارتن لوثر عن ذلك تعبيراً بليغاً بقوله إن الله رأى أن يكون انعامه بنعمة الدين على العالم من خلال اليهود وحدهم دون سائر البشر. تلك مسلّمة رئيسية في التدين الغربي المعبرن: أن اليهود وحدهم دون سائر البشر هم الحائزون للدين الحقيقي الذي أنعم الله به على العالم. أما المسلّمة الجوهرية الأخرى من مسلّمات ذلك التدين المعبرن والناجمة عن الإصرار على أن كل كلمة من كلمات التوراة وسائر أسفار العهد القديم صادقة ومعبرة عن واقع تاريخي وروحي لا يناقض لأنها «كلمة الله التي لا تناقض ولا تدحض»، فهي ـ مهما توارى العقل الغربي المعبرن في متاهات التمويه اللاهوتي ـ **أن الله هو يهوه، وهو إلّه اليهود، بل هو الإلّه اليهودي، وخليقته ـ أي العالم ـ خليقة يهودية خلقت باليهود ومن أجل اليهود، وكما أكد مارتن لوثر لـ «المؤمنين» يظل غير اليهود (أي المسيحيين، فيما يخصه) ضيوفاً غرباء في مأدبة ذلك العالم اليهودي بإلّه اليهودي و«شعبه المختار الأخصّ».**

ولقد يبدو من التركيز على البروتستانتية كما لو كان تحوّل الانسان الغربيّ بعبادته من الله إلى أسلافه الروحيين، اليهود، بعد «موت الله» المعلن عنه في الغرب بعامة على الرغم من كل مظاهر «التديّن»، ظاهرة اقتصرت على معتنقي البروتستانتية. إلا أنه يكفي أن يتابع المرء صلوات الكنائس الكاثوليكية التي يصدح فيها المؤمنون على أصوات الأرغن «تهللي يا إسرائيل، وافرح يا عمانوئيل»، ومواعظ الأحد التي تلقى في ٩٩٪ من المرات من أسفار العهد القديم وبخاصة سفر يشوع وغيره من أسفار «المجد العسكري» لشعب الله المختار، كيما يدرك المرء أن التعبرُن ظاهرة تخطت الحدود الفاصلة بين الكنائس الغربية ونفذت إلى صميم الروح وتشرب بها النخاع. بل

هي ـ فيما يتبين من مواقف «الرأي العام» وما يبدو أن المنظمات والاتحادات والمؤسسات تعتبره ضرورة حيوية من ضرورات التحضر ـ قد تخطت حدود تلك الكنائس جميعاً واجتاحت، شبه موجة مدّ، مختلف أنشطة الحياة العامة في الغرب، وبخاصة في أميركا، محدثةً ما يبدو أن هناك إصراراً عنيداً لا يتزحزح ولا يحيد على تسميته بـ «التعاطف» مع إسرائيل، أو «التحالف» مع إسرائيل، أو «الانحياز» إلى إسرائيل، أو بأية تسمية عدا التسمية الوحيدة التي تنطق بها المواقف الغربية، وهي «**عبادة إسرائيل**».

وللعقل، وبخاصة العقل العربي، عذره متى نكص عن مثل هذه الرؤية للوضع. لأنه كيف يمكن الادعاء بأن كل أولئك الغربيين المتحضرين، وبخاصة الأصدقاء الأميركيين، يمكن أن يعبدوا أحداً غير الله عزّ وجل؟ وكيف يمكن للإنسان أن يعبد بشراً مثله أو حتى كياناً سياسياً؟

غير أنه يظل من الواضح أن مثل هذا الاستفظاع، ومثل هذا الرفض لرؤية الأمر كما هو على حقيقته لا يمكن أن يكون نابعاً إلا من الجهل الكامل المصمت بالخلفية الدينية المخيفة بحق لتلك الظاهرة المخيفة بحق التي ندعوها «عبادة إسرائيل».

وابتداءً، يظل العقل العربي غير قادر على الإلمام بنوعية تلك الخلفية والوعي بأبعادها وأغوارها، إن لم يكن لشيء فلعدم الإلمام بالنصوص الدينية والتاريخ الديني لليهودية والمسيحية. إلا أنه يظل هناك عامل أعظم فعالية، **هو الخوف من مواجهة ما يمكن أن يفضي الإلمام بنوعية تلك الخلفية والوعي بأبعادها وأغوارها إلى الوعي به من مترتباتها المحتومة، وهي أفظع من أن يطيق العقل العربي التفكير فيها.**

غير أن مثل هذا النوع من الطمأنينة الموقوتة والراحة الوقتية الذي يمكن الحصول عليه من خلال إغماض الأعين،

وسد الآذان، وطمر الرؤوس في الرمال، يمكن أن يتضح في خاتمة المطاف أن ثمنه باهظ حقاً.

لكن اختيار المسلك الأقل إبهاظاً للنفس يظل شيئاً، والواقع المعاكس الشرس الحرون يظل شيئاً آخر. وذلك واقع يتمثل في أن ما يدعى بـ «التعاطف»، أو «التحالف»، أو حتى «الانحياز» ليس في حقيقته تعاطفاً أو تحالفاً أو انحيازاً، أو حتى توحداً واندماجاً، بل هو عبادة، وعبادة خرجت من نطاق الممارسات الدينية فتشربت بها الأنشطة والمواقف العادية اليومية في الحياة العامة:

«من مبدأ الأمر، كان الرأي العام الأميركيّ محبِّذاً، بأغلبية ساحقة، لإنشاء «وطن قومي» لليهود في فلسطين، كما دعا وعد بالفور. وقد أجرى المستر تشارلس إسرائيل جولدبلات مسحاً لعينة عالية التمثيل من الصحافة الأميركية تضمنت المنشورات والدوريات الدينية التي علّقت على الوعد عند صدوره، عملاً على استظهار وقع ذلك الوعد في أميركا، فوجد **أن المشاعر الصهيونية لم تقتصر على أي قطاع بعينه بل غطت الساحة الوطنية الأميركية ووجدت على كل مستويات الطبقات الاجتماعية**، ووجد أن «**المشاعر الوحيدة المعارضة للصهيونية التي أمكن العثور عليها في الصحافة الأميركية كانت تلك التي أعربت عنها تصريحات لعدد من الشخصيات اليهودية المعادية للصهيونية**!

«أما في صفوف المشرّعين الأميركيين بمجلس الكونجرس، فكان تأييد الوعد عالياً ومتسقاً بدرجة لافتة للنظر. فقد بيّن مسح أجرته المنظمة الصهيونية في يونيو ١٩١٨ لمواقف المشرّعين الأميركيين بشأن وعد بالفور، ونشره رأوبين فينك سنة ١٩١٩، أن ٦٩ من أعضاء مجلس الشيوخ و ٢٣١ من أعضاء مجلس النواب أجابوا على الأسئلة التي وجهتها المنظمة الصهيونية في ذلك المسح، وأنهم جميعاً، بلا استثناء واحد، أعلنوا موافقتهم على وعد بالفور وتأييدهم له، وأنه لم يكن هناك في ذلك الخصوص أي فرق بين الأعضاء الديموقراطيين والأعضاء الجمهوريين، **كما أنه لم يكن**

هناك أي دليل على أن أياً من أعضاء الكونجرس أولئك كان متأثراً في اتخاذه لموقف التأييد بوجود ناخبين يهود في دائرته بحيث يمكن إرجاع موقفه إلى ما يدعى بنفوذ الأصوات اليهودية.

ومن مطالعة ردود أعضاء الكونجرس يتبين أن كل تلك الردود، بلا استثناء واحد، كانت صهيونية أصيلة في تعبيراتها وفي محتواها، ويتبين أيضاً أن كثيرين من الشيوخ والنواب الأميركيين (الذين شكل عددهم اغلبية ساحقة من أعضاء الكونجرس) استندوا بقوة في ردودهم إلى ما استحضروه من صور توراتية وما استشهدوا به من أقوال النبييم في العهد القديم وساقوا النبوءات التوراتية تدليلاً على انه من المقضي به إلهياً أن يصبح اليهود «الشعب الحاكم فلسطين»، في حين دعا آخرون منهم إلى التعجيل بإنشاء الدولة اليهودية واعربوا عن رغبتهم في أن تهب الحكومة الأميركية فتتخذ من الإجراءات ما يتسق ووعد بالفور. والاستشهاد التالي عينة بالغة الدلالة من صهيونية الكونجرس الأميركي المبكرة:

«تماماً كما قاد موسى بني إسرائيل فأخرجهم من العبودية، يسترد الحلفاء الآن «يهودا» من أيدي التركي (المسلم) البشع (the unspeakable Turk) واضعين بذلك نهاية مجدودة للحرب العالمية. ولذا فإن الأمة اليهودية يجب أن تصبح أمة مستقلة، مستقلة ذات سيادة، لها الحق في أن تحكم نفسها بنفسها وتستكمل بذلك مثلها العليا التي تنبني عليها الحياة. وإني إذ أدعو إلى ذلك أشعر أني أعبر عما يجول بخواطر الشعب الأميركي، ويدور بكل تأكيد في رؤوس كل من تحدثت إليهم في هذا الشأن، وهو أن حكومة الولايات المتحدة الأميركية يجب أن تستخدم كل ما لها من نفوذ في العمل على إنشاء تلك الدولة اليهودية كيما تشع منها على العالم تعاليم الدين اليهوديّ ومبادئه السامية[٤٣]».

فالحواذ اليهودي لم يظل ـ بطبيعة الحال ـ حبيساً وراء أسوار

الـدين المعبرَن الـذي تنازل أتبـاعه عنـه في سبيـل ضرب غـريب من التدين بالـوكالـة يمارس من خـلال ضرب مطور من عبـادة الأسلاف البدائية.

غـير أن ذلك التنـازل الروحيّ ومـا أفضى إليـه من تبعيـة روحيـة لـ «التعاليم والمبادىء السـامية للـدين اليهوديّ» كـان من المحتّم ألا يقف عند ذلك الحد. فالدين، عندما يلحقه الفساد يصيب الروح، كما قلنا، بفساد أفظع من فساد الأكال، وأشبه بعفن المـوت. و«المؤمنون» الذين لم يعد لديهم من دينهم ما يؤمنون به فباتوا مضطرين إلى ملء الحفرة الفاغرة في أرواحهم بذلك الضرب البدائي من عبادة الأسلاف («الـروحيين»)، كـان من المحتم أن ينقلب التـدين فيمـا يخصهم إلى حمى خبيثـة تفترس الـروح وينقلب الإله فيمـا يخصهم إلى شيطان، ويتحـول البشر الآخرون فيمـا يخصهم إلى «أعداء اللـه»، أي أعـداء ذلك الإله الذي قُلِب إلى شيطان.

وبشكـل مواتٍ للغـاية، كـان هنـاك «التـرك»، «المحمـديـون»، أي المسلمون وهم أتباع ديانة صارمة في توحيديتها وفي إعلائهـا للألـوهة والتزامها بالموقف الأساسي في كل دين لم يفسد، وهو موقف الاتضاع الإنساني في مواجهة الألوهة: فالله هو الله، وهو خـالق العالم والبشر ومـالك العـالم والبشر، فليس «مِلْكاً» لعبـاد، وليس خادمـاً لبشر، وهو بصفاته وسموه ذروة ما يمكن لروح الإنسان أن تتطلع إلى استجلائه وعبادته من خير وجمال وعلو، وليس شيطاناً دموياً يسخَّر بالسحر أو بـ «الحيازة» في قضاء حوائج من «يملكونه» أو من يعبدون «مالكيـه» إذ يقعون كالكـلاب تحت مائـدة الخيرات التي يُنعِم بهـا على «أبنـائه الأثيرين إلى قلبه».

فـالـ «ترك»، «المحمـديـون»، المسلمـون، لم يعـودوا الأغـراب المختلفـين فحسب، بل وبـاتوا بـديانتهم هـذه المنـافس الخطـر لليهود بوصفهم «الحـائزين» الـوحيدين للـه، ولكلابهم القـابعة تحت المائدة لتلتقط الفتات المتساقط فتتغـذى به روحيـاً. ونحن

إذا ما تعمقنا جذور العداء الدموي المموّه عنه للاسلام، واجدون في تلك الجذور تلك الحزازة «الدينية» الغريبة والنابية التي استعرت استعاراً خاصاً بعد موت المسيحية في الغرب واستبدال الغربيين عبادة الله بعبادة إسرائيل.

ولنتدبر هذه الاعلانات التي وردت في خطبة ألقاها السناتور الأميركي هنري كابوت لودج، أحد العمد «الأرستقراطية» للمؤسسة الأميركية الحاكمة في مدينة بوسطن، عاصمة ولاية نيو انجلند، وموطن «الأميركيين الأول»، في يونيو ١٩٢٢:

> «يبدو لي أنه من الملائم للغاية ومما يستحق كل تأييد وتقريظ أن يرغب الشعب اليهوديّ من كل أنحاء العالم في أن يصبح هناك وطن قومي لأولئك الذين قد يرغبون من أبناء **الجنس** اليهودي في العودة إلى البلد الذي كان مهداً **لجنسهم** والذي عاشوا فيه وكدحوا **لعدة آلاف من السنين**.. فأنا في الحقيقة قد ضاق صدري دائماً وعيل صبري كلما فكرت في وجود أورشليم وكل فلسطين في أيدي **المحمديين**.. وفي أن أورشليم وفلسطين المقدستين عند **اليهود**، الأرض التي تتمتع بقداسة عميقة للغاية لدى **أمم الغرب المسيحية العظيمة** يمكن أن تظل في أيدي الترك (المسلمين)، فذلك شيء طالما بدا لي، منذ سنين عديدة، **كوصمة من الوصمات الكبرى في وجه الحضارة، وهي وصمة ينبغي أن تزال»**[٤٤].

ولندع جانباً الجهل المطبق للسناتور الأميركي الهمام وهو منطلق لا يلوي على شيء متحدثاً عما يؤكد أنه «الجنس» اليهودي، وبالمناقضة لليهودية نفسها التي جعلت عمر الكرة الأرضية أقل من ستة آلاف من السنين، عن «عيش اليهود وكدحهم في فلسطين لعدة آلاف من السنين»!، ولنتوقف عند قوله إن «أورشليم وكل فلسطين» مقدستان لدى اليهود ولدى «أمم الغرب المسيحية العظيمة»، ومنها الولايات المتحدة، بلده «المسيحي» العظيم بطبيعة الحال. فالسناتور الأميركي أخرج «الترك»، «المحمديين» تماماً من الصورة، لا دينياً

فقط من خلال تجاهله لقداسة القدس عند المسلمين، بل وجيوبوليطيقياً أيضاً، من خلال إسقاطه للفلسطينيين، مسلمين ومسيحيين، تماماً من الصورة، باعتبار فلسطين أرضاً خالية، والقدس مدينة مقدسة في أيدي الأعداء. ولا غرو، فهو ـ بصراحة تحمد له ـ أفصح عما يلف ويدور كثيرون من مواطنيه ويخفونه على سبيل البراعة والديبلوماسية، فأعلن أن بقاء القدس في أيدي المسلمين، بل وبقاء المسلمين أصلاً على أرض فلسطين «وصمة من الوصمات الكبرى التي ينبغي أن ينظّف منها وجه الحضارة» التي هو ممثلها، وحاميها، وصاحبها.

واقع الأمر إذن أن التبعية الروحية لمسيحيي الولايات المتحدة أدت إلى تشبُّعٍ كاملٍ للروح الأميركية بنوع جديد كل الجدة من التديّن انصبّ على إسرائيل ترتبت عليه آثار بالغة العمق على كل مستويات المجتمع الأميركي:

«المشاهد أن الانتماء الصهيوني سرى في طريقة الحياة الأميركية وتخلل نسيجها قبل عقود من ظهور ما بات يعرف باسم «اللوبي الصهيوني». ويفصح عن مدى ذلك التغلغل ما أظهره الجمهور الأميركي العريض من تحمّس بالغ للانتداب البريطاني على فلسطين (بعد الحرب العالمية الأولى) ثم إدانته عالية الصوت لسياسة بريطانيا في فترة ما بين الحربين، تجاه فلسطين، كلما بدا أن تلك السياسة خرجت على خط وعد بالفور. والواقع أنه **على الصعيدين الحكومي والتشريعي، أي في دوائر الإدارة الاميركية ودوائر الكونجرس، بات الانتماء الصهيوني مرادفاً في اذهان كثيرة لكون المرء اميركياً بل واميركياً كما ينبغي أن يكون الأميركيّ.**

«ولم تكن الصهيونية المسيحية في أميركا قاصرة على المراكز الحضرية (المدن) أو على الولايات التي ترتفع فيها نسبة السكان اليهود. فالكثيرون من الشيوخ والنواب الأميركيين الذين أخذوا على عواتقهم تحقيق الأهداف الصهيونية على تل الكابيتول (أي من خلال الكونجرس) مثّلوا ولايات لم يشكّل اليهود إلا كسراً عشرياً

صغيراً من مجموع سكانها، كولايات الجنوب والغرب الأوسط. إلا ان **تلك الولايات بالذات كانت الأصولية البروتستانتية قد رسّخت فيها أقدامها بشكل خاص**.. ويوقفنا تحليل الخطب التي ظلّ أعضاء المجلسين يلقونها من على منبريْ الكونجرس الأميركي على أن معظم أعضاء الكونجرس آمنوا دائماً إيماناً عميقاً ضارباً بجذوره في الروح «بصواب وسلامة الأهداف الصهيونية تاريخياً»، وأن معظم أعضاء الكونجرس آمنوا دائماً بأن «لليهود حقاً تاريخياً لا في إقامة دولة لهم على أرض فلسطين فحسب، بل وفي أرض فلسطين كلها». **وقد انبنت فكرة «الحق التاريخي» السامقة هذه، بالضرورة، على أسس توراتية كانت هي التي مكنت النائب** توماس لين، من ولاية مساشوستس، مثلاً، من أن يعلن بيقين أنه **«كيما تقام مملكة الله على الأرض، لا يجب أن يظل اليهود مشتتين في مختلف الأمم. فهم ـ كما علّم الأنبياء ـ لا يكونون مؤثرين كلما كانوا أقلية. ولذا فإنهم يجب أن تكون لهم دولتهم حتى يصبح بوسعهم أن يعملوا ويستحدثوا للعالم النظام الاجتماعي الأمثل ليصبح مثالاً وقدوة تحتذيها وتتعلم منها كل الأمم الأخرى»**[٥٥].

فالنائب الأميركيّ التقيّ يحاول هنا التوفيق بين ما تمليه عليه عبادة إسرائيل بوصفها «نبراس كل الأمم»، كما علم النبييم، وبين ما أوقفته عليه خبرته كأميركي من العيش مع اليهود في مجتمع واحد. فاليهود لم يتمكنوا من أن يعملوا شغلهم كما يجب وظلوا «غير مؤثرين»، مكتفين بالأخذ بغير عطاء، لأنهم ظلوا أقلية، أما عندما تصبح لهم دولتهم ويلتئم شملهم فيها، فلينتظر العالم منهم كل خير لأنهم آنذاك «سيستحدثون النظام الاجتماعي الأمثل» ويعلمونه لكل الأمم!

وفي مقابل هذا النبوغ المتوقّع من إسرائيل، ظل «المحمديون» غير موجودين إطلاقاً فيما يخص الأتقياء الأميركيين، بل ظلوا، متى سلّم الأتقياء بوجودهم، السبب في أن «فلسطين التي كانت جنة يهوه في أرضه أيام كان شعب يهوه يعمرها، تحولت لقرون وراء قرون إلى

أرض جرداء موحشة خربة بسبب تخلّفهم وكسلهم»، وهو ما أكّده، سناتور ولاية كنتكي، آلبن باركلي، على أساس زيارة قصيرة كان قد قام بها لفلسطين أخذه اليهود خلالها إلى مزرعة أو مزرعتين أنشئتا بأموال المتبرعين الأميركيين، لكن الذي رآه السناتور فيهما لم يكن العون الأميركي بل ما أسماه بـ «الصلة الطبيعية والعلاقة الربّانية» بين اليهود وفلسطين، تلك العلاقةالتي رأى أنها تجعل كل ما يفعلونه على أرض فلسطين ناجحاً ومثمراً كما وعدهم الله تماماً[٤٦]، وهي أفكار ما لبث أن عاد فأكدها سناتور ولاية ميزوري، بينيت كلارك، بقوله إنه «نتيجة لتوافد اليهود على فلسطين من مختلف أنحاء أوروبا، في ظل الانتداب البريطاني، **تحولت أرض فلسطين التي كانت جرداء خربة قاحلة وهي بأيدي المحمديين إلى أرض «تفيض باللبن والعسل»، تماماً كما وعدت التوراة شعب الله المختار. ففلسطين التي ظلت طوال قرون، وهي بأيدي الترك أرضاً موحشة موات، حولتها المثالية اليهودية والنبوغ اليهودي إلى جنة خضراء تفيض بالخيرات، فباتت بذلك أروع مثال في العالم أجمع على كيفية استصلاح الأراضي**»[٤٧].

ولقد ظلت هذه الدعاوى مروَّجة مستخدمة حتى الآن، ربما لأنها قد تستخدم ثانية في مستقبل غير بعيد في تبرير «إعطاء» اليهود بقية الأرض «المتعاقد عليها» مع الله ليحولوها بمثاليتهم وعبقريتهم، لا بأموال وخبرات وتقنيات وماكينات «أمم الغرب المسيحية العظيمة» وعلى رأسها الأمة الأميركية التقية. **فالمنطق «الأخلاقي» الدولي الذي استحدثه العقل الأميركي أن الأرض لمن يحسن استخدامها.** وبطبيعة الحال، يتطلب ذلك الاستخدام الأمثل ما هو أكثر من «الصلة الطبيعية والعلاقة الربّانية» اللتين حشا السناتور الأميركي بهما فمه. إلا أن المهم فيما يخص العقلية الذرائعية الأميركية، قياماً «بعمل الرب على الأرض»، ليس حقيقة ما تفعله بل الصورة التي تسقطها على الأذهان لما أنت فاعل. ومن وجهة النظر الأميركية، «لا

فكيف تزال العقبتان، الوجود الديني الاسلامي، والوجود البشري الفلسطيني، من الأرض؟ فيما يخص الوجود الديني الاسلامي، يعتبر الحرم الشريف بالقدس، ثالث الأماكن المقدسة في الاسلام، الرمز الأظهر والأفعل تجسيداً لذلك. وفيما يخص الوجود البشري الفلسطيني (وهو وجود أنكره من مبدأ الأمر أصلاً الصهيونيون المسيحيون، كالقس بلاكستون وغيره) فالفلسطينيون في المخيمات، وفي الشتات، وعلى المزقة الصغيرة التي بقيت من الأرض، هم الذين يشكّلونه.

ولنأخذ الحرم الشريف أولاً. الحرم الشريف، طبقاً للايمان الديني الأصولي الأميركي لا مكان له على الأرض المقدسة، بل ولا مكان لـ «المحمديين» أنفسهم كبشر. لماذا؟ بسبب نظرة الله إلى البشر وخطته للخليقة. فالذي يؤمن به الأصوليون المسيحيون الأميركيون إيماناً لا يتزعزع:

> «أن الله لا ينظر إلى كل خليقته من البشر بالمنظار نفسه. فهو يرى البشر مقسّمين إلى فئتين: اليهود، والأغيار (الجوييم). وتبعاً لذلك فإن الله لديه خطتان: خطة أرضية لليهود، وخطة أخرى سماوية للمسيحيين المولودين ثانية. أما المسلمون، والبوذيون، وأتباع الديانات الأخرى، بل والمسيحيون غير المولودين ثانية، فلا شأن له بهم»[٤٨].

وذلك يسهّل الأمور كثيراً. فكل أولئك الناس مطرودون، طبقاً للإيمان الأصولي الأميركي، من رحمة الله. والمطرودون من رحمة الله، طبقاً لـ «الناموس» الموسوي، كما هو وارد في أسفار التوراة ومفصل في سائر أسفار العهد القديم، الكتاب الديني الحقيقي للأصولية الأميركية، لا مكان لهم على الأرض، وليست دماؤهم مباحة

فحسب، بل ومتعين على المؤمنين، كواجب ديني أساسي، إراقتها بـ «قطعهم»، أي بـ «تحريمهم»، أي بذبحهم. فالرخصة الإلّهية متوافرة، ومن الكفر بالله عدم استخدامها تنفيذاً لما يقضي به «الناموس». لماذا؟ لأن قبول «الشعب» بالعيش بين الجوييم الأغراب على الأرض المقدّسة التي أعطاها يهوه لـ «الشعب» وطناً له (وهي ليست فلسطين وحدها، بل كل الأرض المتعاقد عليها في الصفقة العقارية الكبرى بين أبراهام ويهوه) خطيئة مميتة، وهو ما تنص عليه صراحة وبشكل قطعي «مناهي» يهوه كما هي واردة في التوراة وسائر أسفار العهد القديم:

> «احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض لئلا يصيروا فخاً في وسطك.. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض.. أو تأخذ من بناتهم لبنيك».
>
> (خروج ٣٤: ١٢ و ١٥ و ١٦)
>
> «(بل) ضرباً تضرب سكان الأرض بحد السيف وتحرّمها بكل من فيها مع بهائمها بحد السيف».
>
> (تثنية ١٣: ١٥)
>
> «لأني أنا أدعو السيف على كل سكان الأرض، يقول رب الجنود».
>
> (إرميا ٢٥: ٢٩)

فالتعليمات الإلّهية صريحة، وقد أنذر يهوه «الشعب» بعقاب مخيف إذا ما تهاون «الشعب» في تنفيذها، كما لم يكفّ الحاخام مائير كاهانا، مؤسس حزب كاخ، عن تذكير اليهود والمسيحيين المعبرنين في العالم أجمع، استنهاضاً لهم للقيام بذلك الواجب المقدس كما أملاه يهوه على موسى في سفر العدد، رابع أسفار التوراة:

> «وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم، يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في عيونكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها. فيكون

أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم».

(عدد ٣٤: ٥٥ و ٥٦)

ولكن، كيف ينفّذ شعب يهوه أحكام الناموس، فيطرد «سكان الأرض» ويستبقي مسجد «المحمديين» كما يدعوهم الأصوليون الأميركيون، خصوصاً وأن اليهود يعتبرون أي رمز ديني أو مكان عبادة غير يهودي رمزاً «وثنياً» و«رجساً»، وبالذات في «يروشلايم» التي يجب أن تكون ـ بحكم كونها عاصمة مملكة التوراة ـ مطهرة من كل «أغلف نجس» من الأجانب الأغيار؟

كما يعلمنا تاريخ اليهود، كانت الحلول التي لجأوا إليها دائماً في مواجهة مشاكلهم، كلما كانوا في مركز قوة لا في وضع أقليّة ضعيفة وسط بحر من الأغيار، حلولاً حاسمة تدميرية ودموية للغاية. وتلك صفة من الصفات التي يعجب الغربيون بعامة، سواء في ذلك المتدينون الأصوليون أو غير الأصوليين أو حتى الملحدين منهم، إعجاباً شديداً بإسرائيل والإسرائيليين بسببها.

والمشكلة التي يواجهها المشروع الصهيوني في هذه المرحلة من مسيرته متمثلة في وجود المحطة الأولى للمشروع، إسرائيل، على مساحة صغيرة نسبياً من الأرض، وبعدد قليل نسبياً من السكان اليهود وسط «بحر» من الوجود البشري الذي تدين أغلبيته الساحقة بالاسلام.

في العقد السادس من القرن الأول الميلادي، ما بين سنة ٦٦ وسنة ٧٠ م.، عندما ووجه اليهود بقوة روما، وبخطر «التعداد»، هبوا للدفاع عن العقيدة بحركة الزيلوت، المتهوسين الدينيين.

ويقول المؤرخ اليهودي يوسف بن ماتياس (يوسفوس) أن منابع حركة الزيلوت، «حماة العقيدة»، التي دعاها «المدرسة الفكرية الرابعة» (بعد «مدارس» الأسينيين، والصدوقيين، والفريسيين)[٤٩] يمكن أن تستظهر في رد الفعل العنيف لضمّ اليهودية كإقليم من

أقاليم الامبراطورية الرومانية سنة ٦ م ، وما أثاره الضم من مشاعر «قومية» بين اليهود في فلسطين، إلا أن الذي قدح زناد الهبّة الدموية كان شروع كيرينيوس، حاكم سوريا الروماني، في إجراء تعداد لليهود بغية فرض ضرائب عليهم(٥٠).

فالعوامل الهامة في حياة اليهود كانت متوافرة فاعلة فعلها هناك، وأهمها عامل الاعتقاد بالخصوصية والحق في حكم الأرض لا الخضوع لحكم الأغيار، وعامل المال. ومن تفاعل العاملين، كان انفجار الزيلوتية التي كانت قد ظلت كامنة تحت السطح منذ زمن هيرود الذي حاول القضاء على مؤسسيها باعتبارهم من «قطاع الطرق» سنة ٤٦ ق. م.(٥١).

> «الواقع أن انفجار العنف الذي وقع على أيدي حركة الزيلوت كان في وقت بدا فيه بوضوح أن تحقق الحلم اليهودي (اقامة الملك وحكم العالم امبراطورياً من صهيون) لن يكون بالوسائل المتاحة للبشر العاديين، وأن الوقت كان قد حان ليتقدم «المختارون» (صفوة شعب يهوه المختار) ويأخذوا في تقويض النظام القائم باستخدام تكتيكات ما نعرفه اليوم باسم حرب العصابات وأساليب ما ندعوه بالارهاب باعتبار كل ما يفعلونه تحركات أوّلية صوب تنفيذ المخطط الموضوع سلفاً من عند اللـه.. وقد انتهى الزيلوت آنذاك نهاية سيئة، لكن مأساتهم ـ متى نظرنا إليها في سياق المخططات التي وضعها الكهنة إبّان عصر السبي وهم يحلمون بإقامة الدولة اليهودية التي يحكمها إلهها القبلي يهوه وحده والتي حمّلها بمسؤولية فرض سيادته على كل البشر وكل الأجناس ـ كانت مأساة متوقعة لم يكد يكون منها مهرب. فالزيلوت ومن اتّبعوهم كانوا مجرد أدوات فانية في يد يهوه، وهم ان كانوا لم يرحموا رجلاً أو امرأة أو طفلاً في غمار تمهيدهم لمجيء يوم الرب، فإن العذاب الذي نجم عن ذلك لم يزد عما يتعين

على أي يهوديّ أن يتوقعه قبل طلوع فجر مملكة الرب الجديدة.. وأيا كانت الحال يحسن أن نتذكّر، ونحن نتابع على صفحات يوسفوس (يوسف بن ماتياس) أعراض التعصّب الذي لا يرحم، أن مشاهد المأساة كانت قد وُضعت قبل ذلك بوقت طويل، في بابل. وبالاضافة إلى ذلك، فإن المخططات التي وضعها الكهنة اليهود في المنفى وهم يحلمون أحلامهم ويرون رؤى امبراطورية يهودية عالمية، وجد القوة المحركة المشؤومة التي فجرته في حركة الزيلوت الارهابية التي استمدت منابعها من الأصول الأولى لعبادة يهوه، وأن الجنون الذي ظل يسوط أولئك الناس في قيامهم بأدوار تلك المأساة الفظيعة دافعاً إياهم إلى المصير المحتوم كان بفعل عقار فطر عُبِد منذ عصور أقدم من التاريخ ذاته»(*).

وحتى لا يغمض معنى السطر الأخير من الاستشهاد، يشير اليجرو هنا إلى العقار المستمد من الفطر شديد التخدير المعروف باسم الأمانيتا موسكاريا(**)، أما قوله بأنه عُبِد منذ عصور أقدم من التاريخ ذاته، فإشارة إلى عديد العبادات القضيبية الضاربة في القدم التي دارت حول الشكل القضيبي لذلك الفطر، والنشوة الحادة التي يحدثها لدى من كانوا يتعاطونه فيطوّح بهم في حالات من الهذيان يتصورون خلالها أنهم اتصلوا بالمعبود الذي يرمز إليه الفطر المقدس.

وقد كان الزيلوت اليهود يتعاطون ذلك العقار المخدِّر ويرتكبون جرائمهم الدموية وهم تحت تأثيره بقدر من الوحشية والاستهانة جعل يوسف بن ماتياس يصفهم بـ «الآفات الضارة».

(*) Allegro, John: «**The Chosen People**», op. cit., pp. 224/225.

(**) شفيق مقار، «**قراءة سياسية للتوراة**»، المرجع السابق الاشارة إليه، ص ص ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٨٧ ـ ٢٨٩، ٣٠١.

وعلى الساحة الصهيونية في زماننا قوة مثيلة تشكّل وجهاً تقليدياً من الحلّ التقليدي اليهودي لما يعترض مسيرة المشروع الصهيوني من مشاكل يعتبرها منفّذوه معوقات في الطريق المفضية إلى وضع السيادة الكوكبية. فتماماً كما استجاب اليهود بالزيلوتية للتحدّي الروماني، يستجيبون اليوم للتحدّي الذي يطرحه الوجود البشري العربي، وبالقدر الأخطر الوجود الديني الاسلامي، بزيلوتيّة مطوّرة من نوع جديد لكنها منبنية على نفس المبادىء القديمة، وكل ما بينها وبين الحركة التي وصفها يوسف بن ماتياس من فرق أنها مدعومة اليوم بزيلوتيّة شقيقة هي الأصولية المسيحية الأميركية.

فنحن، متى انتقلنا من عالم العهد القديم كما كان في أيام الرومان، إلى عالم العهد القديم الذي تستحضره وتبعثه حيا الأصولية الأميركية، نجد أن «إلّه اسرائيل»، وعبدة اسرائيل، ليسوا على استعداد للتفريط في بوصة واحدة من أرض يهوه.

وذلك بعدٌ دينيٌّ لمشكلة الشرق الأوسط غائب، أو مغيّب تماماً من الصورة، لكن «الناموس» صريح وقاطع فيما يخصه:

> **«والأرض لا تباع بتّة. لأن الأرض لي وانتم غرباء ونزلاء عندي».**
>
> **(لاويين ٢٥: ٢٣)**

فالأرض أرض يهوه، وهو قد خصصها لـ «الشعب» وحده دون سائر شعوب العالم، وتعهد لذلك «الشعب» أن «يقرض» له، أي يبيد ويشتت أي شعب آخر فيزيحه لئلا يشارك في تلك الأرض. وفي سياق ما أملاه من شروط ذلك التعاقد القانوني أوضح يهوه بشكل قطعي انه لم يعط الأرض لشعبه المختار على أساس الملكية الحرة (أي كـ 'Freehold' كما يقال في المعاملات العقارية) والتملك المطلق، بل كأرض مستأجرة (أي 'Leasehold') ولكن بعقد غير محدد المدة، وذلك ما أوضحه في

سفـر اللاويــين مؤكداً لـ «الشعب» أنهم «غـرباء ونـزلاء عنده». وتبعاً لذلك، يكون التفـريط في بوصة واحدة من الأرض المملـوكة ليهوه هذه، أو التقاعس عن استرداد ما ظل منها بأيـدي الأغيار عبـر المسـاحـة المحددة في العقـد، من النيـل إلى الفـرات، كفـراً واستجلاباً لغضب يهوه ونقمته.

وهذا ما يعرفه جيداً الربّانيون اليهـود ويعرفـه أيضاً ويعمـل على هـديه المسيحيـون البروتستـانت وبخاصـة الأصوليـون (المتمسكون بحرفية «الكلمـة» في العهد القـديم) الأميركيـون الذين يقـدّر عددهم حالياً، وعاظاً وقساوسة ومؤمنـين عاديـين، بأكثـر من ٦٠ بالمـائة من الشعب الأميركي التقي.

والـذي يعـرفــه اليهـود والأصــوليـون الأمــيركيـون والمؤمنـــون البروتستانت بعامة أن «البحر البشري» الضخم الذي يفترش الأرض المملوكة ليهوه والمعطاة لليهـود والتي لم تنتقل بعـد إلى أيدي اليهـود بحر يستمد قوة مدّه من الديانة التوحيدية المنافسة لديانة «الشعب»، وديانة الأصوليين التابعة التي أُفرغت من مقوماتها وبـاتت شبه ظـل باهت ممسوخ لليهودية. وتلـك الديـانة المنـافسة التي ظلت محتفظـة بمقوماتها وباحترامها للألوهة، صامدة في وجه الاجتيـاح التدمـيري، هي الإسلام.

وكما يعرف اليهود والمسيحيون المهوّدون ذلك، يعـرفون جيـداً أن يهوه أمر، منذ زمن إرميا (الذي يولع الأصوليون كثيراً بـالتشبه بـه) الذي بدأ «نبوته» سنــة ٦٣٠ ق.م.، **بهلاك «كـل ممالك الأرض التي على وجه الأرض»، وحدد بالاسم في القائمة:**

> **«كـل ملوك العـرب وكل ملـوك اللفيف السـاكنـين في البريّة».**

أي كل الشعوب ساكنة الصحراء وملوكها، جنباً إلى جنب مع «كل ملوك الشمال القـريبين والبعيـدين كل واحـد مع أخيـه وكل ممـالك

الأرض التي على وجه الأرض» (إرميا ٢٥: ٢٤ و ٢٦).

فالنص قد وضَع على نفس المستوى من استحقاق عداوة يهوه، و«كأس خمر سخطه» و«السيف الذي سيرسله» على كل تلك الأمم، «كل ملوك العرب والشعوب ساكنة الصحراء»، وساوى بينها وبين ذلك الحشد من ملوك الشمال (جومر، وتوجَرْمة، وجوج ماجوج، وماشك، وتوبال) الذين أوضح بعد ذلك لحزقيال أنه سيستدرجهم لإبادتهم مع شعوبهم في معركة هرمجدّون الرهيبة التي سيقود جيوشه فيها المسيح المنتظر.

هذه كلها مسلّمات أساسية في الإيمان اليهودي والأصولي المسيحي الأميركي بخاصة والغربي بعامة. ومن تلك المسلّمات الإيمانية، شهدت أرضت فلسطين إحياء نشطاً للغاية، مصدره الولايات المتحدة، لحركةٍ زيلوتيّةٍ جديدةٍ، تتصدرها «كتلة المؤمنين» (غوش ايمونيم) وحزب «كاخ» الذي أسسه الحاخام الأميركي مائير كاهانا، ويدعمها بقوة وانضواء كامل الأصوليون المسيحيون واليهود في الولايات المتحدة.

وعلى الصعيد العملي، يتمثل نشاط كتلة المؤمنين وحزب كاخ في «تشجيع» من تبقى من الفلسطينيين على الهجرة، والعمل على ترحيلهم بالقوة، وتصفيتهم جسدياً، والتقدم بشكل مطرد بناءً على تخطيط واضح باقامة «مدقّات» فيما تبقى من مناطق عربية فيما بات يعرف باسم «الأراضي المحتلة»، وبناء مستوطنات في تلك «المدقّات» سرعان ما تسوّر بالأسلاك الشائكة وبالحرس المسلح من أعضاء كتلة المؤمنين وكاخ.

وفي الخليل أقيمت عدّة «مدقّات» من ذلك النوع أسكن فيها مئات من المستوطنين معظمهم أميركيون من بروكلين، حي الحاخام مائير كاهانا بمدينة نيويورك. ويقول هؤلاء المستوطنون **أنهم جاءوا إلى الأرض الموعودة ليعيدوا اقامة مملكة التوراة تنفيذاً لعهد الله**

مع الآباء ابراهام واسحق ويعقوب وتعليماته إلى موسى وكل أنبياء اليهودية، ويذكّرون بأن الخليل بالذات «أول صفقة عقارية لشراء الأراضي عقدها الشعب المختار» إشارة إلى ما حكته التوراة بسفر التكوين عن شراء ابراهام لمغارة مكفيلة والحقل المحيط بها من عفرون الحثي بأربعمائة شاقل من الفضة (تكوين ٢٣: ١ ـ ١٦).

فالمستوطنون القادمون من بروكلين وبوسطن (مدينة القس كوتون ماذر الذي تسمَّى بـ «الحاخام ماذر») يستندون في شأن ما يقومون به من ازاحة لـ «المحمديين» من الأرض، وللمسيحيين العرب أيضاً باعتبار أنهم من «غير المولودين ثانية» وبذا فإنهم من أولئك الذين «لا شأن لله بهم»، إلى «قدسية» حكاية ألفها قبل قرون في بابل مؤلفو سفر التكوين عن «صفقة عقارية» تقول الحكاية أنها عقدت قبل ٣٩ قرناً. وقد أوجزت السيدة ملكة خايكين، إحدى المهاجرات من بوسطن إلى الخليل، المسألة بقولها:

> «يمكنكم طبعاً أن تقولوا أن سكنى اليهود هنا قبل ٢٠٠٠ سنة لا تبرر عودتهم إلى هذا المكان ليعيشوا فيه من جديد، وأن هذه المدينة عربية ولا يجوز طرد العرب منها. لكن هذا هراء. وهو هراء لأنه لا يأخذ في الحسبان أن المسيح المنتظر آت لا ريب في مجيئه، **والمملكة سوف تقام، مملكة التوراة التي سيحكم اليهود العالم منها**» (وهنا استدركت القائلة، فقالت: «**أعني انهم سيحكمونه روحياً**. والمهم أنه لا يمكن أن تقام مملكة التوراة على هذه الأرض اليهودية طالما ظل عليها ١,٩ مليون عربي»[٥٢].

والتساؤل الذي يفرض نفسه فرضاً بإزاء تأكيدات تلك السيدة المناضلة من أجل إقامة مملكة التوراة، هو: ما دامت حدود المملكة، كما وضعها الله نفسه، ممتدة من نهر النيل إلى نهر الفرات كما هو موضح بالحفر البارز على حائط الكنيست، هل تتوقف مهمة الزيلوت

الجدد عند إزاحة ١,٩ مليون عربي، بالقتل أو بالطرد؟ والجواب واضح، بل هو مملى من يهوه في سفر اللاويين بشأن ملكية الأرض وعدم جواز التصرف فيها، وبالتبعية عدم جواز التهاون في حيازتها ووضعها في أيدي من أعطاها لهم كأرض مستأجرة بعقد غير محدد المدة. ولقد عني يهوه بأن ينبه على من أعطاهم الأرض، بنص واضح في سفر العدد، بوجوب طرد سكان تلك الأرض من أمامهم، وحذرهم من أن من يسمحون لهم بالبقاء، ولو كأقلية مستبعدة، يصبحون «أشواكاً في عيون اليهود ومناخس في جوانبهم ويضايقونهم على الأرض التي هم ساكنون فيها»، وهددهم بأنهم إذا لم يطردوا كل سكان الأرض فسوف يستجلبون على رؤوسهم نقمته التي ينبغي ألا تصب إلا على رؤوس أصحاب الأرض المتعاقد على أخذها، كما أسلفنا.

وذلك ما أكدته لمراسل صحيفة «الفيلج فويس» الأميركية (وهي صحيفة «ليبرالية» أميركية يصدرها يهود معارضون) السيدة الأميركية المتدينة، ملكة خايكين، بقولها «أنت إن أردت أن تكون يهودياً بحق، عليك أن تعيش في مملكة التوراة، وهي المملكة التي يصبح الله والتوراة والأرض والشعب اليهودي فيها شيئاً واحداً لا يتجزأ ورابطة لا تنفصم بين ماض مقدس ومستقبل مجيد» (هو المستقبل الذي سبق أن قالت إن اليهود «سيحكمون فيه العالم.. أعني يحكمونه روحياً، من مملكة التوراة»).

أما الزوج، في هذه الأسرة الأميركية المهاجرة من بوسطن لتشارك في إقامة مملكة التوراة، تنفيذاً لمشيئة الإله، على كامل الأرض المتعاقد عليها، فأكثر براغماتية من زوجته، وأقل انشغالاً بالاعتبارات «الفلسفية»، وعملي في نضاليته التي أوضح أنها تتمثل في أنشطة يقوم بها بالاشتراك مع غيره من المؤمنين، الغاية منها جعل العرب يقدمون على أي عمل «طائش» من أعمال العنف «يتيح للسلطات العسكرية طردهم». ومن الأعمال التي فاخر المستر خايكين والسيدة

زوجته بـ «إنجازها» اقتحامه هو و«٥٠ من الأصدقاء المسلحين لمسجد بالقرب من حلحول بعد صلاة العصر لحلاقة شعر ابنه في حرم المسجد». وقد روى الرجل وزوجته لمراسل الصحيفة الأميركية باستمتاع كبير كيف دخلا مع ابنهما وأحد الحاخامات وكل أولئك المسلحين فنصبوا دكان حلاقة متنقل على سجاجيد الصلاة، وأقعدوا الولد، وأخذ الحاخام يحلق له شعره والمصلون ينظرون غير مصدقين. «وقد عرضنا عليهم بعض البطيخ الذي أخذناه معنا، فرفضوا». وتقول السيدة خايكين، مستعيدة منظر الصدمة على وجوه المصلين العرب باستمتاع بالغ «لم نقم لرفضهم وزناً طبعاً. وواصلنا أكل البطيخ وإلقاء القشر وبصق اللب على أرض المسجد».

وتعليقاً على «جبن» المصلين وسلبيتهم رغم استفظاعهم لما حدث، قالت السيدة خايكين بازدراء: «هؤلاء العرب! إنهم أسوأ من الزنوج عندنا في أميركا!»، فقال زوجها: «انهم يعرفون أن لا حق لهم في أن يكونوا هنا. ونحن، إن شئت الحق، جئنا من بوسطن إلى الخليل بدافعين، هما المغامرة والاستفظاع. أما المغامرة، فإقامة مملكة التوراة. وأما الاستفظاع فلكون العرب ما زالوا يعيشون هنا».

والأخطر من ذلك أن المسجد الأقصى ما زال موجوداً هنا. وذلك ما يؤمن به الأصوليون المسيحيون الأميركيون إيماناً نضالياً لا يحيد، فهم يؤمنون بأن:

> «نبوءات التوراة وكل العهد القديم «تتطلب» أن يقوم اليهود بتدمير المسجد الأقصى وبناء الهيكل اليهودي على الموقع الذي يشغله المسجد الآن» ويعتبرون «الارهابيين اليهود الذين يهاجمون المسجد ويريدون نسفه بالديناميت وإزالته من الوجود أبطالاً. وقد تبينت أن أولئك الإرهابيين يُعتَبرون أبطالاً عند كثيرين (من غير الأصوليين) أيضاً منهم، مثلاً، روبين ماتّوس ملك الآيس كريم اليهودي الأميركي، وصاحب شركة هاجن داز، ويهودا شوارتز، رئيس تحرير «الجويش برس»، وتاجر السلاح اليهودي المكسيكي ماركوس كاتز الذي يزود الحركات السرية اليهودية بمئات الآلاف

من الدولارات. ومن الأصوليين المسيحيين الأميركيين الذين يبزون هؤلاء اليهود سخاء في التبرع للارهابيين اليهود المشتغلين بمخطط نسف المسجد، البليونير النفطي تيري رايزنهوفر، وهو من المترددين باستمرار على البيت الأبيض، ورئيس مجلس إدارة منظمة «بعثة إلى أميركا»، الدكتور هيلتون صاتون، والدكتور جيمس دي لوتش، راعي كنيسة هوستون المعمدانية الثانية الذي زارني في مسكني بواشنطن وتفاخر بأنه، وآخرين من الأصوليين المسيحيين، قد أسسوا «مؤسسة هيكل أورشليم» بغرض محدد هو مساعدة أولئك الذين ينوون تدمير المسجد الأقصى وبناء الهيكل مكانه، وأوضح لي أن المؤسسة بدأت نشاطها بالإسهام بصك قيمته ٥٠ ألفاً من الدولارات في نفقات الدفاع عن الإرهابيين اليهود الذين أدينوا بالتآمر على نسف قبة الصخرة»[٥٣].

ونتوقف هنا عند قول المؤلفة التي أوردنا الاستشهاد من كتابها «أدينوا». فمن هم الذين دعتهم بـ «الإرهابيين»، ومن الذي أدانهم، وكيف أدينوا؟

الذي يعرفه الجميع في أميركا المسيحية، أصوليين وغير أصوليين، شعباً وقادة ومشرعين وصناع رأي، أن المستوطنات «غير المشروعة» كما يسميها المسؤولون في المحاضر الرسمية، ليست إلا سلسلة من القلاع المتكاثرة الشرسة للزيلوتية اليهودية التي بُعِثت بفضل الدعم «الأخلاقي» والديني، المالي والديبلوماسي والعسكري الأميركي، لتحقق حلم الدولة التوراتية المسيحانية التي ستحكم العالم. والذي يعرفه الجميع أن الحصانة من العقاب على أي تجاوز بفضل الغطاء الشامل الذي يوفره «القصد الإلَهي» كما يؤمن به الأصوليون الأميركيون قد شجّع اليهود، متدينين وملحدين سواء بسواء، على التطلّع إلى سرعة تحقيق المرحلة الأولى من المشروع الصهيوني، مرحلة من النيل إلى الفرات، للتفرغ لما سوف يتلوها من مراحل صوب السيادة الكوكبية، أو ما تسميه نصوص العهد القديم بـ «خروج الشريعة من صهيون إلى كل الأمم».

غير أن محاذير السياسة الدولية ما زالت تجعل من المتعيّن على حكومة الدولة اليهودية تجنّب الانكشاف العلني لشيء من كل هذا. ولذا فإنه يتعين على تلك الحكومة أن تظل تقوم بدور «الحكومة الديموقراطية المتحضرة» الملتزمة بحكم القانون ومعايير الأخلاق التي تفرضها عضوية «مجتمع الأمم». وفي قيامها بهذا الدور، تفعل الحكومة الإسرائيلية حيال الزيلوت الجدد مثل ما فعلته حيال دور «قوات الدفاع» في مذبحتي صبرا وشاتيلا، فتعلي «حكم القانون». وكما شكلت «لجنة تحقيق» كان آخر فصل من فصول مسرحيتها الفصل المهزلي الذي لعب دوريه الرئيسيين أريل شارون ومجلة تايم الأميركية على مسرح محكمة أميركية، سارعت حكومة إسرائيل منذ بدأ النشاط الإرهابي للزيلوت الجدد يتفجّر بدويّ أوشك أن يوقظ بعض النيام إلى «القبض على الإرهابيين اليهود ومحاكمتهم» تدليلاً على أنها حكومة لا تفرق بين يهودي وغير يهودي في المسائل المتعلقة بالقانون ومحاربة الإرهاب. غير أن ذلك ما لبث أن انفجر في وجه الحكومة الاسرائيلية، إذ وقف المحامي اليهودي آفي اسحق، الذي قاد فريق المحامين دفاعاً عن «الإرهابيين»، فقال في ساحة المحكمة بأعلى صوت «إن من قبضت عليهم السلطات الإسرائيلية وقدمتهم للمحاكمة بوصفهم إرهابيين ليسوا إلا مناضلين يعملون بتوجيه من أعلى السلطات السياسية والعسكرية في إسرائيل، **وإن تلك السلطات هي التي تحرضهم على القيام بكل ما لا تستطيع حكومة دولة ديموقراطية أن تقوم به بواسطة أجهزتها الحكومية**».

وكانت تلك هي المحاكمة التي تفاخر القس الأميركي بأن مؤسسته قدمت ٥٠ ألفاً من الدولارات كمساهمة في نفقات الدفاع عن «الأبطال» الذين حوكموا خلالها. وكان مثار المحاكمة «التآمر على تدمير المسجد الأقصى».

وتدمير المسجد شرط رئيسي بالغ الأهمية في مخطط اليهود الاسرائيليين والأصوليين المسيحيين الأميركيين من الشرائط اللازمة

لـ «المجيء» (بصرف النظر عن مسألة أي مجيء سيكون ذلك، الأول، أم الثاني) إخلاء للأرض من كلّ ما هو ومن هو ليس مواتياً لذلك المجيء الذي سيعقبه إقامة مملكة التوراة، وبدء العصر الألفي السعيد وكل ذلك. فتماماً كما تساءلت السيدة الأميركية المهاجرة من بوسطن إلى الخليل، كيف يمكن أن تقام مملكة التوراة وعلى أرض فلسطين ١,٩ مليون فلسطيني، قال بوبي براون، المهاجر من بروكلين:

> «إن كان هدم المسجد لبناء الهيكل مكانه سيشعل نيران حرب كبرى، فليكن. في البداية، عندما جئنا إلى هنا واستخدمنا تكتيكات حرب العصابات في أخذ الأراضي من العرب وبناء مستوطناتنا عليها، كان الأمر مثيراً. لكننا الآن نشعر بالملل. فنحن مسلحون تسليحاً كاملاً. ونشعر أن وجود مسجد في وسطنا وصمة عار لأرضنا. فالمرء لا يرى صورة ليروشلايم إلا ويرى فيها ذلك المسجد! ولذا يجب أن يزال. ولسوف نبني هيكلنا الثالث مكانه في يوم من الأيام. ونحن يجب أن نفعل ذلك لنجعل العرب يرون، لنجعل العالم كله يرى أننا أصحاب السيادة على يروشلايم، وأصحاب السيادة على كل أرض إسرائيل»[٥٤].

في مطلع سنة ١٩٧٩، عندما خرجت غوش ايمونيم إلى دائرة الضوء بتنظيماتها الزيلوتية الإرهابية لأول مرة، اجتمع عدد من المستوطنين أعضاء الكتلة في شقة بكريات أربع لبحث خطة لنسف المسجد. ولم يشأ الحاخام مائير كاهانا أن تأخذ غوش ايمونيم زمام المبادأة فتسبق حزب كاخ إلى ذلك الإنجاز. وكانت النتيجة أن قبض عليه هو وأحد تلاميذه، الشاب الأميركي آندي جرين الذي أصبح بعد الهجرة إلى إسرائيل «باروخ (المبارك) بار يوسف»، بتهمة التآمر على نسف المسجد، سنة ١٩٨٠. وكان حزب كاخ، بزعامة الحاخام صاحب كتاب «أشواك في عيونكم»، وكتاب «أسئلة غير مريحة لليهود المستريحين»، منخرطاً في حملة غايتها «تطهير الأرض التي أعطاها الرب لليهود من نجاسة وجود العرب» باستخدام العنف العنصري على طريقة منظمة الكوكلكس كلان العنصرية الأميركية في التعامل مع

الزنوج، ومن تلك الأساليب الاعتداء بالضرب، والركل بالأحذية، وحرق السيارات، وحرق المنازل ليلاً بقنابل مولوتوف.

غير أن خروج غوش ايمونيم إلى دائرة الضوء بمشروع نسف المسجد الأقصى جعل الحاخام مائير كاهانا يلتفت إلى ما هو أهم من أساليب الإرهاب المقتبسة من أنشطة الكوكلكس كلان الأميركية والانتباه إلى أهمية ذلك الهدف على النحو الذي يتضح من كتابه، «أسئلة غير مريحة» الصادر في سنة ١٩٨٧.

وفي سنة ١٩٨٩، نشرت مجلة تايم الأميركية تحقيقها الذي سبقت الإشارة إليه في مقدمة الكتاب، تحت عنوان «هل آن أوان بناء هيكل جديد؟» وكما جاء في المقدمة، كان لؤم العنوان باعثاً على الغيظ. فتحت ذلك التساؤل «هل آن الأوان؟»، وضعت المجلة عنواناً فرعياً بلغة الكلام المزدوج التي يجيدها كتبة الاعلام «العالمي» قالت كلماته إن اليهود التقليديين (المتدينين الطيبين) يأملون (بدلاً من يخططون) في تشييد بنائهم المقدّس (ومن ذا الذي يعترض على تشييد بناء مقدس؟) لكن مسجداً وقروناً من العداء تقف في طريقهم (لكن «المحمديين» بمسجدهم وعدائهم الديني الضارب في القدم يقفون في طريق اليهود المساكين ويحرمونهم من تشييد بنائهم المقدس)[٥٥].

وفي تحقيقها، قالت المجلة أن «إعادة بناء الهيكل» لم تكن قضية مثارة إلى أن استولت إسرائيل في سنة ١٩٦٧ على تلّ الهيكل والمدينة القديمة، وأن «إسرائيل، نظراً لحرصها على صون السلام، واصلت السماح للمسلمين بإدارة الموقع. غير أن المسلمين لا يسمحون ليهودي أو مسيحي بإقامة شعائر الصلاة علناً على الأرض المقدسة لذلك التل، بل ولم يبدوا أدنى استعداد للسماح ببناء أبسط معبد يهودي أو كنيسة. فأقل نأمة تشير إلى موضوع إعادة بناء الهيكل تثير استفظاع أتباع النبي الذين عقدوا العزم، تبعاً لما صرح به أحد مسؤولي المسجد الأقصى، على الدفاع عن الأماكن الاسلامية المقدسة إلى آخر قطرة في دمائهم».

وأضـافت المجلة الأمـيركية قـائلة إن التـراث الديني اليهـودي مستقر على أن أمر الله في العهد القديم ببناء الهيكل أمر لا رجعة فيـه، وفي حين يتضمن التلمـود البـابـلي آراء متضـاربـة حـول المسـألة، ويتمسـك الحبر راشي، أحـد حكماء العصـور الوسطى الكبار، بأن الهيكل يجب أن ينزل رأسـاً من السماء عنـدما يـأتي المسيـح المنتظـر، يقـول تلمـود القـدس إن اليهـود يمكنهم أن يشيدوا هيكلاً مؤقتاً إلى أن يبدأ عصر المسيح المنتظر.

وأشـارت المجلة إلى أن عـدة «منظمات» يهـودية في القـدس تعتبر مسـألة بنـاء الهيكل مسـألة مقضيـاً بهـا وأن تلـك المنظمـات، التي وصفتها المجلة بأنها «تتحاشى العنف»، آخذة بحماس زيلوتي بـالغ في الإعـداد لبناء الهيكـل الثالث بصرف النظـر عن الخلافـات في الرأي وحتمية ما سوف يثيره ذلك البناء للهيكـل من غضب إسلامي عـارم. وبهذا الخصوص، لاحظت المجلة أن تلك المنظمات الزيلوتية النشطـة في الإعـداد لبناء الهيكـل لم توضّـح ما الـذي ينبغي عمله بشـأن ما أسمتـه بـ «المـزارات» أو «الأضرحـة» ('shrines') الإسـلاميـة التي تحتل الآن تلك الأرض المقدسة، أي بشأن الحرم الشريف.

وفي إشارة مقتضبة إلى دور الأصولية المسيحية في المسألـة، قالت المجلـة إن «إعادة بنـاء الهيكل في مـوقعه الأصـلي يمثل أيضـاً فكرة حواذية متسلطـة لدى البـروتستانت الـذين يأخـذون بحرفيـة العهد القديم والذين يعتبـرون تشييد هيكـل جديـد شرطاً أسـاسياً مسبقـاً لتحقق المجيء الثاني للمسيح».

وفي تحقيقهـا، لم تشر المجلة بطبيعـة الحـال إلى محـاولات نسف المسجـد الأقصى في ١٩٧٩، و ١٩٨٠، و ١٩٨٤، و ١٩٨٥، ولم تذكـر أن من الخطط التي وضعت لنسف المسجـد خطط عسكريـة كـاملـة، منها خطة وضعها الضابط الإسرائيلي مناحم ليفني، أحد أعضاء كتلة المؤمنين، وقائد كتيبة مهندسين في «قوات الدفـاع»، وفي الوقت نفسـه

قائد وحـدة من وحدات الحـركة الـزيلوتيـة الإرهابيـة لمنظمة غـوش ايمـونيم. فقد تمكن ليفني من الحصـول على صـور استطلاع جـوي التقطت للموقع كله، ثم جند أحد الطيارين العسكريين واتفق معه على قصف المسجد والموقع كله من الجو. لكن السلطات العسكرية أوقفت التنفيذ لأن اشتراك أحد الطيارين العسكريين كان حريـاً بأن يكشف عن اشتراك حكومي في العملية. وعندمـا أوقف التنفيذ، وضـع ليفني خطة بديلة لهجوم برّي تقوم به وحدات مسلحـة برشـاشات العـوزي المزوّدة بأجهزة كاتمة للصوت، ومـزودة بكميات من المتفجـرات تكفي لنسف المسجد بشكل كـامل طبقـاً للخطّة التي روعي في وضعهـا ألا يتسبـب نسـف المسجـد في أيـة أضرار لحـائط المبكـى أو لبيـوت المستـوطنين اليهـود في الأحياء التي بـاتت تتحلق موقعـه. وقد تطلب ذلك بناء نموذج مصغر للمسجد وما حوله وإجراء تدريبات عسكريـة على عملية النسف استغرقت شهوراً بأكلمها.

وكما لم تشر المجلة الأمـيركية إلى شيء من ذلـك، لم تشر أيضاً إلى المستر يهودا إتزيون، الفيلسوف الأيديولوجي للزيلوت الجـدد، أو إلى وعظه جماعات «مؤمني الهيكل» بـوجوب النهـوض بواجبهم الـديني وإزالـة الحرم الشريف من الـوجود لأنـه مقام عـلى أنقـاض الهيكـل الثاني الذي هدمه الرومان، أو إلى نشاطه المتمثـل في الإعداد العمـلي لبناء الهيكل الثالث: وهو نشاط شمل الحصول على عدد من الدعامات الخشبية الضخمة التي يعتقد أنها استنقذت من أنقاض الهيكل سنة ٧٠ م. وخزّنت انتظاراً لاستخدامها تبركاً لتكون بين دعامات الهيكـل الجديد الـذي يعرض المؤمنـون نموذجـه المصغر من الآن في إحـدى قـاعات فندق «الأراضي المقدسة» بـالقـدس، والـذي تُعِـدّ «مؤسسـة الهيكل»، برئاسة الحاخام إسرائيل آريل رسومه الهندسية بنشاط.

لكن المجلة أشارت إلى أن الحاخام آريـل، كان من أوائـل المظليين الإسرائيليين الذين أنزلوا فاحتلوا «تل الهيكل» سنـة ١٩٦٧، وأوردت قول مديـر المعهد، المستـر زيف جولان، القـادم من أميركـا أن مهمة

«مؤمني الهيكل» تتمثل في «العمل على النهوض بقضية الهيكل والإعداد العملي لبنائه لا الاكتفاء بالتكلم عنه»، كما أوردت قول كبير الحاخامات السابق شلومو جورين، الذي يرأس منظمة أخرى لا عمل لها إلا الإعداد لبناء الهيكل أنه «لا يستطيع أن يفارق هذا العالم دون أن يؤمّن لليهود الصلاة مجدداً على تل الهيكل».

وفي النهاية، أشارت المجلة الأميركية إلى قول المؤرخ اليهودي ديفيد سولومون أن «كل يوم يمرّ على اليهود دون أن يبدأوا في بناء الهيكل يعتبر وصمة عار في جبين الأمّة اليهودية».

٧ أبناء النور والخطف والملكوت اليهو ـ مسيحي

«اننا لا ينبغي لنا أن نذرف دمعة واحدة عندما تحل الكوارث ببلدان العالم، ولا ينبغي أن نأسى ونتألم ونصيح «أليس هذا فظيعاً!» عندما نشهد تلك الفواجع. لأن ذلك ليس فظيعاً على الإطلاق، بل هو علامة، علامة مؤكدة على قرب خلاصنا وعلى الاتجاه الذي يسيّرنا فيه الله»!

هذه الكلمات تتردد باستمرار في مسامع المؤمنين المسيحيين الأميركيين. والذي يرددها ليس غولاً فاشيّاً أو وحشاً من وحوش الكوكلكس كلان، بل ذلك القسّ الوسيم الطيب الباسم دائماً الذي كان منذ وقت قصير للغاية يخوض معركة الانتخابات الأولية لترشيحات رئاسة الولايات المتحدة، والذي يمكن أن يفوز بمنصب الرئيس أو منصب نائب الرئيس في انتخابات مقبلة، فضيلة پات روبرتسون. وهذا الكلام الذي يردده باستمرار في مسامع الأميركيين ليس وحشية أو دعوة إلى الكراهية، بل هو «تديّن». فالقسّ الطيّب رجل مؤمن، وهذا الذي يتكلم به كلام قاله له ذلك الرجل المقدس، يوحنا اللاهوتي، الذي اختُتِم «العهد الجديد» من الكتاب المقدس برؤياه المفعمة بالقداسة الناضحة بالإيمان. وتلك الرؤيا تتوعد هذا العالم الضال الشرير المليء بأبناء الظلام بفترة من المحن والكوارث التي ستحيق بالعالم، فترة من الحروب المدمرة، والمجاعات، والطوفانات، وأشكال الافتراس الإلهي ستطول سبع سنين.

ولما كان فضيلة القس روبرتسون مؤمناً أصولياً، ومن المتوكّلين على يهوه بوصفه الملِك القائم بإدارة كل شؤون العالم، فإنه يعلَم عن يقين، ويعلّم المؤمنين الذين يرعى أرواحهم، أن كل تلك المجاعات والطوفانات (ولم نقل الفيضانات لأن المسألة متعلقة هنا بطوفانات كطوفان نوح) إنما هي مقدمات، علامات، إشارات إلهية يفهمها جيداً

من كان مطّلعاً على نوايا الله والطريقة التي ينوي أن يتعامل بها مع النوعين البشريين اللذين ظلا حتى الآن يزحمان سطح هذا الكوكب، نوع «أبناء النور»، ونوع «أبناء الظلام».

ومن المؤكّد أنه حتى إذا ما أثبت أحد للقسّ الطيّب أن لا طوفانات هناك، بل «جفافات» (جمع جفاف) من صنع الإنسان، وأن ذلك الذي هو من صنع الإنسان يتسبب في كل تلك المجاعات، وحتى إذا ما برهن له أحد على أن الحروب باتت تُشنّ الآن كنشاط موازٍ لنشاط إحداث المجاعات، فإن ذلك لن يزعزع إيمانه، لأن الله طبعاً لا يفعل كل تلك الأشياء بنفسه، بل يجعل البشر يفعلونها بأنفسهم، كيما «يتمجّد فيهم». فالذين تحدث لهم المجاعات وتُشَنّ عليهم الحروب أو يشنونها على أنفسهم، هم «أبناء الظلام»، أتباع الوحش وأهل مجمع الشيطان.

وليس هناك ما يخشاه «أبناء النور» -(المسيحيون الأصوليون المولودون ثانية، وآباؤهم الروحيون، اليهود) من كل تلك الكوارث والمحن التي ستظل تقع للعالم إلى أن يأتي اليوم العظيم المخوف، يوم واقعة هرمجدّون. وأبناء النور لا يخشون من ذلك كله شيئاً لسبب معروف للمؤمنين، وهو أن المسيح سوف «يخطفهم» قبل وقوع الكارثة، ويستبقيهم معه فوق السحاب إلى أن تستتب الأمور من جديد فيعيدهم إلى الأرض سالمين.

يصوّر العهد القديم الله تصويراً فريداً. فهو إله متآمر على البشر يتلخص مفهوم العدل، عنده، في البرهنة على أنه إله قوي وقادر يستحق أن يعبده «الشعب».

فالصورة مقلوبة في العهد القديم، لأن الألوهة هي التي تهرول في أعقاب العباد عاملة على الحصول على تقبّلهم لها، لا العكس. وهي صورة لا يمكن أن تكون مما يخطر ببال إله. لكنها مما يمكن أن يلجأ إليه كاهن يتوقف «ملء يديه» على تخويف مجموعة بشرية حرونة من

الإله الذي «يأكل عيشاً» من وراء التكهن له لدى «شعب» يصيبه ذلك التصوير للإله ذائباً في عشقه بجنون العظمة.

وفي سياق كهذا، لم يكن يمكن أن يكون الإله إلا صورة لكاهنه. ولذلك نجد الإله الذي صوّره الكهنة مؤلفو العهد القديم آخذاً طيلة الوقت في «تغليظ قلوب» البشر، كما ظل يفعل بقلب فرعون، كيما «يتمجّد فيه» وفي رعاياه، أي كيما يبرهن لمن أراد موسى جعلهم عباداً له أنه «يهوه المحارب رب الجنود» وأنه «لا إله آخر مثله»، حتى بعل صفون، معبود «الشعب» من قديم، أو مطلقاً على البشر «روحاً رديئاً» يضلّهم ويضيّعهم، كما فعل بشاول لأنه «ندم على أنه جعله ملكاً».

وفي رؤيا يوحنا اللاهوتي، نجد تلك الخصلة العبرانية السيّئة والمسيئة لمفهوم الألوهة من أساسه، متكرّرة بحرفيتها في «أرواح الشياطين صانعة الآيات التي تخرج من فم التنين، ومن فم الوحش ومن فم النبي الكذاب» لتنفّذ المخطط الإلهي القاضي باستدراج «ملوك العالم وكل المسكونة لتجمعهم لقتال اليوم العظيم» أي للمعركة الكبرى التي سيباد البشر فيها، «في الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدّون».

وكيما تُحبَك المؤامرة جيداً، يكلّف الإله ملاكاً فيسكب جامه على النهر الكبير، نهر الفرات، لكي يعدّ طريق الملوك الذين ستضلّهم الأرواح الشريرة لتستدرجهم هم وشعوبهم إلى مذبحة هرمجدّون بأن «تنشف مياه نهر الفرات»، كما سبق أن نشف يهوه مياه نهر الأردن أمام بني إسرائيل.

هذا الهذيان يأخذه في أواخر القرن العشرين أناس من مدّعي القداسة وهم يسرقون ويتبادلون الزوجات كالقس جيمي بيكر، ويضبطون في أوضاع مخجلة مع الساقطات في غرف الفنادق، كالقس جيمي سواجرت، ومدّعي التطبيب، ومدّعي «التكلم بالألسن»، فيستخدمونه في سياق عملية شاسعة من الاحتيال «المقدّس» ليسوقوا

به عشرات الملايين من أناس قد أُفرغوا من داخلهم فحوِّلوا إلى قواقع خاوية قد تبخّر منها حتى العفن صوب إعطاء المشروعية الديموقراطية لكل وأي شكل من أشكال الوحشية الممعنة في الخسّة التي تكفل لسماسرة جيزْز ما يتطلّعون إليه من سطوة وكسب.

في حديث متعجّل بين مارتين إيمس وفضيلة القس جيري فالول زعيم «الأغلبية الأخلاقية» الأميركية، قال فضيلة القسّ للمثقّف الانكليزي عندما سأله هذا الأخير عما إذا كان هدفه هو حيازة السلطة: «أنا أريد النفوذ، لا السلطة. لكنني أريد نفوذاً عالمياً. نحن هنا في أميركا لم يعد بوسعنا أن نشتري المزيد من ساعات الإرسال الإذاعي والتلفزيوني. لكننا سنتّجه إلى ذلك على نطاق عالمي. في أميركا الجنوبية، وأوروبا، وآسيا..». ولما سأله ايمس عما إذا كان يؤمن حقاً «بذلك الكلام»، قال له فالول «نعم، يا سيدي، أنا مؤمن به. بكل كلمة، حرفياً. من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا. وهو ما يعني أن حرباً نووية ستنشب حول أورشليم. ويومها ستدهش إسرائيل العالم، وتصبح روسيا قوة من الدرجة الرابعة»(٥٦) أي أن إسرائيل ستحتل مكانة القوة الأعظم التي كان يحتلها الاتحاد السوفياتي، فتُدهِش العالم.

ولكن، لماذا نهر الفرات؟ هناك تفسيران لتنشيف نهر الفرات تسهيلاً لعملية عبور الجيوش التي ستستدرج إلى معركة هرمجدّون، وهي معركة يؤكّد فضيلة القسّ فالول أنها ستكون حول القدس، وأنها ستكون نووية: التفسير الأول أن «الملوك»، أي القادة والرؤساء الذين سيستدرجون إلى تلك المذبحة مع شعوبهم وجيوشهم التي كرمل البحر عدداً سيأتون من «الشمال»، أي من مواطن الشعوب التي ذكرها يهوه لحزقيال على النحو الذي استوضحناه قبلاً (جوج أرض ماجوج الرئيس الرأس لماشك وتوبال) وهي شعوب من آسيا الصغرى، ويمكن بقليل من المطّ للمخيلة الأصولية أن تصبح «الاتحاد السوفياتي». ولما كان نهر الفرات الأعلى في منطقة أوطان

تلك الشعوب (تركيا الحالية) فإنه يمكن اعتبار تجفيف مياه الفرات كيما تعبره تلك الجحافل في طريقها إلى المعركة إشارة جغرافية إلى «الشمال» الذي انتظر متنبّئو العهد القديم مجيء الشرّ منه دائماً.

غير أن يوحنا اللاهوتي يقول إن أولئك الملوك الذين ستجمعهم الأرواح الشريرة التي سيطلقها يهوه عليهم سيأتون «من مشرق الشمس»، ثم يقول بعد ذلك بقليل إن «بابل العظيمة ذُكِرت أمام الله ليعطيها كأس خمر سخط غضبه» (١٦: ١٢ و ١٨). وقد قيل إن اللاهوتي استخدم اسم بابل كناية عن روما. لكن روما لم يكن موقعها الجغرافي عند مشرق الشمس ولم يكن يتعين عليها أن تعبر نهر الفرات. و«الممالك» التي عند «مشرق الشمس» كلها في عصرنا «ممالك» إسلامية. فهل ما يبشر به الأصوليون المسيحيون اليوم عن معركة هرمجدّون يدور حول «روسيا»، أم حول «ممالك مشرق الشمس» التي ستعبر جيوشها نهر الفرات؟

في كتابها «النبوءة والسياسة»، تقول الباحثة الأميركية جريس هالسِل التي عملت في البيت الأبيض كاتبة لخطب ليندون جونسون وخرجت من خبرة العمل في أجهزة الرئاسة الأميركية لتقوم بالبحث الذي استغرق سنوات وكانت ثمرته كتابها الباعث على الرعب، إن الأصوليين المسيحيين الأميركيين على أتم استعداد ـ بل راغبون بكل قواهم في إشعال نيران حرب نووية بشأن إسرائيل، تحقيقاً لـ «النبوءات المقدّسة».

وقد وصلت الباحثة إلى تلك النتيجة عبر لقاءات متتالية مع «نجوم» المسيحية الأصولية الأميركية التي ـ لأسباب لا تخفى ـ بات اسمها الحركي في اللغة السياسية الأميركية «اليمين المسيحي»، تماماً كما استخدمت المصطلحات الأيديولوجية قبل سنوات في إطلاق المسميات على طرفي الحرب الأهلية في لبنان: «اليمين المسيحي» و«اليسار المسلم». وفي حالة المسيحية الأميركية، استمدت صفة «اليمينية» من الانتماء السياسي للأصوليين بشكل عام إلى الحزب

الجمهوري، ومن الانتماء الديني للعبرانية، باعتبار ذلك الانتماء ضرباً من «التدين المحافظ».

خلال لقاءاتها بالأصولية، مرّت الباحثة بخبرات سجّلت من واقعها كمّاً وفيراً من المعلومات التي تلقي الضوء من أكثر من زاوية على موضوع البحث وهو فعل الدين ـ كما هو ممارَس في أميركا ـ في صنع وتكييف وتوجيه الدور الأميركي بخاصة والغربي بعامة فيما يخص مسيرة المشروع الصهيوني، ونوعية ذلك الفعل وما يمكن أن يفضي إليه من آثار بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط والعالم.

إلا أنه يحسن، قبل تناول تلك المعطيات أن نتوقف عند ما تدعوه الباحثة بـ «الدعم المسيحي من القاعدة الشعبية الأميركية لإسرائيل»[٥٧].

طبقاً لمسح قام به الأصوليون الانجيليون أنفسهم وقُدِّم للزعامات الإسرائيلية والأميركية، تعمل في الولايات المتحدة ٢٥٠ منظمة إنجيلية ممالئة لإسرائيل تمارس ـ في خدمة المشروع الصهيوني ـ أنشطة مختلفة تشمل «اجتماعات الحثّ على العمل المشترك تضامناً مع إسرائيل»، و«اجتماعات التوعية بإسرائيل» وهي اجتماعات تعقد في الكنائس البروتستانتية، بالإضافة إلى تنظيم الأفواج السياحية إلى إسرائيل، ونشر المطبوعات التبشيرية، وعقد المؤتمرات لدراسة النبوءات، وتنظيم عمليات الدعم اللاهوتي المسيحي لإسرائيل، كما أن بعض تلك المنظمات ينخرط في أنشطة الدعم السياسي المباشر عن طريق مختلف تكتيكات اللوبي، كحملات الرسائل البريدية، والحملات عن طريق وسائط الإعلام، ونشر الإعلانات المؤيدة لإسرائيل والمدافعة عن سياساتها[٥٨].

في دراسته عن دور اللوبي الإسرائيلي في صنع السياسة الأميركية، يقول الباحث الأميركي ادوارد تفنان[٥٩] إن الإسرائيليين، عندما يتحدثون عن اتّساع نطاق الدعم الجماهيري الأميركي، يفعلون ذلك وفي أذهانهم:

«ملايين البروتستانت الأصوليين الأميركيين الذين يدعمون إسرائيل عن إيمان كامل بأن دعم أميركا لإسرائيل هو السبيل الأساسي لبقاء أميركا السياسي والروحي. فالتزام أولئك الأميركيين بالدولة اليهودية منبنٍ على أساس راسخ من الإيمان بأن إعادة إنشاء تلك الدولة يعتبر تحققاً للنبوءات التوراتية. وما أكثر البروتستانت الذين يؤمنون عن يقين بأن اليهود هم «شعب الله المختار». وهكذا فإن المتطلّعين إلى مجيء العصر الألفي السعيد من أولئك المؤمنين يدعمون ضم الضفة الغربية (وكل أرض تكمِّل إسرائيل بحيث تصبح أرض إسرائيل التوراتية) باعتبار ذلك الضمّ مفضياً إلى المجيء الثاني للمسيح.

«ولقد احتضن بيغن نفسه «الصهيونيين المسيحيين» كما يدعون أنفسهم، ومتّن العلاقات معهم عندما أنعم على زعيم من أظهر زعمائهم، وهو قائد «الأغلبية الأخلاقية» جيري فالول، بوسام جابوتينسكي(*)، الذي لا يُمنَح إلا لمن يقدمون خدمات جليلة لإسرائيل.. ورغم أن بيغن (بحرصه المعهود) عمد عندما أشاد بفالول قائلاً إنه «الرجل الذي يمثل ٢٠ مليوناً من المسيحيين الأميركيين في بلد لا يوجد به إلا ستة ملايين من اليهود»، فإن الأصوليين البروتستانت في أميركا قد يبلغ عددهم ٥٠ مليوناً. إلا أن أفضل التقديرات هو ما يمكن أن يستمد من تقديرات شبكات التلفزيون لأعداد مشاهدي البرامج الدينية التي يبثها فالول وغيره من الوعاظ التلفزيونيين الأصوليين أمثال جيمي سواجرت، وجيمي بيكر، وأورال روبرتس، وبات روبرتسون. وطبقاً لمسح نيلسن الذي أجري سنة ١٩٨٥، يدخل التديّن المسيحي الأصولي، تلفزيونياً، **٦١ مليوناً من البيوت الأميركية، علماً بأن المسح لم يتناول إلا العروض الدينية التلفزيونية العشرة الأكبر من مجموع ٦٢ عرضاً تلفزيونياً دينياً تبث على نطاق الولايات المتحدة من**

(*) فلاديمير جابوتنسكي، الإرهابي الصهيوني المعروف والسلف الفكري والروحي لمناحم بيغن وحزب حيروت. والانعام بوسام جابوتينسكي على فضيلة القسّ فالول، وقبوله للوسام بقدر كبير من الاعتزاز له مغزىً يتمثل في التصديق المسيحي الأصولي على الموقف الذي يسمى أميركياً، على سبيل التخفيف وإضفاء المشروعية والاحترام، بالموقف الصهيوني القومي الفائق ultra nationalist!

> اقصاها إلى اقصاها. والمعروف أن شبكة بات روبرتسون الإذاعية التلفزيونية المسيحية تدخل ٢٧ مليوناً من البيوت الأميركية، وأن أنشطة فالول الدينية تدرّ ١٠٠ مليون من الدولارات في العام، في حين يجمع جيمي سواجرت من التبرعات سنوياً ما يصل في المتوسط إلى ١٤٠ مليوناً من الدولارات. وكل هذه الأرقام تشير إلى جمهور (أوسع بكثير مما أشار إليه بيغن) يرجّح أنه يصوّت انتخابياً كما يوجهه وعاظه»[٦٠].

ويتعين، حتى تتضح الأبعاد الحقيقية لما يوصف بـ «الدعم» (بدلاً من «الاندماج» أو «التوحّد») المسيحي الأصولي للدولة اليهودية وسياساتها ومطامع الحركة الصهيونية، أن نتوقف عند الأمثلة التي أوردتها الباحثة هالسِل من المنظمات المسيحية البالغ عددها ٢٥٠ منظمّة «داعمة» لإسرائيل[٦١] :

* «مؤتمر القيادات المسيحية الوطني لإسرائيل»، ويرأسه البروفسور فرانكلين ليتل، المسيحي الصهيوني والأستاذ بجامعة الهيكل بولاية بنسلفانيا، وهو من قساوسة الكنيسة المنهجية الأميركية شديدي التحمّس ليهوديتهم. فالبروفسور الأميركي يؤمن إيماناً لا يطاوله شك بأن «كون المرء مسيحياً يعني أنه يهوديّ» وبأن الواجب الأول لكل مسيحيّ هو أن يضع دعم «أرض إسرائيل» فوق كل وأيّ اعتبار آخر. وتقول هالسِل إن البروفسور يبني تفانيه في حبّ إسرائيل على الهولوكوست. وقد كان «مؤتمر القيادات المسيحية الوطني» من أشد المنظمات حماساً لدعم الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢ بأنشطة مختلفة منها نشر إعلانات «التضامن المسيحي مع إسرائيل» على صفحات كاملة من الصحف الأميركية الكبرى، كالواشنطن بوست والنيويورك تايمز، اتهم المسيحيون الأميركيون فيها كلّ من لا يدعم إسرائيل بمعاداة الساميّة. وكما لاحظت الباحثة، لم يبد أولئك المؤمنون أيّ اهتمام لما تعرض له البشر من مسلمين ومسيحيين في لبنان وفي الشرق الأوسط بعامة، باستمرار، من كوارث في سبيل «أمن إسرائيل».

ومن الملاحظ باستمرار، حيثما أمكن الكشف عن وجودهم، أن **عملاء راقدين (sleepers) يهوداً** يقومون بأدوار نشطة للغاية في مثل هذه المنظّمات «الدينية» المسيحية (كما في مجالات أخرى كثيرة). وفي «مؤتمر القيادات المسيحية»، أشارت هالسل إلى دور المستر اسحق روتنبرغ، الذي اعتنق المسيحية من خلال **الكنيسة الهولندية الاصلاحية البروتستانتية**. فالمستر روتنبرغ يشغل منصب المدير التنفيذي للمنظمة ويهتم أساساً بتنظيم علاقاتها بمنظمة «**السفارة الدولية المسيحية**» في القدس لتضفي مشروعية دينية على ضم القدس واتخاذها عاصمة للدولة اليهودية. **ومن أقوى الداعمين للسفارة الدولية المسيحية قساوسة أصوليون كبار من الأتقياء، كفضيلة القس جيمي بيكر (الذي يقضي حالياً السنوات الأولى من الحكم بسجنه ٤٢ عاماً)، وفضيلة القس پات روبرتسون، الذي يوجد احتمال قوي، كما أسلفنا، بدخوله البيت الأبيض في انتخابات قادمة، رئيساً أو نائباً للرئيس**، وفضيلة القس كريسوِل، أحد كبار قساوسة كنيسة دالاس المعمدانية الأولى.

* «**المؤتمر المسيحي الوطني**»، وقد أُفرِخ ذلك المؤتمر من رحم «مؤتمر القيادات المسيحية الوطني لإسرائيل» أيام الهياج الذي أحدثته المنظمات الموالية لإسرائيل بشأن بيع طيارات الأواكس للمملكة السعودية، باعتبار أن تلك الطيارات تشكل تهديداً خطيراً لأمن إسرائيل. ووقتها انبرى القس المنهجي فرانكلين ليتل، الذي أعلن أن تشكيل «المؤتمر المسيحي الوطني» استهدف توحيد الطوائف المسيحية ومنظماتها في سياق انشغالها بأمن إسرائيل وسلامة الوطن اليهودي، فقرر أن بيع تلك الطائرات «شكل أخطر لحظة في تقويم البقاء الإسرائيلي».

وتذكر الباحثة أن النائب الجمهوري جاك كِمب (الذي كان من المتسابقين على الترشيح لانتخابات الرئاسة إبان المعارك الأولية قبل اختيار جورج بوش مرشحاً عن الحزب الجمهوري)، أعلن في حفل

افتتاح «المؤتمر المسيحي الوطني» الذي لم يؤمّه الأصوليون فحسب، بل وحضره ممثلون عن كل من «**المؤتمر الوطني لأساقفة الكنيسة الكاثوليكية**» و«**المجلس الوطني للكنائس**»، أن إنشاء الدولة اليهودية سنة ١٩٤٨ كان «**تحقيقاً للنبوءة التوراتية**»، وأكد أنه بوصفه «دارساً جاداً للكتاب المقدس، يؤمن إيماناً عميقاً **بأن واجب الولايات المتحدة المقدس هو أن تؤمِّن لإسرائيل كل فرصة لتحقيق كل نبوءة من نبوءات التوراة**». فلاعب الكرة السابق الذي دخل مباريات السياسة أوضح أنه «بوصفه دارساً للكتاب المقدس، أي للعهد القديم»، يرى أن على أميركا أن تمكّن إسرائيل من تحقيق نبوءات التوراة وتعاقداتها، وأهمها وأخطرها حيازة الشعب المختار لكل تلك الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات.

* «**المسيحيون المتّحدون من أجل أمن أميركا**»، وهي منظمة ظهرت أيضاً على عباب مسألة طائرات الأواكس، وأعلنت عن دخولها الساحة بسلسلة من الإعلانات بحجم صفحات كاملة بالصحف الأميركية حاملة توقيعات كبار نجوم «الدين» الأميركيين كالقس جيري فالوِل، جنباً إلى جنب مع عدد من أساقفة الكنيسة الكاثوليكية.

* «**منظمة تاف للقساوسة الانجيليين**» و«تاف» هو الحرف الأخير من الأبجدية العبرية، وربما اختاره القساوسة الانجيليون إسماً لمنظمتهم إفصاحاً عن وضعهم كـ «ذيل» تحرّكه الصهيونية، بعقلية كلاب لوثر القابعة تحت المائدة. وفي أساس الإيمان الذي تروّجه المنظمة ويعظ به أعضاؤها، نجد هذه الأهداف التي أوجزها أحد كبار المنظِّرين «الايديولوجيين» للحركة الأصولية الأميركية، هال ليندسي، صاحب الكتاب الذي خلب لب رونالد ريغان، الرئيس الأميركي السابق، فحفظه عن ظهر قلب، كما خلب ألباب عشرات من الأميركيين «الذين جعلهم ريغان يمشون طوالاً رافعي الرؤوس»:

«إننا يجب أن نكون محددين تماماً فيما نقوله عن إسرائيل بوصفها من علامات الساعة. ففيما يخص دور إسرائيل في المصير

المحدد للأرض هناك ثلاثة أشياء يجب أن تحدث: **أولها أن تولد الأمة اليهودية من جديد على أرض فلسطين**، وثانيها أن **يستعيد اليهود كل أورشليم وكل المواقع المقدسة فيها** (وأولها تلّ الهيكل)، وثالثها أن **يعيد اليهود بناء هيكلهم المقدس على موقعه التاريخي (الأرض المقام عليها المسجد الأقصى)**.. وأياً كانت العقبات، **من المقطوع به أن الهيكل سيعاد بناؤه حيث يجب أن يقام**»[٦٢].

* «**الائتلاف المسيحي ـ الأميركي لصون القيم التقليدية الأميركية**»، وقد شُكِّل هذا الائتلاف على غرار منظمة «آيباك» (اللجنة الأميركية الاسرائيلية للشؤون العامة)، وهي المنظمة المَظلَّة الجامعة للمنظّمات اليهودية الأميركية التي يطلق على مجموعها اسم «اللوبي الاسرائيلي». فالائتلاف المسيحي أنشىء في الواقع ليكون الذراع المسيحية لآيباك وصنواً لها، أي مظلّة لمكونات ما يمكن أن يطلق عليه اسم «اللوبي المسيحي ـ الصهيوني». ويرأس الائتلاف واعظ أصولي من سان دييغو، لكن نجومه الكبار هم قادة التيار الأصولي، جيري فالول، وپات روبرتسون، وجيمي بيكر، وجيمي سواجرت. وهدف الائتلاف تجييش الجماهير المسيحية الأميركية العريضة، (١) في تيار الدعم الأصولي لإسرائيل، و (٢) في مسيرة الأصوليين إلى البيت الأبيض تحت راية «صون القيم الأميركية الأصيلة»، من خلال قيام تلك الجماهير على أوسع نطاق ممكن بواجبها الانتخابي.

ويوضّح لنا فضيلة القسّ جيري فالول، ألمع نجوم الأصولية الأميركية، الطريقة الوحيدة التي يمكن لأميركا أن تحافظ بها على قيمها وتؤمّن استمرار رخائها وحريتها:

«إن كانت هذه الأمّة الأميركية تريد أن تظل حقولها مثمرة بالزرع، ومعاملها سباقة إلى تحقيق المنجزات العلمية، وحريتها مكفولة مؤمّنة، فإن عليها أن تواصل الوقوف صفاً واحداً مع إسرائيل. فالله لم يبارك أميركا إلا لأن أميركا باركت اليهود، شعبه المختار»[٦٣].

وحتى لا نتصور أن الرجل انجرف على عباب الحماس، أو قال ذلك لأن حكومة إسرائيل أنعمت عليه بوسام جابوتنسكي، وأهدته طائرة خاصة يستخدمها في انتقالاته حتى لا يكون أقل من رئيس الولايات المتحدة الذي يخصص له سلاح الطيران الأميركي طائرته «إيرفورس وَنْ»، يجب أن نلقي بالاً إلى الأقنوم الثاني من أقانيم الإيمان المسيحي الأصولي الأميركي (وهو الثاني بعد الإيمان بحتمية المجيء الثاني). ذلك الأقنوم هو الإيمان باليهود جملةً بوصفهم «شعب الله المختار»، ومن خلال ذلك الإيمان عبادة إسرائيل (إسرائيل الدولة مخلوطة بإسرائيل الأمة مخلوطة بإسرائيل القديمة أو التوراتية). والواقع أن ذلك الإيمان بكون اليهود شعب الله المختار وتلك العبادة لإسرائيل لم يقتصرا على الأصوليين وحدهم، بل هما من أسس الإيمان الأميركي. وليس أدلّ على ذلك من أن:

> «أحب الاستشهادات إلى قلوب المسيحيين الصهيونيين، الاستشهاد الذي لا يملون من تكراره من سفر التكوين (١٢: ٢ و ٣)، وهو الذي يعلن فيه الله أنه سيجعل إسرائيل أمة عظيمة يباركها ويعظّم اسمها ويجعلها بركة ويبارك مباركيها ويلعن لاعنيها وتتبارك فيها جميع قبائل الأرض».

وحقيقة الأمر أن يهوه، إن كان قد قال ذلك لأبراهام، قاله عندما أوعز إلى أبراهام أن يذهب إلى أرض كنعان على سبيل الترغيب من خلال وعده إياه بأنه إذا ذهب فإنه سيجعله أمة عظيمة.. إلخ (تكوين: ١٢: ١) إلا أن الأصوليين يرون أنه بما أن الكلام قيل لابراهام فلا بد أن يهوه، قبل ٣٩ قرناً، قصد به دولة إسرائيل التي أوجدتها أميركا الآن على أرض فلسطين.

* وغير هذه المنظمات المسيحية الأصولية، التي أوردنا أسماءها كمجرد أمثلة، يوجد العديد من منظمات أخرى مسيحية متخصصة

في دعم إسرائيل وترويج عبادتها بين المؤمنين الأميركيين، كمنظمة «**المائدة المستديرة الدينية**»، ومنظمة «**الصوت المسيحي**»، ومنظمة «**الإذاعيين الدينيين**»، وعشرات غيرها.

الذي لا شك فيه أن الإيمان الديني سلاح ماضٍ، وبخاصة في تشكيل مواقف واعتقادات شعب «طيب» كالشعب الأميركي شديد الاعتداد بسموه الروحي وقويّ الإيمان بـ «رسالته» التي وضعتها العناية الإلّهية على كاهله. ولقد كانت هذه دائماً حقائق «أميركية» عرفها وأجاد استخدامها الساسة ورجال الأعمال وصنّاع الرأي الأميركيون. وبطبيعة الحال يعرفها ويجيد استخدامها سماسرة جيزَزْ الصالحون الطيّبون أمثال القس جيمي بيكر والقس جيمي سواجرت والقس بات روبرتسون والقس جيري فالول. وإن لم يكن فالول يعرفها ويجيد استخدامها، فكيف أمكنه أن يؤكِد للإسرائيليين في كلمة ألقاها على جمهور إسرائيلي أن «**اليوم الذي سيستحيل فيه انتخاب أي مرشح غير موال لإسرائيل لأي منصب في الولايات المتحدة يقترب بسرعة**»؟[٦٥]

وفالول يعرف ـ من خبرته المباشرة المستمدة من دور «أغلبيته الأخلاقيَة» في إنجاح رونالد ريغان مرتين متتاليتين في انتخابات الرئاسة الأميركية ـ مدى ما يمكن تحقيقه من ضخ الصنف الذي يروّجه هو وبيكر وسواجرت وروبرتسون وعشرات غيرهم من سماسرة جيزَزْ من «التديّن» في أدمغة الأميركيين.

ولعله من الفاتح للعينين أن أولئك الأميركيين الطيبين الذين يموتون شوقاً إلى من يردم لهم الهوة الفاغرة في الروح بأي «بضاعة» روحانية حسنة التغليف، أعول الآلاف منهم عويلاً منكراً وبدوا كالأيتام الذين فقدوا أباهم عندما افتضح أمر الرجنيش الهندي الذي نصب عليهم باسم «الروح» فهرب آخذاً معه كل ما استطاع أخذه من أموالهم التي أغدقوها عليه عن طيب خاطر. ولم يكن عويلهم حزناً على ما ابتزه «الفقير» الهندي منهم، بل على ما لحق بهم

من يُتّم لأنه غاب عنهم. وقد حدث الشيء نفسه على نطاق أضخم عندما افتضح القس المبجل جيمي بيكر وتبين أنه كان يمارس الجنس مع سكرتيرة الكنيسة في الأماكن «المقدسة» ويسرق الملايين من نقود «المؤمنين» ويقيم حفلات القصف والعربدة الجنسية وتبادل الزوجات داخل الأبنية التابعة لـ «كنيسته»، إذ أعول ملايين الأميركيين والأميركيات المؤمنين من «خراف يسوع» التي كان يرعاها القس بيكر، وصلّوا من أجله، وطلبوا المغفرة له من الله ومن المحكمة وتظاهروا من أجله، ووجدت زوجته السيدة تامي بوسعها أن تقف خارج مبنى المحكمة وسط جماهير «المؤمنين» مرتّلة المزامير منشدة والجماهير معها «أننا سوف نسود (We shall prevail)! والمهزلة المأساوية نفسها تكررت بحرفيتها عندما افتضح القس جيمي سواجرت فبكى أمام الميكروفون قائلاً «لقد أسأت إليك يا إلهي»! (فهل كان يعني «لقد أسأت إليك يا إسرائيل»؟) ولحظتها بكى المؤمنون معه بحرقة وتوسلوا إليه ألا يتركهم. ولذلك، وعلى الرغم من كل الاعتراضات التي يثيرها اليهود المؤمنون المتمسكون بالعقيدة بشأن أولئك المسيحيين المتهوسين الذين يتطلعون إلى إخراجهم من يهوديتهم وجعلهم وثنيين مثلهم، يعنى قادة الحركة الصهيونية عناية خاصة بتمتين علاقات حركتهم بأولئك المسيحيين المفيدين:

«فعشرات الملايين من الصهيونيين المسيحيين لهم جدواهم بغير شك. إلا أن هناك مشكلة كبرى فيما يتعلق بمثل هذه الوصلة الصهيونية: ففيما يخص الأصوليين المسيحيين، لا تشكّل إسرائيل الكبرى (من النيل إلى الفرات) إلا وسيلة إلى غاية. وتلك الغاية هي المجيء الثاني للمسيح. والخطوة التالية (لإنشاء إسرائيل الكبرى) على جدول أعمال الأصوليين الأميركيين هي تحويل اليهود إلى المسيحية. إلا أن هذه النقطة اللاهوتية مسألة تفضّل كل القوى الممالئة لإسرائيل في أميركا وكل الليكوديين (نسبة إلى الليكود) تجاهلها. ومنطق ذلك التجاهل هو ما عبّر عنه الوزير الإسرائيلي موشه آرينز بتساؤله، رداً على سؤال وُجّه إليه بخصوص هذه

المسألة في مقابلة صحفية أجريت معه في ٢٣ أكتوبـر ١٩٨٤: «وما المفروض أن نقوله لكل تلك الملايين من البروتستانت الأميركيين التي تؤيد إسرائيل بكل هذه القوة؟ هل المفروض أن نقول للبروتستانت لا تؤيدونا؟».. أما ناتان برلموتر رئيس رابطة مكافحة التشهير التابعة لبناي بريث، فاكتفى ـ على سبيل الإيجاز ـ بالقول الأميركي المشهور «احمد الله، وناولني الذخيرة» (Praise the Lord and pass the ammunition) والحقيقة أن براغماتية الإسرائيليين فيما يتعلق بالوصلة الصهيونية ـ المسيحية شارفت الكلبية (cynicism). ويوضح ليني ديفن، رئيس قسم البحوث بمنظمة أيباك سابقاً وصاحب شركة استشارات سياسية في القدس حالياً، وجهة نظر الكثيرين من كبار الصهيونيين اليهود في الائتلاف البروتستانتي اليهودي، فيقول «طبعاً. هؤلاء الناس (البروتستانت) يجعلون جسد المرء يقشعر وكل ذلك. ولكني سأظل ـ حتى أرى جيزَزْ (مسيح المسيحيين) قادماً من فوق التل ـ أرحب بكل صديق يمد يده إلى إسرائيل» ورغم أن ليني ديفيز لم يقلها صراحة، تظل هناك في وجهة النظر البراغماتية هذه شظية هامة مدفونة في البراغماتية الظاهرية من أصوليات الايديولوجية الصهيونية، وهي أنه إذا ما ساءت الأمور حقاً بالنسبة لليهود الأميركيين (وبدأ أولئك البروتستانت المتهوسون يأخذون مسألة تحويلهم إلى المسيحية مأخذاً جدياً) فلا شك أن ذلك سيكون كفيلاً بجعلهم صهيونيين صالحين ويدفعهم للهجرة إلى إسرائيل»[٦٦].

فالصهيونية ـ المسيحية، كما نرى، مكسب للصهيونية ـ اليهودية على الوجهين. ولذلك ـ وبالتجاهل لكل الأصوات الناضحة بالألم والاستفظاع التي ترتفع من جانب الأصوليين اليهود ضد ذلك الائتلاف المرحلي مع الأصوليين المسيحيين، تحتضن المؤسسة الصهيونية بكل حرارة أولئك الحلفاء، وتأميناً لاستمراريتهم، تزرع في وسطهم عدداً لا يستهان به من العملاء الراقدين (sleepers)، من اليهود الذين «رأوا النور» كما رآه شاول قبلاً فغير اسمه إلى بولس[٦٧]، وأصبحوا مسيحيين متحمسين. وقد «وصل» عدد كبير من

أولئك الناس فأصبحوا قساوسة في مختلف الكنائس الأميركية ليقوموا من فوق منابرها بـ «هداية» المؤمنين.

ومن أشهر هؤلاء وأنشطهم على الساحة الأصولية الأميركية القس مايك إيفانز اليهودي الذي «رأى النور» واعتنق المسيحية وبات نجماً من نجوم الصهيونية ـ المسيحية ـ الانجيلية. و«الهداية» التي يوفرها القس إيفانز لجمهور «كنيسته» يوماً بعد يوم تتمثل في هذا القول الذي لا يكلّ من ترديده: «**ان إسرائيل هي مفتاح بقاء أميركا**». وقد جعل الرجل ـ زيادة في التأكيد ـ شعاره هذا عنواناً لبرنامج تلفزيوني مدته ساعة كاملة أذاعته وتواصل إذاعته محطات التلفزيون في ٢٦ ولاية أميركية بالإضافة إلى شبكة الكيبل المسيحية للبث التلفزيوني.

ومن أنشطة القس الأصولي ايفانز، يتراءى كما لو كانت الديانة التي انتمى إليها مؤخراً لم تظهر أصلاً إلا لترويج الدعاوى الصهيونية. فبجانب برنامجه الذي يبين للأميركيين كيف أن إسرائيل هي مفتاح البقاء لأميركا، يذيع القس برنامجاً عنوانه (بالشطارة اليهودية المعهودة) «Jerusalem D.C.» على غرار تسمية العاصمة الأميركية «Washington D.C.». غير أن الـ D.C. في ذيل يروشلايم، في فيلم القس ايفانز تعني (David's Capital) أي عاصمة داود.

«وتصور هذه البرامج التلفزيونية والأفلام إسرائيل في صورة براقة شديدة التألّق، فتسلط الضوء على ما أحرزته من نجاحات وعلى ما باتت تتمتع به من قوة، مع الإغفال التام لأي ذكر لخلافاتها الدينية ومشاكلها الاقتصادية وصراعاتها مع السكان الفلسطينيين. فالتركيز كله على النبوءات الواردة في العهد القديم بشأن عودة اليهود إلى فلسطين والحاجة إلى تقديم كل دعم ممكن لإسرائيل تأميناً لحصول الولايات المتحدة على البركة التي يتمخض عنها تقديم ذلك الدعم. ومن البرامج الدعائية الصهيونية الفعالة الأخرى برنامج جيري فالول المعنون (Old Time Gospel Hour) والبرنامج الذي كان يقدمه جيم وتامي بيكر تحت اسم «نادي

الحمـد لله (PTL Club) إلى أن انتهى ذلـك النادي نهـاية أسيفـة بالقبض على القس بيكر»[٦٨].

ولقد يبدو، والمرء يتحدث عن هذا النوع القميء من تسخير الدين لمـآرب مفضوحـة، كما لـو كان الأمـر منحصـراً في استخـدام بعض «الشطـار» للـدين في التـلاعب بعقـول عـامـة النـاس أو مـا يسمى بـ «الجماهير العريضة» التي يسهـل أن تقاد من الخطم وهي تخـور ملتذّة.

غـير أن الأمر ليس كـذلك. فـالأمر هنـا متعلق بـ «روح أميركـا». بإيمانها الديني الذي أقنع الأمـيركيون أنفسهم وأقنعهم قـادتهم من قديم، وطيلة الـوقت، بأنـه التديُّن الحق الـذي «على أصـوله» وبـأنه السبب في علوّ أميركا وتفوّقها ورخاء شعبها لأنه «يلهم» كـل توجهـات أميركا ويهديها باستمرار إلى ما يتعيّن عليها أن تفعله لشعبها وللعالم أجمع.

و«يلهم» تـوجهات أمـيركا هـذه لا مؤدى لهـا إلا أن ذلـك الضرب الأميركي للغاية من «التديّن» هو الذي يلهم رؤساء أميركـا ومشرعيها وقادتها وصنـاع القرار فيها.

ولا حاجة بـأحد إلى من يـذكّره بـأن الرئيس الطيب الخـيّر جيمي كارتر ـ تمـاماً كمـا وصفه الـرئيس المصري الهمام أنـور السادات ـ «رجل متدين»، بـل شديـد التديّن. فهـو من المعمدانيـين «المولـودين ثانية»، أي من صميم التيـار الأصولي الـذي يلمع في سمـائه جـيري فالول، وروبرتسون، وبيكر، وسواجـرت، و«القس الانجيلي اليهـودي» مايك ايفانز، وكل أولئك القساوسة والـوعّاظ الطيبـون الذين يعلّمـون الشعب الأميركي صباح مساء أن إسرائيل هي «مفتاح بقاء أميركا».

وليس جيمي كارتر وحـده على تلـك الساحـة. فالـرئيس الأميركي السابق رونالد ريغان، والرئيس الأميركي الحـالي الذي خلفـه، جورج بوش، من المسيحيين الأصوليين المولودين ثـانية. وأيـام كان جـورج

بوش نائباً لريغان، كان النجم السياسي في اجتماعات «القس الانجيلي اليهودي» مايك ايفانز[٦٩]. وليس هناك ما يعطي أحداً الحق في أن يفترض في المستر بوش أنه كان يحضر بشخصه تلك الاجتماعات نفاقاً أو مجاملة، فالرجل أرفع من ذلك أخلاقياً بكثير، ولا بد أنه ظل يحضر تلك الاجتماعات بدافع قوي من إيمانه الديني وقناعاته الأخلاقية. فتماماً كما كان الرئيس الكاثوليكي جون كندي يؤمن بأن يهوه هو الذي يحمي أميركا ويسهر على أمنها ولا ينام، مردداً المزمور الذي يقول «لا ينعس حافظك. إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل. الرب حافظك. الرب ظل لك عن يدك اليمنى.. الرب يحفظك من كل شر يحفظ نفسك. الرب يحفظ دخولك وخروجك من الآن وإلى الدهر (يا أميركا)» (المزمور ١٢١) يؤمن رؤساء أميركا المؤمنون، كما آمن أسلافهم، بما يلقنهم إياه مرشدوهم الروحيون الأصوليون من تعليمات يهوه بـ «الحرص على سلامة أورشليم» «والذود عن إسرائيل» ووعوده لمحبيها بالسلام والراحة والمنعة التي يتغنى بها المزمور ١٢٢.

وإن شئنا دليلاً على مدى تأثير هذه «المسائل» في أدمغة الرؤساء الأميركيين، فلنعد إلى مشكلة ليبيا مع رونالد ريغان، وحتى نقف على جذور المسألة نرجع إلى الخريطة الواردة بالشكل ٣. ففي ضروب الهذيان التي امتلأت بها أدمغة المتنبئين والعرافين اليهود واكتظت بنتائجها صفحات العهد القديم، كان هذيان عن «لهابيم» (ليبيا الآن) وكيف أن لهابيم هذه من الأمم الكثيرة التي ستزحف جيوشها على أورشليم المدينة المحبوبة وعلى أرض إسرائيل حيث أمة القديسين. وحقيقة أن كل تلك الجيوش سوف تباد إبادة تامة في وادي مجيدّو حيث ستدور رحى معركة هرمجدّون، إلا أن ذلك سيكون في «آخر الأيام». ولذا، فإن الرئيس الأميركي رونالد ريغان لم يجد لديه من الصبر ما كان حرياً بأن يمكنه من ترك ليبيا لمصيرها المحتوم في «آخر الأيام»:

«في مطلع سنة ١٩٨٦، احتلت ليبيا مكانة العدو الدولي رقم واحد عند رونالد ريغان. فهل كان لذلك ارتباط بتفسيره للنبوءات الواردة في العهد القديم؟ طبقاً لما يقوله جيمس ميلز، الرئيس المؤقت السابق لمجلس ولاية كاليفورنيا التشريعي، نشأت كراهية ريغان لليبيا من كونه اعتبرها أحد أعداء إسرائيل المتنبأ بهم في العهد القديم واعتبرها ـ بذلك ـ عدوّة الله. ففي حديث صحفي أجرته معه «سان دييغو ماغازين» ونشرته بعددها الصادر في أغسطس ١٩٨٥، يقول ميلز إن ريغان انتحى به جانباً أثناء حفل عشاء ببلدة ساكرامنتو بولاية كاليفورنيا التي كان ريغان حاكماً لها وقتئذ، وأخذ يتحدث إليه عن النبوءات الواردة بالكتاب المقدس وعن حتمية نشوب حرب مع الاتحاد السوفياتي، لأن السوفيات هم «جوج وماجوج المذكوران في الكتاب المقدس»، ستكون آخر حرب كبرى يشهدها العالم، وأن ريغان، وهو يقول له ذلك استدار إليه وقال له «باحتدام متّقد»: «في **الاصحاح ٣٨ من سفر حزقيال** إن أرض إسرائيل ستتعرض لهجوم تشنه عليها جيوش الأمم الكافرة، وإن ليبيا ستكون من بين تلك الأمم. فهل تدرك مغزى ذلك؟ مغزاه أن كون ليبيا قد أصبحت الآن شيوعية هو علامة على أن يوم هرمجدّون لم يعد بعيداً»[٧٠]!

فالذهن النيّر للرئيس الأميركي الهمام فكّر هكذا: «النبي» حزقيال تنبأ بأن الأمم الكافرة جوج وماجوج ستهاجم بجيوشها أرض إسرائيل. والاتحاد السوفياتي وحلفاؤه هم جوج وماجوج. وليبيا من الأمم التي تنبأ حزقيال بأنها ستكون من دول الائتلاف الذي سيهاجم أرض إسرائيل. وها هي ليبيا قد أصبحت شيوعية فباتت من حلفاء الاتحاد السوفياتي. إذن فهرمجدّون على الأبواب. وكانت الغارة على ليبيا، باعتبارها وسائر أعمال الاستفزاز التي قام بها «نسور أميركا»، مناوشات تمهيدية في الحرب النووية الكبرى مع جوج وماجوج. ولقد كان من الممكن جداً أن تحتدم المسألة في دماغ المستر ريغان المشتعل بالرؤى التوراتية فيأمر بإزالة ليبيا من الوجود بقنابل «يوم هرمجدّون» النووية.

فالرجل كان دماغه قد اشتعل بحزقيال. وهذا نوع من التوقّد قد يكون ضاراً متى أصيب به زيد من الناس، لكن عواقبه تكون وخيمة بحق متى كان المصاب به رجلاً بوسعه بضغطة من إصبعه أن يدمّر أمّة بأكملها أو يردّها إلى العصر الحجري، أو كان بوسعه أن يستخدم سلطته في توجيه الأمور وجهة تتحقق من خلالها الرؤى المقدسة التي من نوع «معركة هرمجدّون». وبطبيعة الحال، يظل هناك ـ في حالة الأمم الموصوفة بأنها «ديموقراطية» ـ ذلك الشيء المبهم المسمى بـ «الرأي العام» بوصفه قوة ديموقراطية قادرة على فرض كوابح على ما قد ينتاب الأفراد الحائزين للسلطة من أشكال الهوس والجنون. إلا أن مشكلة «الرأي العام» في تلك الأمم أنه يسهل توجيهه كما توجه قطعان الماشية ببضع رصاصات يطلقها صناع الرأي عن طريق وسائط الإعلام في الهواء، فتجمح القطعان وتنطلق آخذة كل شيء في طريق حوافرها وأظلافها. والمشكلة، فيما يخص «الرأي العام» الأميركي بالذات، وفيما تعلق بالخصوصية التي نحن بسبيل استعراض أوجهها بالذات، أي خصوصية «إسرائيل»، أن ذلك الرأي العام، بحكم «التديّن» معبرَن من مبدأ الأمر عبرَنةً تجعله أشبه بالقنبلة المعدة للانطلاق تحت أخف ضغطة من إصبع كإصبع ريغان الذي كان من الطبيعي أن يحوز لدى الأميركيين شعبية لم يسبق أن تمتع بها رئيس أو سياسي أميركي.

ففي الأمم «الديموقراطية»، لا يتحرك القادة والرؤساء ولا يصنعون القرار السياسي والعسكري في فراغ، بل يفعلون ذلك في إطار طريقة الحياة السياسية لأممهم. ونحن عندما نستخدم مفهوم «طريقة الحياة» هذا، نفعل ذلك من المنطلق الأساسي للعلوم الانسانية المعاصرة في تناولها للكيفية التي تعمل بها المجتمعات جميعاً، «ديموقراطية» كانت أو غير ديموقراطية، في مجال النظم السياسية. فكل مجتمع من المجتمعات يعمل في إطار طريقة حياة معينة تتألف مما يؤمن به أفراده من قيم ومعتقدات مستمدة من ديانته وأساطيره

ومن الصياغة التي يصاغ بها تاريخ الأمة. ومن تلك القيم والمعتقدات، تتشكل المواقف والاتجاهات التي تسيِّر مجموع السكان أو غالبيتهم. وكما هو واضح، يظل من الممكن تعديل وإعادة توجيه المواقف أو ترسيخها وتعميقها عن طريق الاستخدام الكفء لوسائط الإعلام وأساليب «الإقناع» المستكنّ في الرسالة الإعلامية بقدر يمكن أن يقترب من غسل المخ.

وذلك ينسحب على كل نشاط من أنشطة المجتمع. فلكل مجتمع «طريقة حياة» يستخدم المجتمع، بطريقة تلقائية، وباستمرار، كل الوسائل المتاحة والمقبولة اجتماعياً في جعل أفراده يسيرون على هديها ويعملون في إطارها، من حيث أن الخروج عليها يستجلب عقاباً فورياً يتدرج صعوداً من الاستهجان والنفور والإدانة الأخلاقية والنبذ إلى العقاب القانوني بالسجن أو بما هو أسوأ.

وكما أن لكل مجتمع طريقة حياة تتمثل في الملبس والمأكل والعلاقات والشعائر الاجتماعية، للمجتمع طريقة حياة سياسية تتبدى من خلال «الجو السياسي العام» وتعمل من خلال ممارسات المجتمع السياسية ومواضعاته. وبطبيعة الحال، تُستَمَد القيم والمعتقدات المكوِّنة لطريقة الحياة السياسية من المنابع نفسها التي تُستَمَد منها القيم والمعتقدات المكوِّنة لطريقة الحياة العامة للأمة ومجتمعها. وفي حالة الأمة الأميركية، يمارِس ذلك النوع من «التدين» الذي استوضحناه فيما سبق فعلاً بالغَ القوة في تزويد الأميركيين بقيمهم ومعتقداتهم التي تتشكل منها طريقة حياتهم السياسية، أي مواقفهم واتجاهاتهم وضروب سلوكهم في المجال السياسي.

ولهذا، بات بوسعنا أن نشير إلى العبرَنَة التي تجعل «الرأي العام الأميركي» (التعبير الملموس عن المواقف والاتجاهات والمجسد لضروب السلوك في المجال السياسي) أشبه بالقنبلة المعدة للانطلاق تحت أخف ضغطة من إصبع رئيس واسع الشعبية كما كان ريغان. وكل ما يحتاجه ذلك الرأي العام كيما يستجيب للضغطة منطلقاً كالقذيفة لا

يقف في طريق «وطنيته» شيء، مبرر «أخلاقي» يُلقَى إليه من قمّة الهرم السياسي وتحوّله وسائط الإعلام إلى دوي أشبه بانفجار عدة قنابل نووية.

في حالة ليبيا، عندما تسلط حواذ حزقيال على رأس المستر ريغان، كان المطلب الرئيسي لإطلاق الكراهية من عقالها متوافراً، وهو كون ليبيا «إيراب»، أي «عرب». أما المبرر الأخلاقي، أي الشرارة المُشعِلة لفتيل تفجير الكراهية فكان «الإرهاب». فبطبيعة الحال، لم يقف ريغان ليقول للعالم إنه كره ليبيا لأنها «عدوّة الله» ومن الأمم التي رأى حزقيال أنها ستزحف بجيوشها المتحالفة مع جوج وماجوج لتحارب إسرائيل في معركة هرمجدّون، لا لشيء إلا لأن خبراء وزارة الخارجية الأميركية أوعزوا إلى من كان لهم تأثير عليه أن يقنعوه بألا يقول ذلك. ولذا استعيض عن حكاية هرمجدّون بمسألة الإرهاب. فذلك مبرر سامق و«مقبول دولياً» بما فيه الكفاية، ويصلح كساتر جيد لعملية اغتيال أمة تحت غطاء الدفاع عن «الحضارة كما نعرفها» وإعلاء حكم «القانون الدولي»، في غمار عملية توجيه ضربة وقائية إلى أمة اعتقد رئيس الولايات المتحدة أنها ستكون من الأمم «التي كرمل البحر» التي ستسير في صفوف جوج وماجوج في يوم الهول الكوني لتحارب إسرائيل. وبطبيعة الحال، ظل بالوسع ترك إسرائيل تقوم بتلك المهمة بكفاءة عالية نظراً لحيازتها لكل ما تكدس تحت يدها ـ بفضل الإيمان المسيحي الأصولي الطيب للأميركيين المؤمنين ـ من أسلحة يوم القيامة. إلا أن ترك المهمة لإسرائيل ظل محوطاً بمحاذير عديدة ليس أقلها شأناً حرص الولايات المتحدة على عدم إراقة ماء وجوه أصدقاء عديدين رغم علمها أن أولئك الأصدقاء الكثيرين ظل مما يسعدهم كل السعادة أن تزال ليبيا القذافي من الوجود. ولذلك، وأخذاً للمحاذير في الحسبان، كان من المتعين أن تعطى العملية إخراجاً آخر، اختير «الإرهاب» كمبرّر أخلاقي له. ومن المؤكد تاريخياً أنه لو كان انهيار الاتحاد السوفياتي كقوة عظمى قد وقع في وقت

هيـاج ريغان الليبي، لكـانت ليبيـا قـد أزيلت من الـوجـود بـدلاً من الاكتفاء بهدم بعض أبنية عاصمتها وقتل بضع مئات من مدنييها.

وقـد لا يعرف الليبيـون أنفسـهم كم كانـوا قريبـين من الإزالة أو الإرجاع إلى العصر الحجري، لأنهم قـد لا تكون حـزازة ريغان فيمـا يخص بلدهم قد اتضحت لهم تماماً. بل وربما كان ملايـين من البشر لا يتصورون شيئاً من ذلـك ولا يصدقـونه حتى اليـوم رغم أنه معلق فوق رقابهم كـ «السيف» الذي قال يهوه إنه «سيدعوه على كل الأمم» عدا إسرائيل، وهو عجز عن التصوّر والتصديق يبدو غريبـاً بحق على ضوء ما أعلنه الرئيس المؤمن الطيب جيمي كارتر بـأعلى عقـيرته من فـوق منبر الكنيست الإسرائيـلي في ربيع سنـة ١٩٧٩، حـين خـاطب «إسرائيل» بحرارة فائقة قائلاً:

> «لقد آمن سبعة رؤساء وبرهنوا على أن علاقة أميركا بـإسرائيل أعمق بكثير من مجرد عـلاقة خـاصة. فهي كـانت دائماً وستظـل أبداً علاقة فريدة لا نظير لها. وهي علاقة لا سبيل إلى القضـاء عليهـا لأنها ضـاربـة بجـذورهـا بعمق بـالـغ في وعي الشعب الأميركي وقيمه الأخلاقية وديانته ومعتقداته..».

ولم يكتف المستر كارتر بوضع خط تحت هذه الحقائق، بل أضاف إليهـا الحقيقة الأخـرى التي يعمى عنها كثـيرون لسوء حظهم، **وهي حقيقـة ناطقـة بأن الأمـيركيين يعيـدون خلق أنفسهم ويعيـدون تمثيل مسرحية وجودهم كغزاة استيطانيين أبادوا شعباً بـأكمله وأخذوا أرضه، من خلال إسباغ هويتهم على إسرائيل:**

> «فكل من إسرائيل والولايات المتحدة صنعهما الـرواد (بدلاً من «الغزاة الاستيطانيين»)، لأن أمّتي (الأميركيـة) أنا أيضـاً أمّة من المهاجرين واللاجئين. فكـلا الأمتين تكـونتا من أنـاس تجمعوا من أراض عديدة.. فنحن نشترك في ذلك كما نشترك في تراث التوراة».

فرغم أن هذا الكلام نشر في الصحف السيارة، ومنهـا الجيروزاليم بوست، فإن أحداً لم يقرأ، أو لم يفهم إن كان قرأ، أو لم يجـد داعياً

لإيقاف شعبه عليه إن كان قد قرأ وفهم. وذلك طبيعي ومفهوم تماماً. لأنه ما الذي يسع أي مؤمن بأميركا أن «يفلسف» به مثل هذه «العلاقة الفريدة» لضحايا تلك العلاقة؟ هل يسعه مثلاً أن يردد في مسامع عشرات الملايين من الضحايا الحاليين واللاحقين على مذبح هذه العلاقة مثل هذا الكلام الواضح الذي كتبه الرئيس المؤمن جيمي كارتر، صانع السلام المولود ثانية؟:

«إني، كمعظم الأميركيين، أتفهّم تماماً وأشارك في الالتزام الأميركي العميق والمتواصل بوجود هذه الديموقراطية الصغيرة المحاصرة بالعداوات، وبأمنها، **وبوجوب تحقيق السلام لها**. وأنا أعرف أن تخصيص الولايات المتحدة أكثر من ٧ ملايين (هي في الواقع ١٥ مليوناً) من الدولارات من ميزانيتها العامة، مع طلعة كل يوم، للاسرائيليين على شكل معونات اقتصادية وعسكرية أمر يثير استفظاع الزعماء العرب بل وبعض الأمم الأوروبية، ويستجلب إدانتهم، وأعرف أنه مما يثير استغرابهم أن مثل هذا المستوى من المساعدة المالية نادراً ما يثير أي تساؤل جاد في أميركا أثناء وضع الميزانية السنوية في واشنطن. **فأسباب هذا الالتزام المستمر المتواصل باستقلال إسرائيل ليست مما يسهل شرحه لغير الأميركيين**».

«ليس هناك أي مجال للتشكك في أن إحدى أعظم القوى السياسية فعلاً في أميركا تتمثل في الجهود عالية التنظيم حادة التركز التي يقوم بها المواطنون النشطون سياسياً ممن يشكل تأييدهم الذي لا يتزعزع لسياسات إسرائيل أياً كانت تلك السياسات دعماً يفوق في قوته ورسوخه أي دعم يمكن أن توفره أي مجموعة بعينها من داخل إسرائيل نفسها».

(والرجل هنا يتحدث بكل هذا الحرص على عدم إغضاب أحد، عن دور ما يدعى بـ «**اللوبي الاسرائيلي**»، ثم وقد تخطى تلك الهاوية الفاغرة، يستطرد قائلاً:) إلا أن هذا جزء واحد من الحكاية. فهناك أيضاً **الدعم الواسع لإسرائيل من جانب ملايين المواطنين الأميركيين الذين ليسوا يهوداً** والذين لا علاقة لهم

بأية جماعات ضاغطة من منظمات اللوبي. فوق أن الأميركيين يثير نفورهم ما يذاع على أوسع نطاق عن أعمال الإرهاب التي ترتكب ضد المدنيين الأبرياء. كما أن ذكريات الهولوكوست ما زالت حية في النفوس، مثيرة لمشاعر التعاطف وبعض مشاعر الذنب الناجمة عن صمت واشنطن الذي لا يصدّق إبان اضطهاد هتلر لليهود الأوروبيين. **كما أن المسيحيين من كل الطوائف المسيحية الأميركية يشعرون بالقرابة التي تربط ما بينهم وبين إسرائيل من خلال الدين. فالمواطنون الذين يشكّلون قلب أميركا مقتنعون تمام الاقتناع بأن الصلات الدينية والأخلاقية والعلاقات السياسية والالتزامات الاستراتيجية للأمتين الأميركية والاسرائيلية مترابطة متداخلة متشابكة بشكل حميم لا انفكاك له»**[٧١].

وإن كان الرئيس «المؤمن» المولود ثانية، جيمي كارتر، جَنَحَ ـ في معرض أدائه لواجبه الديني ـ إلى جعل دوره في تأمين سير المشروع الصهيوني صوب تحقيق سيادة إسرائيل وحيازتها لكل الأرض المتعاقد عليها مع الإله من النيل إلى الفرات دور «صانع السلام» لإسرائيل تحقيقاً للنبوءة التي سيسود تبعاً لها سلام إسرائيلي يرقد الحمل في ظله مع الذئب والبقرة مع الوحش ويحبو الطفل آمناً فوق جحر الصلّ، فإن خلفه في البيت الأبيض، الرئيس المؤمن رونالد ريغان، المولود ثانية هو الآخر، لم يرَ أن صنع السلام، الذي كان كارتر قد أمّنه لإسرائيل على أية حال، كان واجبه الديني المقدس، بل صُنْع كل ما من شأنه التمهيد لنشوب معركة هرمجدّون الفاصلة التي سيمحق فيها أبناء النور أبناء الظلام محقاً نهائياً ولن يلحق المؤمنين المولودين ثانية بسببها ضر، لأن «جيزز» سوف يخطفهم إلى السحاب إلى أن تنتهي ثم يعود فيضعهم على الأرض برفق ويربت على رؤوسهم بحنان.

والاضطلاع بـ «الواجب الديني» حواذ أميركي راسخ وضارب بجذوره في روح أمة شديدة الصلاح يلاحظ الباحثون اليهود بقدر

كبير من السرور أنها أمّة «**يشكّل العهد القديم نبعَ إيمانها ويمدّها بالتماسك الاجتماعي اللازم لتحقيق تطلعاتها. فلغة العهد القديم، وتصوراته، وتوجيهاته الأخلاقية، وما يَحكِي عنه من ضروب الكفاح اليهودي مغروسة كلها بعمق بالغ في الشخصية الأميركية. وفي كل سويعات التاريخ الأميركي، المجيد منها والعصيب، هبّ دائماً من صفحات العهد القديم الأنبياء وأعداؤهم من الوثنيين، كما هبّ الملوك وعامة الناس، الذين عاشوا من آلاف السنين في إسرائيل القديمة، ففعلوا فعلهم ومارسوا أدواراً معاصرة وفعّالة في مسار التاريخ الأميركي**»[٧٢].

وهو ما يعود بنا إلى رونالد ريغان كما يطالعنا مما رواه عنه السياسي الأميركي جيمس ميلز في حديثه إلى المجلة الأميركية، «سان دييغو ماغازين».

في ذلك الحديث، يخبرنا ميلز أن ريغان، عندما انتحى به جانباً في حفل الغداء ذاك، سنة ١٩٨١، حدّثه كما لو كان من الوعّاظ المؤمنين، فأوضح له أن كل النبوءات اللازمة لنشوب معركة هرمجدّون قد تحققت، وذكّره بأنه مكتوب في الاصحاح ٣٨ من سفر حزقيال أن الله سيأخذ بني إسرائيل من بين الوثنيين الذين شُتِّتوا في أراضيهم وأنه سيجمعهم ثانية في الأرض الموعودة، ثم أكد له بأن ذلك تحقق بعد ألفي سنة، وأن كل شيء أصبح ـ بذلك ـ لأول مرة، مهيأً لنشوب معركة هرمجدّون وحدوث المجيء الثاني للمسيح. وعندما ذكّر ميلز محدّثه الذي كان يملك سلطة إشعال حرب نووية لا تبقي ولا تذر بأن الشيء الوحيد المؤكد والواضح في الكتاب المقدس عن المجيء الثاني هو أن أحداً لا يعرف أو يمكن أن يعرف متى يمكن أن يحدث، احتدّ الرئيس الأميركي، وعلت نبرته فباتت ثاقبة وهو يرد على محدثه قائلاً إن كل شيء بات معداً الآن، وإن الأمر لن يطول، وذكّره بما قاله حزقيال من أن يهوه وعده بأنه سوف يمطر على جيش أبناء الظلام «حجارة برد عظيمة وناراً وكبريتا» يدمر بها أعداء شعبه المختار،

وقال له إن ذلك يعني شيئاً واحداً هو أن أعداء إسرائيل سوف يدمَّرون بالأسلحة النووية التي تنبأ بها حزقيال بقوله «حجارة برد عظيمة ونار وكبريت»، وأن تلك الأسلحة لم تكنْ موجودة قبلاً، لكنها باتت جاهزة الآن.

ويستطرد ميلز في سرد وقائع ذلك اللقاء المفزع، لا بمجذوب دينيّ يتطوح والزبد يغطي شدقيه وهو في قبضة نوبة من نوبات الانتشاء «الروحاني»، بل برجل مسؤول عن إطلاق الحرب النووية من عقالها بحكم توليه منصب رئيس الجمهورية الأميركية، فيقول إن ريغان أوضح له أن «النبي» حزقيال أوضح أن جوج، الأمة التي ستقود كل أبناء الظلام ضد إسرائيل سوف تأتي من الشمال، وأكد له أن العلماء التوراتيين ينبهون منذ أجيال إلى أن جوج هذه لا بد أن تكون روسيا. لماذا؟ لأن الله قال لحزقيال أن يقول لجوج «رئيس روش ماشك وتوبال» أنه (أي جوج) «سيصعد على أرض إسرائيل فيجعل غضب يهوه يصعد في أنفه ويرجمه هو ومن معه بحجارة البرد العظيمة والنار والكبريت، أي القنابل النووية». و«روش» هذه قريبة **للغاية من «روسيا»، إذن فجوج لا بد أن يكون رئيساً من رؤساء روسيا. ذلك رغم أن «روش» بالعبرية تعني «رأس»، كما في «روش هاشانا» أي رأس السنة، و«روش هجولاه» أي «رأس المسبيين» (أي الرئيس العلماني لليهود في بابل إبان السبي)، فقوله «رئيس روش ماشك وتوبال» لا تعني أكثر من «الرئيس الرأس» أو «الأمير الرأس»، أو «القائد الأعلى» لماشك وتوبال.** لكن الرئيس الأميركي اعتبر التسمية إشارة نبوئية مبكرة من ذلك الرجل المقدس حزقيال إلى روسيا الشريرة.

وقد استمد المستر ريغان معلوماته المقدسة في ذلك الخصوص من القس جيري فالول، صديقه وصفيّه وناصحه. وتزودنا الباحثة غريس هالسل[٧٣] بمعلومات بالغة القيمة في هذا الشأن. فهي تذكر أنها حصلت على تسجيل لموعظة نارية ألقاها القس فالول علّم فيها

المؤمنين أن «النبي العبراني حزقيال تنبأ قبل ٢٦٠٠ سنة بقيام أمة شريرة إلى الشمال من فلسطين قبيل موعد المجيء الثاني للمسيح، وقال «إننا نقرأ في الاصحاحين ٣٨ و ٣٩ من سفر حزقيال أن تلك الأمة سيكون اسمها «روش». مكتوب هكذا في الآية ٢ من الاصحاح ٣٨ من سفر حزقيال the American Standard Version من الكتاب المقدس، بالحرف «روش» (Rosh, R-O-S-H)، **بل وان حزقيال يحدد بالاسم مدينتين من مدن «روش» هما ماشك وتوبال**. وكل هذا في الآية ٢ من الاصحاح ٣٨ أيضاً. **والاسمان قريبان للغاية من اسمي موسكو وتبلسك: ماشك ـ موسكو، وتوبال ـ تبلسك، وكلا المدينتين من المدن العاصمية الرئيسية في روسيا اليوم**. وقد ذكر حزقيال أيضاً، في الآية ٣، أن تلك الأمة ستكون معادية لله ولذا فإن الله سيعاديها. وقال حزقيال أيضاً إن روسيا، أو روش ستغزو إسرائيل في آخر الأيام، وذلك في الآية ٨، ثم قال إن ذلك الغزو سيكون بمساعدة حلفاء روش، وذلك في الآيتين ٥ و ٦، وحدد أولئك الحلفاء بالاسم: **إيران (التي كنا نسميها فيما مضى فارس)، وجنوب أفريقيا أو الحبشة، وشمال أفريقيا أو ليبيا، وأوروبا الشرقية (المدعوة بجومر هنا في حزقيال ٣٨) وقوزاق جنوب روسيا واسمهم في ذلك الاصحاح توجَرْمه**».

فالقس فالول، منطلِق على هواه لا يعوقه شيء، حتى الكتاب الذي يستشهد بـ «الآيات» منه. لأن «روش» لا تعني روسيا، بل تعني «رأس» أو «رئيس»، وماشك وتوبال لا تعنيان موسكو وتبلُسك، بل هما اسمان وردا في سفر التكوين، كما أسلفنا، لاثنين من أبناء يافث، وكذلك «جومر» لا تعني أوروبا الشرقية، فماشك وتوبال وجومر وماجوج من أسماء بني يافث (تكوين ١٠ : ٢)، وأسماء أقوام سكنت آسيا الصغرى كما هوو راد بالخريطة بالشكل ٣. لكن القسّ (الطيّب) جيري فالول قرر أنها كلها أسماء أماكن معاصرة، روسيا، وموسكو، وتبلُسك، وأوروبا الشرقية، تنبأ حزقيال بأنها ستهاجم إسرائيل مع

حلفائها الأشرار إيران، وليبيا والحبشة أو جنوب أفريقيا. وأخـذ ذلك الاعتقاد عنه ـ مع استبعاد جنوب أفريقيا ـ الرئيس الأميركي المولود ثانية رونالد ريغان.

غير أنه وقع ارتباك هنا فيما يخص الأسماء. **ففي حين اكد جيري فـالول أن «روش» هي روسيـا، رأى پات روبـرتسون، والمؤشر في يـده، والخـريطـة عـلى الحـائط أمـام المؤمنـين، أن «روش» هي الحبشة، أما روسيـا فهي جوج ومـاجوج، وفي حـين اكد جـيري فالول أن «جومر» هي أوروبا الشرقية، أكد روبرتسـون للمؤمنين أن «جـومـر» هي اليمن الجنـوبيـة، وفي حـين أعلن فـالــول أن «توجرمـه» هم القوزاق أكـد روبرتسـون أنهم الأرمن وأن اسمهم التوراتي «بث توجرمه»، توخياً للدقة العلميـة، أما ليبيـا فاطلق عليهـا القس روبرتسـون، من ذاكرة مشـوشـة فيمـا يبـدو، اسم «بوت». وربما تلبث ذلك الاسم بتلك الصورة مما كـان المصريون القدماء يـدعونـه ببلاد بـونت (التي يرجّـح أنها مـا يُعرف الآن بـاسم اريتريـا، أو ما يعـرف باسم الصـومال، فهي منطقـة شبه أسطـورية ورد ذكـرها بـاستمرار في النصـوص الفـرعـونيـة من المملكة القديمة). وبكل تاكيد، لم تعـرف ليبيا في أي وقت بـاسم «بوت» أو بونت، بل عرفت بـاسم «لهابيم». فـالخلاف عـلى أشده جغرافيا بين المبجل فالول والمبجـل روبرتسـون، والبلد الـوحيد من فريق «أبناء الظـلام» الذي اتفقـا على تسميتـه، هو إيـران ـ فارس القديمة.**

ونتيجة لتأكيد روبرتسون أن الحبشة لا جنـوب أفريقيـا هي التي ستنضم إلى جيش أبنـاء الظـلام، وبصرف النظـر عن تسميتـه لهـا بـ «روش»، رحّب الرئيس الأميركي ريغـان بذلـك التباين الـلاهوتي، نظراً لإخراج جنوب أفريقيا من الحلف في رواية روبرتسون.

إلا أن فالول لم يتقبل الأمر مستسلماً، بل تمسك بأن «روش» هي روسيا، وبأن توجرمه هم القوزاق لا الأرمن، ودلـل على ذلـك بتركيـز

«النبي» حزقيال على الجياد في قوله إن يهوه قال له أن يخبر جوج قائلاً: «وتأتي من موضعك من أقاصي الشمال أنت وشعوب كثيرون معك **كلهم راكبون خيلاً** جماعة عظيمة وجيش كثير، وتصعد على شعبي إسرائيل كسحابة تغشّي الأرض» (٣٨: ١٥ و ١٦). ولما كان القوزاق شعب صاحب خيول راكب خيول في الحرب والسلم على السواء، فإن توجرمه هم القوزاق.

وبطبيعة الحال، لم يتوقف فالول كثيراً عند الحقيقة المحزنة المتمثلة في أن أحداً لا يحارب راكباً خَيلاً في هذا الزمان، لكنه كان مهتماً بدحض مسألة الأرمن والتدليل على أن «روش» هي روسيا وليست الحبشة. أما «الغنيمة» التي «قال السيد الرب لحزقيال أن جوج ستخطر بباله أمور فتجعله يفكر تفكيراً رديئاً ويقول في نفسه إني أصعد (على اسرائيل) لسلب السَّلْب ولغنم الغنيمة» (٣٨: ١٠ ـ ١٢) **فهي النفط كما علّم فالول**. ومن غير المعلوم حتى الآن لأيّ سبب سيفكر جوج (الاتحاد السوفياتي) في تفسير فالول لحزقيال في سلب النفط ونهبه من إسرائيل، وإسرائيل لا آبار نفط لديها في الأرض التي أخذتها حتى الآن.

إلا أن هذه كلها مسائل يبدو أن العقل الأميركي يتخطّاها غير عابىء مركِّزاً بصره على «آخر الأيام». والمسألة، فيما يخص ذلك العقل واضحة ولا تحتمل الشك أو التساؤل. فـ «أبناء النور» هم «الأخيار» (the good guys)، والأخيار هم الأميركيون واليهود ـ ليس كل الأميركيين بل من ولدوا منهم ثانية واليهود لأنهم شعب الله المختار، وهؤلاء الأخيار سوف ينجون من المذبحة الآتية التي سيباد فيها «أبناء الظلام»، «الأشرار» (the bad guys) أي كل من عدا اليهود والمسيحيين المولودين ثانية، وستكون نجاتهم على يد المسيح الذي سيخطفهم وقتاً ليعودوا بعد ذلك فينعموا بالعيش في ظل السلام والرخاء اللذين سيعمان بعد هرمجدّون وبعد السنوات السبع التي

سيستغـرقها التخلص من آثـار المعركـة ودفن الجثث وحرق أسلحـة الأشرار وخيولهم.

فهذه كلها مسائل مقضيّ بها ولا مهرب من وقوعها لأن الله قررهـا منذ القدم، ويـوم وقوعهـا يقترب بسرعـة، **بل وبـالوسـع التعجيل بمجيئه بمساعـدة شعب الله المختـار على تحقيق كـل النبوءات التي يجب أن تتحقق كيمـا يحصل المجيء بعـد المذبحـة ويبـدأ العصر الألفي السعيد.**

وفي سياق مسائل عليا كهـذه، أيّ قيمة لاختـلاف بعض المسميات أو وقوع بعض الارتباك في التفسـير؟ المهم هو العمـل على تقـديم كل دعم ومؤازرة لشعب الله المختار كيما يحقق التجميع لليهـود على كـل الأرض التي عيّنها الله لـه من النيل إلى الفـرات، ويحقق نزول سيف الله على كل الأمم و«على كل ملوك العرب»، ويعيد بناء الهيكل الثـالث مكان «المزارات» الإسلامية، ويخلي الأراضي المقدسة وبخاصة القدس من كـل ما هـو ليس يهوديـاً وكل من هـو أغلف ونجس كيمـا تتحقق النبوءات وتنجز المذبحة ويقوم الملكوت اليهو ـ مسيحي على الأرض.

وإذا ما عجز العقل عن التصديق، وبـدا الأمر كمـا لو كـان عبث صغار متخلّفين عقليـاً أو هذيـان كبار قـد اختلت عقولهم، فلنتسـاءل لأي غاية كـان رونالـد ريغان يصرّ عـلى إشراك المبجل فضيلـة القس جيري فالوِل في مداولات مجلس الأمن القـومي ومشاوراتـه الخاصـة بشن الحـَرب النوويـة، ولِمَ طلبت أعلى السلطـات الأميركيـة من هال ليندسي، المؤلف المسيحي الأصولي صـاحب كتاب «المـأسـوف عليـه كـوكب الأرض»، أن يلقي محـاضرة عـلى واضعي الاستـراتيجيـة الأميركية في البنتاغون عن حتمية نشوب الحرب النووية؟

والذي لا يجب أن يتوارى العقل وراءه من هول المشكلـة (مشكلة تحكّم أنـاس هذا شـأنهم في مصائـر سكّـان الكـوكب المنكـوب بهم) تصور مريح للنفس يدّعي أن ريغان ذاك كان عجوزاً قد خرّف وركبت

رأسه مسائل خرافية كهذه. فكارتر لم يكن عجوزاً قد خـرف. وجورج بوش ليس عجوزاً قد خرف. والرؤساء الأميركيون الـذين أشار إليهم كارتر في كلمتـه التي ألقاهـا في إسرائيل لم يكـونوا قـد خرفـوا. **وكل رؤساء أميركا ابتداءً من جـورج واشنطن وانتهاءً بجـورج بوش حتى الآن لا خرف في عقولهم. فكلهم أناس عقلاء يعـرفون جيـداً ما هم بسبيله، ويؤمنون إيماناً لا يدانيه شك في أن ما هم بسبيله من تمكين اليهود من تحقيق النبـوءات التوراتيـة والتجمع عـلى كل الأرض التوراتية وتطهيرها من كل مـا هو ليس يهـودياً حتى من المسيحيـين الذين لم يـولـدوا ثـانيـة أو لم يتعبـرنـوا، حق وصواب وواجب مقدس.**

وذلك كله «مكتـوب»، مقضيٌ به، «أقسَم بـه الربُّ ولن ينـدم». فبمَ أقسَم؟ أقسَم أن «يُرسل قضيب عِزّ شعبه من صهيـون ويسلّطه عـلى أعدائه»، ينتدبه على الأمم، وعملاً على البِرّ بقسمه، سيكون الرب «عن يمين شعبه، يحطّم له الملوك، ويدين الأمم، ويملأ بالجثث التي يسحق رؤوسها لحساب شعبه أرضاً واسعة» (المزمور ١١٠).

وأميركا، الأمة المسيحية التقيّة التي حمّلها الربّ برسـالة خصّهـا بها دون سائر أمم الأرض، ما الـذي يمكن أن تفعله والـربّ قد قـرر ذلك؟ تخالِف مشيئتـه؟ تناقضـه؟ تكفّه عن البِـرّ بقسمه؟ تكفـر؟ الله نفسه في العهد القديم لم يكفّ عن إصدار أوامـره إلى شعبه المختـار وقادة شعبه بالتخلي تماماً عن الضعف والـرحمة في التعـامل مـع كل من لم يكن من الشعب المختـار. والصيغـة التي استخـدمهـا الـربّ وتكرّرت بشكل لحوح في أسفار العهد القديم هي «حـرّموهم بـالسيف (اذبحـوهم) لا تأخـذكم بهم شفقة. اذبحـوهم رجلاً وامـرأة وشيخاً وطفلاً رضيعاً»، وفي المرّات التي تقاعس فيها الشعب لأسباب متعلقـة بـالكَسْب والسبي عن الالتـزام بهـذه التعليمـات غضب الـرب عـلى الشعب غضباً شديداً وأوشك أن ينقلب عليه. فما الذي تفعله أمـيركا التقيّة المؤمنة العاملة بكل قواها على تنفيذ مشيئة الـرب؟ تعصاه؟ إن

كل معركة يخوضها الاسرائيليون ضد هنودهم الحمر، العرب، معركة من معارك الرب، يديرها الرب نفسه من أعلى، ويتحقق النصر فيها لشعبه المختار. وأميركا عندما تحلّت بروح التوراة وسارت على هديها في التعامل مع هنودها الحمر عند بدء استيطانها للقارة، كان الله معها كما هو الآن مع إسرائيل، ومكّنها من إبادة الهنود الحمر وأخذ الأرض، تماماً كما سيمكن إسرائيل من إبادة العرب، من تطهير الأرض، كل الأرض المتعاقد عليها، منهم ومن أوثانهم، مسلمين كانوا أو مسيحيين (لأن المسيحيين هناك لم يولدوا ثانية، فهم ليسوا معبرَنين وليسوا داخلين في رحمة الله)، فهل تنكص أميركا الآن وقد اقترب موعد مجيء الفردوس، وتخرج هي أيضاً من رحمة الله فتخسر روحها وتخسر فرصة العيش للمولودين ثانية في الملكوت اليهو ـ مسيحي الوشيك؟

«الذي وجدته في واشنطن أن المسيحيين، وكثرة منهم أناس يشغلون مناصب عليا في الإدارة الأميركية، يصلّون لله على مدار النهار **متعجّلين مجيء اليوم الذي لا يعود للفلسطينيين فيه وجود على أرضهم حتى تصبح تلك الأرض ملكاً خالصاً لليهود**. ووجدت أن أولئك المسيحيين الأتقياء يذهبون ليصلوا صلواتهم هذه التي لا يصلّونها من أجل البشر في كل مكان، أو من أجل أن يحل السلام على الأرض، أو من أجل الفقراء والجياع والمشردين والمحرومين، **بل من أجل الأرض**، الأرض التي يملكها الفلسطينيون الآن والتي يتضرعون إلى الله في صلواتهم أن يأخذها من الفلسطينيين ويضعها في أيدي اليهود الإسرائيليين. وإلى أين يذهب أولئك المسيحيون الأتقياء ليصلوا هذه الصلوات؟ إلى قصر اشترته المسز بوبي هروماس، زوجة الدكتور لزلي هروماس أحد كبار مديري شركة أميركية من موردي الأسلحة إلى البنتاغون، لتجعل منه مكاناً مقدساً يصلّي فيه المسيحيون المؤمنون من أجل «خلاص» الأرض. وتدعو المسز هروماس منظّمتها باسم «**الترصت الأميركي ـ المسيحي**». وترصت المسز هروماس في حقيقته مظلة للعديد من الحركات المسيحية الإنجيلية الكبرى العاملة في جمع

الأموال لإسرائيل، ويقوم بدور القناة التي يصبّ فيها كل ذلك المال وتوصّله رأساً إلى إسرائيل. كما تتعاون المسز هروماس مع مجموعة تدعى «مع الحب» تتخصص في جمع التبرعات لإسرائيل من المشاهير ونجوم هوليوود ومن أثرياء ولاية تكساس. **ويمد الترصت إسرائيل بهذه الأموال لغرض محدّد هو بناء المستوطنات على أراضي الضفة الغربية.** ويحول المال رأساً إلى السفارة الاسرائيلية في واشنطن أو تحمله المسز هروماس بنفسها إلى إسرائيل أو تحوله عن طريق بنك هريتاج انترناشونال بولاية ماريلاند. وهدف الترصت، كما قررت المسز هروماس، **جمع مائة مليون من الدولارات لشراء الأراضي وبناء المستوطنات في الضفة الغربية.. تحقيقاً للنبوءات التوراتية.** وتفاخر المسز هروماس علناً بصلاتها الوثيقة بنجوم الحركة الأصولية الانجيلية، كالقس جيري فالول، والقس پات روبرتسون، والقس جيمي سواجرت».

«ويقع قصر المسز هروماس عبر الشارع من السفارة الإسرائيلية، لأن صاحبته رأت أن تبنيه في أقرب موقع ممكن من السفارة وبالتالي من الأرض الإسرائيلية التي تتوجه إليها بصلواتها. وقد عنيت بأن يكون التصميم المعماري للقصر بحيث تكون السفارة الاسرائيلية، عبر الشارع، هي ما يتجه إليه المصلون في الكنيسة الصغيرة المقامة بداخله والمطلة على مبنى السفارة بنافذة زجاجية عريضة. وتدعو المسز هروماس المؤمنين المسيحيين من كبار المسؤولين الأميركيين، كأعضاء الكونغرس، وضباط هيئة الأركان العامة، بل والرئيس نفسه، للمشاركة في الصلوات التي لا تنقطع داخل كنيستها لإسرائيل»[٧٤].

في سنة ١٩٥٢، بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية وبزوغ الأمم المتحدة لتكون محفلاً للتعدّدية، وضماناً للشرعية الدولية، وأداةً لحماية حقوق الإنسان لكل الشعوب، ولإنماء العلاقات الودّية بين الأمم على أساس من المساواة في الحقوق بين الشعوب والمساواة في السيادة بين الأمم بلا تمييز بين شعب وشعب أو بين دولة ودولة على أساس «الجنس» أو اللغة أو الدين أو الحجم أو القوة أو الثراء، أعلن الرئيس الأميركي هاري ترومان **أن الولايات المتحدة استجابت لإلحاح العناية الإلّهية فقبلت أن تأخذ عبء زعامة العالم على عاتقها.**

وكان إعلان ذلك على لسان الرئيس الذي ألقيت بأمره أول قنبلة من قنابل الدمار الشامل في التاريخ على هدف مدني، بداية لسلسلة من تصريحات الساسة ورجال الدولة الأميركيين أفصحت عن اتجاه الولايات المتحدة الذي لا رجعة فيه صوب وضع الدولة الحاكمة لكوكب الأرض. فقد أوضح الرئيس الأميركي، بطل الحرب العالمية الثانية، دوايت آيزنهاور، أن الشعب الأميركي شعب يحب الله محبة عميقة، وأنه لما كان الله يبادله حباً بحب فإن الله أنعم على ذلك الشعب التقيّ بنعمة الحرية وكلّفه ـ في الوقت نفسه ـ بتوصيل تلك النعمة لغيره من الشعوب، **وتنفيذ مشيئته على أرضه.**

ولم يجد أدلاي ستيفنسون ـ الذي كان قد انهزم لتوه أمام الجنرال آيزنهاور في معركة انتخابات الرئاسة ـ أن ما قاله الرئيس الجديد كان بالوضوح الكافي، فبيّن أن الله اختار الشعب الأميركي ليحمّله بعبء رسالة لم يسبق أن حمّل بها شعباً في التاريخ، هي أن يوسّع نطاق ما أنعم الله عليه به من حرية ليشمل العالم بأسره، وأنه

بات متعيناً على الشعب الأميركي، قياماً منه بتلك المسؤولية الإلهية **أن يقود العالم ويتولى زعامته**.

وعندما أراد الرئيس الأميركي الأشهر جون كندي إلقاء مزيد من الضوء على ذلك التكليف الكوكبي، وكيف أن نهوض الشعب الأميركي بعبئه إنما هو نهوض بعمل الله على الأرض، استشهد بعدد من مزامير العهد القديم مؤكداً **أن الذي يفعل هو يهوه وأنه الحفيظ على أميركا والموجّه لها، وأنه لو لم يكن يهوه يحرسها ويوجهها ويحميها لما كانت قد باتت لحكمة قادتها ويقظة حراسها أدنى قيمة**. وبعد اغتيال جون كندي وتصفية قاتله ثم تصفية قاتل قاتله، قال أخوه روبرت كندي، عندما أعلن في ربيع سنة ١٩٦٨ عن عزمه على دخول حلبة انتخابات الرئاسة، أنه ما فكر في ذلك إلا ليواصل حمل الرسالة قائداً **للبلد الذي اصطفاه الله فمنحه حقاً إلهياً في تزعّم كوكب الأرض**.

ولم يكن ذلك التصوّر المعلّي للذات غريباً في حالة الأميركيين، وبخاصة صفوتهم الحاكمة. فالولايات المتحدة قد تكون بلداً من المهاجرين وبوتقة انصبّت فيها أعراق وثقافات عديدة ومتباينة، إلا أن صفوتها الحاكمة كانت منذ البداية أوروبية الأصول، وبالقدر الأكبر وباستثناءات محدودة منها جون كندي، صفوة أنجلو ساكسونية، بروتستانتية، بيضاء، كان ابتداء ملحمة «أميركا» على أيدي أفرادها من خلال اعتقاد لم يطاوله شك في أن أميركا خير أمة أعطيت للناس، وأنها ما أعطيت للناس إلا لتقود خطاهم على درب الحضارة والتقوى وتدخلهم جنّة الحرية.

غير أن الولايات المتحدة ظلّت، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، غير مستطيعة القيام بالرسالة إلا فيما حولها من شعوب صغيرة، ولم تتمكن من الخروج إلى العالم كله حاملة إليه مشعل الحضارة إلا بعد خروجها من تلك الحرب منتصرة على حلفائها قبل أعدائها. وكان إعلانها عن بدء قيامها بالرسالة إلقاء القنبلتين على هيروشيما

وناجازاكي. فكانت إبادة مئات الآلاف من البشر وإزالة مدينتين من الوجود بقنبلة واحدة لكل مدينة بمثابة إعلان السيادة الأميركية على كوكب الأرض وتنفيذاً للقاعدة التي أرساها يهوه في التوراة:

> «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك (أبوابها) فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف (إذا ما كانت من المدن البعيدة منك جداً) وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرّمها تحريماً (تبيدها عن بكرة أبيها)»
>
> (تثنية ٢٠: ١ ـ ١٦)

وفي سياق هذه القاعدة «الإلهية» التي أباح بها مؤلفو التوراة للأخيار (the good guys) أي بني إسرائيل فيما تعلق بالنص، والأميركيين فيما تعلق بتطبيقه المعاصر، إبادة الشعوب إذا ما رفضت الاستعباد، وعلى ضوء النظرة الأميركية إلى العالم كله باعتباره المجال الحيوي للرسالة الإلهية الملقاة على عاتق الأمّة الأميركية، خرجت الولايات المتحدة، كما قلنا، إلى العالم لتنعم عليه بنعمة الحرية ومباهج الديموقراطية بإنذار مدو توائم تماماً والدعوة الوحشية المتضمّنة في الوصيّة الإلهية الواردة بسفر التثنية هو «الاستسلام أو التحريم (الإبادة)» بقنابل يوم القيامة. وفي واقع الأمر، فيما تكشف من أسرار نهاية الحرب العالمية الثانية، لم تكن الولايات المتحدة بحاجة إلى محو مدينتي هيروشيما ونجازاكي من الوجود محواً (تحريمهما تحريماً، أي عدم الإبقاء على نسمة فيهما) لإنهاء الحرب. لكنه وُجِد من الضروريّ لدى صانعي القرار السياسي الأميركي إلقاء القنبلتين لتكونا بمثابة دعوة عالمية لكل شعوب العالم لـ «الصلح» (الاستسلام الكامل للولايات المتحدة والقبول بالاستعباد لها) وتطبيقاً

عملياً للقاعدة الإلّهية المتضمَّنة في سفر التثنية.

وبطبيعة الحال، لم يجلس صانعو القرار في أميركا قائلين «هلم يا أخيار نطبِّق قاعدة سفر التثنية»! لكن العقلية الأميركية التي صنعتها العبرَنَة وصاغها الإيمان البروتستانتي بأن كل كلمة في العهد القديم، حتى هذا النصّ الوحشي والنصوص المماثلة التي لا تحصى في التوراة وسائر أسفار ذلك الكتاب الدموي، إنما هي «كلمة الله»، لا سُعار كهنة نسبوا كل ضروب وحشيتهم وكل صنوف جشعهم إلى الألوهة ظلماً واجتراءً، **تلك العقلية الأميركية التي زادت على وحشية العهد القديم قناعة الخيرية المطلقة وغرور القيام بعبء الرسالة الإلّهية، كان من المحتم أن تتفتق عبقريتها عن إعلان السيادة الكوكبية ذاك ممثلاً في قنبلتيّ هيروشيما ونجازاكي.**

وبطبيعة الحال أيضاً، لم يصارح الأميركيون العالم بشيء من ذلك، وليس من العقل الادّعاء بأنهم كانوا مطالبين بأن يصارحوا العالم به. والذي قيل للعالم عن إلقاء القنبلتين أن ذلك كان «صوناً لأرواح الأميركيين» التي كانت ستضيع إذا ما ترك الصراع ليطول ويقتضي من الأمة الأميركية النبيلة التي ما خاضته أصلاً إلا قياماً برسالتها الإلّهية بوصفها حامية القانون والنظام والقيم والحرية والإنسانية والديموقراطية في العالم. **ومن المشاهد أن تلك الحجّة (الاقتصاد في إنفاق أرواح الأميركيين التي تنفقها الولايات المتحدة في القيام بتلك الرسالة) ظلّت وستظل المبرر الديموقراطي الأخلاقي المدّعى لكل تطبيق أميركي للقاعدة المتضمنة في نصّ سفر التثنية وما ماثله من نصوص التوراة وسائر أسفار العهد القديم.** وبطبيعة الحال مرة ثالثة، كل دولة مطالبة بحماية أرواح رعاياها وكل ذلك. إلا أن المفارقة في شأن ادّعاء الرغبة في حماية أرواح الأميركيين كدافع إلى إلقاء القنبلتين تتّضِح مما بات معروفاً ومسلّماً به الآن وهو أن الحكومة اليابانية كانت قد بدأت بالفعل في السعي إلى الصلح وإنهاء القتال، وأن بابا روما كان من القنوات التي

لجأت إليها تلك الحكومة في سعيها ذاك. غير أن إنهاء الحرب بتلك الطريقة خفيضة الصوت وُجِد غير ملائم للكيفية التي أرادت المؤسسة الأميركية الحاكمة أن تجني بها ثمار انتصار كان قد بات من الواضح تماماً أنه انتصار على الحلفاء (الذين خرجوا من الحرب محطمين مفلسين ومحتاجين إلى الإحسان الأميركي) قبل الأعداء. ومن هنا كان قرار تجاهل مسعى اليابان إلى السلم وإلقاء القنبلتين.

وكان ذلك القرار في الواقع بمثابة إعلان انتهاء عصر وابتداء عصر جديد خطر بدأ العالم في هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين يشهد اتّضاح ملامحه. ويتعين، كيما نلمّ بأبعاد وبعض أغوار ما نحن بسبيله، أن نعود قليلاً إلى الوراء.

فالعصر الجديد بدأ كعصر انتقلت فيه مهمة «تحضير العالم» من أوروبا إلى أميركا. وكانت أوروبا، قبل أن تبزغ أميركا بوقت طويل، قد أخذت على عاتقها تلك المهمة الكوكبية التي أطلق عليها الشعراء والمفكرون الأوروبيون اسم «عبء الرجل الأبيض». وتحت مظلة ذلك الاضطلاع الأوروبي الخيّر بذلك العبء، بدأ عصر الامبراطوريات الأوروبية التي غزت أجزاءً بأكملها من العالم وتنازعت ذلك العالم وتطاحنت عليه وفرضت على سكانه قيمها ومؤسساتها ونظرتها إلى ما ينبغي أن تكون عليه الحياة، ومصالحها.

وفي حين كان المبرِّر «الأخلاقي» لاندفاق الأمم الأوروبية إلى ما وراء حدودها الوطنية لتبسط النفوذ الأوروبي على العالم مبرِّراً تمثَّل أساساً في ادّعاء الرغبة في توسيع نعمة «التحضر» لتشمل الشعوب التي لم يلحقها ذلك «التحضّر»، فإن القوة الدافعة المحركة لذلك التوسع نبعت مما كانت أوروبا قد توصلت إليه من تقدم تقني في ظل موقف فكريّ انبنى على أن الإنسان الأوروبيّ كان قد وصل إلى مرحلة من التقدم بات متعيناً عليه فيها ـ كيما يواصل ذلك التقدم ـ أن يفرض **النظام العقلاني/ الإنسي**[٧٥] على فوضى الطبيعة

وعشوائيتها غير العقلانية. ومن الشعور الأوروبي بأن منجزات التقدم التقني والتنظيم الاجتماعي شكّلت انتصاراً على فوضى الطبيعة وعشوائيتها، نبعت قناعة أوروبية بأن «الانسان الأوروبي» إنسان أعلى، وأنه ـ بوصفه ذاك ـ مكلّف «أخلاقياً» برسالة «تحضير» العالم، أي ـ بعبارة أخرى ـ إعادة خلق العالم على الصورة الأوروبيّة تأميناً لتحقيق العالم مصالح أوروبا. وبطبيعة الحال، في هذه الحالة أيضاً، لم يصارح الأوروبيون العالم وهم آخذون بنشاط بالغ في «تحضيره» (جعله متحضراً) بتلك الحقيقة، بل قالوا بإصرار إن الغرض من ذلك كان تحقيق الخير الأعظم لأكبر عدد من البشر.

هذه «الرسولية» الأوروبية امتدت، كأنما في جينات الوراثة، إلى وليدة أوروبا، الولايات المتّحدة، فتشبّعت بها أرواح وعقول مفكّريها وصفوتها الحاكمة، وجعلت جون آدمز، أحد الرؤساء «الآباء المؤسّسين»، يعلن في سنة ١٧٦٥ أن الله ما أوجد أميركا إلا لتنفّذ مشيئته المتمثلة في القيام بعبء تنوير وقيادة الشعوب الرازحة تحت نير الجهل والتخلّف والعبودية، والأخذ بأيديها صوب التّنوّر والتقدم والحرية. وهو ما يوضّح كُمُون ذلك النزوع في الروح الأميركية من بداية الأمر، أخذاً عن الخبرة الأوروبية المجزية في ذلك المجال الممعن في الخيرية. إلا أن النزوع، في حالة أميركا، نشأ مدخولاً بعنصر لاعقلانيٍّ إيمانيٍّ مثاليٍّ هو كَوْن الرسالة أُلقيت على عاتق الأمّة الأميركية التقيّة إلّهياً، لا «أخلاقياً» فحسب كما في حالة أوروبا، وكون الأمّة الأميركية التقيّة التي وصفها آيزنهاور فيما بعد بأنها «تحبّ الله كثيراً ويبادلها الله حبّاً بحبّ» مكلّفة ـ تبعاً لذلك ـ بتنفيذ مخطط الله للخليقة، ذلك المخطط الوارد بحرفيته في التوراة وسائر أسفار العهد القديم والذي كان الله ـ قبل أن تظهر أميركا ـ قد حمّل الشعب المختار، إسرائيل، بتنفيذه لكن ذلك الشعب لم يتمكن من القيام بعبئه لظروف عديدة يوضّحها العهد القديم تفصيلاً. والأدلّة على ذلك الاعتقاد لا تكاد تحصى، وقد أجملها الكاتب الأميركي هيرمان

ملفيل خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بقوله **«إننا، نحن الأمـيركيين، شعب أخصّ، شعب مختـار جديـد وإسرائيـل هـذا الزمان، وبذا فإننا نحمل على عواتقنا عبء تحقيق الخلاص لكـل البشر». وقبل ملفيل بأكثر من قرنين ونصف قرن، أعلن المهاجرون الأول إلى أرض قارة أميركا الشمالية أنهم استوطنوا تلك الأرض، كمـا أسلفنا، لينشئـوا أورشليم الجديـدة، وأكّد لهم قسـاوستهم المعبـرّنون أن «أورشليم كـانت، لكن نيو انجلنـد هي الموجـودة الآن، واليهود كانوا، لكنكم أنتم الآن شعب الله، وعهد الله (قـد عقد) معكم، فضعوا اسم نيـو انجلند مكـان اسم أورشليم»**، وهو ما علّق عليه الباحث اليهودي هرتزبرج مغيظاً، كما أسلفنا، بقوله إن أولئـك الناس لم يطـاولهم شك في «أنهم اليهـود الحقيقيون، والـورثة الحقيقيون والأخيرون لكل ما تعهد به الله في العهد القديم»!

فالخميرة موجودة بقـوة في الروح الأمـيركية والعقـل الأميركي من مبدأ الأمر، وراثة عن أوروبا، وبالإضافـة **إسباغـاً لهويـة إسرائيل التوراتية عـلى أميركـا**. والقوة التي فعلت بهـا تلك الخمـيرة المهلكة فعلها في عقول الأميركيين وأرواحهم مجسّدة بآلاف الأمثلـة الواقعيـة المستمـدة من تاريخهم القصـير بالـغ الشراسة الممعن في الـدمـويـة المتلفعة بعباءة الأخلاقيات العليا والمثاليات والتقوى الدينيـة. فهم قد استهلوا وجودهم كـأمة بعمليـة إبادة جمـاعية لشعب بـأكمله، كـان شعب الهنود الحمر، سكان أميركا الأصليين، **باعتبار أن تلك الابادة كانت من «أجل المسيح» وقياماً بعمل الله على الأرض**. وبـاستثناء الفورات العاطفية القصيرة التي انتابت الأميركيين وبعض قادتهم بين الحين والحين فأفرخت «التهديد» الأميركي للعالم بـالعزلـة الأميركيـة التي تُبعِـد أميركـا الخيّرة عن مشـاكل ذلـك العالم الجـاحد النـاكـر للجميل، وهو التهديد الذي فجّر فقـاعته فـرانكلين روزفلت في خطبـة تشارلوتسفيل المشهورة في يونيو ١٩٤٠، ظل ذلك الاشتيـاق الأميركي للقيـام بعمل اللـه على الأرض غـلّاباً ودافعـاً الـولايـات المتحـدة إلى

مناوشاتها المتكررة مع القوى الامبراطورية الأوروبية والقوى الوطنية المحلية في «فناء أميركا الخلفي» (القارة الجنوبية) وفي الكاريبي والباسيفيك، إلى أن خرجت من الحرب العالمية الثانية منتصرة على الحلفاء والأعداء معاً، فاندفق ذلك النزوع واجتاح كل السدود، شبه موجة مدٍّ لا يقف في وجهها شيء.

وفي غمار ذلك الاندفاق، أعادت أميركا ـ على نطاق أعظم بكثير ـ ما كانت أوروبا قد فعلته عندما خرجت أممها إلى ما وراء حدودها الوطنية لتستولي على كل ما طالته أيديها من أراضي الأمم الأخرى وموارد ثرواتها. وإن كانت أوروبا فعلت ذلك بذريعة «أخلاقية» هي حمل مشعل الحضارة إلى عالم وجدته أوروبا غارقاً في ظلمات الجهل ومخاضات التخلّف، فإن أميركا، في اضطلاعها برسالتها الإلّهية بوصفها شعب الله المختار الجديد الذي سينفّذ خطّة الله لخليقته بعد أن عجزت إسرائيل القديمة عن تنفيذها، **أعطت مهمة نشر الحضارة (التي بات اسمها الآن «التنمية») مكانة لاحقة لمهمة صون الحرية من مخاطر الاجتياح الشمولي الشيوعي ومهمة صون الدين والتقوى من مخاطر الاجتياح العقلاني/ الإنسي الذي تمثلت فيه الذراع الثانية للهجمة الماركسية الإلحادية.** وقد كان ذلك الموقف الأميركي شديد الاتساق مع كل مكوِّن من مكوِّنات فكرة أميركا عن نفسها وعن العالم وعن دورها في العالم:

(١) فأميركا، منذ بدأت تجد في نفسها القوة للخروج إلى ما وراء حدودها الوطنية لانتزاع ممتلكات الامبراطوريات الأوروبية القديمة، بدءاً بمستعمرات اسبانيا في أميركا اللاتينية والكاريبي والباسيفيكي، فعلت ذلك تحت راية «تحرير الشعوب» والقضاء على الاستعمار. وهو الشعار نفسه الذي تلفعت برايته بعد الحرب العالمية الثانية عندما أخذت على عاتقها إنهاء بقايا الوجود الامبراطوري لحلفائها في تلك الحرب من خلال منظمة الأمم المتحدة تحت اسم «إنهاء الاستعمار». ووراء تلك الخيرية المطلقة والرغبة اللاعجة في القيام برسالة حمل

مشعل الحرية إلى كل الشعوب، تسترّت رغبة أميركا العارمة في القضاء على كل القوى الاستعمارية في العالم للحلول محلها، وبالحلول محلها، **اتّخاذ وضع القوة الأعظم والأوحد المُدِيرة لكل مكان على وجه البسيطة**. وفي ذلك، كما في غيره، كانت أميركا بلد التجديد والجدّة، إذ أنها، في حلولها محل القوى الامبراطورية القديمة، لم تلجأ إلى أسلوب الحكم الاستعماري القديم القائم على احتلال أراضي المستعمرات بقوات البلد المستعمِر، بل لجأت إلى أسلوب (لم يكن جديداً تماماً في الواقع، بل جديداً على النمط الاستعماري الحديث فقط، إذ أنه أسلوب سبق أن ابتدعته وطبّقته قديماً الامبراطورية الرومانية) هو حكم المستعمرات بالتحكم البعيد عن طريق الجيوش الوطنية لتلك المستعمرات ونظم الحكم العسكرية القائمة على أساس التبعية الكاملة لواشنطون، وهو أسلوب دعمته أميركا وأسبغت عليه المشروعية الدولية عن طريق امتلاكها لمنظمة الأمم المتحدة.

وبفضل أسلوب الحكم الاستعماريّ المبتكر هذا، بالتحكم البعيد، وبغير احتلال عسكريّ مباشر، بات بوسع الولايات المتحدة أن تدير لحساب مصالحها ومصالح حلفائها الامبراطوريين القدامى الذين التحقوا بركبها المظفّر كأتباع لها، عالماً بأسره، إدارة محكمة وبرّاقة أُعطيت واجهة وضيئة بحق أُسميت بالشرعية الدولية، وحكم القانون الدولي، وإرادة المجتمع الدولي.

وفي الحالات القليلة والنادرة التي اضطرت فيها الولايات المتحدة إلى استخدام القوة العسكرية السافرة للتأديب والترويض والإخضاع، فعلت ذلك (١) بناءً على طلب «العناصر المسؤولة» في البلد الهدف، كما في حالتي جرينادا وبناما، و(٢) في ظل «ميثاق الأمم المتحدة»، أي في ظل الشرعية الدولية، و (٣) «صوناً للقانون والنظام» في العالم و (٤) «تنفيذاً لإرادة المجتمع الدولي» و(٥) «بقوة متحالفة» مشتركة أسهمت في تشكيلها دائماً حكومات البلدان المعنية

بالمنطقة، صوناً لحرية المنطقة كلها واستقرارها وأمنها. فأميركا، بعد تجربة فييت نام الرضّيّة، باتت حريصة على عدم الانجراف إلى التدخل العسكريّ السافر المباشر بقوّاتها وحدها، مكتفية بقوات البلدان المحتلة داخلياً بقواتها الوطنية، والتدخل بالتحكم البعيد باستخدام قوات عميلة أو بديلة من البلدان الصديقة كإسرائيل، أو جنوب أفريقيا، أو باكستان. وبهذا ظلت أميركا تقوم برسالتها الكوكبية، ملتزمةً بالشرعية الدولية ونصيرةً للحرية، ومتخذة موقفها دائماً على الأرض العالية، رافعة رايات أعلى القيم الروحية.

وتستوقفنا هنا كلمات المؤرخ الانكليزي جيبون عن روما القديمة في أوج مجدها:

«تمسّك أباطرة الرومان بالحِفاظ على حسن سمعة روما، وعملوا بكل وسيلة سليمة على إقامة علاقات الصداقة مع الأمم المتبربرة (ولم يكن مصطلح «المتخلفة» أو مصطلح «النامية» قد اكتشفا بعد)، واجتهدوا في إقناع النوع البشري كله بأن سطوة روما التي ارتفعت بنفسها وتسامت على غواية الغزو، لم يحرّكها إلا حبّ روما للنظام والعدل. وبذلك، أعلوا إسم روما لدى كل الأمم من أقصى المعمورة إلى أدناها، بل وجعلوا أشد الأمم المتبربرة شراسة تحتكم إلى روما فيما ظل ينشب بين تلك الأمم من نزاعات، وجعلوا الحصول على حق المواطنة الروماني (أن يصبح المرء رومانياً) شرفاً يسعى إليه كل البشر. ويروي لنا المؤرخون الذين عاصروا مجد روما أنهم شاهدوا بأنفسهم سفراء وكبراء من أمم أخرى يبذلون كل مرتخص وغال مستميتين في الحصول على ذلك الشرف فيخفقون في ذلك ويحرّمون من أن يصبحوا رعايا لروما. أما الرومان أنفسهم، فقد أسكرهم مجد روما، وأدار رؤوسهم باعها الطويل، وانتفخت أوداجهم فخراً بقوتها التي لم يكن قد عاد في العالم من بات قادراً على التصدّي لها، وبذلك سمحوا لأنفسهم بأن يملأ الاعتداد بالنفس أعطافهم ويغريهم بازدراء غيرهم من الأمم بل ونسيان وجودها على ظهر الأرض أصلاً إذ هي ملقاة خارجاً وراء أسوار جنة روما، سادرة في بربريتها و«استقلالها».

وهكذا أعطى الرومان أنفسهم الحق في الامتلاء يقيناً، رويداً رويداً، بأن روما هي العالم والعالم هو روما»[٧٦].

وذلك هو عين ما حدث للأميركيين: انتفخت أوداجهم فخراً بقوة الولايات المتحدة التي لم يعد في العالم من يقدر على التصدّي لها، ورويداً رويداً أعطوا أنفسهم الحق في الامتلاء بيقين مؤداه أن أميركا هي العالم وأن كل بلد عداها ليس كائناً أو لا حقّ له في أن يكون، إلا إسرائيل، وبضعة بلدان توابع.

وليس من المستغرب أن تكون قد تأصّلت لدى الإنسان الأميركي، في سياق كهذا، القناعة نفسها المنتشية بالذات التي ولّدها التفوق والثراء والقوة لدى الإنسان الأوروبي بأنه «إنسان أعلى». فقط، يجب أن يقاس حجم تلك القناعة، في حالة الإنسان الأميركي، بمقياس عظم الفرق بين التفوق الأوروبي وأوضاع العالم عندما غزته واستولت على معظمه أوروبا أيام كانت تبني امبراطورياتها، والتفوق الأميركي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية وأوضاع العالم الذي اتجهت أميركا، على عباب ذلك التفوق، إلى فرض هيمنتها عليه وجعله شبه إقليم تابع لها خاضع لكل ما تمليه مصالحها مسيّر حسبما تقضي به طموحاتها ودوافعها. وإن كان الإنسان الأوروبي أقنع نفسه أيام كان آخذاً في بناء امبراطورياته بأنه إنسان أعلى، فإن قناعة الإنسان الأميركي بعلوّه، على عباب اجتياح بلده لعالم بأكمله، وصلت إلى حد الغرور المميت الذي جعل ملوك فرنسا يعلنون قائلين (قبل أن تضع المقصلة حداً لغرورهم) «أنا الدولة». والأخطر من ذلك أن الأمر لم يقتصر على قول الإنسان الأميركي «أنا العالم»، بل ذهب إلى ما وراء ذلك بكثير، على النحو الذي يتضح من قول جون كندي أكثر الرؤساء الأميركيين «ليبرالية»: «يجب علينا، نحن الأميركيين، أن نذكّر أنفسنا دائماً بأن عمل الله على الأرض هو عملنا». ومن ذلك الإيمان الديني العميق لدى الأميركي بأنه هو العالم، وبأنه لا وجود أو لا ينبغي أن يكون وجود لأحد في العالم سواه، وبأنه وكيل الله على الأرض من حيث أن

«عمل الله على الأرض هو عمله»، من ذلك الإيمان الراسخ خطوة قصيرة للغاية، خطاها الأميركيون منذ وقت طويل، إلى إيمان أشد رسوخاً بأن إشباع حاجاتهم هم، وتحقيق توقعاتهم هم التي يثيرها لديهم إيمانهم بأنهم هم العالم وأنهم القائمون بعمل الله على الأرض، **هما الواجب الأول والخير الأعظم والمطلق لكل البشر.**

وعلى الصعيد الأخلاقي، والأميركيون شعب شديد التمسك بالأخلاقيات العليا والقيم الرفيعة دائم الوقوف على الأرض العالية، يؤكد ما ظلت أميركا تتمتع به حتى الآن من رخاء وثراء وقوة وتفوق صواب الاعتقاد بأن كون المرء أميركياً يجعله هو العالم، وبأن تحقيق الأميركي مصالحه على حساب مصالح كل من عداه، وإشباعه رغباته، وفرضه سيادته على كل ركن من العالم، إنما هو ممارسة عملية لقيامه كأميركي بما يتطلبه الله منه. فكما علّم الفلاسفة الذرائعيون الأميركيون بمنتهى الجدّية، تبرهن الخبرة العملية المعاشة، كل يوم، يوماً بعد يوم، على صواب ذلك الإيمان وصدقه لأنه ـ كما علّم الذرائعيون ـ «يعمل بطريقة فعالة ويحقق لمن يؤمنون به كل ما يثيره لديهم من توقعات». أما على الصعيد الديني، فتماماً كما علم الفلاسفة النفعيون في بريطانيا إبان فورة الانتشاء الأولى بالانقلاب الصناعي، أخذا عن الفلسفة الدينية للعهد القديم، يقوم ما تتمتع به أميركا من رخاء وثراء وتفوّق وقوة دليلاً لا يدحض على أن الله ذاته يوافق الأميركيين على إيمانهم بأنهم هم العالم، وبأنهم المكلفون بتنفيذ مشيئته والقيام بعمله على الأرض، ويكافئهم على ذلك بالرخاء والثراء والقوة.

ولقد يكون ذلك الإيمان مُرضياً ومُشبعاً للذات الأميركية. بل وقد يكون مبهراً ومقبولاً لدى من ينسحرون بأميركا ويعلقون عليها أمل بقائهم، إلا أنه يظل ـ رغم كل ذلك ـ إيماناً خطراً منطوياً على مهالك ليس أقلها شأناً ما يعلّمنا التاريخ إياه من أنه كلما وصل الإنسان إلى مثل هذه الدرجة من الانسحار بالذات والإيمان بأنه ـ **لعلوّ قدره**

وسموّه الذي يبرهن عليه تفوّقه ونجاحه ـ يحقّ له أن يدّعي أمام نفسه وأمام الآخرين بأنه يقوم بعمل الله على الأرض، أي أنه القائم بدور الله، ويحق له ـ بصفته هذه ـ أن يملي إرادته على الأرض كما يمليها الله، ويسيّر أمم الأرض تبعاً لمشيئته، كما يسيّرها الله، يكون ذلك الانسان مسيِّراً ذاته إلى دماره المحقق.

وفي حالة الأميركيين بالذات، كان ذلك أشد الأمور طبيعية. فهم أمّة درجت منذ ظهرت على الاعتقاد بأنها، في كل ما تفعل ـ حتى وإن كان ما تفعله جريمة إبادة جماعية لشعب بأكمله ـ تقف في صف الله وتنفذ رغباته. فالهنود الحمر، مثلاً، كانوا أشباه بشر، وأبالسة من أعماق الجحيم، وأعداءً للمسيح. ولذا، فإن إبادتهم كانت عملاً خيّراً من أجل المسيح وضد الشيطان ابليس عليه لعنات الله. ودائماً ـ بشكل لحوح مستمر ومتواصل ـ كان كل من استهدفته أميركا شيطاناً إبليس أو من زبانية الشيطان إبليس. وبالتالي كان قتال أميركا له عملاً مقدساً من أعمال الله على الأرض. فالامبراطورية الأسبانية، مثلاً، عندما اندفقت أميركا إلى ما وراء حدودها الوطنية لتأخذ من تلك الامبراطورية مستعمراتها في أميركا الجنوبية والبحر الكاريبي والمحيط الهادىء، كانت إبليس، وكانت أميركا بمحاربتها اسبانيا لأخذ مستعمراتها منها قائمة بعمل الله على الأرض، وقائمة بدور الملاك جبرائيل في قتاله مع إبليس. وقبل ذلك، كان جورج الثالث، ملك بريطانيا، أيام كانت أميركا مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني، هو إبليس «الذي وضع خطة متعمدة لاستعباد الأميركيين». وعندما اعتبرت الولايات المتحدة الاتحاد السوفياتي، بعد الحرب العالمية الثانية، منافساً خطراً لها على ساحة التسابق إلى وضع السيادة الكوكبية، بات الاتحاد السوفياتي هو إبليس وقامت الولايات المتحدة في مواجهته بدور جبرائيل، دفاعاً عن المسيح:

«ان التطورات التي يشهدها العالم بشأن روسيا تنبأ بها النبي حزقيال.. **هؤلاء الناس في روسيا أعداء الله. انهم يكرهونه.**

> **انهم يرفضون الايمان بيسوع المسيح. وغرضهم النهائي هو غزو العالم وإخضاعه لهم.** وقبل ٢٦٠٠ تنبأ النبي حزقيال بقيام أمة كهذه إلى الشمال من فلسطين قبيل المجيء الثاني للمسيح.. **إن روسيا قد اتخذت موقف العداء من الله.** وهي بذلك ـ بشكل بالغ الكمال في دقته ـ جوج الوارد ذكره في حزقيال»[٧٧].

وبمثل هذه المواقف المشبعة بالايمانيات، يتزاوج إيمان الولايات المتحدة بدورها كحامية للحرية في العالم (أي متصدية لكل دولة أو قوة أخرى تشك أميركا في أن لديها طموحاً إلى «غزو العالم وتسيّده» أي إلى مزاحمة أميركا في ذلك المجال) بإيمانها بأنها «القائمة بعمل الله على الأرض».

(٢) قلنا إن أميركا في حلولها محل الامبراطوريات الأوروبية القديمة اضطلاعاً منها برسالتها التي حملتها بها العناية الإلّهية، اتجهت وجهة ذات شعبتين، أولاهما إعطاء الأولوية الأعلى، في قيامها بـ «عمل الله على الأرض» لمهمة صون الحرية من مخاطر الاجتياح الشمولي الشيوعي، على النحو الذي استوضحناه فيما سبق بشأن اندفاع أميركا إلى اتخاذ وضع القوة الأعظم والأوحد المديرة لكل مكان على وجه البسيطة، أما ثانية الشعبتين فإعطاء أولوية عليا لمهمة صون الدين والتقوى من مخاطر الاجتياح العقلاني/ الإنسي باعتبار أن ذلك الاجتياح تمثلت فيه الذراع الثانية للهجمة الماركسية الإلحادية.

وهنا أيضاً، كان ذلك الاتجاه الانتكاسي للفكر والروح أكثر الاتجاهات طبيعية ومواءمة في حالة أمة كان منشؤها على أيدي المتهوسين البروتستانت من المتطهرين والمورمون والكويكر وغيرهم. **وفي غمار التصدّي للعقلانية الإنسية، كان البزوغ الحقيقي لتيار اللاعقلانية الايمانية الممثل في الأصولية.** وحتى وقت قريب، كان التركيز الأصولي في مجال السياسة الخارجية الأميركية منصبّاً على «الخطر القادم من الشمال» كما في نبوءات حزقيال، أي خطر جوج

وماجوج والحلف الشرير بين «أبناء الظلام» ضد أبناء النور، أي إسرائيل. وفي سياق ذلك التركيز، كان استفراد الرئيس الأميركي السابق لليبيا بوصفها من الدول الشريرة أعضاء حلف جوج وماجوج الذي سيهاجم إسرائيل.

إلا أن الاتحاد السوفياتي قد ضاع الآن من أيدي الأصوليين بوصفه الشيطان إبليس أو جوج وماجوج، بل وسبّب لأولئك الأتقياء خيبة أمل كبيرة لأنه ـ بانسحابه من حلبة الصراع مع قائدة حلف أبناء النور الولايات المتحدة، بل وانضوائه في الواقع تحت لوائها ـ[٧٨] قد جرّد المسيحيين الأصوليين المؤمنين من الخصم الشرير، وحرمهم من فرصة إشعال حرب نووية مع ذلك الخصم تعجيلاً ـ من خلال تلك الحرب، هرمجدّون ـ بالمجيء الثاني للمسيح. فباختصار، تسبب الاتحاد السوفياتي بانهياره بغير حرب نووية في تأخير مجيء «آخر الأيام» ووقوع كل تلك الأحداث الشيقة التي وعد المؤمنين بها يوحنا اللاهوتي وأكد لهم أنها لن تؤدي فقط إلى عيش المسيحيين المؤمنين (المولودين ثانية في التفسير الأصولي الأميركي) تحت الحكم المباشر للمسيح في العصر الألفي السعيد، بل وستؤدي أيضاً إلى حل مشكلة أولئك المؤمنين مع اليهود أنفسهم، لأن السواد الأعظم منهم سوف يقتل مع من سيقتلون في واقعة هرمجدّون، والبقية الباقية منهم والمعروف عددها سلفاً بناءً على إخبارية يوحنا اللاهوتي بأنه لن يزيد أو ينقص على ١٤٤٠٠٠ يهودي، سوف تؤمن بالمسيح وتتحول إلى المسيحية فتشارك المسيحيين العيش في فردوس الألف عام.

ولقد يبدو هذا كله كما لو كان هذيان مخبول. لكنه ـ بكل الاحترام الواجب للإيمان الدينيّ ـ ليس هذياناً على الإطلاق، بل وعد محدد وارد في كتاب مقدس، والأهم من ذلك، مصدّقٌ ومأخوذٌ به بمنتهى الجدية من جانب أكثر من ٦٠ بالمائة من المسيحيين الأميركيين المؤمنين الذين يتضمن إيمانهم ـ جنباً إلى جنب مع ذلك الوعد

المقدس ـ الاعتقاد الجازم بأنهم هم العالم، وبأنهم المكلفون بالقيام بعمل الله على الأرض.

ولما كان «القيام بعمل الله على الأرض» يتضمن بالضرورة التنفيذ الحرفي للمخطط الإلّهي للعالم كما هو محدد بـ «كلام اللـه» الذي لا يناقض في التوراة وسائر أسفار العهد القديم، فإن نهوض أميركا بذلك العمل يتطلّب ـ كحتمية لا مهرب منها مقضيّ بها إلّهياً ـ تجميع كل اليهود من أربعة أركان المعمورة، من كل ركن من أركان الأرض، على أرض إسرائيل التوراتية، أي الأرض المتعاقد عليها طبقاً لنصوص التوراة بين الله وبين شعبه المختار، أي كل تلك الأرض الممتدة من نهر النيل إلى نهر الفرات.

وتنفيذاً لرسالتها، عملت أميركا حتى الآن على فتح أبواب الهجرة على مصاريعها أمام اليهود السوفيات ومن كل مكان في ذلك الجزء من أوروبا الذي كان يعرف إلى وقت قريب باسم «أوروبا الشرقية»، وبالتنسيق مع الحركة الصهيونية، أقفلت كل باب في وجه أولئك المهاجرين إلا باب إسرائيل، تأميناً لانصباب موجاتهم كلّها في أرض إسرائيل.

وما زالت هذه العملية في مستهلّها، لكنها آخذة طريقها بشكل متصاعد نحو استكمال عدد أوّلي من المهاجرين هو ثلاثة ملايين، كمرحلة أولى، تتبعها مراحل أخرى بموجات أخرى، بعد أن يكون قد تسنّى إيجاد الأرض والإسكان والعمل لاستيعاب تلك الملايين الأولى.

وبطبيعة الحال، يظل من الواضح تماماً أن تجميع اليهود على «أرض إسرائيل» المتعاقد عليها ليس كل ما هو مطلوب كيما تتحقق النبوءات. فهناك بجانب التجميع مسألة الهيكل. لأنه متعين، كيما تتحقق النبؤات ويحدث المجيء، أن يعاد بناء الهيكل على الموقع الذي كان مقاماً عليه من قبل، أو ـ حسب الاعتقاد الأصولي اليهودي ـ «تطهير الموقع» كيما ينزل الهيكل عليه مكتمل البناء من السماء.

فأميركا، بوصفها الأمّة المسيحية التقيّة المؤمنة المكلّفة بالقيام بعمل الله على الأرض، عليها ـ كيما تستكمل عملها الذي بدأ عند بدء بزوغها كأمّة فسبق صهيونية اليهود بقرون ـ أن تتكفّل بالإعداد العمليّ، بتمهيد الأرض، كيما تتحقق النبوءات.

وقد انزاح من الطريق الآن الخصم الشرير العنيد الذي كان المؤمنون الأميركيون ينتظرون أن يقوم بدور جوج وماجوج، وأخلى الساحة أمام أبناء النور ليتموا عملهم، فلم يعد لديهم عذر في التباطؤ أو التراخي في القيام بعمل الله على الأرض وتنفيذ مخططه لخليقته. فمن بقي من أبناء الظلام كحجر عثرة في طريق أبناء النور السائرين قدماً بشجاعة وأعينهم تومض ببريق الإيمان صوب القيام بالرسالة؟

لنصغ إلى هذا الكلام:

«إننا نعيش الآن بواكير حقبة جديدة من تاريخ العالم لا يوجد أدنى شبه أو أي شيء مشترك بين خصائصها وبين أي شيء قد خبرناه أو عرفناه حتى الآن. (ونحن) بحاجة، نظراً لذلك، إلى أن نتفهّم العمليات المركزية التي تميز هذا العصر الجديد.. وبوسعنا أن نتبين منذ الآن عدداً من الملامح التي تميزه، وهي ملامح تنبىء عن ثورة محتومة في حياتنا الراهنة (ومن أبرزها) أن العلمية ذات اليد العليا التي يتصف بها ذلك العصر الجديد **انهيار المنظور العقلاني الإنسي الذي شكل الثيمة الرئيسية لحياة الحضارة الغربية ورخائها منذ عصر النهضة. وتبعاً لانهيار ذلك المنظور، نجد أن الأنسقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عنه والتي أوجدت (في تلك الحضارة الغربية) عدداً من «الحقائق» المعينة، انسقة آخذة في الاختفاء من عالمنا اليوم.** فعلى سبيل المثال، نجد أن الاعتقاد بأن الإنسان هو مركز الكون وأن كل ما في العالم موجّه إلى إشباع حاجاته المادية مفهوم آخذ في الزوال في العصر الراهن الذي بات من الواضح فيه أن كمية الموارد المتوافرة في الكون لا تكفي للوفاء بتوقعات الانسان وبالاحتياجات الاقتصادية والضروريات الديموغرافية».

وفي كتابنا الذي أوردنا به هذا الاستشهاد من كلام المنظّر الاستراتيجي الاسرائيلي، علقنا على كلامه بقولنا:

«وهذا كلام يحسن ـ ما لم نكن عاقدين العزم على الزوال نحن أيضاً ـ أن نتوقف عنده ونفكر فيه. فهو كلام له وزنه، وينبغي أن يذكرنا بفضيلة القس المبجل مالتوس وبالداروينية الاجتماعية. ومالتوس، إن كنا لا نذكر، هو القس الاقتصادي والمنظّر الديموغرافي توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) الذي كان يعلّم بأن موارد العالم متناهية، وأنه ـ بالنظر إلى تناهي تلك الموارد ـ **ينبغي للعالم أن يتحلّى بالواقعية فيفطن إلى أن تكاثر سكان العالم يشكل خطراً على الحضارة وعلى بقاء النوع البشري ورفاهه، ويدرك أن رفع مستوى معيشة الأفقر والأضعف لن يجدي الأفقر والأضعف شيئاً في خاتمة المطاف، ويشكل تهديداً للأثرى والأقوى.**

«ثم جاءت الداروينية الاجتماعية التي طبّقت مفاهيم صراع البقاء والبقاء للأصلح التي قال بها تشارلس داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) في نظرياته عن أصل الأنواع وآثار الانتقاء الطبيعي، على التطور التاريخي للمجتمعات البشرية، وركّزت على مفهوم «صراع البقاء وبقاء الأصلح»، وهو ما التقطته النازية الهتلرية وجعلته سنداً «أخلاقياً» لفلسفتها، فكان أن أعطت تلك الداروينية الاجتماعية والتطبيقات النازية لها، الدعاوى المالتوسية توجُّهَها المعاصر.

«وهذا ـ تحديداً ـ هو ما يتحدث عنه الاستراتيجي الصهيوني. فهو ـ ابتداءً ـ **يشير إلى انهيار المنظور العقلاني الإنسي وزوال ما انبثق عنه من قيم كالاعتقاد في قداسة الحياة (أي حياة) الانسانية وقيمة الفرد الإنساني، نتيجة لما نبّه إليه مالتوس منذ القرن الثامن عشر من تناهي الموارد و«عدم كفايتها للوفاء بتوقعات الإنسان والاحتياجات الاقتصادية والضروريات الديموغرافية (أي الضروريات اللازمة لإبقاء الأمم غير الصالحة**

للبقاء غير القادرة على النهوض بمتطلباته على قيد الحياة وتوفير الحد الأدنى من احتياجاتها كما لاحظ الاستراتيجي (الصهيوني)، وهو ـ انتهاء ـ يقول بصراحة وإيجاز وبغير كثير لفّ أو دوران أن **العالم لم يعد فيه متّسع للجميع**، وأنه من المحتم ـ «نتيجة لانهيار المنظور العقلاني الإنسي، وزوال أنسقة القيم التي انبنت عليه» ـ **العودة، بلا مهرب، إلى الغابة**، والانغماس في دوامة الصراع الذي لا ينقطع من أجل البقاء، **وهو بقاء لن يكون إلا للأقوى والأشد شراسة والأقل تورعاً**. وهذا ـ حرفاً بحرف ـ ما استولدته النازية من الداروينية الاجتماعية»[٧٩] .

وبطبيعة الحال، يقع مثل هذا الكلام الذي قلناه قبل أكثر من عامين موقعاً سيئاً بحق لدى من ظلوا مصرّين على الهرب من مواجهة واقع العصر الذي نعيشه بكل أهواله، دافنين رؤوساً ورعة في **رمال الأوهام والاطمئنان إلى خيرية «الأصدقاء» الأميركيين أو غير الأميركيين، ورمال التشبث بوهم وجود شيء اسمه «النظام الدولي» وشيء اسمه «القانون الدولي» وشيء اسمه «المجتمع الدولي» ومنظمة أم رؤوم حنون اسمها «الأمم المتحدة»**.

لكن كل تلك الرمال التي تطمر فيها العقول وتدفن الرؤوس وتغمض العيون وتسد الآذان لا ولن تشكل ضمان بقاء لأحد فيما تفصح عنه الحقائق الصلبة القاسية الخشنة التي على سطح الرمال. وكيما تتضح الصورة لأذهاننا ـ المتشبثة برفض التصديق ـ قد يجدي أن نمعن الفكر قليلاً في قول ذلك الاستراتيجي الاسرائيلي الذي أوردنا بعض كلامه وعلقنا عليه:

> «إن التصوّر القائل بأن رغبات الانسان وقدراته لامتناهية تصور يزول ويتبدد عندما يقاس بمقياس حقائق الحياة المؤسفة فعلاً لكنها مع ذلك حقائق تتضح لعيوننا ونحن نشهد انهيار النظام العالمي من حولنا. (وعلى ضوء تلك الحقائق) تتراءى لنا وجهة النظر (العقلانية الإنسية) التي تنادي بالحرية والرفاه للجميع كنظرة ممعنة في السخف والسفاهة في أيام كهذه»[٨٠].

وكيما تتضح الصورة أكثر، نتوقف عند رؤية المستوطنين اليهود المهاجرين إلى فلسطين للمسألة:

«في الصحيفة الدينية للمستوطنين اليهود في الضفة الغربية نجد تأكيداً على أن من يدعو إلى اتخاذ موقف إنسيّ تجاه العرب يرتكب خطأ يتمثل في قراءة القانون الديني قراءة انتقائية ويتهرب من تنفيذ وصايا معينة. ونجد أيضاً أن الله ندم لأنه خلق نسل إسماعيل وأن الجوييم جميعاً، سواء كانوا من نسل إسماعيل أو نسل غيره «شعوب كالحمير»، وأن الشريعة واضحة تماماً بشأن كيفية معاملة الشعوب التي يغزوها اليهود ويهزمونها، وقد أوضح ميمونيدس (موسى بن ميمون) كيف أن تلك الشعوب يجب أن «تخدم غزاتها اليهود وكيف أنها يجب أن تسحق وتحط إلى أسفل سافلين، ولا ترفع الرأس أبداً في إسرائيل بل تظل منسحقة تحت يد اليهود خاضعة لهم خضوعاً كاملاً»، وإذ ذاك فقط يمكن أن يعاملها المنتصرون معاملة إنسانية. وفوق هذا، نجد التأكيد بأنه «لا وجود لأية علاقة بين شريعة إسرائيل (توراة إسرائيل) وبين المنظور الإنسي الإلحادي المعاصر فطبقاً لم علّم به ميمونيدس (موسى بن ميمون)» «يتعين على اليهود، طبقاً لشريعة الحرب المقدسة، أن يدمروا ويبيدوا الرجال والنساء والأطفال» لأن حربهم قد صدر الأمر بشنها من عند الله (وقد كان ذلك وصف الحاخامات لحرب لبنان). والمبادىء الأبدية التي وضعها الله لا تتغير. فليس هناك مكان لأية اعتبارات إنسية أو إنسانية»[٨١].

ومن المريح للنفس، بكل تأكيد، صرف النظر عن مثل هذا الكلام «المتطرف» بوصفه كلام بعض «المتهوسين الدينيين» أو «المتعصبين الصهيونيين»، أو أي شيء من هذا القبيل. غير أن الباحث الذي أوردنا الاستشهاد منه، وهو يهودي، لم يورده بوصفه كذلك، بل بوصفه مفصحاً عن الموقف الأكثر شيوعاً وتأصلاً لدى الإسرائيليين باستثناء القلة الليبرالية القليلة المنضوية تحت ألوية من قبيل «السلام الآن»، أو «الأرض في مقابل السلام».

والمهم على أية حال، ليس شيوع موقف كهذا وتأصّله لدى

الإسرائيليين، أو لدى اليهود، سواء كان شيوعه وتأصله لدى قلة منهم أو لدى كثرة. **المهم هو شيوع ذلك الموقف وتأصله لدى من يدعمون ويمولون ويسلحون إسرائيل وفي حقيقة الأمر يذهبون إلى أبعد مما يذهب إليه أشد اليهود تعصباً وتطرفاً.** المهم والخطر حقاً شيوع هذا الموقف وتأصله لدى الأميركيين الأتقياء المتطلعين بكل أرواحهم إلى التعجيل بالمجيء وبدء عصر فردوس الأخيار (the good guys):

> **«تماماً كما كان الصهيونيون المسيحيون هم اول من حث اليهود الأوروبيين على الذهاب إلى فلسطين وأخذ كل ما امكنهم أخذه من أرضها، لا يكفّ الصهيونيون المسيحيون المعاصرون الذين يتصدرهم اناس كجيري فالول وغيره من الأصوليين عن حث اليهود الآن على الا يكتفوا بفلسطين، كل فلسطين، بل أن يطالبوا بكل الأراضي الواقعة من نهر الفرات شرقاً إلى نهر النيل غرباً.**
>
> «وفي ٦ فبراير ١٩٨٣، صرح فالول لصحيفة «كوريير تايمز تلغراف» التي تصدر في ولاية تكساس بأنه يؤيد أخذ الاسرائيليين للأراضي من العراق، وسوريا، وتركيا، والسعودية، ومصر، والسودان، وكل لبنان، والأردن، والكويت. أما فلسطين، كل فلسطين التي كانت تحت الانتداب، فهذه مسألة منقضية، لأنها كلها ملك لليهود أصلاً. وقد أكد فالول وهو يقول ذلك أن الله ما **بارك أميركا إلا لأن اميركا تعاونت معه في حماية محبوبته الغالية (إسرائيل)»**[٨٣].

وكما هو واضح، هذا كلام رجل مؤمن إيماناً أصولياً لا يعترض طريقه أيّ هراء عقلانيّ إنسيّ أو أي كفر. ومن وجهة نظر إيمانية بحتة ـ إلا إذا اتخذ المرء موقف النفاق وعمد إلى المراوغة ـ لم يجانب فضيلة القس فالول الصواب في قوله. لأن الله، طبقاً لما يقرره الكتاب المقدّس، تعاقد مع أبراهام على إعطائه كل تلك الأرض من النيل إلى الفرات مقابل إعطاء أبراهام غرلته لله. وما لم يرفض المرء تصديق ذلك، يتعين عليه، إيمانياً، التسليم بأن اليهود (لأن الزخم

الرئيسي للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يتمثل في أن «نسل» أبراهام الذي تعهد الله بإعطائه كل تلك الأرض هم «اليهود» لهم كامل الحق، إلهياً في أخذ كل الأراضي التي ذكرها فالول، لا أجزاء منها فقط، باستثناء تركيا (اللهم إلا إذا اعتبرنا تركيا أرضاً ستصبح حقاً لليهود بعد معركة هرمجدّون نظراً لأنها الأرض التي في أقاصي الشمال التي ذكرها حزقيال والتي منها جوج وماجوج وماشك وتوبال وكل تلك الأقوام الملعونة).

ومتى سلّم المرء، إيمانياً، بمشروعية أُسس الدعوى اليهودية المنبنية على حجّة تمليك إلَهية ختمها الله نفسه بخاتمه السماوي قبل ٣٩ قرناً كما أوضح مناحم بيغن، فإن المرء ـ ما دام مؤمناً بالله وبأنبيائه اليهود ـ لا يحقّ له البتّة الاعتراض على قرار سماويٍّ كهذا، أو التضرّر منه، أو محاولة تقديم استئناف في شأنه، حتى عندما تؤخذ كل تلك الأراضي التي يتعجل فضيلة القس فالوِل أخذها وحتى عندما يزاح منها بالذبح والتحريم والإبادة كل رجل وامرأة وطفل رضيع، لأن هذا قضاء الله ولا راد لقضائه.

وفيما يخص الأميركيين المؤمنين الأتقياء، لا يحقّ لأحد التضرُّر من إيمانهم أو الاعتراض على إصرارهم الذي لا يحيد على الإعداد عملياً لتحقّق النبؤات وتنفيذ مشيئة الله على الأرض، لأن التضرُّر من ذلك الإيمان أو الاعتراض على ما يمليه على الأميركيين من تصرّفات شجاعة مؤمنة لا يمكن أن يكون إلا الكفر عينه.

فطبقاً للنظرة المسيحية الأميركية المؤمنة بكل حرف في العهد القديم من أول حرف في أول كلمة إلى آخر حرف في آخر كلمة، بما في ذلك سفر رؤيا اللاهوتي، يجب أن يعمل الأميركي المسيحي المؤمن بكل قواه ويسخِّر كل إمكانيات بلده (الذي أنعم الله عليه بالقوة والمنعة والثراء والتفوق لأنه، كما أوضح فضيلة القس فالوِل، تعاون مع الله في حماية محبوبته الغالية إسرائيل) في تمكين كل يهود العالم من التجمّع بسرعة على كل الأرض المتعاقد

عليها مع اللـه وإخلاء تلك الأرض ممن يزحمـون سطحها الآن، وتمكين كل يهود العالم أولئك متى تجمعوا عـلى تلك الأرض من إقامة مملكة التوراة على تلك الأرض المتعاقد عليهـا، أولًا بإزالـة كل ما هو ومن هو ليس يهودياً من المواقع المقدسة، وإعـادة بناء الهيكل، ثم تأمين بقاء مملكة التوراة وترسيخ دعائمها بشن حرب الإبادة الأخيرة، هرمجدّون، عـلى كل أبنـاء الظلام الـذين يعادون حبيبة الله الغالية إسرائيل، وقد يعـودون فيطالبـون بأراضيهم كمـا يفعل الإرهـابيون الفلسطينيـون منذ أخـرجهم شعب اللـه المختار (وكان يجب أن «يحرِّمهم» كما أمره الله، ولو كان فعـل لما أزعجوه بإرهابهم)، بل وقد يحاولـون إقامـة «مزاراتهم» الـوثنية على الأرض المقدسـة التي لا يجب أن يطأهـا بعد تحـريرهـا من وجودهم أيّ أغلف نجس.

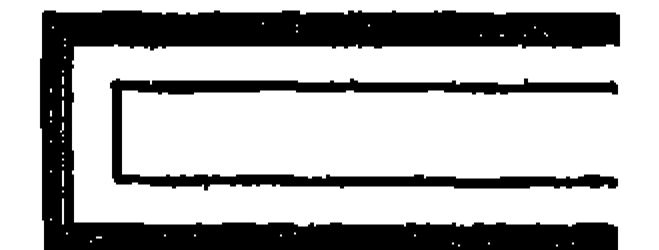
ولكن كيف سيفعل المؤمنون الأتقياء ذلك؟ هذا هو مـا يوقفنـا على سبله الاستراتيجي الصهيوني أوديد يينون:

«إن العالم العربي ـ الاسـلامي عالم تفصـح أوضاعـه الوطنيـة، العرقية والطائفية عن افتقار بالغ إلى الاستقرار وتنبىء عن استعداد للتفتت والانهيار.. ذلك العامل، بطوائفه وأقلياته وشيعـه وانقسامـاته الداخلية (منطو على عـوامل) كلهـا مفضية إلى تـدميره داخليـاً وكلها تجعله عالماً غيرَّ قادر على حل مشكلاته الأساسية المشتركة التي تفعل فعلهـا المـدمـر فيـه.. ومتى أضفنـا إلى ذلـك البُعـد بُعـدَ العـامـل الاقتصـادي، أمكننا أن نتبـين كيف أن، وإلى أي مدىً يمـاثل بنيـان البلدان العربية المحيطة بنـا برجـاً من ورق اللعب ليست لديـه أدنى فرصة للتصدّي لمشكلاته الخطيرة.. ومصر أكثـر تلك البلـدان ترنّحـاً وأخطرها متاعب. فالملايين من أهلهـا على شفـا الموت جـوعاً. ونصف سكانها من العاطلين المحتشـدين، بلا أيـة مرافق لازمـة للعيش، على رقعـة ضيقة من أشـد بقاع العـالم اكتظاظـاً بالسكـان. فباستثنـاء الجيش، لا يوجد ولو قطاع واحد يعمل بكفـاءة، والبلد كلـه في حالـة

إفلاس دائم، ولولا المعونات الأميركية، وهي من ثمار معاهـدة السلام مع إسرائيل، لانهار اقتصاده.. **والواقع أن مصر قد ماتت. مصر قد انهارت، وتمزيق أوصال جثة مصر بتفتيت أراضيها إلى مقاطعات جغرافية وكيانات منفصلة عن بعضها البعض هو هدف إسرائيل السياسي الرئيسي على جبهتها الغربية. فمصر ـ متى مُزِّقت جثتها، وقُسِّمت، وانهارت مبعثرة في كيانات متعادية متناحرة ـ لن تعود تشكّل أدنى خطر على إسرائيل بل ـ على العكس ـ ستصبح مصر المفتّتة ضمانة تكفل الأمن لإسرائيل لوقت طويل.**
وبالاضافة إلى مصر، سيلحق المصير نفسه الذي ينتظرها بالبلدان المجاورة لها، ليبيا، والسودان، بل والبلدان العربية الأبعد من ذلك. فلسوف تشارك كل تلك البلدان مصر سقوطها وانهيارها وتفتّتها. **«أما العراق الثري بنفطه، فيظلّ بكل تأكيد على رأس قائمة أهداف إسرائيل. بل إن العمل على تدميره وتفتيته أهم لإسرائيل بكثير من تدمير سوريا وتفتيتها. لأن قوة العراق تظلّ، على المدى الطويل، أكبر خطر يتهدد إسرائيل. ولذا، فإن إشعال نيران حرب بين العراق وأي بلد آخر مطلب يمكن أن يؤدّي تحقيقه إلى إضعاف العراق وتفكيكه وقطع الطريق عليه قبل أن يتمكن من تنظيم النضال ضد إسرائيل بشكلٍ ذي مغزى. فكل مواجهة يمكن إشعال نيرانها بين العرب وبعضهم بعضاً عون لنا يساعدنا على الاستمرار في المدى القصير، ويمكّننا ـ على المدى الطويل ـ من التعجيل ببلوغ الهدف الأقصى وهو تفتيت العراق وتقسيمه إلى كيانات متناحرة كما حدث في لبنان، وكما سيحدث لسوريا. فسوريا يجب ولسوف تنحلّ إلى عدة كيانات على الأساس العرقي والطائفي الذي استخدم في لبنان، فتصبح هناك دويلة شيعية علوية، ودويلة سنية في حلب، ودويلة في دمشق. أما العراق فيجب تقسيمه بحيث تصبح هناك ثلاث دويلات أو أكثر تتمركز حول مدنه الثلاث الرئيسية البصرة، وبغداد، والموصل، فتستقل المناطق الشيعية في الجنوب عن المناطق**

السنية في الشمال، وتفصل المناطق الكردية.. ولسوف يكون ذلك الانحلال والتفتت الضمانة طويلة الأجل للأمن والسلم في المنطقة بأسرها، وهو هدف بوسعنا العمل على بلوغه من اليوم»[٨٣].

***



هوامش الباب الثالث

(١) شفيق مقار: «السحر في التوراة والعهد القديم»، لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ص ص ٤٣٧ ـ ٤٥٦.

(٢) انظر Raphael Patai, **«The Jewish Mind»,** New York: Charles Scribner's Sons, 1977.

وانظر أيضاً كتابه:
«Man and Temple in Ancient Jewish Myth and Ritual», KTAV, New York, 1967,

(٣) انظر Gershom Scholem: **«The Messianic Idea in Judaism»,** Schocken Books, New York 1971, p.261.

(٤) ارجع في ذلك إلى كتاب باتاي «الذهن اليهودي» ص ص ٧٨ و ٧٩.
وارجع في شأن أسفار أخنوخ، وسليمان، وأبناء يعقوب الاثني عشر إلى:
«The Forgotten Books of Eden» Rutherford Platt, ed., New York: Bell Publishing Company, 1981.

(٥) John Allegro: **«The Chosen People»,** Panther, 1973, p.27.

(٦) Bishop Eusebius in his **«Storia Ecclesiastica»,** quoted by John Romer in **«Testament»,** London: Michael Omara Books Ltd, 1989, p.225.

(٧) ارجع في شأن سحرية الأعداد في التصورات القبّالية وفي اليهودية بشكل عام إلى شفيق مقار: **«السحر في التوراة والعهد القديم»،** ص ص ٤٦٣ ـ ٥٠٤.

(٨) بعد موت الاسكندر الأكبر، تنازع قادته امبراطوريته الشاسعة، وحاول كل منهم أن يجعل من نفسه الوريث الوحيد لتلك الامبراطورية. غير أن العصر الهلينستي (الأعوام الثلاثمائة التي امتدت ما بين موت الاسكندر وظهور الامبراطورية الرومانية، وغلبت خلالها الثقافة الهيلينية على أنحاء العالم القديم) شهد تجزئة ميراث الاسكندر إلى ثلاثة ممالك بدأ بزوغها حوالي سنة ٢٧٥ ق. م.: مملكة البطالمة في مصر، (وقد حكمت في أوقات مختلفة جنوبي سوريا، وأجزاء من جنوب تركيا، وبعض جزر بحر إيجه، وقبرص، وليبيا) ومملكة السلوقيين في بابل وسوريا، ومملكة مقدونيا، مسقط رأس الاسكندر.
كان أنطيوخس الثالث (وقد لقّب بأنطيوخس الأكبر ٢٢٣ ـ ١٧٥ ق. م.) أشهر ملوك السلوقيين، أول من تنبه إلى خطر مشاعر الخصوصية لدى اليهود على استقرار المملكة، فبدأت في عهده محاولة استيعاب عبادة يهوه في عبادة زيوس. إلا أن تلك المحاولة بلغت أشدها في عهد ابنه أنطيوخس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٣ ق. م.) مما أدى إلى نشوب ثورة المكابيين (نسبة إلى الأسرة الكهنوتية التي قادت التمرد اليهودي) وهي ثورة استمرت من عهد أنطيوخس الرابع (ابيفانس) إلى سنة ٣٧ ق. م.

(٩) ونلاحظ أن باتاي أوردها «قدس الاقداس» لا «قدوس القديسين».

(١٠) ارجع إلى كتابه الهام السابق الاشارة إليه «النصوص المسيحانية»، ص ٤.

(١١) صلاة العميده، التي تعرف شعبياً لدى اليهود باسم «المباركات الثمان عشرة» هي وصلاة الـ «شيما» (صلاة «اسمع يا إسرائيل» تثنية ٦: ٤ ـ ٧)، أهم ما يردده اليهود من صلوات ثلاث مرات يومياً، وتعنينا منها فقراتها التالية:
«٧ ـ انظر إلى عذابنا وحارب من أجلنا وافدِنا بحق اسمك لأنك أنت فادٍ عظيم. تباركت يا يهوه، يا فادي إسرائيل.
١٠ ـ انفخ في شوفار (بوق) حريتنا العظيم، وارفع رايةً لتجمع منفيينا وتجمعنا من أربعة أركان الأرض. تباركت يا يهوه، يا جامع المنفيين، شعبك إسرائيل.
١٤ ـ وإلى مدينتك يروشلايم عُدْ واشفِق علينا واسكنها كما تكلمت وأَعِد بناءها سريعاً في أيامنا لتظلّ قائمةً إلى الأبد، واقم فيها من جديد عرش داود سريعاً. تباركت يا يهوه، يا باني يروشلايم.
١٥ ـ دع القضيب الخارج من صلب داود خادمك يبزغ سريعاً وارفع قرنه بخلاصك لأننا كل يوم نأمل في غوثك. تباركت يا يهوه، يا من تجعل قرن الخلاص ينمو».
و«القضيب» الذي تتعجل الصلاة ظهوره هو الموعود في سفر إشعياء (١١: ١ ـ ٥)، أي «مسيح يهوه»، وهو الذي يقول عنه المزمور الثاني «قد مسحت مَلِكي على صهيون جبل قُدسي.. اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض ملكاً لك. تحطمهم بقضيب من حديد. مثل إناء خزّاف تكسرهم». ذلك القضيب الذي «من حديد» هو السلاح الأقصى الذي وعد يهوه به «الشعب»: «ويخرج قضيب من جذع يسى وينبت غصن من أصوله» (اشعياء ١١: ١)، وفي تصوير إشعياء الأول له تزاوجَ مفهومُ القائد الصلب الذي يحطم أعداء الشعب، ومفهوم الرئيس القضيبي الممثِّل للمعبود القضيبي على الأرض وفارض شريعة ذلك المعبود على كل الأرض: «هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرّت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم.. لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته» (إشعياء ٤٢: ١ و ٤). وفي هذه الصورة التكميلية له التي صورها إشعياء الثاني، يصبح ذلك القائد القضيب ممثل المعبود القضيبي يهوه على الأرض ذائباً في «الشعب» الأثير إلى قلب يهوه مجسِّداً له ويحقق به غرض يهوه من خلق العالم وهو تملّك «الشعب» للعالم. ولفظة «الجزائر» الواردة بالنص تعني ما أسمته التوراة بعد حكاية برج بابل بـ «جزائر الأمم».

(١٢) Moses Gaster, «**Studies and Texts in Folklore, Magic, Mediaeval Romance, Hebrew Apocrypha and Samaritan Archaeology**» KTAV, N.Y. 1971, Vol.I, pp. 92 - 93.

(١٣) Raphael Patai «**The Hebrew Goddess**», Detroit: Wayne State University press, 1990, p.259.

(١٤) Isaac Asimov, «**Asimov's Guide to the Bible**», New York: Avenel Books, p.1215.

(١٥) نحن مدينون بهذه التسمية، «جحيم المغفلين»، للمثقف الانجليزي مارتين ايمس الذي جعلها عنواناً لكتاب وضعه عن خبراته الشخصية والثقافية في «وطنه الثاني» أميركا:
Martin Amis, «**The Moronic Inferno**», Penguin, 1987.

(١٦) ارجع في ذلك إلى «نهب أساطير الشعوب»، بكتابنا «قراءة سياسية للتوراة»، ص ص ٩٥ ـ ٢٠٤ ـ و«الآلهة و«الشعب»»، والكهنة والإله و«الشعب»، بكتابنا «**السحر في التوراة والعهد القديم**»، ص ص ١٩ ـ ٧١ و ٧٣ ـ ١٤١.

(١٧) Amis: «**The Moronic Inferno**», op. cit. p. 111.

(١٨) Alistair Cooke, «**The Americans-Letters from America on Our Life and Times**», Penguin, 1980, p.66.

(١٩) شفيق مقار: «**السحر في التوراة والعهد القديم**»، المرجع السابق الاشارة إليه، ص ص ٩ و ١٠.

(٢٠) John Naisbitt, «**Megatrends**», New York: Warner Books, 1984, pp. 269 - 270.

(٢١) Time Magazine., «**Protestantism's Foreign Legion**», 16 Feb. 1987, p.48.

(٢٢) أو، كما يقولون في أميركا: 'God's chillun'!

(٢٣) لفظة Pentecost تعني عيد «الخمسين»، أو «العنصرة» عند المسيحيين، وهو المقابل لعيد «الشافوت» عند اليهود وهو من أعياد الحصاد، ويحتفل اليهود به في اليوم الخمسين التالي لعيد الفصح (لاويين ٢٣: ١٥ ـ ٢٢).

وعندما أخذ المسيحيون «يوم الخمسين» عن اليهود، كان ذلك لأن «الروح القدس ظهر لحواريي المسيح كألسنةٍ منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم، فامتلأوا جميعهم من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا» (أعمال الرسل ٢:١ ـ ٤).

وقد تلبث موضوع «التكلم بالألسنة» هذا في «إيمانيات» الكنيسة الخمسينية»، أي الـ Pentecostal Church، وأخذته عنها حركة «النعم الروحية charisms» التي ظهرت في الستينيات من هذا القرن كتفرع للكنيسة الخمسينية، وعرفت طريقها إلى الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٩٦٦، وانتشرت بعد ذلك لدى كل الطوائف المسيحية الأميركية خلال السبعينيات باسم «the Charismatic Movement» أي الحركة المنبنية على الإيمان بالنعم التي ينعم بها الروح القدس على المؤمنين متى اتّبعوا هداية قساوستها.

نشأت الكنيسة الخمسينية في أميركا في مطلع القرن العشرين، وحققت انتشاراً سريعاً خارج الحدود الأميركية بدعواها الخاصة بالنعم التي تستمد من العماد بالروح القدس.

ومن الوعاظ الانجيليين المشهورين شهرة القس بيكر، فضيلة القس «أورال» (الشفهي أو الفمي) روبرتس (Oral Roberts).

و«كنيسة النعم» (Charismatic Church) آخذة الآن في غزو الساحة الدينية لبريطانيا بنشاط بالغ ينتظر أن يصل إلى ذروته قبل انقضاء وقت طويل عن طريق الترويج التلفزيوني وتحويل العبادة داخل الكنائس إلى شيء أقرب إلى الميوزيكهول.

(٢٤) فقد اضطرت المؤسسة الحاكمة الأميركية ـ مخاطرة بإغضاب من يقفون وراء الحركة الأصولية ـ إلى «صون عفة العدالة الأميركية»، فقدمت فضيلة القس بيكر للمحاكمة، وطالت المحاكمة لأكثر من ٢٥ يوماً أدان المحلفون في نهايتها فضيلة القس في ٢٤ تهمة انصبّت كلها على النصب على المؤمنين واستخلاص ملايين الدولارات من جيوبهم بأستخدام التلفزيون، والتليفون، والبريد. ولم تتعرض المحكمة للجوانب الدينية في القضية، غير أن المحلّفين استقبلوا بفتور بالغ محاولة قام بها القس للتأثير في سير القضية بترديد «آيات» من المزمور ١٧ تقول «جربّت قلبي، تعهدته. تفحصتني فلم تجد فيّ ذموماً.. تمسكت خطواتي بآثارك فما زلّت قدماي.. بظل جناحيك استرني. من وجه الأشرار الذين يخربونني»!

=

وفي نهاية المحاكمة لم يستطع القاضي روبرت بوتـر أن يكف نفسه عن القـول، مشيراً إلى شهود الدفاع من المؤمنين الـذين شهدوا لصـالح القس، أنهم أنـاس «لهم عقلية أتبـاع جيم جونز» مشيراً بذلك إلى المؤمنين الـذين قتلوا أنفسهم وأطفـالهم في غيانـا انصياعـاً لأمر جيم جونز، ثم أضاف قـائلاً «لقـد رأيت هؤلاء الناس بعيني رأسي، ورأيت أنهم مـا زالوا مؤمنين بأن بيكر مستطيع أن يسير على الماء متى شاء»!

(٢٥) ارجع في ذلك إلى: **Asimov's Guide to the Bible,** op. cit. pp. 45 - 46.
وإلى:
Graves & Patai, **«Hebrew Myths»,** New York: Anchor Books, 1989, p.124

(٢٦) **The Columbia History of the World,** New York: Harper & Row, 1986, pp. 154 - 155.

(٢٧) John Allegro, **«The Chosen People»,** Panther, 1973, p.224.

(٢٨) Ibid., p.224.

(٢٩) **Asimov's Guide to the Bible,** op. cit., p.46.

(٣٠) Hugh Brogan, **«History of the United States»,** Pelican, 1986, p.64.

(٣١) Hertzberg, **«The Jews in America»,** op. cit., p.39.

(٣٢) ارجع في ذلك إلى: Patai, **«The Myth of the Jewish Race»,** op. cit.

(٣٣) Paul Findlay, **«They Dare to Speak Out»,** Lawrence Hill & Co., Westport, 1985, pp. 238 - 239.

(٣٤) James Finn and Leonard Sussman, (eds.): **«Today's American, How Free?»** New York: Freedom House, 1986, pp. 129, 130, 131.

(٣٥) Martin Amis, **«The Moronic Inferno»,** op. cit., p.114.

(٣٦) Finn & Sussman, (eds.) **«Today's American, How Free?»,** op. cit., p.138.

(٣٧) المصـدر: Oxford Analytica, **«America in Perspective»** (The Social Economic, Political, Fiscal and Psychological Trends that will shape American Society for the next 10 years & beyond), Houghton Mifflin.

(٣٨) ارجع في ذلك، كأمثلة، إلى:
(1) John Naisbitt's **«Megatrends»,** op. cit., pp. 269 - 270.
(2) Finn & Sussman, eds. **«Today's American»,** op. cit. 129 - 143.
(3) Oxford Analytica: **«America in Perspective»,** pp. 113 - 124 and 127 - 188.

(٣٩) Martin Amis's **«Moronic Inferno»,** op. cit., p.113 & p.114.

(٤٠) Oxford Analytica's **«America in Perspective»,** Chapter 4.

(٤١) **ارجـع في ذلك إلى كتـابينا «قـراءة سياسيـة للتوراة»، و«السحـر في التوراة والعهـد القديم».**

(٤٢) James Randi, **«Taking it on Faith»,** Committee for Scientific Examination of Religion, CNN TV Network, and NBC TV Network.

(٤٣) Sharif, **«Non-Jewish Zionism»,** op. cit., pp. 107 - 108.

(٤٤) Henry Gabot Lodge, speech at Boston, **June** 1922, reported in **New Palestine** (Jewish American Publication) Vol.2, on 26 **May** 1922, i.e. **before delivery by Lodge.**

(٤٥) Sharif, **«Non-Jewish Zionism»**, op. cit., pp. 109 - 110.

(٤٦) Reuben Fink, ed., **«America and Palestine»,** compilation published by the American Zionist Council, New York, **1945,** Senator A. W. Barkley's speech of **1 March, 1944.**

(٤٧) Ibid, Senator B C. Clark's speech of **28 March, 1944.**

ويلاحظ أن الخطب والكتاب الذي جمعت ونشرت فيه كانت في مرحلة الاعداد لإجراء «التقسيم» الذي كلفت الامم المتحدة بعد إنشائها في ١٩٤٥ بتنفيذه، فنفذته في سنة ١٩٤٧. وقد لاحظنا قبلاً أن مرحلة نشطة للغاية من الدعوة لـ «حقوق اليهود في فلسطين» بدأت قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية، عندما بدا واضحاً أن انتصار الولايات المتحدة في تلك الحرب كان قد بات مقضياً به. وقد كانت تلك بالذات المرحلة التي بزغ فيها بقوة النشاط الأصولي المسيحي على الساحة الدينية/ السياسية للولايات المتحدة.

(٤٨) Grace Halsell; **«Prophecy and Politics»,** Westport: Lawrence Hill and Co., 1986, pp. 15 - 16.

وقد نشر الكتاب مترجماً إلى العربية بعنوان **«الفكر التوراتي والحرب النووية»** عن دار الكندي بدمشق، الطبعة الثالثة ١٩٨٨.

(٤٩) Josephus: **«The Jewish War»**, G.A. Williamson, tr., Penguin Classics, 1985, P. 133

و**«الأسينيون»** طائفة يهودية شديدة التزمت، أقرب إلى النساك، دعيت أيضاً بالمغتسلين لكثرة اغتسال افرادها بالماء طلباً للطهارة، اختلفت عن سائر اليهود بنبذها لمبدأ تقديم الذبائح والقرابين، واحتقار المال، وضرب من «الشيوعية» المبكرة حرّمت تلك الفئة في سياقه الملكية الفردية، كما اختلفت عن سائر اليهود أيضاً بفكرة التعايش مع الشعوب الأخرى، وبازدراء فكرة المسح بالزيت باعتبار الزيت نجاسة. وقد اختفى الأسينيون من العالم قرب نهاية القرن الأول الميلادي.

أما **الصدوقيون،** فطائفة تمسكت بحرفية العقيدة اليهودية كما وردت في التوراة، ورفضت الأخذ بكل ما ورد خارج حدود أسفارها الخمسة، ولذا فإن الصدوقيين لم يؤمنوا بـ «القَدَر» أو «المكتوب»، ورأوا أن حرية الارادة مبدأ أساسي في الكون، وأن كل انسان يصنع مصيره بارادته وباختياره بين الخير والشر، كما إنهم ـ على أساس عقيدة التوراة ـ لم يؤمنوا بخلود الروح ولا بالملائكة ولا بالعقاب والثواب بعد الموت. فالانسان، كما علمت أسفار التوراة، يعاقب على سيئاته ويثاب على حسناته هنا على الأرض لا في أية حياة أخرى لاحقة. ويعتبر الصدوقيون الأسلاف الروحيين لطائفة القرّائين اليهودية العراقية.

وأما **الفريسيون** الذين ظهروا في اليهودية، هم أيضاً ـ كخصومهم الفكريين، الصدوقيين ـ في زمن المكابيين (القرنان الثاني والأول ق.م.)، فكانوا مجددين فأعلنوا أنهم آمنوا بخلود الروح، وبالملائكة وبالبعث. وكانت الأغلبية في السنهدرين (المجمع =

= الأعلى للديانة) للفريسيين، وأقلية المقاعد السبعين للصدوقيين. وفي جلسة من جلسات المجمع، تسبب بولس الرسول في اشعال شجار عارم بين الفريسيين والصدوقيين لأنه قال «أنا فريسيّ ابن فريسيّ. على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم». (اعمال الرُسُل ٢٣: ٦ ٩).

(٥٠) (Josephus): **The Jewish War** op.cit. p. 393

(٥١) Ibid., p.54.

(٥٢) Robert Friedman, in **The Village Voice,** 12 November, 1985.

(٥٣) Halsell, **«Prophecy and Politics»,** op. cit., p.9.

(٥٤) Ibid , pp. 106 - 107.

(٥٥) **Time Magazine,** 16 October, 1986, pp. 64 - 65.

(٥٦) Amis, **«The Moronic Inferno»,** op cit., p.118.

(٥٧) **«Christian Grassroots Support»,** Chapter in **«Prophecy and Politics»,** op. cit

(٥٨) Ibid., p.178.

(٥٩) Edward Tivnan, **«The Lobby-Jewish Political Power and American Fore-ign Policy»,** New York: Simon and Schuster, 1987.

(٦٠) Ibid, op. cit. pp. 181 - 182.

(٦١) Halsell, **«Prophecy and Politics»,** op. cit. pp. 178 - 181.

(٦٢) Hal Lindsay, **«The Late Great Planet Earth»,** New York: Bantam Books, 1980, pp. 40 and 47.

(٦٣) Jerry Falwell, **«Listen, America!»,** New York: Doubleday, 1980, p.113.
(ونلاحظ ان القس فالول تهوّد حتى في اختياره لعنوان كتابه. فـ «سمعا يا أمريكا!» هذه ترديد أمين لاستهلال الشيما، الصلاة الرئيسية اليهودية التي تبدأ بهذه الكلمات «سمعاً، يا اسرائيل!»).

(٦٤) R. Tekiner & others, (eds.): **«Anti -Zionism- Analytical Reflections»** Amana, Vermont, 1988, p.261.

(٦٥) Findlay, **«They Dare to Speak Out»,** op. cit., p.244.

(٦٦) Tivnan, **«The Lobby»** op , cit, pp. 182 - 183.

(٦٧) وحتى لا يبدو القول متسماً بأي تعسف، نتذكر أن ايفانز كتب عن نفسه يقول أنه كان «شخصاً يهودياً في السابعة والثلاثين عندما ناداه الله ومسحه»، تماماً كما حدث لشاول قبل ايفانز بقرون. ومما يشير إلى وعي المستر ايفانز بالمدى الذي يمكن أن تصل إليه البلاهة الإنسانية، أن الرجل لم يستطع ـ فيما يبدو ـ أن يكف نفسه عن لمسة سخرية ببلاهة من يعلم أنه يتعامل معهم ولعابهم منهال على صدورهم، فدرج على أن يوقع رسائله إلى «المؤمنين» باسمه الكريم مذيلاً بهذه الصفة «المعيّن من قبل العناية الإلّهية» (Under Divine Appointment)!

(٦٨) Ruth W. Mouly's contribution to **«Anti-Zionism»,** op. cit., p.263.

(٦٩) تذكر هذه المعلومة الباحثة جريس هالسل في كتابها المشار إليه (النبوءة والسياسة»)، ص ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

=

= وعن ارتباط بوش بالأصوليين، تذكر (ص ١٣ من كتابها) أن «جيري فالول أقام حفل غداء في واشنطن يوم ٢٥ يناير ١٩٨٦ تكريماً لنائب الرئيس (آنئذ) جورج بوش، وأن فالول ألقى كلمة الحفل على الحاضرين معلناً أن بوش سيكون أحسن رئيس يمكن أن تنتخبه أميركا سنة ١٩٨٨».

(٧٠) Halsell: **«Prophecy and Politics»,** op. cit., p.5.

(٧١) Jimmy Carter, **«The Blood of Abraham»,** Houghton Mifflin Co., 1986, pp. 54 - 55.

(٧٢) **«America and the Holy Land»,** colloqium reported by the American Jewish Historical Quarterly, September 1972 issue.

(٧٣) Halsell, **«Prophecy and Politics»,** op. cit., pp. 32 - 33.

(٧٤) ارجع في ذلك إلى كتاب جريس هالسل المفزع، **«النبوءة والسياسة»** السابق الإشارة إليه، ص ص ١٦٩ ـ ١٧٢.

(٧٥) يحسن ـ تحديداً للمعنى ـ التوقف عند هذه التسمية. فالعقلانية، كما هو واضح، نقيض «اللاعقلانية»، والعقل نقيض «اللاعقل». واللاعقل هو كل قول أو «فكر» لا يستطيع العقل أن يقبله. فالعقلانية ترفض التسليم بأي اعتقاد يتأسس على أي أساس خلا الخبرة العملية والمعقولية المستمدة من الفعل الذهني المسمّى بالاستدلال الذي يخلص من وقوفه على علاقة المبدأ والنتيجة بين قضية وقضية إلى الحكم بصدق القضايا أو بطلانها، وتفرُّعِه الاستنباطيّ الذي يعتبر البرهان الرياضي أرفع صوره. وباختصار، يعني مصطلح «عقلاني» التمسك بأن العقل هو السبيل الوحيد إلى الحقيقة، ومن أئمته ديكارت، واسبينوزا، ولايبنيتز.

أما الإنسية فأكثر معانيها شيوعاً في الفكر ،ربْط المعرفة والأخلاق بأوضاع الخبرة الانسانية انطلاقاً من مقولة بروتاجوراس أن الإنسان مقياس كل شيء.

(٧٦) Edward Gibbon, **«The Decline and Fall of the Roman Empire»,** one volume abridgement edited by D.M. Low, London: Book Club Associates, 1960, p.10.

(٧٧) Halsell: **«Prophecy and Politics»,** op. cit., p.32 & p.45.

(٧٨) انظر في ذلك:

شفيق مقار، **«ظاهرة غورباتشوف»**، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩٠.

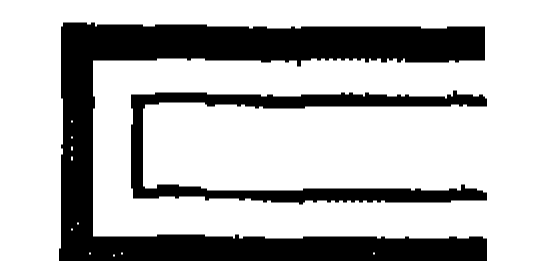
(٧٩) شفيق مقار، **«قتل مصر، من عبد الناصر إلى السادات»**، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٩، «وثيقة يينون ـ استراتيجية لإسرائيل»، ص ص ٣١٥ ـ ٣٢٠.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٣١٦.

(٨١) Noam Chomsky, **«The Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians»** Boston: South End Press, 1983, pp. 123 - 124.

(٨٢) Halsell: **«Prophecy and Politics»,** op. cit., p.141.

(٨٣) «وثيقة يينون»، بالمرجع السابق الإشارة إليه، **«قتل مصر من عبد الناصر إلى السادات»**، ١٩٨٩، ص ص ٣١٦ ـ ٣١٩.



خلاصة الكتاب

تساءلنا، في طرحنا للفرض الموجّه للبحث:

(١) هل للدين دور في صنع وتكييف دور غربيّ في مسيرة المشروع الصهيوني؟

(٢) ما نوعية الفعل الذي باشره العامل الديني في المجتمعات المسيحية الغربية في ذلك الخصوص؟

(٣) ما الذي يمكن أن يفضي إليه فعل ذلك العامل الديني فيما يخص سكان الشرق الأوسط وما وراءه؟

وقد خصصنا لكل تساؤل من هذه التساؤلات الثلاثة باباً من أبواب الكتاب حاولنا فيه الوقوف على إجابات ذات صلاحية علمية تقوم على براهين يقبلها العقل من واقع ما قادنا إليه البحث من معطيات استظهرناها من مختلف مصادره، وأولها وأهمها «العهد القديم» وحاشية «العهد الجديد»، رؤيا يوحنا اللاهوتي.

وفي هذه الخلاصة للكتاب المتضمّن تلك المعطيات وتحليلنا لها واستقراءنا لمدلولاتها، يتعين الوقوف، طلباً للوضوح والتحديد عند ماهية ما أسميناه بـ «المشروع الصهيوني» ومسيرته.

بإيجاز، عُرّفت الصهيونية بأنها حركة سياسية ذات مطامع إقليمية نشأت عن اضطهاد اليهود في أوروبا لـ «تحرر» اليهود وتعيد تجميعهم كـ «أمّة» على «أرض الميعاد».

والصهيونية، في حقيقتها، حركة علمانية ذات منطلقات وتوجهات أرضية للغاية، قادها ويقودها أناس معظمهم ملاحدة. إلا أنها ـ كضرورة سياسية ـ ظلت، رغم إلحاديتها الأصيلة، جاهدة في الاستناد إلى الدين.

ولم يكن ذلك الاستناد إلى الدين من جانب الحركة الصهيونية من قبيل الكلبية (cynicism) السياسية فحسب، بل كان ضرورة فكرية أملاها الاعتبار الجوهريّ المتمثّل في أن اليهود الذين نشأت الحركة لـ«تحريرهم» وجعلهم «أمّة» و«إعادتهم إلى وطنهم»، ليسوا مجموعة بشرية يمكن الادّعاء بأنها «جنس»، أو «عرق»، أو «شعب»، وكل ما يمكن إعطاؤهم هوية معينة من خلاله هو الانتماء إلى الديانة اليهودية. ولذلك، كان التشبّث بـ «يهودية» اليهود كأتباع ديانة اسمها اليهودية أمراً حيوياً لا غنى عنه للصهيونية، حتى وإن كانت حركة إلحادية.

وبالإضافة إلى ذلك الاضطرار، ظلّ هناك العامل المتمثل في أن تلك الديانة ـ التي لا سبيل سواها للصهيونية إلى إعطاء هوية لمن قامت لـ «تحريرهم» من أفراد الشعوب الأوروبية وغيرها ـ ديانة أعطاها صياغتها التي وصلت عصرنا بها رجل قانون هو «الكاتب عزرا». وفي صياغته لليهودية من خلال تحرير العهد القديم بالحذف والإضافة والإقحام والإدخال والتعديل، بادئاً بذلك عملية طالت لوقت طويل بعد مماته، أعطى ذلك القانوني، الكاتب عزرا، الديانة التي ركّبها موسى حول شخصية الإلّه المستعار من المديانيين، يهوه، مما استعاره لها من الديانة المصرية، صبغةً قانونيةً تعاقديةً انعكست في عملية تجميع الكتاب المقدس على أيدي آباء الكنيسة المسيحية على تسمية جزئيه بـ «العهد» القديم، و«العهد» الجديد. وفي تلك الصبغة «التعاقدية» بين الله والبشر، وجدت الصهيونية في اليهودية سنداً إيمانياً قوياً لدعاواها.

وقد تمثّل ذلك السند القانوني الإيماني في القول بأن الله (يهوه المدياني الذي كان أصلاً بعل فغور) تعاقد مع أبراهام ويعقوب وإسحق (باعتبار أولئك السادة «آباء للشعب») على إعطائهم، مُلكاً أبدياً لهم ولنسلهم، (باعتبار أن ذلك النسل هو اليهود، أي الروس والبولنديون والأميركيون والانكليز والهولنديون، وغيرهم ممن ينتمون

إلى الديانة اليهودية) كل الأرض الممتدة من نهر النيل إلى نهر الفرات.

وباستنادها الضروري هذا إلى اليهودية، كان طبيعياً أن تقتبس الحركة الصهيونية السياسية الاقليمية التوجّهات والمطامع العلمانية والإلحادية، من اليهودية، الأسطورية التي تضمنها كتاب تلك الديانة، أي العهد القديم، وسائر كتاباتها الأخرى كالتلمود والزُّهار وغيرها.

وفي سياق اقتباسها لتلك الأسطورية الدينية، أدمجت الحركة الصهيونية في معمارها «الفكريّ» عن طيب خاطر، بل وبترحيب كبير في الواقع نظراً لفوائده الرومانسية، المفهوم المسيحاني (حكاية المسيح المنتظر) وحلم العصر الألفي السعيد.

وكما أوقفنا البحث، كان اكتشاف الصهيونية اليهودية لفوائد المسيحانية والعصر الألفي السعيد من خلال تمعّن قادتها في توجّهات وأفكار ودعاوى الصهيونيين المسيحيين الذين كانوا قد سبقوا ظهور الصهيونية اليهودية بثلاثة قرون.

وكما أوقفنا البحث أيضاً، كان التوجُّه الصهيوني ـ المسيحي السباق ذاك من النواتج الفرعية لحركة «الاحتجاج» على سلطان كنيسة روما الكاثوليكية، وهي الحركة التي نشأت من عريضة احتجاج (protestia) ألمانية على محاولة البابوية إحكام قبضة روما على كل البلدان المسيحية الغربية سنة ١٥٢٩. فمن تلك الـ(protestia)، نشأت البروتستانتية التي تصدت لروما بـ «حَرْفية» الكتاب، أي العهد القديم، كما استوضحنا فيما سبق (والـ «حَرْفية» هنا معناها «الأصولية»)، كما تصدّت لسلطان البابوية بالاتجاه إلى «أورشليم» كبديل لروما وكعاصمة روحية للمسيحية الجديدة «المحتجة».

من هذه التحركات الاحتجاجية المناوئة للبابوية وسلطان روما، بدأ مسار «روحي»/ فكريّ قاد البروتستانتية إلى الارتماء في أحضان

اليهودية وأوجد تياراً من التعبرُن وصل إلى ذراه في نبتات التطهرية والانجيلية التي نبتت من النضال البروتستانتي ضد الكاثوليكية. والذي حدث هنا أن حركة الاحتجاج الديني التي عرفت باسم البروتستانتية نشأت أصلاً عن دوافع أرضية دنيوية تمثّلت في رغبة أمراء ألمانيا، وتجار انكلترا وهولندا في نفض النير البابويّ الثقيل عن كواهلهم وإخراج اليد البابوية من جيوبهم وخزائنهم. واذ تلفّت المحتجون حولهم باحثين عن السند الإيمانيّ لانقلابهم على السلطة الكنسية التي كانت قد ادّعت لنفسها أنها هي «مملكة المسيح على الأرض»، أي الكنيسة الكاثوليكية، لم يجدوا ذلك السند إلا في اليهودية وهي الديانة التي ظلت من مبدأ أمرها دنيوية أرضيّة التوجهات وقائمة على مبدأ الربح والخسارة، هنا على الأرض، لا في الملأ الأعلى. فكان الاندماج البروتستانتي في اليهودية وما ترتب عليه من تعبرُن متعاظم للمسيحية في نسختها البروتستانتية، أمراً شبه مقضيّ به منذ بزغت البروتستانتية.

وفي سياق ذلك التعبرُن، بحثت البروتستانتية عن أي شيء يمكن أن يبقِي على مبرر لاستمرار العرْض المسيحي في صياغتها الجديدة للديانة، فلم تجدَ ـ في واقع الأمر ـ إلا «رؤيا» الكاهن اليهودي (الذي دعي باسم «يوحنا» وأطلق عليه وصف «اللاهوتي») التي ألصقت، بعد طول تردد ومعارضة، بذيل العهد الجديد.

وباستماتة تلفيقية (syncretistic) غريبة، سدرت مختلف الشيع البروتستانتية في محاولة التوفيق بين الصيغة المسيحية لتوقّع المجيء (الثاني) للمسيح، والصيغة اليهودية للمسيحانية، أي انتظار المجيء (الأول) للمسيح المنتظر، على الرغم من كل ما هنالك من:

«اختلافات لاهوتية تفصل ما بين الأصولية المسيحية ومسيحانية اليهود التقليديين. فدعاة الألفية اليهود يتمسكون بأن المسيح المنتظر سوف يأتي أولاً ثم يقود كل «بني إسرائيل» عوداً إلى صهيون. أما

قرناؤهم المسيحيون فيؤمنون بأن إعادة «الشعب اليهودي» إلى الأراضي المقدّسة جزء واحد فقط من كلٍ لا يتجزأ من الخطوات التمهيدية اللازمة لعودة المسيح الذي سيعترف به كل النوع البشري، بما في ذلك اليهود، بوصفه المسيح المنتظر. والعوار الجوهري في هذا الصنف من اللاهوتية المسيحية مثيل لعوار «لاهوتية» الدعاة الصهيونيين الذين يجتهدون عن عمد في الخلط بين المسيحانية الروحانية الأصيلة لبعض اليهود وبين السياسات العلمانية والمرامي السياسية للدولة الصهيونية»[1]

وبطبيعة الحال، نظراً لاتّصاف الصهيونيين المعاصرين بالقدرة المرنة على ما أسماه الحاخام إلمر برجر، الذي أوردنا الاستشهاد السابق من كلامه، بـ «الاحتيال السياسي الكلبي (cynical) المفهوم فيما يخصهم»[2]، لا يجد الصهيونيون القائمون بتنفيذ المشروع الصهيوني ضرراً، بل يجدون منافع لا تحصى، في مسايرة الأصوليين المسيحيين. فالصهيونيون، حتى وهم يسمعون الأصوليين المسيحيين يعلنون عن أملهم في تحويل اليهود إلى المسيحية، يحمدون لأولئك الأصوليين حمياهم الدينية لأنهم، بتلك الحميا، قد ساعدوا الصهيونية اليهودية على تحقيق أول خطوة هامة من خطوات المشروع، وهي إقامة دولة إسرائيل، وهو ما عبّر عنه ببلاغته المعهودة بنيامين نتنياهو الذي كان سفيراً لإسرائيل لدى الأمم المتحدة في كلمة ألقاها أثناء صلاة الصباح التي يقيمها المسيحيون الأميركيون لإسرائيل، عندما دعي للاشتراك في تلك الصلاة في مستهل فبراير ١٩٨٥. وفي كلمته، أشاد نتنياهو بـ «الزمالة التاريخية بين المسيحيين المؤمنين واليهود، لأن تلك الزمالة قد عملت بنجاح على تحقيق الحلم الصهيوني».

وفي كلمته، تعجب نتنياهو كثيراً من جهل أولئك الذين يجدون مدعاة للدهشة فيما يقدمه المسيحيون الأميركيون الانجيليون من

تأييد قويّ وراسخ لإسرائيل ويصورونه كظاهرة جديدة. «فأولئك الذين يعرفون التاريخ الحقيقي للانخراط المسيحي العميق في الحركة الصهيونية لا يجدون أي مدعاة لأية دهشة أو تساؤل بشأن الدعم القوي الذي يقدمه لإسرائيل كل المسيحيين المؤمنين في العالم».

وتساءل نتنياهو: «لأنه، بعد كل شيء، ما هي الصهيونية؟» ثم أجاب على تساؤله بقوله: «لقد ظل هناك دائماً، في التراث اليهوديّ المسيحيّ المشترك، شوق عارم، من قديم، إلى عودة اليهود إلى أرض إسرائيل. وقد ظل ذلك الشوق متوقّداً كالجذوة تحت السطح طوال ألفين من السنين إلى أن انفجر متمثلاً في الصهيونية المسيحية فجعل الكتّاب والقساوسة والصحفيين والفنانين ورجال الدولة، بريطانيين وأميركيين، دعاةً متحمسين لإعادة اليهود إلى وطنهم الذي كان قد بات قفراً.. ولم تكن هذه الصهيونية المسيحية قاصرة على الدعوة أو على المثاليات بل امتدت إلى الخطوات العملية اللازمة لتحقيق ذلك الذي كان حلماً».

وهذا كلام يمس شغاف القلوب الورعة ويملؤها بنور الإيمان وبيقين الثواب الصهيوني في هذه الدنيا وبالثواب اليهيوي في الآخرة (التي لا يؤمن بها اليهود لكنه لا ضير في تعلق المسيحيين بأهداب أملها). إلا أن السؤال الأهم يظل: هل قام المسيحيون الغربيون المؤمنون، وبخاصة في أميركا، بكل ما يمليه الإيمان عليهم من خطوات عملية، أم أنه ما زال عليهم أن يضطلعوا، تحقيقاً للحلم الصهيوني، بما هو أكثر مما اضطلعوا به حتى الآن؟

متى التزمنا بالحرفية الإيمانية (الأصولية)، وجدنا أن من اعترف نتنياهو بأنه لولاهم لما كان الحلم الصهيوني قد نبع أصلاً أو تحقق، لم يفعلوا حتى الآن أكثر من إعطاء المشروع الصهيوني ما يمكن تسميته بمنصة الاطلاق ممثّلةً فيما مكنّوا الحركة الصهيونية من أخذه من أرض فلسطين وما هم آخذين حالياً في تمكينها من أخذه من مزق باقية من فلسطين من خلال ما يقدم إليها من دعم مالي

وديبلوماسي وعسكري، ومن خلال تزويدها بالمهاجرين من الاتحاد السوفياتي وما كان يعرف باسم أوروبا عن طريق ما مورس من ضغط ماحق على الاتّحاد السوفياتي المنهار، باسم «الحقوق الانسانية».

ولكن، هل هذا هو المشروع؟ هل هو أُخْذ كلّ أرض فلسطين، وما هو لازم «لحماية الأمن» من أراض مجاورة، وحَشْد تلك الملايين التمهيدية من اليهود الراغبين في الهجرة من الاتحاد السوفياتي وغيره من بلدان ينتمي اليهود إلى جنسياتها؟

ما لم نتخلَّ عن الإيمان بحرفية كلّ كلمة في العهد القديم وسفر الرؤيا، يجب أن ندرك أنه ما زال على المؤمنين التقاة الذين جعلوا «الحلم الصهيوني» حقيقة واقعة أن يقوموا بالكثير مما دعاه قادة أميركا الزمنيون بـ «عمل الله على الأرض» وما يدعوه قادتها الروحيون بالخطوات اللازمة للتعجيل بمجيء المسيح.

وما لم نتخل عن الواقعية، يجب أن نسلم بأن الشيء الوحيد الذي يقف في وجه التحقق المكتمل للخطوة الأولى اللازمة لخلق الظروف المطلوبة لمجيء المسيح يتمثل في وجود كل تلك الملايين الضالة من الجوييم التي يمثل «المحمديون» أغلبيتها، على الأرض «المملوكة لليهود» الممتدة من النيل إلى الفرات.

وما لم نتناس الأمر الإلهي ببناء الهيكل الثالث وإخلاء الأرض من كل ما هو ومن هو ليس يهودياً، يجب أن نتوقّع حتمية السير قدماً في مشروع إزالة مسجد عمر وقبّة الصخرة من القدس وبناء الهيكل الثالث على الموقع بكل تلك الأموال التي تُجمع في أميركا تعجيلاً باستكمال تلك الخطوة الأخرى الضرورية للمجيء.

وما لم ندفن الرؤوس في رمال الورع المكذوب (والذي يمكن أن نتبين أنه مميت في سياق كهذا)، يجب أن نسلّم بأنه بعد أن تمكنّت اليهودية بمساعدة قوية من البروتستانتية وما أفرخته من أصولية

معبرَنّة من ابتلاع المسيحية والقضاء عليها كديانة متواجدة في العصر فعالة روحياً ومتمتعة بمصداقية لدى من يدعون أنفسهم مسيحيين في الغرب، لم يعد في عالم اليوم من القوى الروحية الفاعلة وذات المصداقية في وجه المدّ اليهو/ مسيحي، أي «العبراني» المقنّع مرحلياً وريثما تستكمل المرحلة الأولى من المشروع الصهيوني (أخذ كل الأرض الموعودة من النيل إلى الفرات) بقناع التآخي والائتلاف اليهودي المسيحي، إلا الإسلام.

وتتمثل خطورة الإسلام بالنسبة لذلك المد العبراني أرضيّ التوجّهات المنطلق صوب ابتلاع عالم بأكمله، في كون الإسلام، كما أسلفنا، الديانة التوحيدية الوحيدة التي ظلت متخذة موقفاً سوياً من الألوهة، ومن علاقة المخلوق بخالقه، وتمكّنت بذلك من إيجاد التوازن المستدقّ الصعب بين ما هو دنيويّ وما هو متعلق بالسماء. فديانة هذا شأنها يتجاوز عدد أتباعها البليون نسمة في أماكن حسّاسة ومطلوبة من العالم، خصم خطر يحسب له كل حساب في عصر صراع دموي بالغ الوحشية كالعصر الذي يتربص بالعالم والذي يجمله الأصوليون الأميركيون (الذين بدأوا يحتوون بريطانيا (أيضاً)(*) تحت اسم «هرمجدّون».

وهذا يعود بنا إلى التساؤلات الثلاثة التي طرحنا من خلالها الفرض الموجِّه للبحث، وإلى ما يمكن الخلوص إليه من نتاج بشأنها:

(١) تشير المعطيات المتوافرة بشكل لافت للنظر في مجال البحث إلى وجود **دور قويّ بالغ الفعالية للدين في صنع وتكييف الدور الغربي بالغ الوضوح في بدء وتسيير ودفع ودعم المشروع الصهيوني**، على النحو الذي شهد به بنيامين نتنياهو ويشهد به غيره من قادة إسرائيل والحركة الصهيونية **وتنطق به بوضوح بالغ أحداث كل يوم على ساحة صراع الشرق الأوسط.**

(*) بل والبلدان الكاثوليكية كاسبانيا وإيطاليا.

وكما أوقفتنا الحقائق التي قادنا إليها البحث، يستمد ذلك الدور الديني قوته وفعاليته في البلدان الغربية ذات الأغلبيات البروتستانتية، وبخاصة الولايات المتحدة، من ظاهرة «هَوَس» أو «لوثة» العهد القديم التي تلبثت في البروتستانتية كنتيجة لحربها السياسية التجارية مع الكاثوليكية. فالدين، في غمار تلك اللوثة تعبرَن واستمد حَرْفيّاته الأصولية مما وُصِف بأنه «كلمة الله» التي لا تحرَّف ولا تُخَالَف باعتبار أن العهد القديم، من أول حرف إلى آخر حرف فيه، هو تلك «الكلمة» التي يتعين على المؤمنين الالتزام بها والتصرف على هديها في تسيير شؤونهم. **وفي حالة أميركا المكلفة برسالة ألقتها على عاتقها يد الله نفسه كيما تقوم بعمله على الأرض، في تسيير شؤون العالم كله، تتخذ تلك الحتمية طابعاً بالغ الضراوة.**

ومن الأساسيات الجوهرية في ذلك الإيمان الحرفيّ الأصوليّ بقداسة كل حرف وكل كلمة في العهد القديم، «إسرائيل»، إسرائيل «الأمّة»، «الشعب المختار»، ابن الله البكر الذي تعهّد الله له بتعهدات مقدسة يملي الإيمان والصلاح تنفيذها بحرفيتها، وإسرائيل الدولة التي يقتضي تنفيذ تعهدات الله لإسرائيل الشعب إقامتها على كل أرض التوراة، من النيل إلى الفرات. **وفي حالة أميركا يتخذ ذلك الواجب طابع الفرض المقدّس الذي على كل أميركي مؤمن أن يؤدّيه.**

(٢) **فيما يخص نوعية الفعل الذي باشره هذا الإيمان الدينيّ القويّ في المجتمعات المسيحية الغربية بشأن تسيير ودعم المشروع الصهيونيّ** تشير المعطيات، ابتداءً، إلى أن الفكرة الصهيونية (تأسيس دولة التوراة على كل الأرض التي منحها الله لليهود من أيام أبراهام بوثيقة تمليك مقدسة هي التوراة) **لم تنبع أصلاً لدى اليهود، بل سبق ظهورها بين المسيحيين البروتستانت بثلاثة قرون أَخْذ اليهود بها، لا كفكرة دينية بل كهدف سياسي إقليمي في**

تخطيط هـرتزل وغـيره من الصهيونيـين اليهود لإنشـاء الدولـة اليهودية. وقد تلبّث هذا التباين الذي من قبيـل المفارقـة الصارخـة بين الصهيونية المسيحية والصهيـونية اليهـودية في استمـرار تخندُق المنظور الديني القائم على العهـد القديم لـدى الأصوليـين المسيحيين الصهيونيين مع إعطائه طابعاً مسيحياً من خلال إدخال رؤيـا يوحنـا اللاهوتي في المسألة، في حين ظلت الحركة الصهيونيـة في أصوليـاتها علمـانية إلحـادية وإن استخـدمت، على سبيـل الكلبية السيـاسية لا أكثـر، كما أشـار الحاخـام إلمر برجر، النصـوص التوراتيـة دعائيـاً ومسـايرة لأنصـارهـا المسيحيـين الأصـوليـين الـذين لا سبيـل إلى الاستغناء عن دعمهم لها في المرحلة الراهنة من المشروع، وهي مرحلة الاستيـلاء على كـل الأرض المتعاقـد عليها مـع الله وإقـامة «مملكـة التوراة» عليها.

وقد تمثل الفعـل الذي بـاشره هذا العـامل الـديني في المجتمعات المسيحيـة الغربيـة في موقف لا سبيـل إلى تسميتـه بـ «الـدعم»، أو بـ «الانحيان»، أو حتى بـ «التواطؤ» في تنفيذ وتوسيـع نطاق المشروع الصهيـوني، **بـل لا مهـرب من تسميتـه بـاسمـه الحقيقي وهـو الاندماج الكامل في تنفيـذ المشروع وتوسعـه المطّرد من خـلال ما استُـدرِجَت إليه الجمـاهير العـريضة في تلـك البلدان من عبـادة لإسرائيل.**

(٣) يقودنا كل هذا، عـلى ضوء مـا هو متـوافر من معطيـات، إلى **محاولة الاستبصار، عن طريق القياس، بما يمكن أن يفضي إليـه فعل هذا العامل الديني بالنسبة للبشر في منطقة الشرق الأوسط،** الساحة الراهنة لانطـلاقة المشروع الصهيـوني، وما سـوف يلي تلـك المنطقة من ساحات أوسع للمشروع الكوكبي.

فيمـا يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط، شهـدت المنطقـة وستظـل تشهد فيما هو مرجح:

أولاً: التصميم الأمـيركي الذي لا يحيـد عـلى تـأمـين التفـوق التقني والعسكري الاسرائيلي ابتـداءً من المجال التقليـدي ووصولاً إلى مجال القدرة النووية وقدرات الدمار الشامل.

والذي ينبغي ألا يغيب عن الذهن هنا أن موقعة هرمجدّون اتخذت في الـوعي الأميركي بـاستمرار منـذ بدأ التبشـير الأصولي بهـا بعـد ١٩٤٥ صـورة القصف النووي المكثف الـذي ستبـاد فيـه كـل تلـك الجيوش الشريرة «الصاعدة» من صفحات سفر حزقيال وسفر دانيال وسفر يوحنا اللاهـوتي على «المـدينة المحبـوبة» يـروشلايم، و«الأمـة المقدسة»، إسرائيل.

وإلى وقت قريب، كان الاتحاد السوفياتي المرشّح الأول لدور جوج الشرير قائد كل تلك الجيوش المكونة لزحف «أبناء الظلام» على «أبناء النور»، إسرائيل وأنصـارها من الأصـوليين المسيحيـين. لكن الاتحاد السوفياتي انسحب الآن من الساحة، **وبانسحابه سوف يتعين على «أبناء النور» إبـراز خصم يحل محلـه في دور جوج قـائد قـوات «أبناء الظلام»، ليكون هدفاً لما سـوف يوجهـه «أبناء النـور» من ضربات وقائية بغية تأمين استمرار التفوق الاسرائيلي العسكري التقليدي والنووي وبالتالي تأمين استمرار وضع إسرائيـل كقوة عظمى بالمنطقة.**

في ظلّ هذا التصميم الأمـيركي على تـأمين التفـوق الإسرائيلي، يرجّح أن تشهـد منطقة الشرق الأوسط تكثيفـاً متصاعـداً للدعم التقني والتسليحي الأميركي لإسرائيـل التي يترنم الأميركيون كل صباح معلنين «أنهم يحبونها لأن الله يحبها»، وبـالمقابـل لذلـك التصعيـد في قـدرات إسرائيـل العسكـريـة والنـوويـة تصعيـد للتصدّي الأميركي لكل ما يمكن الاشتباه في أنه قـد يشكل تحـدياً للتفـوق الاسرائيلي أو حتى مجـرد «إخلال بـالتـوازن» المفـروض لصـالح التفـوق الإسرائيلي تحت رايـات التوجّـه صوب تحـديد الأسلحة ونزع السلاح.

ثانياً: العمل الأميركي النشط المتصف بالتصميم، تحت رايات «الحقوق الإنسانية»، على **إمداد إسرائيل بسيل لا ينقطع من المهاجرين اليهود من كل مكان في العالم**، خلا الولايات المتحدة وبلدان الحلف الغربي حالياً حيث تتطلب مصالح الحركة الصهيونية المرحلية إبقاء أعداد اليهود فيها على ما هي عليه للاستفادة من قوتهم الضاغطة وقدرتهم ـ كأعضاء نشطين فاعلين في مجتمعات تلك البلدان ـ في الإعداد للمرحلة التالية لمرحلة الشرق الأوسط من المشروع الصهيوني، وهي المرحلة التي ستبدأ فيها الحركة ـ بعد أن تكون قد هضمت الشرق الأوسط وموارده ـ سلسلة من المواجهات المحسوبة من الآن مع تلك البلدان الأممية.

وتشهد منطقة الشرق الأوسط حالياً بدايات موجات الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين التي تنداح تلك الموجات عليها وتفترشها لتندفق ـ مع تعاظم الهجرة ـ إلى الأجزاء الأخرى من الأرض التي أعطاها الله لإسرائيل تماماً كما قال موشه ديان عندما سئل عن السبب في عدم قبول إسرائيل بتعيين حدود معينة وثابتة لها فقال «وما حاجتنا إلى ذلك وعندنا التوراة؟».

وبطبيعة الحال، ليس بمتصوّر أن تظل إسرائيل تستقبل كل تلك الموجات من المهاجرين موجةً إثر موجةٍ فتكدّس المهاجرين بعضهم فوق بعض ملتزمة بـ «حدود»، أياً كانت تلك الحدود، ولا تجد بوسعها، وهي القوّة الضاربة المتمتعة بالتفوّق العسكري والتقني والمدججة حتى الأسنان بالأسلحة التقليدية والكيماوية والبكتريولوجية والنووية وأعتدة التكنولوجيا العليا، والمدعمة دعماً لا يتزعزع ولا يحيد بالإيمان المسيحي الأصولي الأميركي، والمعبودة عبادة صوفية من الكثير من بلدان الغرب، أن تجد لأولئك المهاجرين المساكين الذين انتهكت حقوقهم الإنسانية طويلاً ولم يستردّوها بالكاد إلا بفضل الأخوّة المسيحية الأصولية الأميركية المتعجلة مجيء

المسيح، أرضاً من كل تلك الأراضي التي أعطاها الله لها، كما نبه فضيلة القس جيري فالول.

ثالثاً: العجز الأميركي الكامل إلى درجة العنّة، تحت رايات عدم القدرة على التدخل في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة ذات سيادة عضو بمنظمة الأمم المتحدة، عن أي تصدٍّ أو كبح جماح للعمل الإسرائيلي النشط المتصف بالتصميم والموجّه إلى إزاحة الفلسطينيين العرب بكل الوسائل من «الأراضي الجديدة»، أي الأراضي التي احتُلّت منذ سنة ١٩٦٧، نظراً «لتخوّف» الإسرائيليين من أن العرب «الذين يتوالدون كالأرانب» سيغيرون الطابع الديموغرافي لإسرائيل لصالحهم، ونظراً للحاجة العملية إلى الأراضي التي يعيش عليها أولئك العرب لليهود المهاجرين إلى إسرائيل. **وينسحب ذلك بالضرورة على كل عربي يظل** على أرض التوراة، سواء كان داخل حدود إسرائيل الحالية أو حدودها المستقبلية.

رابعاً: التعاون الأميركي النشط المتصف بالتصميم مع الدفع الإسرائيلي الحثيث صوب ما أسماه الاستراتيجي الاسرائيلي أوديد يينون بـ «هدم برج ورق اللعب» الذي هو العالم العربي. وبطبيعة الحال، وحرصاً على أواصر الصداقة الأميركية العربية، لن يتخذ ذلك التعاون أشكالاً علنية عدوانية، بل ستستخدم فيه «ديبلوماسياً» وودياً ومن خلال التآخي العربي الأميركي الوضعية الذكية التي أوجدتها الولايات المتحدة إثر خروجها من الحرب العالمية الثانية منتصرة لتحلّ محل حلفائها القدامى من الدول الامبراطورية في القيام بالرسالة التي ألقتها العناية الإلهية على عاتقها. وكما أسلفنا، **تمثلت تلك الوضعية في ضرب من الحكم من واشنطن بالتحكم البعيد لبلدان العالم الثالث التي كانت فيما مضى مستعمرات للقوى الامبراطورية مع الاستعاضة عن الاحتلال العسكري لتلك البلدان بقوات أميركية مثلما كانت الدول**

الامبراطورية تفعل قديماً، باحتلالها احتلالاً داخلياً بجيوشها «الوطنية» في ظل نظم عسكرية أو إقطاعية. وكما شهدت منطقة الشرق الأوسط ومناطق العالم الثالث الأخرى، في أميركا اللاتينية، وآسيا، وأفريقيا، خلال العقود التي انقضت منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، ستشهد منطقة الشرق الأوسط بالذات، خلال العقد الباقي من القرن العشرين، وربما ـ إن طال لبلدان الشرق الأوسط الحالية بقاء حتى ذلك الوقت ـ خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، استخداماً أمثل وأشدّ تصميماً لأنظمة الحكم «الوطنية» التي تحتل بلدانها احتلالاً داخلياً بجيوشها «الوطنية» وبسائر أجهزة الدولة الحديثة ومؤسساتها. والمرجّح أن الاستخدام الأمثل من جانب أميركا لتلك الأنظمة سيكون في مجال القضاء النهائي على كل ارهاص وحدوي، والتفتيت النهائي للبلدان المحكومة بتلك الأنظمة إلى كيانات صغيرة متعادية متناحرة فيما بينها بفعل العداوات الدينية والعرقية والنزعات الانفصالية. والدول التي يجب أن تخشى أكثر من غيرها ذلك المصير، مصر، سوريا، والعراق.

وبطبيعة الحال، قد يقع أي استشهاد بنصوص التوراة في سياق معاصر كهذا كضرب من الاغراب أو ـ كما قيل للمرء كثيراً بقدر من الغباء الغليظ لا يوصف ـ كإصرار على «إضاعة الوقت في هذه التواريخ القديمة». إلا أنه قد يحسن بشعوب تلك البلدان وحكامها ـ إن لم يكن لشيء فلغلبة التقوى الدينية العارمة على أدمغة الأميركيين المتعجّلين المجيء الثاني وابتداء العصر الألفي السعيد ـ أن يضيّعوا قليلاً من الوقت في التأمل في نوعية «النبوءات» التي يعجل الأميركيون منذ بضعة عقود بالإعداد العملي لتحققها، لا فيما يخص فلسطين، بل فيما يخص بلدانهم. فتلك «التواريخ القديمة» فاعلة فعلها في هذه الأيام الشجاعة الجديدة، ومن خلال وحش اليهو ـ مسيحية ذي الأنياب القادرة على التمزيق، محقِّقة الشهوات القديمة إلى الأرض، كل الأرض، لا أرض «أولئك الفلسطينيين» فقط،

ومشبعة سُعار العداوات القديمة الراقدة في الروح كخراريج الجحيم وشهوة الانتقام التي جعلت من صلوات شعب الله المختار وصلوات اليهو ـ مسيحيين الأتقياء «صلاة» في سفر المزامير الذي لم يكف ولا يكف رؤساء أميركا عن الاستشهاد به، تقول:

> «كيف نرنم ترنيمة للرب في أرض غريبة؟ إن نسيتك يا أورشليم تُنسَ يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي.
>
> «أذكر يا رب لأعدائنا يوم أورشليم القائلين هدّوا هدّوا حتى أساسها. يا بابل المخرّبة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا. طوبى لمن يمسك أطفالك ويهشم على الصخرة رؤوسهم».
>
> (١٣٧: ٤ ـ ٩)

ولقد يفيد أن نذكر أن هذا المزمور ينشدونه كل يوم في صلاة الصباح لإسرائيل التي تقام على موجات الأثير في أميركا من أقصاها إلى أقصاها.

وربما، على ضوء التقوى الأميركية، والتوحّد اليهو ـ مسيحي وما تمخّض عنه من عبادة لإسرائيل، قد يجد مواطنو تلك البلدان وحكّامها تفسيراً شافياً للكثير من نُذر الكوارث المقبلة التي لن تقتصر على تمكين إسرائيل ـ من خلال تأمين تفوّقها التقني والعسكري والقضاء على أية إمكانية لـ «الإخلال بذلك التوازن» ـ من إيجاد الأراضي اللازمة لاستيعاب موجات الهجرة المتعاقبة استيعاباً مريحاً متحضراً (حيث لا يستقيم استجلاب كل أولئك المهاجرين من أوطانهم وتكديسهم في مدن خيام أو مدن صفيح أو معسكرات لاجئين) ومن إزاحة السكان الأصليين من فوق تلك الأراضي المطلوبة للمهاجرين بكل وسائل الإزاحة والتصفية التي سيلعب بلا أدنى شك مورد المياه دوراً بالغ الفعالية في شحذ أسلحتها بيد إسرائيل (ولننتبه إلى مشكلة مياه

الأردن، ومشكلة مياه اليرموك، ومشكلة مياه الفرات وما تنبىء عنه مشروعات سدود إسرائيل وتركيا من مهالك مقبلة).

وربما، على وهج الورع الأميركي، وسُعار وحش اليهو ـ مسيحية المخلّق صناعياً إلى حين تنتهي عملية أخذ الأراضي المتعاقد عليها مع الله، من النيل إلى الفرات، قد يجد مواطنو تلك البلدان وحكامها ما ينبههم إلى **مخاطر التفتيت التي تتحلقهم: تفتيت مصر إلى كيان إسلاميّ، وكيان قبطيّ، وكيان نوبيّ، وتفتيت سوريا إلى كيان علوي، وكيان سنّي، وكيان درزيّ، وكيان كرديّ، وتفتيت العراق إلى كيان شيعيّ، وكيان سنّي، وكيان كرديّ.**

وربما أخذ مواطنو تلك البلدان وحكامها عبرة من لبنان، وربما أخذوا مأخذ الجد التخطيط الصهيوني الآخذ طريقه إلى التنفيذ من خلال التقوى الأميركية واستعجال المجيء الثاني:

«إن التفكك الكامل الذي ينبغي أن نجعله مصيراً محتوماً للبنان هو المصير المحتوم للعالم العربي كله ابتداءً من مصر إلى سوريا ثم العراق وشبه الجزيرة العربية.. كلها يجب أن تنحل إلى كيانات من أقليات دينية وعرقية. ذلك يجب أن يظل الهدف الرئيسي لإسرائيل على المدى الطويل، بينما يظل الهدف على المدى القصير إضعاف الدول العربية كلها عسكرياً وإشعال الحروب بينها»[٣].

فالمصير الذي ينتظر سكان منطقة الشرق الأوسط الحاليين على المدى القريب والمدى المتوسط (إن سار المشروع الصهيوني بشيء من التأني) مصير يتراءى للعقل بوضوح على وهج الإيمان الأصولي المسيحي الأميركي شديد التقوى الملتزم بـ «كلمة الله»، وعلى ضوء ما حققه الدور الأميركي النشط النابع من ذلك الإيمان من منجزات كبرى (لكنها قياساً إلى ما هو آت تظل ثانوية) للحركة الصهيونية. وذلك مصير ليس مشرقاً بأي معيار، وليس غامضاً، لكن أحداً لا يريد أن ينظر باتجاهه أو يفكر فيه، ربما نكوصاً عن مواجهة بشاعته

المبهظة للنفس، وربما اطمئناناً إلى إنسانية الأصدقاء الأميركيين بل وإعجاباً بتقواهم الأصولية المتينة.

أما فيما وراء الشرق الأوسط، فيهوه وحده وخلصاؤه من قادة شعبه الأثير إلى قلبه هم الذين يعلمون أي مصير ذلك الذي ينتظر الجوييم الأغيار أعداء يهوه الذين اقتضت ضرورات المشروع الصهيوني التحالف معهم مرحلياً تحت شعار اليهو ـ مسيحية، بعد أن تكون مرحلة الشرق الأوسط من المشروع الصهيوني قد استُكمِلَت. فاليوم تضع كل تلك الأمم المسيحية الغربية المؤمنة، وعلى رأسها الولايات المتحدة، أكتافها بقوة وراء عجلة المشروع الصهيوني، مضحيّةً حتى بصالحها القومي في معرض عبادتها لإسرائيل، مقدّمةً كل عون ودعم للحركة الصهيونية **تحت تأثير وهم متفائل بأن عجلة المشروع ستتوقف وتهدأ وتستريح عند الحدود الأخيرة لأرض التوراة المتعاقد عليها مع الإله منذ ٣٩ قرناً، بعد أن تكون الصهيونية قد أكلت لحماً حتى الشبع وشربت دماً حتى الري في مأدبة يهوه المقدسة التي سيقيمها على أشلاء «أبناء الظلام» كما جاء بالأنبياء:**

> «ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحماً وتشربوا دماً. تأكلون لحم الجبابرة وتشربون دم رؤساء الأرض.. تأكلون الشحم حتى الشبع وتشربون الدم حتى السكر من ذبيحتي التي انا ذابحها لكم».
>
> **(حزقيال ٣٩: ١٧ ـ ١٩)**

وبطبيعة الحال، لا يمكن أن يخطر ببال مؤمن أصولي أن تلك الوليمة ستشمله أو تشمل أمته التقية وهو الحليف المتفاني في دعم مشروع يهوه. ولا يمكن أن يتصور أحد من أبناء الأمم القوية المتربعة على قمة العالم أن ذلك يمكن أن يحدث لأمته. لكن ذلك هو الثمل بالقوة. وذلك هو العشي الذي يصيب العقل من فرط استسلام للإيمانيات وفرط الانغماس في التوفيق التلفيقي بين المعتقدات

المتنافرة كأشد ما يكون التنافر. فالأساس التوراتي نفسه الذي اتُّخِذ منطلقاً لذلك التوفيق التلفيقي وبالتالي دعامة لعبادة إسرائيل حريّ **بأن يوقف العقل الغربي، لولا ذلك العشي الإيماني، على الحقيقة «المقدسة» الماثلة في أن الانطلاقة لن تتوقف عند حدود منطقة الشرق الأوسط والأرض المتعاقد عليها بين يهوه وأبراهام قبل ٣٩ قرناً، لأن الله، طبقاً للإيمان الأصولي اليهودي، ما خلق العالم إلا من أجل إسرائيل ولكي تسوده إسرائيل وتقيم على كل أرضه، لا أرض الشرق الأوسط وحدها، مملكة التوراة، وتبسط عليها حكم صهيون الذي «تخرج الشريعة في ظله إلى كل الأمم» من يروشلايم التي ستتحول إلى عاصمة متروبولية للعالم كله.**

أما الهراء الأصولي المسيحي المستمد من هذيان يوحنا اللاهوتي عن تحوّل اليهود واندماجهم في «أمّة المسيح» فأحلام أفيون يضلل بها قطيع من المستخدمين للدين أداة في سوق الحشود كما تساق قطعان الماشية وتسخيرها سياسياً واجتماعياً واحتلابها مالياً في جحيم المغفلين، فنترك الرد عليه رداً لا لف ولا دوران فيه للمتخصصين اليهود أنفسهم:

«إن الخلاص المسيحي ليس هو الخلاص اليهودي. فمفهوم الاستنقاذ/ التحرير اليهودي (deliverance) ليس هو «الخلاص» المسيحي (salvation) لأن ذلك ـ طبقاً للكتابات اليهودية المقدسة (the Hebrew Bible) ـ استنقاذ جمعيّ تاريخيّ أساساً، وليس «خلاصاً» فردياً كما في المفهوم المسيحي. ذلك الذي تُستنقذ منه إسرائيل وتُحرَّر ليس «الخطيئة» بأي معنى، وليس ـ بكل تأكيد ـ الخطيئة منظوراً إليها كقوة كونية أو كواقع أنطولوجي، وليس أيضاً إنقاذاً لإسرائيل من أية لعنة لتُكفَل لها حياة أبدية. والادّعاء بأي شيء يخالف ذلك لا مؤدى له إلا إقحام المفاهيم الأخروية، التي شاعت في المسيحية البدائية (رؤيا اللاهوتي) وبشكل أقل في الكتابات الربانية اليهودية، على الكتاب المقدس اليهودي (بغية) طمس الاختلافات الجوهرية بين اليهودية والمسيحية»[٤].

والـذي يقـولـه هـذا المتخصص، وهـو أستـاذ «الكتـاب المقـدس اليهودي» (Hebrew Bible) في كلية الـلاهوت بجـامعة شيكـاغو، أن اليهودية لا شـأن لها بهـذيان سفـر الرؤيـا وما تـولد عنـه من رؤى أخروية في المسيحية، وأن خلاص إسرائيل، طبقاً لأساسيات الديانـة، هو استنقاذ إسرائيل وإعادة تأسيسها دنيوياً هنـا (على الأرض التي ما خلقت إلا لتقوم عليهـا دولة التـوراة)، لا استنقاذاً فـردياً لليهـود كذلك الذي يهذي به الأصوليون المسيحيون الذين يدّعـون أن عملهم على الأرض هو التمهيد للمجيء الثاني للمسيح الذي سيطهّـر اليهود من خطاياهم ويجعلهم خرافاً له لا ذئاباً ليهوه.

والمرجّح المتوقّع، قبل انقضاء وقت لن يطول في أعقاب إخـلاء منطقة الشرق الأوسط من سكانها الحاليين تحت مظلة «اليهـو ـ مسيحيـة»، أن المسيحيين الأتقيـاء في الغرب العـابـد لإسرائيـل سيجدون أنفسهم مفاجئين مفاجأة غير مبهجة إطلاقاً بقطيع عارم من ذئـاب يهوه وقـد نفض عن كاهلـه وزر التآخي المـرحـلي مـع الجـوييم الأغيـار أعـداء يهـوه، واستـدار ليتم عملـه الإلهي بضربـات ماحقـة (يرجـح أنها ستكـون تلـك الهـرمجـدّون التي ينسحـر بها الأمـيركيون كثيـراً ويعملون من أجلهـا بكـل قـوى أرواحهم التقية الغارقـة في لعاب الـورع الأصولي) ويستكمـل ما هو حادث الآن من تدمير لأمم الجوييم من داخلها.

وسواء كان ذلك هو ما سوف يحـدث للأتقيـاء المسيحيين وأممهم، أو لم يكن، يحسن التوقف عند هذه الكلمات الحكيمة لبرتراند رصل:

> «تباينت مواقف الإنسان من عالمـه تباينـات عميقة من عصر إلى عصر. فاليونان ـ بعزوفهم عن التمـادي في الكبريـاء، وتورّعهم عن الاعتداد الفائق بالنفس، وإيمانهم بقوة القَدَر التي أعلاها فكـرهم فوق قوة إلههم الأكبر زيوس نفسـه، حاذروا دائمـاً من الانجراف إلى اتخـاذ أي موقف منطـوٍ على الاجتـراء والعجرفـة في مواجهـة الكون.

«ثم جاءت العصور الوسطى، فتمادت ـ في ظل المسيحية ـ في الخضوع والامتثال وجعلت تواضع الإنسان فضيلته الكبرى في عيني الخالق. وفي ظل ذلك الموقف، باتت المبادرة الإنسانية مكبوحة الجماح في كل المجالات، وأصبحت الأصالة مطلباً شبه مستحيل.

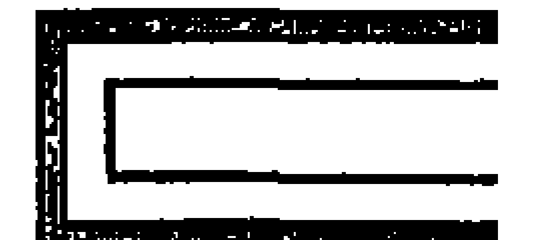
«ثم جاء عصر النهضة، فردّ إلى الإنسان كبرياءه واعتداده بآدميته، لكنه تمادى في ذلك الاعتداد تمادياً أفضى إلى الكوارث والفوضى.

«وإن كان عصر الاصلاح الديني والاصلاح المضاد قضيا على ما حققه عصر النهضة، فإن الفكر الحديث اتجه إلى إحياء الغرور الإنساني بقدر جعل الإنسان، وقد أوشك أن يصبح إلّهاً على الأرض، يتألّه على النحو الذي سبق فدعا إليه البراغماتي الإيطالي جيوفانيّ بابيني عندما حثّ الإنسان على أن «يحذو حذو الله».

«وذلك طموح ينطوي على خطر مهلك يمكننا تسميته بالعقوق الكوني. وهو ضرب من الافتقار إلى التقوى الحقيقية والتورع يطلق الغرور الانساني من قيود التواضع تجاه الخالق والكون، ويجعله يخطو خطوة أخرى على درب مفضية إلى نوع من الجنون الخطر هو الثمل بالقوة، وهو جنون يبدي الإنسان المعاصر استعداداً خاصاً للإصابة به.

«وأنا، فيما يخصني، لا يراودني شك في أن ذلك الثمل بالقوة هو أفظع خطر يتهدد العالم في هذا العصر من حيث أنه مفض في خاتمة المطاف إلى كارثة كبرى للعالم كله»[*].

***



هوامش خلاصة الكتاب

(١) Rabbi Elmer Berger, in. **«Anti-Zionism»,** op. cit., p.6.

(٢) Ibid., p.6.

(٣) «وثيقة بينون»، بالمرجع السابق الإشارة إليه، «قتل مصر، من عبد الناصر إلى السادات»، ١٩٨٩، ص ٣١٩.

(٤) John Levenson, **«Sinai and Zion-an Entry into the Jewish Bible»** San Francisco. Harper and Row, 1987, pp. 44 - 45

(٥) Bertrand Russell, **«History of Western Philosophy»,** London: Unwin, 1979, pp. 781 - 782

فهرس عام

(أ)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ل)

(م)

(ن)

هذا الكتاب

يتابع الكاتب شفيق مقار في هذا الكتاب البحث في خبايا التوراة وسائر اسفار العهد القديم وكتابات اليهود.

فبعد كتابيه «قراءة سياسية للتوراة» و «السحر في التوراة» يحاول المؤلف ان يحلل ظاهرة تعاظم الانتماء العبراني لدى المسيحيين في الغرب إلى حد الانضواء الكامل. وظاهرة استشراء الأصولية الدينية لدى الغرب المسيحي، وفي الولايات المتحدة بالذات، والدور الكبير الذي يقوم به ذلك التيار الأصولي في تنفيذ وتطوير المشروع الصهيوني لبناء الهيكل الثالث مكان المسجد الاقصى في القدس.

إن المسالة، كما يقول المؤلف، لا هي مسالة حاملة طلشرات عائمة او غير عائمة، ولا هي مسالة اصوات ناخبين يهود، ولا هي مسالة مشاعر ذنب تجاه اليهود، بل مسالة سطوة غريبة للحركة الصهيونية على ضمائر وعقول ومواقف وتصرفات الساسة والحكام والمشرعين وصانعي القرار وصنّاع الراي في بلدان الغرب عامة، والولايات المتحدة خاصة.

1855131269